



إعداد وتقديم د. رؤوف عباس

مصر

وعالم البحر المتوسط

تصميم الغلاف والخطوط : عماد حليم

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٨٦

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع
القاهرة - باريس

القاهرة: ش هشام لبيب - رقم ٤٢/٢٥
مدينة نصر - المنطقة الثامنة



مصر
وعالم البحر المتوسط

إعداد وتقديم د. رؤوف عبّاس

د. سيد أحمد على الناصرى — د. محمود ابراهيم السعدنى — د. رأفت عبد الحميد محمد
د. أبو اليسر عبد العظيم فرج — د. عبد الحفيظ محمّد على — د. عطية القوصى
د. محمد بركات البيلى — د. عبادة عبد الرحمن كحيلة — د. عبد العزيز محمود عبد الدايم
د. سعيّد عبد الفتاح عاشور — د. حامد زيان غانم — د. محمد محمد أمين
د. صبحى لبيب



تقديم

حظيت مصر بموقع جغرافى فريد فى ملتقى ثلاث قارات هى آسيا وأفريقيا وأوربا . وهيأ لها هذا الموقع الفرصة للعب دور فعال فى تاريخ منطقة التقاء القارات هذه على مدى تاريخها الطويل . وزاد من قيمة هذا الموقع تمتعها بسواحل طويلة على بحرين من أهم بحار العالم القديم هما البحر الأحمر والبحر المتوسط ، ارتبط مصير مصر بهذين البحرين اللذين كانا دائماً جسور اتصال بالبلاد الواقعة حول مصر ، فلم يلعب البحران دور الحاجز بين مصر وجيرانها منذ أقدم العصور حتى اليوم .

وكان للبحر المتوسط دور كبير فى تشكيل تاريخ مصر حتى ذهب البعض - من قبيل المبالغة - إلى القول بإن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسط ، تزدهر بازدهاره ، وتعانى من كساده . وأغرى الدور الذى لعبته مصر فى تاريخ البحر المتوسط البعض فروجوا لفكرة انتماء مصر الحضارى للبحر المتوسط وغربتها عن المحيط البرى الذى تعيش فبه غربة حضارية ، وهى مقولة يدحضها دور مصر المؤثر فى منطقة الشرق الأدنى فى العصور القديمة بما لا يقل فعالية عن دورها فى حوض البحر المتوسط ، واستمرت هذه الظاهرة فى العصور الوسطى .

ولعل أهم دور لعبه البحر المتوسط فى تاريخ مصر هو دور قناة الاتصال الحضارى بينها وبين شعوب الحوض الشرقى لهذا البحر ، فعن طريق مصر تعرف الجانب الأوربى لهذا البحر على النتاج الحضارى للشرق الأدنى القديم ، فتعلم فنوناً وأفكاراً ما كان ليتعلمها لولا ما تميزت به مصر من دور ريادى فى صنع الحضارة وقدرة على تقديم تجاربها لجيرانها ، ثم جاء الوقت الذى انتقلت فيه المؤثرات الحضارية عبر البحر المتوسط من أوربا إلى مصر ، لتتعرف المنطقة العربية على ثمار الفكر الأوربى عن طريق

مصر ، وعلى يد أبنائها .

لذلك عندما فكرت أسرة « سمنار التاريخ » بكلية الآداب جامعة القاهرة أن تختم العام الخامس لتأسيس السمنار بإقامة ندوة علمية يساهم فيها المؤرخون المصريون بعض بحوثهم ، كان موضوع « مصر وعالم البحر المتوسط » هو الموضوع الذى اجتذب الاهتمام ، فاستقر الرأى عليه ، لا من قبيل إحياء دعوة قديمة تنكر على مصر عروبتها وتدير ظهرها لحضارة عظيمة لعبت مصر الدور الهام فى صياغتها ، فمثل هذه الدعوة حكم التاريخ عليها بالبوار ، وإيماننا بعروبة مصر لا يتزعزع لأنه يرتكز على حقائق الجغرافيا والتاريخ . وإنما وقع اختيارنا على موضوع « مصر وعالم البحر المتوسط » لنتيح الفرصة لدراسات أكاديمية دقيقة حول العلاقة الجدلية بين مصر ودائرة واسعة من دوائر التأثير الحضارى شاركت مصر فى رسمها ، وتلاقت كثيراً مع دائرة العالم العربى الذى تنتمى مصر إليه انتماءً لا شبهة فيه .

وهكذا وجهنا الدعوة إلى المشتغلين بدراسة مختلف العصور التاريخية من المصريين والعرب والأجانب فى ندوة يعقدها السمنار حول هذا الموضوع ، تحددت لها الفترة من ١٣ - ١٥ ابريل ١٩٨٥ . وحددنا ثلاثة محاور رئيسية تدور حولها أبحاث الندوة هى : البعد الحضارى والثقافى ، البعد الاقتصادى ، والبعد السياسى والاستراتيجى .

وصحت توقعاتنا ، فاجتذب الموضوع هذه المجموعة من صفوة الباحثين والمؤرخين التى جاءت تشارك ببحوث رصينة تعالج بعض الظواهر التى تتعلق بأحد المحاور الرئيسية للندوة . واجتذبت الندوة - كذلك - عدداً كبيراً من الذين شاركوا فى مناقشة البحوث ، وأثروا الحوار الذى دار حولها على مدى أيام الندوة الثلاثة التى كللت بالنجاح .

وما كنا لنستطيع تحقيق هذا القدر من النجاح بدون تعاون أسرة سمنار التاريخ بآداب القاهرة جميعاً أساتذة وطلاباً على الاضطلاع بعبء التنظيم وتسجيل المناقشات ، بل ما كنا لنستطيع عقد الندوة لولا تلك المعونة المادية - المحدودة فى قيمتها العظيمة فى مغزاها - التى قدمتها لنا إدارة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، فإذا قدمنا اليوم الشكر للأستاذ الدكتور محمد محمود الجوهرى نائب رئيس جامعة القاهرة (عميد الآداب السابق) نكون قد اعترفنا بالفضل لذويه .

كذلك ما كانت هذه الأبحاث لتعرف طريقها إلى المطبعة لولا اهتمام دار « الفكر » للدراسات والنشر والتوزيع بالجهد الذى بذل فى إعداد هذه البحوث ، وحرصها على أن تدفع بها إلى النور لتضيف جديداً إلى المكتبة التاريخية العربية .

وقد رأينا أن نقسم البحوث إلى مجموعتين ، تضم كل منهما الأبحاث المتصلة بمرحلة تاريخية واحدة أو متقاربة ، فخصصنا الجزء الأول للبحوث الخاصة بالعصر القديم والعصور الوسطى ، أما الجزء الثانى فقد خصصناه للبحوث التى تعالج أطرافاً من مصر وعالم البحر المتوسط فى العصر الحديث . ورتبنا البحوث فى كل جزء منهما بما يتفق والسياق الزمنى ، دون أن نغفل المحاور الرئيسية الثلاثة التى دارت حولها بحوث الندوة .

ونأمل أن تساهم هذه البحوث فى إلقاء المزيد من الضوء على جوانب هامة من تاريخ مصرنا الغالية .

والله والوطن وراء القصد ،

القاهرة فى ٢٢/ ١٠/ ١٩٨٥

د . رءوف عباس
مقرر سمنار التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة

التأثير الروماسني للحضارة المصرية على تفكير شعوب البحر المتوسط

من الغزو الفارسي حتى العصر القبطي

د. سيد أحمد على الناصري

أستاذ التاريخ القديم بآداب القاهرة

يعزى إلى كاليثنيس Callisthenes مؤرخ حياة الاسكندر أنه روج لرواية إبان حياة هذا القاهر المقدونى وهى أنه لم يكن من صلب أبيه فيليب المقدونى وإنما كان من صلب آخر فراعنة الأسرة السادسة والعشرين وهو نختانبو ، آخر ملك حكم مصر المستقلة قبل اجتياح الفرس واحتلالهم لها عام ٥٢٥ ق .م ، وسرعان ما زاد الخيال الشعبى لشعوب البحر المتوسط على هذه الرواية بعد موت الاسكندر وتزايد التأثير الرومانسى لمصر وحضارتها فى ثقافات عالم البحر المتوسط حتى اكتمل نسيج رواية اختلطت فيها الحقائق التاريخية بالخيال الرومانسى الحالم[١] ، وربما اكتملت هذه الرواية المنسوبة إلى كاليثنيس إبان القرن الثانى أو الثالث بعد الميلاد .

وتقول هذه القصة الروائية إن الفرعون نختانبو لما وجد أن جيوش الفرس قد دحرت قواته ، وأن مصر قد وقعت فريسة لاحتلال لن يكون قصيراً ، هرب إلى العاصمة المقدونية بيللا Pella حيث استقبله الملك فيليب ، والد الاسكندر الأكبر ، وكانت مقدونيا وقتذاك تتزعم الحرب ضد الامبراطورية الفارسية وتدعو إلى ردعها . ونزل الفرعون اللاجىء فى جناح بالقصر الملكى بالقرب من جناح الملكة أولمبياس ، وراح يمارس السحر الذى كان عالماً فى فنه ، واستطاع أن يوحى بحلم إلى الملكة أولمبياس أن الرب آمون رع [ذلك الرب المصرى الذى ذاعت عبادته فى أوروبا فى ذلك الوقت ، حيث أصبح معبده فى سيوة مقصد الزوار من كافة أنحاء العالم] سوف يزرع من خلال الفرعون نختانبو فى أحشائها غلاماً يكون خلاص البشرية على يديه[٢] .

وفى اليوم التالى لليلة ذلك الحكم ، تخفى الفرعون نختانبو فى فراء كبش كبير ، ووضع على جانبى رأسه قرنى ذلك الكبش ، وأمسك بصولجان فى يده على نحو ما كان

الرب المصرى آمون رع يصور على جدران المعابد ، ثم دلف إلى مضجع الملكة حيث زرع فى أحشائها الجنين الذى تنتظره البشرية .

تلك هى الرواية القصصية عن حياة الاسكندر والتى نسبت إلى كاليثيس لكن زاد عليها الخيال الرومانسى لشعوب البحر المتوسط عبر ما يقرب من خمسة قرون أو يزيد . ومن ناحية النقد التاريخى فإن هذه الرواية لا يمكن أن تكون رواية حقيقية لعدم التطابق التاريخى للوقت الذى حكم فيه نختانبو والوقت الذى حكم فيه فيليب فى مقدونيا ، فهناك فاصل زمنى كبير بينهما لم يدركه الخيال العفوى الشعبى الأوربى ، أما بالنسبة لنا فهى رواية معبرة عن شعور عام ، وظاهرة انتشرت بين شعوب البحر المتوسط منذ القرن الأخير قبل الميلاد ، وهو الجنون بمصر وحضارتها Egyptomania ، أى الإيمان بالتأثير المقدس لمصر ، فهى معبد العالم الذى ترتفع منه الصلوات تشق عباب السماء ، ولو توقفت هذه الصلوات لحدثت فوضى بين الأجرام والكواكب ، وارتطم بعضها ببعض ، عندئذ تحدث الكارثة ، وينتهى الوجود كله بما فى ذلك الكرة الأرضية . فبقاء معابد مصر عامرة هو بقاء هذا الإيمان الذى انتشر من مصر إلى كافة شعوب جنوب أوربا ، فقد انتشرت الثقافة المصرية بشكل مثير ومذهل ، وبدأ الحجاج والزوار من كافة أنحاء أوروبا يشدون رحالهم إلى النيل ليتبركوا بالمعابد المصرية وليوفوا نذورهم ، وليطلبوا الشفاء النفسى والبدنى لأنفسهم . وكان هذا أحد عوامل انتشار السياحة إلى مصر فى ذلك الوقت[٣] .

ولقد أكد الاسكندر الأكبر نفسه مراراً وتكراراً بأنه ليس ابن فيليب المقدونى ، وإنما ابن الرب المصرى آمون رع ، ومن أجل الحصول على اعتراف رسمى من الكهنة المصريين قصد معبد منف وقدم الصلوات والأضاحى على الطريقة المصرية ، ثم قام برحلته الاسطورية عبر صحراء مصر الغربية من مرسى مطروح حتى سيوة معرضاً حياته للخطر ، ويروى أنه خرج من المعبد فى سيوة متهلل الأسارير ، معلناً أنه قد حصل على اعتراف من الكهنة بذلك ، ويلحظ المؤرخون أن بداية جنون العظمة بدأت تظهر عليه منذ ذلك التاريخ ، فتغير سلوكه ، وأصبح يطالب الإغريق والمقدونين أن يعاملوه كرب وأنه يتوجب عليهم السجود أمامه مما سبب له مشاكل مع قومه الذين لم يتعودوا السجود للبشر .

وكان لمثل هذه الروايات الرومانسية عن مصر هدف سياسى مقصود ، شجعته

سلطات الاحتلال الاغريقى بهدف إيجاد تبرير قانونى وشرعى لهذا الاحتلال ، فقد نجحت هذه السلطات فى التأثير على كهنة مصر وعلى أبناء الطبقة الارستقراطية من المصريين ، الذين بدأ تأثرهم بالحضارة الاغريقية حتى قبل فتح الاسكندر لمصر ، فقد كان البلاط الفرعونى فى العصر الصاوى لا يخفى تعاطفه مع الحضارة الاغريقية لدرجة أن الفرعون بسماتيك أقر تدريس اللغة الاغريقية فى المدارس المصرية[٤] بهدف إعداد جيل من المترجمين لتسهيل التعامل بين الشعبين ، بل سمح للاغريق ببناء حاضرة لهم بالقرب من عاصمة الدولة وقتذاك فى صالحجر (غربية) وهى مدينة نقراطيس الشهيرة ، بالإضافة إلى ذلك تدفق الجنود المرتزقة الاغريق للعمل فى الجيش المصرى ، وشكلوا فيلقاً إغريقياً . ونفهم من النقش المحفور على أحد قدمى تماثيل معبد أبى سنبل العملاقة[٥] ، أن الفرعون بسماتيك الثانى قد اصطحب معه فى حملته لفتح السودان بعض جنود هذا الفيلق الاغريقى . كذلك تشهد مقبرة بت اوزيريس كبير كهنة الرب المصرى « تحت » فى مدينة الأشمونين بالقرب من ملوى بمدى تقبل كبار[٦] الكهنة المصريين – والذين كانوا يمثلون أغلب قطاع المثقفين فى مصر – للأخذ بأسباب الحضارة الاغريقية دون حساسية .

وبالطبع ازدادت عملية الانفتاح على الحضارة الاغريقية ، وانفتاح الحضارة الاغريقية على مثيلتها المصرية ، بعد الفتح المقدونى لمصر . إذ تدفق آلاف من المستوطنين الاغريق على مدن مصر وريفها ، وبالرغم من أن البيت المالك فى الاسكندرية اعتبر الاغريق الطبقة العليا ، ومنحهم أجود الأراضى ، وأعطى للمدن الاغريقية فى مصر وضعاً أرق من وضع المدن المصرية ، إلا أن ذلك التباين لم يوقف عملية التفاعل الحضارى بين الاغريق والمصريين ، فقد حدث التصاهر بينهما ، رغم حظر القوانين الملكية لذلك ، والتى تحولت فيما بعد إلى حبر على ورق ، وبدأ المستوطنون الإغريق يعملون على كسب رضا الشعب المصرى بشتى الطرق ، إذ سمحوا ببناء المعابد المصرية حتى داخل المدن الاغريقية القليلة التى بنوها فى مصر ، وبدأوا يترددون على بعض هذه المعابد بحجة عبادة الاسكندر الأكبر حيث وضعت بعض صوره فى المعابد المصرية بحجة أنه ابن آمون رع[٧] وأخذوا يقبلون على تعلم اللغة المصرية للعمل كمدرسين لأبناء المصريين[٨] . وتؤكد الأعداد الكبيرة للوثائق المكتوبة باللغتين المصرية واليونانية ، والقرارات الخاصة بتنظيم العبادات المختلفة ، وكذلك عقود التعامل الخاصة ، أن تلاحماً قد حدث بين المصريين والإغريق فى كافة مجالات الحياة ، وبرز من بين المثقفين المصريين فريق أجاد اللغة

الإغريقية ، وكتبوا بها تاريخ مصر القديم لكى يعلموا مواطنيهم الجدد حضارة مصر القديمة ، وكان ذلك فى الحقيقة إكمالاً للمسيرة التى بدأها الفراعنة الصاويون . وعلى أيدى الإغريق المتمصرين بدأت الثقافة والأفكار المصرية تأخذ طريقها إلى بلدان البحر المتوسط لأول مرة ، وبشكل منظم ، خاصة بعد أن أعاد الإغريق صياغتها طبقاً للمنهج العلمى الإغريقى الذى كان يسود البحر المتوسط .

غير أنه فى مواجهة سلسلة الاحتلال الأجنبى الذى توالى على مصر منذ الغزو الأشورى لمصر عام ٦٦٣ ق . م تبلور فى مصر إحساس بالقومية والتشبث بالتراث العتيق[٩] خوفاً من ضياعه . وانعكس ذلك بشكل واضح فى الأدب القومى والفكر الدينى . ولقد كانت فترة العصر الصاوى – التى عادت خلالها مصر إلى لعب دورها المؤثر فى حوض البحر المتوسط والشرق الأدنى – فترة بعث قومى وإحياء للتراث وتجديده وتطويره . وهناك من الأدلة ما يكفى للتأكيد على أن مصر كانت قادرة على تجديد نفسها ، واستيعاب المؤثرات الحضارية الأجنبية وإذابتها فى حضارتها دون فقدان للشخصية الحضارية المصرية ، بل على العكس نجد أن الدافع للتجديد ، جاء نتيجة إلهام استوحته مصر من مؤثرات غير مصرية وفى ظروف التحدى الكبير[١٠] .

ولقد كونت المؤسسة الكهنوتية فى مصر نظاماً متماسكاً ، عميق الجذور فى المجتمع المصرى ، وكانت هذه المؤسسة من خلال التحكم فيما هو حرام وحلال قد وضعت قائمة بالمحرمات ، التى لم تكن وليدة التطرف القومى ، وإنما كانت محظورات موجودة فى العقيدة المصرية منذ أقدم العصور ، لكنها بعثت لتواجه الغزو الثقافى الإغريقى فى شكل عنصرى متطرف . إذ يذكر هيرودوت مثلاً أن المصرى كان يعاف تقبيل الإغريقى فى فمه عند التحية ، كما كان يرفض أن يستخدم سكيناً أو مقلاة أو مرجلاً صاحبه أغريقى ، كما حرم على المصريين تذوق لحم العجل المذبوح بسكين اغريقية[١١] . وبالطبع لم تكن هذه المحظورات ملزمة بدرجة قاطعة لكل المصريين ، وإنما تمسك بها المحافظون من رجال الكهنوت ، أما المتحررون من الكهنة فلم يكونوا بالطبع متطرفين فى نظرتهم إلى الأجانب من غير المصريين ، خاصة أن طبقة من المصريين المهجنين الذين جاءوا نتيجة للزواج المختلط بدأت تظهر وتلعب دورها فى المجتمع . لكن الذى لا شك فيه أن المعابد المصرية ظلت طوال تاريخها قلاع المقاومة ضد الغزاة الجدد ، فقد كانت مراكز للثقافة الوطنية والتلقين القومى والفكرى ، وقد حظر دخول المعابد على غير المصريين . والمثل على ذلك نجده فى نقش عثر عليه فى معبد دندرة من مطلع العصر

الرومانى فقد كتب بخط واضح وكبير « هذا مكان سرى مقدس ، يحظر دخول جميع الأسيويين إليه ، وليبق الفينيقيون بعيداً عنه ، ويحرم دخول الإغريق إليه ، حتى البدو » (المصريين)[١٢] . وفى معبد إسنا يذكر البدو ضمن قائمة الأجناس المحظور دخولها المعبد المصرى إبان العصر الرومانى وذلك بحجة عدم الطهارة البدنية والروحية . ان فكرة الطهارة والنجاسة كانت المبرر لفرض هذه المحظورات على غير المصريين خاصة فى عصور الاحتلال والتدهور ، وهى ظاهرة مبعثها الخوف من الأجانب « كسينوفوبيا » Xenophoebia . ولم يفت على كبار الكهنة أن الحكام الأجانب يملكون السلطة والقوة العسكرية القادرة على اقتحام هذه المعابد إذا ثبت لهم أنها مراكز الثورة والتمرد . ومن ثم لجأ الكهنة إلى تغيير هندسة بناء المعابد بإضافة سراديب جانبية سرية لحفظ الأشياء الثمينة والمقدسة وتماثيل الآلهة خوفاً من النهب والسلب على أيدى الأجانب مثلما فعل الفرس ، إذ بقى المصريون يذكرون ما فعلوه بمعابدهم حتى العصر الرومانى كما نفهم من نقوش معبد دندرة[١٣] .

وإلى جانب ذلك ، توارث الكهنة المصريون أباً عن جد ممارسة نوع من السحر فى شكل تعويذات تهدف إلى حماية المعابد من المهاجمين والمتسللين ، وهذه التعويذات عبارة عن استحضار قوى من الكون خارج الأرض ، سواء من بعض الكواكب أو النجوم أو الرموز الكونية ، وهناك تعويذات لسلب الأسيويين قواهم العدوانية . لكن الكهنة أدركوا أن بعض الأجانب مثل اليهود يمارسون السحر بدرجة لا تقل عن المصريين ، فبدأوا يبتكرون نوعاً من السحر يهدف لإبطال السحر المعادى ، وهناك قصص كثيرة عن إبطال مفعول السحر بسحر مضاد . فقد روت التوراة والقرآن الكريم[١٤] عن المباراة التى جرت بين موسى والسحرة المصريين ، وكاد موسى أن يرتعد من فعل السحرة المصريين لولا أنه استعان بالقوى الربانية ، مما أكسبه اعجاب السحرة المصريين فالتفوا حوله . وخوفاً من أن يتمكن أعداؤهم من التغلب على سحرهم ، أضاف الكهنة تعويذات غامضة ، ذات شفرة سرية لحماية تعاويذهم السحرية حتى لا يبطلها سحر أعدائهم ، وحتى يحولوا دون أن يتعلم هؤلاء الأعداء سر السحر المصرى فيبطلوه .

وكان كهنة مصر مجبرين وملزمين على استخدام السحر لحماية أسرار طقوس معابدهم ، ليس من أجلهم ولا من أجل مصر وحدها ، بل من أجل الكون بأسره . فقد كان المعبد المصرى رمزاً للكون ، فكما أن الكون يسير طبقاً لميكانيكية معينة ، فإن طقوس المعبد المصرى كانت بدورها تجرى طبقاً لميكانيكية معينة ، وإذا حدث خلل

صغير فى الشعائر والطقوس فإن النظام الكونى بأكمله سوف يختل ، عندئذ تتصادم الكواكب والنجوم وتكون نهاية الوجود . ومن ثم كان كهنة مصر يرون أن على أكتافهم وحدهم تقع مسئولية بقاء الكون ونظامه الذى يسير عليه ، ولهذا فإن الصلاة والطقوس المصرية كانت تتم طبقاً لميكانيكية ربانية ترمز لعمل الكون . كذلك فإن فلسفة الفكر المصرى كانت تقوم على قياس ثابت ، وهو أن الرمز بديل للرسم ، والرسم بديل للشيء ، فللصورة نفس التأثير الحسى والنفسى للشيء الذى تمثله الصورة ، كما لو كان موجوداً فى الحقيقة والواقع ، فكتابة التعويذات السحرية مساوية لعملية ممارسة السحر ذاته ، ولاستحضار القوى الخفية ، ومن ثم نقشوا هذه التعاويذ على الحجارة فى واجهة المعابد لأن الحجارة أقوى مواد الكتابة التى تصمد للزمن ولا تبلى بسرعة[١٥] .

ولما قام عرش الأسرة البطلمية على أكتاف المستوطنين المقدونيين والإغريق ، وتدفق هؤلاء الأجانب على مدن مصر وقراها ، وأصبحت لهم الكلمة العليا فى البلاد ، ارتاب الكهنة فى أن يتوصل هؤلاء الأجانب إلى سر السحر المصرى المنقوش على حوائط المعابد ، ويبطلوا مفعوله ، ومن ثم لجأوا إلى تحويل الكتابة المصرية إلى طلاسم ورموز ذات شفرة خاصة لا يعرفها سوى خاصة الخاصة من الكهنة ، ولهذا يعانى المتخصصون فى اللغة المصرية من صعوبة هذه اللغة فى العصر البطلمى والرومانى بعكس العصور السابقة على تلك الفترة ، فقد أصبحت أكثر تعقيداً ، حيث زادت الأشكال والعلامات المصورة ، وتعددت المعانى الباطنية للكلمات التى ترمز لها أو لبداية حروفها . وهنا دخل فن التلاعب بالألفاظ والمعانى الظاهرية والباطنية . وإزاء ذلك عجز الإغريق عن أن يفهموا سر هذه الكتابات المصورة ، بالرغم من وجود كتب للتفاسير والشروح التى وضعها علماء الإغريق المطلعون على الحضارة المصرية مثل كتاب العلامة خايرومون Chaeromon وكتاب العلامة « حور أبوللون » Horapollo عن سر طلاسم الحروف الهيروغليفية ، وأصبحت هذه المؤلفات تساعد الإغريق على فهم معنى الشكل الظاهرى وليس المعنى الباطنى خاصة إذا ما كان هذا النقش يتعلق بالسحر أو سر العقيدة المصرية .

استغل المعبد المصرى إمكانياته ومكانته لتعميق نظريته القائمة على كراهية الأجانب لأنهم « غير أطهار » ، ففى إحدى نصوص التصوف التى نسبت إلى كاتب مجهول اسمه اسكليبوس Asclepius يقول النص الذى فقد أصله المصرى ولم يبق منه سوى الترجمة اللاتينية « إن مصر هى صورة منسوخة من السموات ، وأنها البلد الذى تتبلور فيها

الأحداث التى تحركها القوى السماوية » ، ويضيف الكاتب المتصوف قوله « مصر هى المعبد بالنسبة للعالم كله » وتفسير ذلك أن المعبد هو قلب مصر ، ومصر هى قلب العالم ، ونسخة مصغرة من النظام الكونى بأكمله ، ثم يتنبأ هذا المتصوف بالخراب الذى سوف ينزل بها إذا ما نجست أرضها المقدسة أقدام الغزاة الأجانب[١٦] « سوف يملأ الأجانب هذا البلد ، وسوف يهمل الناس أداء الفروض والشعائر ، والأدهى من ذلك سوف يفرض الأجبار أو المسمى بالقانون عقوبات محدودة على كل من يؤدى فروض الشعائر كاملة ، أو من يعبر عن تقواه لخالقه ، وسوف تغطى أرض هذا البلد المقدس الذى هو موطن المعابد والهياكل ، الجثث والرمم ، وسوف تدوس أرضه أقدام السكيثيون والهنود والبرابرة المجاورين لنا ، لأن الرب سوف يغادرنا الآن عائداً إلى السماء ، وإذا ما تخلى الرب عن الناس فإنهم سيهلكون ، وبدون الآلهة والبشر لن تكون مصر غير صحراء بلقع »[١٧] .

ومن هذا النص الصوفى نفهم أن دخول الأجانب أرض مصر هو بمثابة النكبة على العالم والوجود بأكمله ، وسبب فناء الكون ، لأن هؤلاء الغزاة الغرباء سوف يجلبون معهم النجاسة إلى هذه الأرض الطاهرة ، التى هى المعبد الأكبر للعالم ، وليس فى قدرة الكهنة منع الأجانب من دخولها كما فعلوا فى معابدهم . لقد أكدت النصوص الصوفية المصرية والتى وصلت إلينا فى شكل الترجمات الإغريقية والرومانية ، إن كل أجنبى (خاصة اليهودى) حيوان نجس . وكلما ذكر لفظ الأجنبى أتبع بالصفة « نجس » . ففى العصر الرومانى اندلعت حروب ضد اليهود ، كان أحد بواعثها إحياء الفكر المصرى المُعَادِى لليهود[١٨] ، والذى كان يقوم على عقدة الخوف من الأجانب ، وكل الإغريق السكندريون الذى قادوا الحروب ضد الطائفة اليهودية كانوا قد تمصروا أو جرت فى عروقهم دماء مصرية ، أو استهوتهم الديانة المصرية بثباتها وصمودها وقوة تأثيرها ، خاصة فى وقت أفلست فيه الديانة الإغريقية وماتت فيه آلهة الأولمب[١٩] .

إن فترة التفاعل الحضارى والنشاط الفكرى تمتد لأكثر من ألف عام تقريباً منذ نهاية القرن الخامس قبل الميلاد وهو تاريخ الغزو الفارسى لمصر إلى القرن الرابع بعد الميلاد وهو تاريخ قيام الحضارة القبطية المصرية ، ورغم أن مصر كانت خلال هذه الألف عام مداساً للغزاة ، إلا أنها كانت سلسلة من الفكر المتجدد المستمر الذى سار فى خط مواز للأحداث السياسية المتلاحقة ، مما أدى فى النهاية إلى تحول مصر من واقع كان ، إلى أسطورة رومانسية لا توجد إلا فى خيال المتصوفة المصريين ، لأن مصر الواقع تدهور بها

الحال ، وداسها الغزاة ، وأصبح خيرها « حلالاً للطير من كل جنس » ، أما مصر الخيال فهى معبد العالم الطاهر المقدس ، سكانها يتصفون بالورع والتقوى ، ويحافظون على أداء الشعائر ، ليس من أجل مصر بل من أجل العالم كله والوجود بأكمله . وهذا يبين أن التصوف المصرى لم يعد محلياً ، بل أصبح إنسانياً عالمياً ، ولهذا رأى المثقفون من شعوب البحر المتوسط أن العقيدة المصرية يجب أن تسود كافة شعوب الأرض لأن فى ذلك سلاماً للعالم ، وسلاماً للنظام الكونى بأكمله . وساعد على ذلك أن المتصوفين المصريين أو المتمصرين بدأوا فى صياغة هذه الأفكار بلغة شعوب البحر المتوسط السائدة وقتذاك وهى اللغة الإغريقية الشعبية Koine وهى نفس اللغة التى ترجمت إليها الأناجيل الأربعة فيما بعد ، وترجم اليهود إليها التوارة (العهد القديم) أيضاً . والمقصود بترجمة النصوص الصوفية المصرية إلى اللغة الإغريقية الشعبية هو جعلها ميسورة الانتشار بين شعوب البحر المتوسط . وبالرغم من ذلك لم ينس كاتب النص الصوفى المصرى تعاليه على الإغريق فيقول « إن من يقرأ الآن كتابى هذا سوف يجد كلماته بسيطة وواضحة ، وفى المستقبل سوف يصبح أكثر غموضاً عندما يترجمه الإغريق إلى لغتهم على هواهم مما ينتج عنه الخلط والتشويه والغموض ، إن سياق النص فى لغته الأصلية محفوظ وواضح ، كما أن صوتيات اللغة المصرية إذا ما نطقت كلماتها نطقاً سليماً تحمل فى ذاتها قوة الفكرة المعبرة عنها[٢٠] » . هذا هو رأى الأرستقراطية الكهنوتية المثقفة ، والمترفعة عن أفكار الغوغاء والدهماء ، الداعية للانفتاح بلا حدود على الحضارة الإغريقية ، وتشجيع الإغريق على التمصر والتحول إلى العقيدة المصرية ، خاصة بعد أن تطورت لمفاهيم جديدة فى العصر الهللينستى ، وفتح المصريون الأبواب لاستقبال المؤثرات الحضارية والثقافية القادمة عبر البحر المتوسط دون حرج أو إحراج للمشاعر الوطنية ، فقد كان المصريون متعصبين ضد الأجانب وليس ضد ثقافات الأجناس ، ولم يكونوا أبداً معادين للمعرفة الإنسانية ، ولا للخبرات والتجارب العلمية للشعوب الأخرى ، ففى العصر الهللينستى لم يجدوا حرجاً فى الأخذ بأسباب الحضارة الهللينستية ، فأخذوا لغة الإغريق وأحياناً أسلوب حياتهم ، ومن الكلدانيين أخذوا أحدث وسائل علم الحساب الرياضى للفلك وأحدث وسائل علم التنجيم ، ولم يكن استخدام اللغة والكتابة الإغريقية فى مصر نتيجة لإدراك المصريين ليسر وسهولة وكثرة مترادفات هذه اللغة ودقة التعبير بها ، بل لأنهم أدركوا أنها لغة شعوب البحر المتوسط السائدة ، ولغة العالم المسكون والتى من خلالها يمكن لكهنتهم الترويج والتبشير بالأفكار الدينية المصرية وعلم الأسرار المصرى . وبالرغم من أخذ المصريين لبعض مظاهر الحياة الإغريقية وللغة الإغريقية إلا أنهم رفضوا بشدة

الأخذ بمنهج التفكير العقلانى الإغريقى ، فعندما هبط المستوطنون الإغريق أرض مصر كانوا عازمين على فرض منهجهم فى التفكير ، وعازمين على نشره فى مصر وتحويلها إلى قطعة من بلاد الإغريق ؛ لكن صمود وقوة التأثير الروحى للمعبد المصرى منعهم من ذلك ، بل على العكس بدأت الرومانسية المصرية تستهويهم وتغزو قلوبهم رويداً رويداً ، حتى خضعوا تماماً لتأثيرها .

ولو تساءلنا فى أى فرع من فروع المعرفة بدأ التبادل بين الحضارة المصرية والحضارة الإغريقية ؟ فإن الجواب يأتى بلا شك إنه حقل الأدب سواء فى مجال الصور المجازية البلاغية ، أو من ناحية الأسلوب الأدبى ، أو الفكرة الروائية[٢١] . ففى العصر البطلمى والرومانى أصبحت الديموطيقية هى لغة الشعب المصرى المقابلة للغة الإغريقية ، لغة جهاز الحكم والادارة الحاكمة والمعاملات الرسمية ، ومن ثم تحولت الديموطيقية إلى لغة الأدب والفكر ، وهناك العديد من الأعمال الأدبية التى كتبت بالديموطيقية ، وبعض هذه الأعمال معروفة لنا فقط فى ترجماتها الإغريقية . وهذا الأدب الديموطيقى يمثل إما قصصاً ذات شكل ملحمى ، أو روايات تاريخية ، أو نبوءات ، أو حكايات عن الطيور والحيوانات ، أو أدب الحكم والأمثال . ولقد رددت المخطوطات الإغريقية لقرون طويلة أعمال مؤلف مصرى كتب بالديموطيقية وعاش فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد واسمه « عنخ شيشونق » . وكان شيشونق فلاحاً ، زج به إلى السجن . ومن وراء القضبان ، راح يكتب رسائل إلى أسرته ، يضمنها نصائحه فى الحياة ، ولا ندرى لماذا دخل شيشونق السجن هل لخطأ ارتكبه أم بسبب أفكاره ومعتقداته التى كان يدعو إليها ولم تكن تتقيد بمذهب أو نظرية أو مبدأ ، وتخالف القيم الثابتة للمجتمع . وعلى العموم يحس القارىء لنصائح شيشونق بأنها نصائح سوداوية متشائمة وأحياناً مستهترة كقوله « إقترض نقوداً ، وأقم بها حفلاً ابتهاجاً بعيد مولدك » وأحياناً تدل نصائحه على تشاؤم وسخرية كقوله « فى بيت التاجر هناك ألف خادم وهو نفسه واحد منهم »[٢٢] .

أما عن أفكار الأديب المصرى الآخر التى حظيت بالاهتمام بين الإغريق ، فهو رجل لا نعرف اسمه حتى الآن إلا من خلال المحفوظات العديدة وخاصة بردية إنسنجر Insinger Papyrus ، وتتميز أفكاره بالشك الناقد الجرىء ، الذى يقلب التقاليد المتوارثة والعادات والسلوكيات الأخلاقية وينتهى من فحصه لها بأنها عديمة النفع والجدوى « لأن السعادة والمصير الذى يحيق بالإنسان يحددهما الرب وحده » ولهذا نجد هذا الكاتب ينهج منهجاً جديداً حتى أن صيغ إبتهالاته إلى الرب لا نجد لها نظير فى الابتهالات الكهنوتية العتيقة .

وهناك كاتب أخلاق آخر اسمه بت أوزيريس Pet- Osiris عبر عن إيمانه بوجود رب واحد ، وأعلن إنكاره لسائر الآلهة الأخرى ، ولقد كان هذا الرجل موظفاً مغموراً ، شغفته دراسة الميتافيزيقا وعلم الأخلاق وأصبح حكيماً يقدم النصائح للناس ، لكى يعيشوا حياة هادئة كريمة ، خيرها أوسطها ، وبعيدة عن القلق ، ومن نصائحه قوله « لا تدع على الناس أن زوجتك قد أغضبتك . إضربها ودعها تأخذ متاعها وتذهب ... وحذار أن تبنى بيتك بالقرب من معبد » إن هذه السلوكيات المصرية فى العصور المتأخرة تعبر عن سلوك الطبقة الوسطى ، وأفكارها ، والمحنة التى تتعرض لها ، ولهذا - كما كان الحال دائما فى مصر فى عصور التدهور - فإن الأدباء الأخلاقيين يظهرون ليقدموا النصائح لمساعدة الفرد على اجتياز محنة العصر ، ومن أجل منفعة الفرد المادية وليس الروحية ، لأن الأزمات الطاحنة اقتصادية وهذه النصائح والعظات تهدف إلى إنقاذ المواطن فى الدنيا وتقوده إلى حياة مادية ذات منفعة ملموسة بعيدة عن عالم الروح[٢٣] .

وكما أثرت أفكار ومبادىء الأدب الديموطيقى فى تراث الحضارة الإغريقية فإنها فى نفس الوقت قد تأثرت بها ، لأن الثقافة الإغريقية كانت أوسع وعلى مستوى العالم المتحضر المسكون ، ولهذا حاولوا صياغة أفكارهم على النهج الإغريقى ضماناً لانتشارها فى دائرة أوسع ، كما أن الطبقة الوسطى فى مصر - بالرغم من تكرار شكواها بأن المستوطنين الإغريق قد وضعوا أيديهم على أجود الأراضى فى مصر - إلا أنهم لم يترددوا فى تزويج بناتهم لأبناء هؤلاء المستوطنين ، وأن يتزوجوا من بناتهم ، على نحو يذكرنا بالأتراك العثمانين فى مصر . وقد ساعد قيام طبقة مصرية جديدة تجمع بين الشعبين ، على مزج أفكار الحضارتين والتقريب بينهما . ولقد أخذ الأدب المصرى من الأدب الإغريقى الشكل الملحمى والذى كان فى الأصل تراثاً شرقياً أخذه الإغريق من حضارة بلاد الرافدين وطوروه ليكتب به هوميروس ملحمتيه الشهيرتين ، وكانت الالياذة تقرأ فى مصر وتدرس لأبناء المستوطنين الإغريق فى القرى والمدن ، وهى أساس نظام التعليم الإغريقى فى مصر[٢٤] . فتحت تأثير الإلياذة ظهر نوع جديد من الأدب المصرى القديم لم يكن معروفاً فى مصر من قبل ، وهو أدب السير والملاحم البطولية ، أبطالها زعماء وطنيون صناديد ، وهبوا أنفسهم لمحاربة الاحتلال سواء كان أشورياً أو فارسياً ، ويخوضون معارك وهمية ولهذا فإن الأحداث التى ترويها أحداث وهمية ، يجب ألا نعتمد عليها تاريخياً أو نأخذها مأخذ الجد ، لأنها خيال شعبى وإسقاطات نفسية . ولقد كان الفضل للعالمين ستريكر Striker ، وفولتن Volten فى إجراء دراسات مقارنة بين ملحمة

بت أوباسطيس Pet-Ubastis المصرية وملحمة الألياذة الهومرية ، ففى كلتا الملحمتين نجد أن مصير الأبطال تحدده الآلهة وفقاً لمشيئتها ، كما نجد الأبطال فى الملحمة المصرية يتبارزون بالسيوف على غرار حروب الفروسية فى الألياذة ، وهو أمر لم يكن معروفاً فى مصر . حتى صرخات وصيحات النزال والتحدى التى يطلقها المتبارزون فى الملحمة المصرية فى أوجه أعدائهم نجدها اغريقية فى صيغها وفكرتها ، مصرية فى ألفاظها مثل «ويحك أيها العبد الأثيوبى ، يا ماضغ اللبان . أأنت واثق من قوتك ، حتى تجرؤ على مقاتلتى أمام الفرعون ؟ وحق آتوم رب هليوبوليس ، وربى الأكبر ، لولا احترامى للعهد الذى قطعته على نفسى أمام مليكك الذى يحميك ، لكنت قد غطيتك لتوك بلون الموت ! » ففكرة الشهامة والفروسية والالتزام بالوعد والميثاق ، هى من تأثير حروب طروادة القديمة كما رويت فى إلياذة هوميروس ، كذلك على غرار ما ورد فى الالياذة يطنب مؤلف ملحمة بت أوزيريس صفحات فى وصف أسلحة المتحاربين ودروعهم بدقة وتفاصيل تثير الملل ، كما نلحظ فى سفر « القتال من أجل استرداد درع الملك إيناروس » .

كذلك اكتشف العلامة فولتن فى مجموعة فيينا المهلهلة ، جزءاً من نفس الملحمة المصرية ، تروى أخبار حملة قام بها أحد رفاق الفرعون الثائر على الفرس ، وهو إيناروس ، إلى بلاد الأمازونيات ، وهذا الجزء يكاد يكون صورة ممصرة للجزء الذى ورد فى الالياذة حول صراع البطل أخيليس مع الأمازونية بنثيسيليا Penthesilea ، والذى ظهر بعض منه ، مصوراً على المزهريات الفخارية وعلى أرضيات الفريسكو فى بيوت أغنياء المستوطنين الاغريق فى مصر ، غير أن الذوق المصرى فى الأدب لا يميل إلى وضع نهاية مأساوية للبطل على طريقة المآسى الاغريقية ، بل يفضل النهاية السعيدة ، ولهذا نجد البطل المصرو - إغريقى بيتو خونوس ، صديق إيناروس ، يقوم برحلة ومغامرة فى بلاد الأمازونيات من أجل استعادة جسد سيده إيناروس ، الذى سقط صريعاً إبان إحدى المعارك مع الأمازونيات ، وعلى عكس ما حدث فى الألياذة حيث انتهى قتال هكتور وآخيل من أجل استعادة هذا الأخير لصديقه الذى قتله الأول ، انتهى بمصرع القاتل ، حيث قام آخيل « بسحل » هكتور على مرأى من زوجته وطفله ووالديه ، نجد فى الملحمة المصرية أن ملكة الأمازونيات صربوت Serbot تتدخل بنفسها لوقف القتال بين البطل المصرى والبطلة الأمازونية ، ويوافق البطل المصرى سعيداً لأنه وقع فى حب غريمته ، وبينما تنتهى الألياذة بمنظر جنائزى ، تنتهى الملحمة المصرية بعرس ، وزفاف البطل وغريمته ، حيث تأمر الملكة بإعداد جنازة على أحسن ما تكون للفرعون المصرى

إيناروس ، وعلى الطريقة المصرية ، ثم تنشد الملكة بنفسها أهازيج تشيد فيها بمصر وشعائرها وتراثها ، بينما يطرب المصريون وهم يستمعون إلى الملكة . لقد صيغت هذه الملاحم خلال عصور الاحتلال البطلمي والروماني من أجل بعث السلوى والعزاء في قلوب الجماهير المصرية الكسيرة ، مذكرة إياهم بأيام ملوكهم الغابرين . وقد بقيت هذه السير والملاحم القومية تنشد في جلسات الفلاحين ليلاً حتى حرمتها المسيحية باعتبارها أدباً وثنياً .

ويلي قصص البطولة والأبطال ، روايات عن أشهر السحرة المصريين في العصور القديمة ، فقد سجلت أوراق البردي في العصر الروماني قصة الساحر ساتني كلامواس Satni Klamuas أشهر السحرة المصريين في عصر رمسيس الثاني (١٣٠٤ – ١٢٣٧ ق م) ، وكان من أشهر العرافين ، وقارئ الطالع ، ويملك كتباً عتيقة تحوي أسرار التعاويذ والسحر ، وقد حصل على لفافة بردية من إحدى المومياوات القديمة بها سر الوجود ، ولكنها جلبت عليه الكوارث ، فأعادها إلى حيث كانت[٢٥] .

ومن الموضوعات الرومانسية ، التي بهرت الناس في العصر الروماني قصة مغامرة الساحر سينوزير Sinosiris ابن ساتني ، وتقول الرواية أن ساتني مات ومعه خبرته العريقة في فن السحر ، فأراد إبنه سينوزير أن يقوم برحلة إلى العالم الآخر للإلتقاء بأبيه ، ليتعلم منه طريقة التوبة والغفران يوم الحساب ، والمحاسبة أمام محكمة رب العالم الآخر أوزيريس ، وتستطرد الرواية في سرد رحلة سينوزير إلى العالم الآخر ، وما شاهده حيث العين تسمع والأذن ترى ، وما شاهده يذكرنا بالقصة التي رويت في العهد الجديد عن لازار Lazarus المعدم التقي ، ونقيضه ديفيس Dives الثري في دنياه والفقير في آخرته ، حيث كان يرتدي أطماراً بالية ويصلى عذاب الجحيم . ويتفق النقاد على أن فكرة النزول إلى العالم الآخر ليست مصرية ، وإنما أخذها المصريون من الفكر الديني اليهودي ، بدليل أنها ترددت في الأناجيل[٢٦] ، فهناك درجة كبيرة من الشبه بين سينوزير الممتلىء بالحكمة والموعظة ، وبين يسوع وهو يعظ ويحاور أحبار اليهود[٢٧] ، وكما تأثرت سير البطولة والأبطال بالملاحم الاغريقية ، فإن قصص السحر والسحرة – التي ترجع إلى تراث مدينة منف العتيقة – قد تأثرت بتراث اليهود الذين برعوا في فن السحر ، وذلك رغم كراهية المصريين الشديدة لهم .

ومن موضوعات التراث المصري التي جذبت انتباه شعوب البحر المتوسط ، كتب البشارات والنبوءات وأسفار الرؤيا ، وقد وصل إلينا بعضها مدوناً على وثائق البردي

الديموطيقية ، والبعض الآخر على وثائق البردي الإغريقية ، وهذه الوثائق الأخيرة عبارة عن ترجمات حرفية للنصوص الديموطيقية التي فقدت ، وهذا النوع من التراث يمثل أحلام اليقظة لدى المصريين ، والفكر المأمول لقيام حركات قومية . وصحيح أن هذا النوع من الأدب موجود في وثائق مصرية واغريقية ، الأولى اللغة القومية للسواد الأعظم من المصريين ، والثانية لغة المستوطنين الإغريق الذين لا يتمنون بالطبع حدوث مثل هذه الحركات القومية ، وتحقق مثل هذه النبوءات – لكن المستوطن الإغريقي الذي سكن القرى المصرية فقد مع طول الإقامة والتعامل تلك الجسور الثقافية والفكرية التي كانت تربطه ببني جلدته في بلدان البحر المتوسط ، وتحول إلى فلاح مصري ، وتزاوج مع أشقائه الفلاحين المصريين ، وأصبح يشارك الطبقة الدنيا من الفلاحين المصريين المطحونين بالضرائب والسخرة ، مشاعرهم وعواطفهم ، فكلاهما ضحية لمصير واحد ، هو مصير مصر المستقلة ، التي أصبح استقلالها وثراؤها ، في أواخر عصر البطالمة ، عرضة للخطر الروماني الذي بات نفوذه متزايداً وأخذ يتطلع بنهم لخيرات مصر ، ومن ثم لم يكن المستوطنون الإغريق أقل كراهية للرومان من أشقائهم المصريين[٢٨] .

ولقد دار جدل طويل بين العلماء حول ما إذا كان هذا النوع من الفكر المصري قد تأثر بسفر النبوءات العبرانية ، لكن يجب ألا ننسى أن المصريين عرفوا النبوءات قبل أن يدخل اليهود فلسطين ، وقبل أن يخرج بهم موسى من مصر ، فأقدم نبوءة مصرية هي نبوءة نفرتي Neferty ، التي ترجع إلى مطلع الأسرة الثانية عشرة ، وكانت نبوءة وبشارة بمجيء امنحمعات الأول (٢٠٠٠ – ١٩٧٠ ق م) ، وتوليه العرش ، حيث يضع مجيئه نهاية لعصر طويل من الفوضى والتدهور ، ويكون بداية لعصر الرخاء . ولقد كانت هذه النبوءات توزع سراً بين السكان منذ الاحتلال الفارسي ، لكنها زادت أيام البطالمة ، وأشهرها نبوءة صانع الفخار الشهيرة[٢٩] . (ومن تراث هذه النبوءات المصرية ، ظهرت نبوءة نوستراداموس في أوروبا في العصور الوسطى ، ونبوءات القديس ملاخي St. Malachi حول أسماء وأعداد البابوات الذين سيجلسون على كرسي البابوية في روما) ، وعلى أي حال فقد كانت هذه الأدبيات الخاصة بالنبوءات والبشارات تقرأ ليلاً في تجمعات الفلاحين في القرى والدساكر ، وفي مدن الأقاليم المصرية ، لتعطي السامعين مزيداً من الشجاعة والروح المعنوية ، لتعينهم على مواجهة الحياة الصعبة وقسوتها . وسرعان ما شارك الإغريق المتمصرون ، الذين كانوا قد عاشوا تماماً حياة الفلاح المصري بكل مشاكلها ، وقسوتها ومآسيها ، حتى أصبحوا مصريين تماماً ، ولم يعودوا مثل السكندريين أو باقي إغريق بلدان البحر المتوسط ، الذين كانوا يلمون بقدر عال من

ثقافة البحر المتوسط الإغريقية الراقية ، ويقرأون روائع الأدب الإغريقى القديم ، حتى أغريق الاسكندرية - كما لاحظ القائد الرومانى جنايوس مانيليوس عام ١٨٩ ق . م كانوا قد تحولوا إلى مصريين[30] ، ولم يعودوا مقدونيين . ومن ثم فقد كانت جبهة الفلاحين بشقيها الإغريقى والمصرى جبهة متحدة متماسكة ، تمثل القوى الوطنية المعادية للرومان[31] . ولم تعد ترجمة الأعمال الوطنية المصرية إلى اللغة الإغريقية تسبب حساسية لدى أى من الطرفين ، وعلى مرور الزمن أدى إندماج هذه الجبهة إلى مولد الحضارة واللغة القبطية .

وإذا كان الفكر المصرى ، قد أخذ وأعطى للفكر العبرانى القديم فإنه أيضاً فعل نفس الشيء مع الفكر البابلى ، فقد استفاد علم التنجيم المصرى من الإنجازات العظيمة التى حققها البابليون فى هذا المجال ، ولقد وصلت هذه الاستفادة أقصاها إبان القرن الثانى قبل الميلاد ، عندما توثقت أواصر الصداقة بين الحضارتين الإغريقية والكلدانية ، ثم تسللت الحضارة الإغريقية فى مصر ، حتى فى أقصى أطراف الصعيد ، حيث التشبث بالتراث العريق ، والتقاليد المصرية العتيقة ، ففى مطلع العصر البطلمى أدخلت فى مصر طرق ووسائل وأدوات ، لم تعرف من قبل فى علم الفلك ، ووضعت خرائط ، تحدد مواقع النجوم ، ورصدت حركات الكواكب والأجرام ، ونظمت أبراجها ، طبقاً لرسوم موضوعة . وهذه الخرائط الفلكية كانت تكتب إما بالديموطيقية أو بالإغريقية . ويرجع الفضل للعلامة نويجباور Neugebaur فى دراساته الشيقة ،عن الألواح المرسوم عليها مواقع النجوم ، وبروجها . ومن الواضح أن هذه الرسومات ، لم تكن تستخدم فى مصر بغرض معرفة الطالع ، أو بغرض التنجيم ، كما كان الحال عند الشعوب الأخرى ، غير المصرية ، لأن الفكر الدينى المصرى التقليدى لم ير أية علاقة بين نزول النجوم فى بروج ، وبين ما يحدث فى حياة الإنسان ومستقبله ، لأن قدر الانسان ومصيره ، تسيره الآلهة وحدها فهى التى تمسك بخيوط قدر الانسان ، وترسم له مستقبله ، وتحدد له مصيره ، وليس نزول الكواكب والنجوم فى أبراج أو تحركاتها فى اتجاهات . غير أنه تحت تأثير الفكر البابلى القادم مع تيار الثقافة الإغريقية من شرق البحر المتوسط بدأ الفكر المصرى يربط بين نزول الكواكب فى أبراج معينة ، وبين قدر الانسان ومصيره ، وذلك منذ مطلع العصر الرومانى ، حسب ما ورد فى إحدى البرديات الديموطيقية ، إذ أصبح لون القمر ، ومنازله يفسران لأول مرة فى مصر ، من أجل التنبوء بما سيحدث فى البلاد وما جاورها من بلاد قريبة ، فهناك نبوءات خاصة بالوطن وحكامه ، ونبوءات خاصة بالأفراد والجماعات . ومن الاسكندرية انتشر علم التنجيم الجديد ، إلى كافة

أجزاء مصر ، بالرغم من معارضة ومقاومة بعض المتطرفين المصريين ، غير أن تزايد اهتمام الناس بمستقبلهم وقلقهم على مصيرهم ، جعل هذه المعارضة عديمة الجدوى . وسرعان ما استوعب المنجمون المصريون هذا الأسلوب الجديد ، وأجادوه حتى أصبحوا أساتذة وأصبحوا أشهر عراف حوض البحر المتوسط . إذ نجد وثائق مكتوبة من العصور المتأخرة ، تتحدث عن كبار المنجمين ، مثل نخبسو Nechepso وبيتوزيريس Pet-Osiris ، اللذين نسبت إليهما نظريات جديدة فى علم التنجيم . وذاع صيت العرافين المصريين ، فى بلدان البحر المتوسط ، وأصبحوا مقصد الطالبين لمعرفة مستقبلهم ، ففى روما عاصمة الامبراطورية ، يروى لنا الشاعر بروبرتيوس بكل اعتزاز ، أن منجماً مصرياً هو الذى قرأ له طالعه[32] ، رغم أن هذا الشاعر كان أقذع الشعراء الرومان هجاءً وأكثرهم إسفافاً ، وأشدهم شماته فى هزيمة الملكة كليوباترا أمام قوات الجيوش الرومانية[33] .

وبالرغم من هذه المؤثرات الحضارية القادمة عبر بلدان البحر المتوسط ، إلا أن المعبد المصرى ظل متشبثاً محافظاً على التراث الدينى ، بل ازداد قوة نتيجة للاحترام الكبير ، الذى أبداه ملوك البطالمة للكهنة ، والامتيازات والاعفاءات التى تمتعوا بها ، حتى أصبح المعبد المصرى مؤسسة قوية ودولة داخل الدولة[34] ، فقد شهدت حركة ترميم وبناء المعابد المصرية نشاطاً لم تعرفه مصر منذ عصر الامبراطورية ، وإلى هذه الحركة يرجع الفضل فى بقاء المعابد المصرية حتى العصر الحاضر : كما ظهرت فى عمارة المعابد فى العصر البطلمى تجديدات معمارية ، وابتكارات فى النحت والتصوير ، بل وفى الكتابة والخط واللاهوت وعلوم الفلك والتنجيم ، وأصبح للمعابد المصرية فى العصر البطلمى أسلوب فنى ومعمارى يميزها عن العصور السابقة ، وهذا الأسلوب الجديد فى العمارة الدينية المصرية فى العصرين البطلمى والرومانى ، جاء نتيجة التيارات الحضارية الجديدة ، فمثلاً تطور فن النحت المحفور Bas-relief فى المعابد دون أن يقلد النحت الغائر الموجود على المعابد العتيقة من العصور الفرعونية ، ودون أن يقلد الأسلوب الاغريقى .

لقد كان المهندسون المصريون فى العصور البطلمية والرومانية ، هم المسئولون عن بناء المعابد ، ذات الكتل الحجرية الضخمة ، فى تناسق وتوازن هندسى دقيق بين أجزائها ، بالاضافة إلى التفاصيل الدقيقة ، التى تكشف عن إبداع فى الخلق والخيال ، خاصة فى تيجان الأعمدة التى شهدت تنوعاً فى أشكالها وأساليب زخرفتها ، هذا الإبداع والابتكار فى المجالات المادية كان يسير فى خط متواز مع قوة وحيوية الفكر الروحى الدينى ، الذى كان الملهم والباعث على خلقها ، فقد أعاد الكهنة المصريون

صياغة واستخدام المعتقدات والأساطير العتيقة فى قالب جديد ، واستخرجوا منها منهجاً ولوائح للشريعة الدينية ، وبفضل هذه اللوائح ، أصبح كل شىء مقنناً ومحسوباً ، ويخضع لقواعد ذات تفاصيل دقيقة ، فالمعابد الضخمة كان يوضع لها – قبل الشروع فى بنائها – نماذج ورسوم ، تحوى أدق التفاصيل الزخرفية ، وفى ضوء هذه الرسومات والنماذج ، كان يتم البناء والتنفيذ ، وبعد اكتمال البناء تحفظ هذه النماذج فى بيت الحياة .

ولهذا يجد المتأمل فى المعابد المصرية العصرين البطلمى والرومانى ، علاقة ودقة متناهية تربط بين الزخرفة المعمارية والفكرة التى تمثلها ، وكأن هناك عقلاً واحداً ، صمم ووزع الزخرفة ، بحيث يرتبط بعضها ببعض ، فى وحدة فنية وفكرية ، تجسم الأفكار اللاهوتية المصرية ، وتلتزم بقواعد علم الجمال فى آن واحد ، فمثلاً كان كل رسم يصور إحدى الشعائر ، والهدف هو تعريف الناس بقواعد الشعائر على أصولها ، ولهذا فإن المرء لا يمكن ، أن يفهم ويتذوق زخرفة المعابد المصرية فى العصرين البطلمى والرومانى ، إلا إذا قام بدراسة الصورة ، والصورة الموازية لها ، والفكرة التى تجمع بينهما . وبالاضافة إلى ذلك ، نلاحظ وجود بعض الصور المنحوتة فى أماكن عالية من المعبد ، يصعب على الزائر قراءاتها ، أو إدراك معانيها ، وهذا أمر مقصود بالطبع ، لأنها رسمت لتبقى بعيدة عن أيدى العابثين ، حتى تستمر إقامة الشعائر فى صمت ، وتنطق بها الأحجار ، إذ ما جاء عهد غاب فيه الكهنة ، وتنكر الناس للعقيدة المصرية ، فتظل الكتابات تقوم بالشعائر ، لأن الصورة فى نظر الفكر المصرى – هى بديل الكلمة المنطوقة ، وعن طريق هذه النظرية ، تمكن الكهنة فى معابد إدفوا ، وفيله ، وإسنا ، ودندرة ، ودندور ، من تخليد الشعائر المصرية حتى عصرنا الحاضر ، وذلك لأنهم كانوا يؤمنون أن توقف الشعائر المصرية يعنى قيام الساعة ، ودمار الكون : فبقاء مصر يتوقف على بقاء الشعائر ، وبقاء العالم يتوقف على بقاء مصر ، وبقاء الكون يتوقف على بقاء العالم . وبذلك ضمنوا بقاء قيام الشعائر فى صمت بعد رحيل رجال الدين .

ولقد نجح الكهنة – كما سبق أن بينا – فى اقناع الملوك البطالمة بأهمية المعبد المصرى ، وجعلوهم يغدقون بالعطايا والهبات على المعابد ، وأن يهبوا الإعفاءات ، والاستثناءات لرجال الدين حتى يتفرغوا للاشراف على بناء وإدارة المعابد . وربما كان قصد البطالمة من وراء ذلك سياسياً ، وهو كسب الزعماء الروحيين للشعب المصرى إلى جانبهم ، وحتى يضفوا الشرعية على وجودهم ، بصفتهم ورثة للفراعنة ، ولكن باستجابة ملوك البطالمة إلى الكهنة المصريين ، أصبحوا يعترفون بأفكارهم الرومانسية تلقائياً .

ولقد ترك الكتاب الاغريق ، ما فيه الكفاية ، من المؤلفات التى تدور حول إعجابهم بالحضارة المصرية ، وقدسية الديانة وسحرها ، وهذا فى حد ذاته نجاح لسياسة البطالمة ، الذين تبنوا الديانة المصرية ، بشكل لم يتوقعه الكهنة المصريون . فقد حصل المعبد المصرى – تحت حكم البطالمة – على امتيازات وحقوق ، تفوق ما حددته له مخططات البطالمة السياسية . فقد كان رجال البلاط الملكى فى الاسكندرية من عشاق الديانة المصرية ، وعندما انهال الرومان بالهجاء على الملكة البطلمية كليوباترا ، انهالوا سباً على الآلهة المصرية[٣٥] . وهذا دليل على تغلب الفكر الرومانسى المصرى على المنهج العقلانى الاغريقى .

غير أن الديانة المصرية الارستقراطية ، ظلت محصورة فى الطبقة المثقفة ثقافة وطنية محافظة ، أما جماهير الطبقة الوسطى الكادحة ، فإنها لم تجد فيها ما يشبع متطلباتها الروحية ، ومن ثم لجأت إلى العبادات الشعبية ، والعبادات الشعبية تزدهر عادة فى عصور التدهور والضعف ، وهى عبادات بسيطة غير معقدة ، لا تحتاج لعقل مثقف لفهمها ، لأنها بديهية ، وترتبط بالمطالب اليومية للفلاح المصرى ، والفلاح عادة دائم التطلع لمعرفة ما يخبئه له القدر ، من خلال النبوءات وتفسير الأحلام . كما أن دراسة المعتقدات الشعبية[٣٦] فى مصر ، تكشف عن المدى الذى وصلت إليه فى تغلغلها فى عقول شعوب البحر المتوسط ، الذين عجز منهجهم العقلانى ، عن اشباع مطالبهم الروحية ، ولقد كشفت النقوش أنه فى ساعة الضيق لم يتردد لا الاغريقى ، ولا اليهودى ، فى التوسل إلى الآلهة المصرية ، واستشارة مفسرى الأحلام المصريين فى منف .

وكانت منف هى الملتقى الدينى لهذه الشعوب ، فالحامية اليهودية التى وضعها الفرس فى جزيرة الفانتين فى أسوان نسيت ربها يهوه ، وتوجهت إلى رب أسوان المصرى خنوم ، وهو الكبش ، لكى تتضرع إليه فى ساعة الضيق ، كذلك توجه الاغريق فى منف بالدعاء ، والاستنجاد بأوزيريس آبيس .

ولقد كان معبد آمون فى واحة سيوة ، بصحراء مصر الغربية ، يستقبل مئات الزوار من كافة أقطار وبلدان البحر المتوسط ، فلقد آمنت شعوب البحر المتوسط المتأغرقة بصدق النبوءة التى يعطيها ذلك الرب لمن يقصد معبده ، حتى الاسكندر – قاهر الامبراطورية الفارسية – لم يكد يفتح عاصمة مصر فى منف ، حتى قام برحلته الخطيرة ، والتى عرض خلالها حياته للخطر ، لكى يستطلع من كهنة آمون اسم من قتل

أيه فيليب ، وادعى أن الرب غضب لأن آمون رع هو والد الاسكندر ، فكيف يجرؤ أن يسأل مثل هذا السؤال . إن هناك مئات الكتابات المحفورة على حوائط معبد الرب المصرى Bes « بس » ، والذى بناه الفرعون سيتى الأول فى أبيدوس ، هذه النقوش المخربشة ، مكتوبة بكافة لغات شعوب البحر المتوسط ، الذين جاءوا من كل فج عميق ، ومن طبقات اجتماعية متباينة ، ولم يمنعهم شىء من أن يتوسلوا إلى الآلهة المصرية ، من أجل أن تحقق لهم أمانيهم الوجدانية ، أو تهبهم الشفاء الناجع ، أو تعيد السكينة إلى نفوسهم المهمومة . ويفسر البعض السبب فى ذيوع صيت المعابد المصرية ونبوءاتها بين شعوب البحر المتوسط ، بأن الآلهة المصرية أقرب إلى النفس البشرية ، من سائر آلهة الشعوب الأخرى .

ولقد ارتبطت مصر فى يقين شعوب البحر المتوسط بأنها أرض الشفاء من العلل والأمراض المستعصية ، ولهذا تمتلىء المتاحف المصرية بمئات القطع المنحوتة من الرخام أو الحجر ، كلها تصور أعضاء من جسم الانسان ، فى أحجام مختلفة ، وهى عبارة عن قرابين قدمها المرضى والمعاقون الوافدون للمعبد ، بعد أن عولجوا وشفوا ، أو قدموا طلباً لشفائها ، وكان المرضى الوافدون يكلفون النحاتين ، الذين يعيشون حول المعبد بنحت صور للجزء من الجسم المراد شفاؤه ، لكى يقدموها قرابين للمعبد قبل أو بعد الشفاء .

ولقد اشتهر معبد الدير البحرى ، الذى بنته الملكة الفرعونية حتشبسوت (١٥٠٣ – ١٤٨٢ ق.م إبان العصرين البطلمى والرومانى ، بأنه أشهر مكان للشفاء من الأمراض عن طريق الأحلام ، التى يبعث بها ربّان من أرباب الشفاء هما : أمحتب وأمنحتب ، واللذين بنى لهما هيكل فى صخور ذلك المعبد ، الذى تدفقت عليه جموع المرضى من كافة أنحاء بلدان البحر المتوسط ، طلباً للشفاء .

ونفس الشىء ، نجده فى معابد سقارة ودندرة ، وإزاء كثرة المرضى الوافدين للعلاج ، اضطرت سلطات المعابد إلى اضافة ملاحق للمعبد ، تحولت إلى « بيمارستانات » أو مشافى ، يشرف عليها فريق من الكهنة ، الذين تخصصوا فى علوم الأمراض . ولهذا أصبح بيت الحياة ، الذى كان ملحقاً بكل معبد ، هو الذى يختص بتشخيص الداء ، ووصف الدواء . فقد كان هؤلاء الأطباء الكهنة ، يفحصون المرضى ، ويقومون بإجراء العمليات الجراحية ، ويضعون تذاكر العلاج . وهذا واضح من أعداد الوثائق البردية . بالإضافة إلى ذلك ، كان هناك قسم لاعطاء النصح الربانى لأى فرد حائر ، أو أى قلب معذب .

ولقد تطورت فكرة جديدة لاعطاء المشورة الربانية فى العصرين البطلمى والرومانى ، وهو تفسير حركات العجول المقدسة ، سواء عجل آبيس فى منف ، أو عجل بوخيس فى قرية المدامور بالقرب من الأقصر . ولا أعرف كيف كان العجل المقدس يتجاوب ويجيب على ما يطرح عليه من أسئلة ، وأغلب الظن أن ذلك كان يتم عن طريق وسطاء من الكهنة ، متخصصين فى تفسير حركات العجل . ولقد بهرت فكرة استشارة العجول المقدسة أفئدة شعوب البحر المتوسط ، فنجدهم يأتون صاغرين لتقديم آيات الخشوع للعجل ، بينما فى بلادهم يصارعون العجول ليقتلوها ، أليس هذا انتصاراً للديانة المصرية بحق ؟ ففى صدر الحكم الرومانى لمصر ، جاء إليها ولى العهد المحبوب جرمانيكوس ، ليتفرج على آثار ملوكها الغابرين ، وأصر أن يزور عجل آبيس فى منف ليستطلع مستقبله ، ولكن العجل أشاح برأسه عن ولى العهد ، وهنا توقع الكهنة أن حياة ولى العهد فى خطر . وللدهشة ، أن ولى العهد خر صريع حمى قاتلة بعد مغادرته مصر مباشرة[٣٧] !! .

وهناك نقش ، يرجع إلى عصر امبراطور رومانى فقد اسمه من نص مكتوب فى قرية المدامور ، وقد ذهب ليستشير عجل بوخيس فى مسألة تخصه ، ويقول النقش أن العجل لما شاهد الامبراطور ، غير من وقفته ومن موضعه ، ولما تحدث إليه الامبراطور ، أبدى تحركات تتجاوب مع الصوت ، كأنه ينصت ، ولقد فرح الامبراطور كثيراً لأن العجل المقدس قد اقترب منه ، إن الرهبة والوقار اللذين أبداهما الامبراطور الرومانى – الجالس على عرش أعظم امبراطورية عرفها العالم القديم – وهو يقف أمام العجل فى خشوع وإذلال ، لتبين مدى تغلغل الفكر الدينى والرومانسى المصرى فى نفوس شعوب البحر المتوسط . فقد جاء الامبراطور فى زيارة خاصة ليطلب حلاً لمشكلة خاصة به . وصحيح أن له فى مصر صفة وحقوق الفرعون المؤله ، لكنه هنا يقف كأى سائح رومانى ، ولهذا وضع كاتب النقش على لسان العجل قوله للامبراطور « إن عرافتى لك هى أن أجيبك إلى كل ما تطلب ، وإن قلبى سوف يكون فى خدمتك من أعالى مناطق النور »[٣٨] .

لقد كانت المنطقة الواقعة حول منف سوقاً تعج بالحيارى ، جاءوا من كل مكان فى العالم ، خاصة بلدان البحر المتوسط ، ليستشيروا قارئى الطالع والعرافين المصريين ، فلقد كان « بتاح » رب منف ، يلهم فئة قليلة من الأتقياء من أتباعه ، القدرة على رؤية المستقبل ، ويرفع عنهم الحجاب ، ويجعل بصرهم من حديد . وأغلب هؤلاء الأولياء ،

كانوا من المتصوفة المعتزلين فى المعابد ، ولا نعرف الاسم الذى كانوا يسمون به فى اللغة المصرية القديمة ، لكننا فقط نعرف الاسم الذى أطلقه عليهم الإغريق ، وتردد فى وثائق البردى من العصر البطلمى ، وهو لفظ الكاتوخوى Katochoi وأغلب الظن أنهم كانوا يقومون بدور الوسيط بين الرب والناس ، وكان الرب يبعث مشورته للمرضى عن طريق الأحلام ، التى يقوم بتفسيرها هؤلاء الأولياء .

وكما كان يحدث فى مصر فى أوقات التدهور والانهيار ، كانت هناك موجات من الإلحاد والشك ، تسود بين فئة من الشعب المصرى ، تنادى بعدم جدوى التراث الدينى ، والكهنة والمعابد ، وهذا حدث فى عصرى الانهيار الأول والثانى ، لكن فى هذا العصر الطويل من التدهور ، انبرى المعتزلة والمتصوفة لمحاربة موجة الشك والإلحاد ، يساعدهم بالطبع المحافظون التقليديون ، والداعون للحفاظ على التراث العتيق ، ومن أمثلة هؤلاء الملحدين والمتشككين يقابلنا نقش نشره العلامة الفرنسى بردرزيه Perdrizet ، وعثر عليه فى تونا الجبل ، وهذا النقش عبارة عن شاهد قبر لمصرى يبدو أنه خالف العقيدة المصرية فى التوصية بتحنيط جثمانه وأوصى بحرقه على طريقة الإغريق ، ويقول فى النقش الذى وضع على لسانه « إنه يشم رائحة الموت اللذيذ »(٣٩) ، وكان دفاع المتصوفة وأنصار الحفاظ على التراث الدينى ليس من أجل أنفسهم ، ولكن من أجل بقاء مصر الذى هو بقاء للوجود بأكمله .

ومنذ احتلال الفرس لمصر ، خيبت الأقدار آمال المصريين ، إذ رأوا بلادهم تهبط من عليائها ، فبعد أن كانت بلداً يضرب به المثل فى النظام والنظافة ، تحولت إلى بلد يعج بالفوضى وسوء الادارة ، حيث أصبح خيرها يذهب لغيرها ، وفى مواجهة الاذلال والسخرة والضرائب ، التى عاناها الشعب المصرى المغلوب على أمره ، ساد فيه إحساس بأن يتصل بالآلهة دون أى وسيط ، والمعروف أن الآلهة المصرية هى التى تحرك القدر حسب مشيئتها ، وليست كآلهة الإغريق والرومان يحركها القدر Moira حسب مشيئته ، لأن الانسان « ليس إلا عجينة من طين وقش يشكلها الرب كل يوم طبقاً لمشيئته » كما ذكر أحد الأخلاقيين المصريين فى ذلك العصر(٤٠) . وتحت تأثير رومانسية العقيدة المصرية بدأت شعوب البحر المتوسط – خاصة فى جنوب أوروبا – تهجر فكرة تسلط القدر على الآلهة ، وبدأت تأخذ بالفكر المصرى الذى يجعل الآلهة تسير القدر والمصير ، وبذلك أصبحت الآلهة المصرية هى الأقوى ، والأكثر شعبية فى عالم البحر المتوسط ، وخاصة إيزيس وسيرابيس باعث الأحلام . فإيزيس طبقاً لأسطورتها قد

قهرت القدر ، وحولته إلى منفذ لارادتها ، ولهذا انتشرت عبادة إيزيس فى بلدان جنوب البحر المتوسط وغربه بشكل مثير ، وظلت متربعة على عرش الديانة ، حتى انتشار المسيحية ، ويشهد على ذلك كثرة تماثيلها(٤١) فى مصر وخارج مصر ، وذلك لأنها ملأت الفراغ الذى سببه موت الآلهة الإغريقية والرومانية . أما فى مصر ، فبالرغم من أنها كانت تعج بالأجناس والقوميات ، ذات العقائد المتباينة ، من فرس ، ويهود ، وفينيقيين ، وآسيويين ، وعرب ، وإغريق ، ورومان ، إلا أن هذه الشعوب فى ساعة الضيق ، كانت تتقابل لكى تتضرع للآلهة المصرية . وبصرف النظر عن الصراع الطائفى الذى كان يحدث بينها بين حين وحين ، إلا أنها فى أغلب الأوقات عاشت فى تسامح مع بعضها البعض ، فى ظلال شجرة الايمان المصرى ، فيما عدا اليهود .

وعلى جانب آخر ، حاول بعض المفكرين مزج هذه العقائد المتباينة فى مصر ، لتنصهر فى بوتقة واحدة . ولقد كان ملوك البطالمة ، أول من حاول تحقيق ذلك ، من أجل هدف سياسى ، فلقد أدرك بطليموس سوتر – مؤسس الأسرة البطلمية – أهمية جمع أفئدة المصريين والإغريق وسائر المستوطنين حول عبادة رب واحد ، وأن يكون هذا الرب من واقع التراث الدينى المصرى ، فعهد إلى ثلاثة من كبار علماء اللاهوت هم : تيموثيوس Timotheus ، ويوموبيديس Eumopides ، وهما إغريقيان من مدينة آثينا وينحدران من عائلة كهنوتية ، أما الثالث فهو أحد كهنة هليوبوليس ، المطلعين على الثقافة الإغريقية ، وهو مانيتون السمنودى ، المؤرخ الذى لازلنا نسير على تقسيماته لملوك الفراعنة ، ومن تفكير وتعاون علماء اللاهوت الثلاث ، ولدت عبادة أوزيرآبيس أو سيرابيس ، كما أطلق عليه بالإغريقية(٤٢) . وهو إحياء لعبادة أوزيريس زوج إيزيس وإبنه حورس وهو الثالوث الرسمى للديانة المصرية فى عصور مصر الفرعونية ، لكن ذلك الاحياء جاء فى قالب إغريقى الفكر والفلسفة والصورة . بيد أن جرعة « الأغرقة » كانت كبيرة ولهذا رفض المصريون الوطنيون قبول هذا الرب المهجن ، واعتبروا ذلك تخريباً وتشويها لتراثهم الدينى ، وظلوا يعبدون أوزيريس الرب العتيق ، ولم يتقبل الرب الجديد سوى المستوطنين الإغريق ، وجنود جيش الملك ، والعاملين فى أجهزته . ففى مصر نجد شكوى قدمها رجل إغريقى اسمه بطليموس ، يقول فيها أن جمهوراً من المصريين الغاضبين انهالوا عليه ضرباً عدة مرات ، بالرغم من اعتكافه فى السيرابيوم فى منف(٤٣) ، لكن عبادة هذا الرب الجديد ، لاقت نجاحاً فى بلدان البحر المتوسط ، بفضل رعاية البطالمة(٤٤) . وغزت عبادته حتى إيطاليا ذاتها .. ففى إحدى برديات أدب الشهداء

الوثنيين [وهو نوع من الأدب القومى المصرى مكتوب باللغة الإغريقية ، وهو يوازى الأدب القومى الدوميطيقى الذى سبق الحديث عنه] نجد الزعيم السكندرى « هرمايسكوس » Hermaiskos ، يحمل معه تمثالاً صغيراً لسيرابيس ، وهو فى طريقه للمثول أمام محكمة الامبراطور تراجانوس ، ولما أدرك البطل السكندرى أن حكم الامبراطور سوف يكون جائراً عليه وعلى رفيقيه ، ولصالح اليهود ، إدعى أن تمثال سيرابيس الذى كان يحمله قد تصبب عرقاً ، وسرعان ما سرت هذه الشائعة فى روما عاصمة الامبراطورية وسببت حالة من الذعر بين سكانها ، وفروا إلى التلال المحيطة بالمدينة توقعاً لحدوث كارثة[٤٥] . وهذا يبين الحد الذى تغلغلت فيه رومانسية الديانة المصرية بين شعوب البحر المتوسط .

ولقد أعيد تصوير إيزيس بالأسلوب الإغريقى ، فأصبحت ترتدى الزى الإغريقى ، ولها تسريحة الشعر الإغريقية ، وتحول ابنها حورس إلى طفل تجسد فيه عشق الفنانين الإغريق لنحت جسم الطفل ، باكتظاظه وبراءة ملامحه ، كما تلمس من تماثيل العصر الهللينستى ، أن منظر إيزيس وهى ترضع ولدها حورس فى الرسومات المصرية العتيقة أصبح يختلف تماماً عنها فى نفس الصور الإغريقية المحدثة ، حتى حورس غيروا اسمه إلى هاربوكراتيس Harpocrates ، ليناسب النطق الإغريقى ، وقد أصبحت تماثيل إيزيس ، وهى ترضع وليدها رمزاً للأمومة عند شعوب البحر المتوسط[٤٦] ، وهى نفس الصورة التى حولها الفن المسيحى بعد ذلك إلى العذراء مريم وهى ترضع المسيح ، لقد تعلم الإغريق فى مصر العاطفة الجياشة للأبناء ، ولم يعودوا يتخلصون منهم كما كانوا يفعلون فى بلادهم ، وذلك بفضل عبادة ايزيس ، « التى لا تحرم اللبن عن شفتى الطفل[٤٧] » كما ورد فى الترانيم التى كان المصريون يترنمون بها فى صلواتهم لها ، وبفضل رومانسية الفكر الدينى المصرى ، تغيرت نظرة الإغريق إلى أبنائهم ، لا فى مصر وحدها ، بل فى سائر بلدان البحر المتوسط . ولقد ساعد على انتشار عبادة إيزيس فى بلدان حوض البحر المتوسط ، ارتباطها بالسحر ، الذى كان قد انتشر بين شعوب البحر المتوسط ، ليتغلبوا به على الأزمات فى فترات الضيق ، وفى نظر هذه الشعوب فإن السحر المصرى هو أقوى أنواع السحر . ولقد كانت إيزيس أول ساحرة فى تاريخ الحضارة المصرية ، فعن طريق السحر تمكنت من تسخير القدر لخدمتها ، وبعث زوجها أوزوريس إلى الحياة مرة أخرى .

وكما تبنى عشاق الحضارة المصرية ، والعاملون بالسحر أسطورة إيزيس ، فقد تبناها

أيضاً الفلاسفة والأخلاقيون . ففى بحث بلوتارخوس عن « إيزيس وأوزوريس »[٤٨] ، نجده يقدم لنا تحليلات وتفسيرات فلسفية ، وأخلاقية للأسطورة المصرية ، أخذها من الفلاسفة الإغريق ، والذين كان من بينهم قليلون من المتأغرقين المصريين .

وفى عصر الامبراطورية الرومانية خرج الأديب أبولايوس Apuleius من مدينة ماداوروس Madauros فى الجزائر ، وأصبح واحداً من أهم أعمدة الأدب الرومانى فى القرن الثانى الميلادى ، كما كان من أشهر النساك المتعبدين إلى إيزيس . ويروى لنا فى كتابه « الحمار الذهبى » كيف تمكنت هذه الربة من إعادة بطل قصته فى صورة الحمار إلى الصورة البشرية مرة أخرى بفعل قوة سحرها . ومن خلال هذه القصة قدم لنا « أبولايوس » صورة كاملة لتفاصيل شعائرها ، وطقوسها ، والتى كانت تمارس فى معابدها ، التى تنتشر من بريطانيا حتى أفغانستان ، وفى شرق الامبراطورية وغربها ، حتى أن القديس « بولوس » مر خلال الطريق الطويل الذى قطعه ليبشر بالمسيحية بعدد من معابدها[٤٩] . ونفهم من رواية أبولايوس أن نساك عبادة إيزيس كانوا يمرون باختبارات قاسية ، حتى يصرح لهم بالدخول رسمياً فى سلك عبادتها ، ومن يجتاز هذه الاختبارات ، تكتب له الحياة الأبدية فى الفردوس ، حيث يحكم زوجها أوزوريس . وعلى العموم ، فإن رواية أبولايوس تؤكد لنا انتشار الشعوذة والسحر المصرى بين شعوب البحر المتوسط فى ذلك الوقت .

وفى العصر المسيحى ، لم ينكر الكتاب المسيحيون تأثير عبادة إيزيس ، على تبلور نظرية العقيدة المسيحية وشعائرها ، ففى القرن السادس عشر ، أعلن الأب « جوردانو » ذلك مما أدى إلى حرقه حياً[٥٠] ، وقد سبق الاشارة إلى كيف أن صورة إيزيس وهى ترضع حورس ، تحولت إلى صورة مريم وهى ترضع المسيح .

ومن بين التأثيرات الفكرية المصرية ، فى ثقافات شعوب البحر المتوسط ، انتشار حركة التصوف المصرى . والتصوف علم مصرى صميم الأصل والفكرة ، انفتح على الأفكار الدينية الشرقية ، وأخذ منها ، وكتبت نصوصه باللغة الاغريقية ، المستمدة من أسلوب الفلاسفة الأفلاطونيين ، وبالرغم من ذلك ، بقيت مدرسة التصوف المصرى تنظر باستخفاف إلى المتصوفة الاغريق ، وتتهمهم بعدم إمتلاك الموهبة والاستعداد الفطرى وهى أمور مطلوبة من أجل التبحر فى بحر الأسرار الصوفية[٥١] .

ووسط هذه المتناقضات بين التراث الروحى الغيبى المصرى ، والعلم والمنطق

الاغريقى ، ظهر فريق من علماء الاسكندرية حاولوا التوفيق بين هذين المتناقضين ، وكان يمثل الغيبيات المصرية الأساطير الدينية ، ويمثل العلم الاغريقى الفلسفة اليونانية ، غير أن هذه المحاولات لم تلق أى نجاح ، وعلى رأس هؤلاء بولوس المنديسى[٥٢] . كما حاول الموفقون الربط بين علم السحر المصرى ، وعلم الكيمياء الاغريقى ، فكل من السحر والكيمياء يقوم بتحويل الشىء من حالة إلى حالة ، وحتى فى العصور الوسطى ظل تحويل الحجر إلى ذهب هو جزء من سحر الكيمياء . وفى العصر الحديث ظن الجبرتى علماء الكيمياء الذين جاءوا فى صحبة الحملة الفرنسية على مصر « سحرة » .

أما على المستوى الشعبى ، فقد بدأ المزج التلقائى بين التراث المصرى والعلوم الاغريقية ، يسير ببطء تدريجى ، ولقد قام السحرة بدور كبير فى مزج عدد من العقائد المختلفة من أجل استخراج تعاويذ ، لتحقيق أغراض مادية ، ولقد قام السحرة المصريون ، منذ أواخر العصر الهللينستى ، بتقديم نظرة تفاؤلية فى الحياة لشعوب البحر المتوسط ، ساعدتها على تخطى الأوقات العصيبة ، فى لحظة كانت قد فقدت فيها أخلاقياتها ، وروحها المعنوية ، وإيمانها بالآلهة . على حد تعبير اسكلبيوس[٥٣] .

إن أهم ما يلفت النظر فى مصر ، تعايش المتناقضات جنباً إلى جنب ، فمن ناحية نجد الطبقة الارستقراطية تتبنى نظرية راقية فى الفكر الدينى ، وهى التصوف ، وانسحبوا من الحياة اليومية إلى عالم الروح اللانهائى ، وهؤلاء كانوا من كبار الكهنة ، الذين أتاحت لهم ظروفهم الاطلاع على الحضارة الاغريقية ، وخاصة الفلسفة الأفلاطونية ، والأخذ منها ، وكان لهم نظرية قائمة وواضحة ، ومتطورة ، كلما زاد انفتاحهم على الحضارة الاغريقية ، يقابل هؤلاء طبقة صغار الكهنة ، الذين فضلوا ممارسة السحر ، وهم الذين يعزى إليهم ابتكاره ، فقد كانوا على دراية بالشعائر ، والأساطير القديمة ، وقادرين على فهم « الميكانيزم » الذى يعمل به السحرة ، فضلاً عن درايتهم بفن الإنشاد والتراتيل ، والتنغيم الدينى ، ومهارتهم فى القيام ببعض الخدع بأيديهم ، للتأثير على المصلين ، وتفضيلهم مشاركة الناس فى خضم الحياة .

ولقد عبر هيرودوت عن ذلك عندما زار مصر ، فى القرن الخامس قبل الميلاد ولمس أنها بلد « العجائب والغرائب[٥٤] » ، فبينما رآها تسبق بلاد العالم فى الإبداع والابتكار ، رآها لا تزال تتمسك بالحجر والنحاس ، بينما كانت شعوب العالم كله تستخدم الحديد . كذلك بقيت متمسكة بفكرها الدينى وتراثها الروحى العتيق ، دون أن تفرط فيه ، وهنا يكمن سر القداسة والاحترام ، الذى نظرت به شعوب البحر المتوسط إلى

الحضارة المصرية ، فهى فى نظرهم متحف الفكر والفن ، ومنجم عميق لعلوم الأسرار .

لقد فصل الاغريق بين الوادى ، حيث يغلب العنصر والحضارة المصرية ، وبين مدينة الاسكندرية ، حيث يكثر الطابع الإغريقى عنصراً وحضارة ، فأطلقوا على الوادى اسم الريف Chora ، بينما أطلقوا على الاسكندرية اسم الحاضرة Polis ، وهذه « الثنائية » فى تحديد وضع مصر ، لها مغزاها الحضارى ، إذ كانت الحضارة المصرية العتيقة تزدهر بفكرها ، من خلال معاقلها فى معابد ، إدفو ، وإسنا وفيلة ، وطيبة ، ودندرة ، حيث نشط المعماريون والرسامون فى بناء وزخرفة المعابد ، ونقش الأساطير الكونية ، وعلاقتها بمصير الانسان على الأرض ، معتقدين أن تخليد هذه الطقوس على الحجارة الضخمة ، التى هى أقوى مواد الكتابة ، سيجعلها تخلد لأن فى خلودها خلوداً لمصر وللكون بأسره . فلكى تستمر الأجرام السماوية تدور طبقاً لنظامها الدقيق ، لابد من بقاء إقامة الشعائر طبقاً لنظامها الدقيق ، وتصويرها على الحجارة يقوم مقام القيام بها ، فهى صلوات صامتة ، وفى مفهوم الفكر المصرى ، الصورة بديل الكلمة المنطوقة ، هذا فى الوادى ، أما فى الشمال حيث حاضرة مدينة الاسكندرية ، فنجد علماء البحر المتوسط ، يتجمعون فى دار الحكمة (أو الموسيون) من كل تخصص ، فهناك علماء فى الرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، والفلك ، والجغرافيا ، والطب ، وفن النقد الأدبى ، والفلسفة . وهؤلاء راحوا بطريقتهم العقلانية يبحثون عن الكون وأجرامه ، ويعيدون دراسته فى ضوء المنهج الحسابى . فعلى النقيض من كهنة الوادى ، كان علماء جامعة الاسكندرية يؤمنون بأن الرقم الحسابى هو البديل للكلمة ، وليست الصورة وما تبطنه من حس . ومن خلال المواجهة الفكرية والحضارية بين الجنوب والشمال حدث بعث للفكر المصرى القديم ، بمنطق جديد .

لكن بالرغم من هذا كله ، بقيت جماهير البسطاء فى أقطار ومدن البحر المتوسط ، تشارك مصر القديمة أفكارها الرومانسية ، خاصة خلال العصر الذى شهد شيخوخة الحضارة الاغريقية والرومانية ، حيث نتج عنها موت الآلهة الاغريقية والرومانية ، وحدوث فراغ دينى وروحى كبير ، ومن ثم نشطت آلهة النيل التى سخر منها وهجاها شعراء الامبراطور أغسطس بعد معركة اكتيوم ، لتعاود اكتساح حوض البحر المتوسط ، بما فى ذلك روما عاصمة الامبراطورية ، وظلت تتربع عليه حتى أزاحتها المسيحية وحلت محلها .

هوامش

(1) Oxford Classical Dictionary, Sub. Greek Novel, (by R.M.Rattenbuny).

(2) E. Bevan, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, Methuen & Comp.

(3) **J.E.A**, xiv, 1928, p.13ff, Rostovtzeff, **"Greek Sightseers to Egypt; J.E.A**, III, 1916, p.75ff"

J.G.Milne, "Greek and Roman Tourists in Ancient Egypt."

London (1914), p.

إبراهيم نصحى ، مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الأول

(4) Herodotus.II. 154.

أنظر : محمد صقر خفاجة وأحمد بدوى : **هيرودوت يتحدث عن مصر** ، دار القلم ١٩٦٦ ص ٢٨٦ فقرة ١٥٤ .

(٥) د . سيد أحمد الناصرى - الإغريق : تاريخهم وحضارتهم - دار النهضة - الطبعة الثانية - ١٩٧٦ - ص ١٣١ .

L.H. Jeffery, **The Local Script of Archaic Greece,** Oxford Clavendon Press, 1961, pp. 354-355 also p. 358.

(6) G. Léfebvre, **Tombeau de Petosiris,** Le Caire 1924 Passim; B.L.F.A.O, XXX. (1931) pp 201-227.

(7) T.A. Brady, **"The reception of the Egyptian cult by the Greeks** 330-30 B.C. (Univevsity of Missouri studies X, 1935) p. 10 ff.

(8) J.G. Winter, Life and Letters in the Greek Papyri, University of Michigan, Ann Arbor, 1933, p. 66.

(٩) أنظر محمد عواد حسين «حركات المقاومة الوطنية فى مصر البطلمية» القاهرة ١٩٤٩
كذلك انظر :

R. Macmullen, **Nationalism in Roman Egypt** Aegyptus Xliv (1964) pp 179-199

J.G. Milne, **"Egyptian Nationalism under Greek and Roman Rule,**

J.E.A, vol. Xiv (1928) pp. 226-234.

(10) Pierre Grimal, **Hellenism and the Rise of Rome,** London 1965, p 224.

(١١) هيرودوت الكتاب الثانى فقرة ٤١ . انظر : صقر خفاجة وأحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(12)— Grimal, op. cit. p225.

(13) Grimal, ibidem.

(١٤) سورة الشعراء الآيات من ٣١ - ٤٨ .

(15) Pierre Grimal, op. cit, p. 230.f.

(16) Asclepius 24, Festugieré-Nock, Hermes Tresmegiste II Paris 1960, p.326ff; Pierre Grimal, p.215.

(17) Festugiere-Nock, ibid; Grimal. ibidem.

(18) J.Yoyotte, **l'Egypte ancienne et les origines de l'anti-Judaisme,** Bulletin de la Societe Ernest Renan, Paris, 1962. pp 133-144.

(١٩) د . سيد الناصرى ود . سيد توفيق ، تاريخ وحضارة مصر من أقدم العصور حتى الفتح العرقى . دار النهضة العربية بالقاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٠ ، ص ١٥٧ وما بعدها ، ص ١٩٤ .

(20) Corpus Hermeticum, xvl; Festugiere-Nock. Loc. cit. p. 326ff; Pierre Grimal. p. 216ff.

(21) **Egypt and The Greek Romance,** Akten des vIII, International Kongress für Papyrologie, Wien, 1955, p 29-36.

(22) Pierre Grimal, op. at, p223.

(23) **The Study of Homer in Graeco-Roman Egypt.** Akten des VIII International Kongress fur papyrologie, Wien 1956; Winter, op. cit, p67, 193-197, 239.

(٢٤) كذلك انظر : سيد الناصرى ، الإغريق ص ٨٤ ، ٨٥ .

(25) F. Griffith: **Stories of the High Priest of Memphis,** Oxford 1900.

(26) H.I. Bell, **Cults and Greeds in Graeco-Roman Egypt.** Liverpool 1953 (Liverpool monographs in archaeology and Oriental Studies), p.50ff.

(27) p. Grimal, op.cit, p.224.

R. Remondon, Les anti-Semites de Memphis, **Chronique** d' Egypte, 35 (1960) pp. 244-261.

(28) P. Grimal, op. cit, p 250.

(29) E. Bevan, op. cit, p. 240-241.

(30) Titus Livius, xxxviii, 17,11; cf Wilcken, **Alexander der grosse,** Leipzig 1931, p 295.

رغم ملاحظة فيلكن أن القائد الرومانى قد استخدم صيغ المبالغة البلاغية للتأثير ، لكن العبارة لا تخلو من الحقيقة .

(٣١) أنظر سيد الناصرى ؛ **تاريخ وحضارة مصر من أقدم العصور حتى الفتح العربى** ص ١٥٨ .

(32) Propertius iv, 4, 78.

(٣٣) انظر عبد اللطيف أحمد على : **مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية** ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٢ ، ص ٣٤ .

(34) E. Bevan, pp. 177-188.

(٣٥) عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٤٠

(36) H,I. Bell, **"Popular Religion in Graeco-Roman Egypt", J.E.A,** xxiii, 1937, p. 146; cf Ibidem. in **J.E.A, xxxiv, 1948, p 82ff.**

(٣٧) أنظر د . سيد أحمد الناصرى ، تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والحضارى ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ هامش رقم ٢٠ ، عبداللطيف أحمد على المرجع السابق ، ص ٧٠ - ٨١ .

(38) E. Droiton, **Rapport Sur Les Fouilles de Madamud,** Les Inscriptions, Fouilles de l'Institut Francaise D'Archaeologie Orientale, 1925 (1926) pp. 42-4.

(39) Perdrizet, "Le mort qui sentait bon", **Melanges Bidez II,** Brussels, 1934, pp 719-727.

(40) P. Grimal, op. cit, p.228.

(41) M.S. Salem, **The cult of Isis in Italy, An Account of its external History** (Unpublished diss.,

Liverpool), 1937, p42.

انظر : عبد اللطيف أحمد على - المرجع السابق ص ١٤٧ - ١٥٥ .

S.A.A. El-Nassery, **Terra-Cotta Figurines of Egypt in the Ptolemaic Period** (Unpublished diss, London 1968) p299-301.

(42) Cf. Bevan, op. cit p43.

(43) U.P.Z.I, 1,7, 13; 8,14.

(44) T.A. Brady. op. cit, p15.

(45) P. Oxy. 1242, Col.iii; cf. Winter, op. cit, p17.

وعبد اللطيف أحمد على - المرجع السابق ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(46) El-Nassery, op. cit, p300, fig no. 45, plate no. xxxiv (p301-302).

(47) P. Perdrizet, **Les Terres-Cuites grecques d'Egypte de la Collection Fouquet**, Nancy 1921, p28.

(٤٨) **ترجم هذا المؤلف إلى العربية : د . محمد صقر خفاجة وحسن صبحى البكرى - القاهرة ١٩٦٢ .**

(49) R.E. Witt, **Isis in the Graeco-Roman World**, Thames and Hudson, 1971, p264.

(٥٠) وذلك فى ١٦ فبراير عام ١٦٠٠ ميلادية أنظر :

M.L.W. Laistner, **Christianity and Pagan Culture in the Later Roman Empire** (Ithaca 1951), pp22ff.

(51) Festugiere, **La revelation d'Hermes Trismegiste**,I, 1950, pp224.

(52) cf. C.F. Cumont et J. Bidez, Les Melanges Hellenisés, Paris 1928, I, p198ff (Index Under Bolos).

(53) Asclepius, 23-24; Festugiere-Nock, Hermes Trismegiste , Paris (1960) p326f.

(٥٤) أحمد بدوى وصقر خفاجة ص ١١٦ = Herdotus, II,35.

العلاقات
المصرية - اليونانية القديمة

د. محمود ابراهيم السعدنى

مدرس التاريخ القديم بآداب المنيا

إن للعلاقات المصرية اليونانية القديمة جذوراً عميقة تمتد إلى فترات ما قبل التاريخ . وسيتناول هذا البحث أحدث ما كُتِبَ عن تلك العلاقات القديمة من مراجع وأبحاث وفى ضوء آخر الاكتشافات الأثرية وصولاً إلى قمة ازدهارها فى العصر الصاوى (٦٦٤ - ٥٢٥ ق . م) . أى أن ما سنقدمه سيكون بمثابة بانوراما سريعة ، تلقى مزيداً من الضوء على الإطار التاريخى لكل مرحلة من مراحل هذه العلاقات القديمة ، وتبيان نوع هذه العلاقات .

لقد مرت هذه العلاقات بمراحل عدة ، انتقل فيها مركز الثقل إبان كل فترة من منطقة إلى أخرى ، تبعاً لتطور الأحداث ومجريات الأمور .

١- المرحلة الأولى :

تلك التى يمكننا أن نسميها بمرحلة العلاقات المصرية الكريتية إذ كانت تلك العلاقات تقريباً ، مقصورة على مصر وكريت .

كان العلامة الأثرى الانجليزى إيفانز (Evans) هو أول من نبه إلى وجود تأثير شرقى على حضارة كريت ، أسماه « التأثيرات الليبية » ويقصد تأثيرات حضارية مصدرها الساحل الشمالى الافريقى ، وبصفة خاصة تلك الملامح والعناصر التى جاءت أصلاً من منطقة الدلتا فى مصر الفرعونية ، وربما لمناطق أخرى مجاورة لمصر القديمة ، خلال المراحل الأخيرة لفترة ما قبل الأسرات الفرعونية[١] .

لقد بدأت أولى مراحل الاتصال البشرى بين أهل دلتا النيل وأهل الحضارة المينوية القديمة منذ حوالى ٣٠٠٠ ق . م أو قبل ذلك ، كما يؤرخ لذلك إيفانز ، وذلك نظراً

لوصول مهاجرين من الدلتا إلى كريت ، فراراً من غرب الدلتا وتخوفاً من بطش الملك مينا (نارمر) موحد القطرين ، عقب تأسيسه لأول أسرة فرعونية ، وانتصاره على الدلتا .

ولكن الدليل الأثرى كان أكثر تحديداً ، فقد أثبت أن أقدم فخار فى كريت له ما يشابهه فى فلسطين أكثر مما يوجد فى مصر ، ولما كان جنوب فلسطين قد تعرض كذلك لهجوم الملك الفرعونى نارمر ، فقد بنى الأثرى هود (Hood)[٢] استنتاجه قائلاً :

"It is there fore possible that refugees from the coastal areas of South Palestine inaugurated the Early Bronze Age (Early Minoan I Period) in Crete".

لقد تجلت مظاهر هذه العلاقات الأولية ، فى أقدم صورها ، بين كريت المينوية ومصر الفرعونية ، فى وجود مجموعة من الفازات الحجرية (λίθινα ἀγγεία) المصرية الأصلية فى حفائر بكريت ، وبصفة خاصة ، تم العثور عليها فى كنوسوس (Κνωσσός) عاصمة تلك الحضارة القديمة ، عندما كانت هذه الحضارة فى أولى مراحل تطورها ، وفى وضع استقبال للمؤثرات الحضارية الشرقية .

وجدير بالذكر أن معظم هذه الآنية الحجرية ، كانت قد وصلت إلى كريت ، فى نفس ذات الوقت الذى صنعت فيه بمصر ، أى فى بدايات الألف الثالثة ق . م .

كما أن هناك نظرية أخرى تقول بأن هذه الآنية الحجرية المصرية جاءت إلى كريت فى وقت « فترة الانتقال الأولى » حوالى ٢٣٠٠ ق . م عندما هوجمت مصر وغزاها معتدون من الشمال ، ونُهِبَت مقابرُ ملوكها ونبلائها فى الدولة القديمة ، بما كان فيها من عشرات الآلاف من أمثال تلك الفازات الحجرية[٣] .

وستعقد الدهشة لسان الزائر لمتحف هيراكليون فى كريت عندما يُفَاجأ بأشكال لأقدم آنية حجرية فى الحضارة المنيوية ، هى فى حقيقة أمرها تقليد كريتى لأشكال معينة من الفازات المصرية الأصلية ، وهذه المحاولة من الجانب المينوى لا يمكن تأريخها بأقدم من زمن فترة الانتقال الأولى فى التاريخ الفرعونى ، وهذا يرجع إلى أن نفس الفترة شهدت دخول صناعة الأختام وحفرها فى أشكال معينة ، وجدت مثيلاتها فى مصر والتى تؤرَّخ بذات العصر ، أى أن تلك الأختام كانت من أصل مصرى ، وليست من أصل سورى مثلاً ، كما كان الاعتقاد سائداً من قبل .

وفى عام ١٩٧٦ قدم الأثرى اليونانى يانى سَكِيلِلاراكيس بحثاً عن الآنية الحجرية

الميكينية[٤] الموجودة فى متحف أثينا القومى للآثار ، والتى وصلت إلى أكثر من ٣٠٠ إناء . وهذا البحث كان أحدث ما كتب عن هذا النوع من الآنية ، ومدى علاقته بالآنية المينوية الحجرية ، وبالتالى مدى علاقة هذين النوعين بالأصل والأشكال المصرية الأصلية لمثل هذه المحاولات اليونانية لتقليدها .

لقد جاء فى هذا البحث ما يلى : "That Egypt was the cradle of stone vases,one say, certainly[٥]can ".

وهذا اعتراف من الباحث بمكانة مصر فى صناعة هذا النوع من الآنية ، والتى وصل عدد الآنية الحجرية المكتشفة فى مناطقها الأثرية فيما بين ١٠ – ٢٠ ألف إناء[٦] .

وأضاف الباحث يقول :

"The influence of the Egyptian art of stone engraving upon the Aegean seems natural even if we look only at the bulk of the production [7].".

كما أوضح الباحث فى ضوء الاكتشافات الحديثة ، والتى تَمَّت عَقِبَ صدور كتاب الأثرى وارن[٨] : Warren سنة ١٩٦٩ ، نواحى التشابه والاختلاف بين الأصول المصرية والإنتاج اليونانى لهذا النوع من الفازات والذى لم يقتصر على كريت المينوية أو جزر الكيكلاذيس[٩] .

وهناك رأى يقول بأن فن صناعة الأختام والحفر عليها ، وكذلك صناعة الآنية الحجرية ، ربما جاء مع بعض المهاجرين واللاجئين الجدد ، الذين تركوا سوريا قادمين إلى كريت ، إذ كانت سوريا وفلسطين عرضة لغزو خارجى ، مصدره أواسط وشرق الأناضول ، حوالى منتصف الألف الثالثة ق . م .

هنا تجب الاشارة إلى العثور على الفخار المميز لهؤلاء الغزاة فى طبقات بعض الأماكن على الساحل السورى ، مثل « رأس شمرة » وليس من المستبعد ، إذن ، أن يتخذ بعض لاجئى هذه المناطق طريقهم إلى كريت[١٠] .

وقد ظهر التأثير المصرى القديم على شكل أقدم كتابة عرفها أهل كريت القديمة ، تلك الكتابة سماها مكتشفها ، الأثرى إيفانز ، باسم « الكتابة الخطية الأولى » (Γραμμική A') وهى كتابة تأخذ علاماتها أشكال الصور ، التى تشبه ، بل ربما اشتقت من ، اللغة المصرية القديمة ، الهيروغليفية ، وكان إيفانز قد سمَّاها ، عند

اكتشافه لها : The Hieroglyphic or Pictographic[١١]

ومنذ أوائل السبعينيات ، ظهرت محاولات لقراءة هذه الكتابة وإن كانت هذه المحاولات لم تزل فى مراحلها الأولى حتى اليوم[١٢] .

ولم تكن جزر الكيكلاذيس (Κυκλάδες) بمعزل عن التيارات الشرقية الأولى داخل البحر الإيجى (τὸ Αἰγαῖον) بالرغم من العزلة الطبيعية التى فرضتها عليها مقومات موقعها الجغرافى فى وسط ذلك البحر ، على هيئة عقد انفرطت حباته من الجزر الصغيرة المتناثرة . ولكن هذا التأثير الشرقى على حضارة الكيكلاذيس كان فى أضيق صورة وعلى نطاق محدود جداً . فإننا لا نجد إلا موضوعاً ، يمكن أن يثار الشك حول أصله ، وهو شكل تلك التماثيل الواقفة ، الصغيرة منها على وجه الخصوص ، والتى تضع أيديها على صدورها[١٣] .

وكما قال أحد الأثريين الانجليز ويدعى Shorter ، ما أشبه هذه الأشياء بتماثيل الأوشابتى أو الشاوابتى (المجيب) المصرية . وهذا موضوع كثر فيه الجدل .

ولكن المدهش حقاً هو ندرة ، وبالأحرى ، انعدام وجود قطع أثرية مصرية أصيلة فى إحدى هذه الجزر حوالى أواخر الألف الثالثة ق .م ، فى الوقت الذى نجد فيه أشياء مصرية كثيرة فى كريت ، جنوب تلك الجزر[١٤] .

وفى أواخر هذه الألف الثالثة وبدايات الألف الثانية ق . م ، نلاحظ أن هناك شعباً آخر ، جديداً (قادماً ، بلا شك ، من الشرق « أناتوليا[١٥] ») .

واستقر فى بعض جزر الكيكلاذيس وفى إفيا (Εὔβοια) مجموعة منهم سكنت جزيرة كيا (Κέα) فى منطقة أغيا إيرينى (Ἁγία Εἰρήνη) بينما وصلت مجموعة أخرى منهم ، إلى منطقة (خالاندريانى) Χαλανδριανή فى جزيرة سيروس (Σύρος) .

هؤلاء المهاجرون الجدد ، القادمون من الشرق (الأناضول) ، كانوا يصنعون فخارهم « بالعجلة » (أو الدولاب) ، وهو أسلوب جديد تماماً على السكان اليونانيين الأصليين الذين سرعان ما تعلموا منهم استخدام هذه الآلة ، وانتشر بذلك إنتاج نوع جديد ، وأكثر كمية ، من الفازات اليونانية سواء فى بلاد اليونان الأصلية أو فى كريت .

لقد كانت موجة الهجرات ، التى تحدثنا عنها آنفا ، والتى خرجت من أناتوليا فى

اتجاه اليونان القديمة وجزرها ، حوالى الألف الثالثة وبدايات الألف الثانية ق . م هى نفس الموجة التى ، ربما ، كان منها كادموس وأهله ، تلك الشخصية الأسطورية التى سمعنا عنها بين سطور أقدم انتاج أدبى ليونانى العصور التاريخية . لقد وصف لنا هيسيودوس (Ἡσίοδος) فى « الأعمال والأيام » مدينة طيبة (Θῆβαι) التى أقامها الملك كادموس ، الفينيقى ، بأنها توجد داخل الأراضى الكادمية[١٦] .

ولهذا لم يكن غريباً أن نسمع عن حرب ضروس بين هذه المدينة ، ربما بسبب أنها تتبع أناس أجانب فى الأصل ، قد حققوا تقدماً وازدهاراً وثراء ، وليس بسبب الصراع على عرشها ، كما نعرف من مسرحية «سبعة ضد طيبة » للشاعر الهيلينى إسخيلوس[١٧] .

وإن لم يكن الأمر هكذا ، فكيف نفسر الحقيقتين التاليتين :

ا/ اعتبار هيسيودس لهذه الحرب شراً وبيلاً – كالحرب الطروادية تماماً وقيام أرجوس (Ἄργος) التى لجأ إليها بُوليتيكوس ، بتجهيز حملة بكل معانى الكلمة ضد طيبة[١٨] .

ب / إكتشاف منطقة سكنية ، تحمل الطابع المصرى ، فى عمارة مبانيها من أشكال هرمية وآبار وهمية سحيقة فى نفس ذات المنطقة (كَاذْميا) . وتُؤَرَّخ بنهايات الألف الثالثة ق . م[١٩] .

وهكذا فإننا نستطيع القول بأن الفنيقيين كانو أول من اتصل اتصالاً مباشراً باليونانيين القدماء ، سواء على الساحل السورى ، على فترات متباعدة ، كما أكدت لنا حفائر رأس شمرة (أو غاريت) ، أو بوصول جماعات منه إلى الأراضى اليونانية ذاتها والعيش بين ظهرانيهم .

وفى عام ١٩٨٢ أعلن الأثرى اليونانى يانى سكيللاراكيس Ι. Σακελλαράκης عن كشفه فى أرخانيس (Ἀρχάνες) لطقس هام من طقوس عبادة المينويين القدماء إبان العصر المينوى الوسيط ، فى القرن ١٨ ق . م . وهو تقديم قرابين أو أضحيات من بنى البشر على شكل إنسان ، يذبح فى مذبح الإله المعبود . كان ذلك بمثابة ضربة للفكر اليونانى المعاصر ، الذى استنكر هذا بشدة وبدأ يشك فى سلامة واحتمالات صحة الكشف الأثرى الذى لا يقبل الشك .

وظاهرة تقديم قرابين للآلهة فى صورة إنسان ، أى الـ (ἀνθρωποθυσία) كما تعرف فى اللغة اليونانية – التى كان لها شبيه فى حضارات الشرق القديمة[٢٠] ، مع اختلاف فى طريقة تقديم هذا القربان فى هذه الحضارات ، عما عرفناه عن ملابسات

ذلك فى كريت القديمة[21] . لم تكن هذه الظاهرة ، إذن ، بدعة يونانية ، بقدر ما كانت تأثيراً شرقياً على فكر ومعتقدات أولئك الكريتين المنويين .

إن رسومات ومناظر تابوت الدفن المشهور المعروف باسم : تابوت أغيا ترياذا : (Τό Σαρκοφάγος τῆς Ἁγίας Τριάδος) لهى دليل آخر على التأثيرات المصرية خاصة والتأثيرات الشرقية عامة ، على عقيدة المينويين آنذاك .

يسجل ذلك التابوت لحظة تقديم قرابين للميت ، وهنا نلاحظ العناصر الشرقية - كما جاءت بمناظر جوانب التابوت .

ا / تقديم ذبيحة أمام الميت ، وهى عادة شرقية ومصرية كذلك[22] .

ب / تقديم مركب للميت ، حيث ستساعده فى رحلة العالم الثانى ، وهى عادة مصرية تتعلق بأساطير المصريين القدماء حول رحلة الميت فى مركب الشمس .

جـ / وقوف الميت فى شكل أوزيرى . على هيئة مومياء ، وهى عادة مصرية فرعونية ، عند تحنيط الميت استعداداً لدفنه .

د / لبس الكهنة ، المشرفين على إتمام طقوس الدفن وتقديم القرابين ، لجلود الحيوانات وإنّ اختلفت هذه الجلود عن مثيلتها فى العهد الفرعونى[23] .

ولم يتوقف الفكر المينوى ، عند تقليد كل هذه العادات الشرقية ، ودفن الأموات داخل توابيت خاصة بهذا الغرض . فقد عرف المينويون كذلك مجموعة من الحيوانات مثل القطة وغيرها[24] . واتخذوها رموزاً مقدسة لهم .

إن التأثير الشرقى على حضارة كريت لم يقتصر على الدين فحسب ، بل امتد إلى عمارة المقابر ذاتها ، تلك المقابر المسماه « المقابر القبابية » (Θολωτοί Τάφοι) كما أثبتت ذلك حفائر مِسَّارا (Μεσσαρά)[25] وحفائر ميناء كاتْسَمْبَا (Κατσάμπα) بالقرب من كنوسوس عاصمة كريت القديمة[26] .

وإنه لمن المدهش حقاً أن يتم الكشف عن تمثال مصرى أصيل يعرف باسم تمثال (User) داخل القاعة الرئيسية للعرش فى قصر كنوسوس ، ذلك التمثال الذى يؤرخ له بحوالى ١٩٠٠ ق . م فماذا يعنى ذلك ؟ هنا تكثر الاجتهادات ، فنحن أمام أثر ، بالرغم من أنه صغير فى حجمه إلا أن دلالته لابد أن تكون كبيرة بالنظر إلى مكان اكتشافه . إن هذا الكشف الصغير لينهض دليلاً قوياً وأكيداً على اتصال البيت الحاكم فى كريت بمصر الفرعونية فى ذاك التاريخ ، بغض النظر عن نوعية هذا الاتصال ز وإن كنا نُرَجِّح أنه كان

بدافع التقارب والاحترام المتبادل عن طريق تبادل الهدايا الملكية وما شابه ذلك[27] .

ولكننا لا نلبث أن نسمع عن وجود عمال مهرة يساعدون فى بناء قصر تيه آخر فوق الأراضى المصرية أو هرم جديد لحساب أحد فراعنة الدولة الوسطى الأوائل فى بدايات الألف الثانية ق . م فهل كان أولئك كريتيون ، جاءوا يقدمون خدماتهم الجليلة لفرعون مصر[28] ؟

وإذا كان الأمر كذلك ، فإننا هكذا ، نجد ، لأول مرة ، دليلاً على وصول اليونانيين إلى مصر مع بدايات الألف الثانية ق . م ، بعد أن كان اتجاه التأثير طيلة الألف الثالثة ق . م ، فى ناحية واحدة ، أى من الشرق فقط إلى اليونان . وإنه ليس أدل على استنتاجنا هذا من العثور على محاولات مصرية لتقليد الآنية الكريتية بزخارفها النباتية الرائعة ، فضلاً عن العثور على آنية كريتية أصلية فى أماكن عديدة من مصر الفرعونية تُؤَرَّخ بالألف الثانية ق . م[29] . لقد عرفت مص كريت وأهم مراكز حضارتها آنذاك[30] ، كما عرفت البضائع الكريتية طرقها إلى قصور الملوك والأمراء المصريين .

وتمر القرون تباعاً ، تنشغل خلالها مصر بمشاكلها الداخلية ، وتتعرض كريت لزلزال قوى يعصف بقصورها حوالى ١٧٠٠ ق . م ، فتعاد الأبنية من جديد ، وبصورة أكثر فخفخة وأناقة ، كل هذا وبلاد اليونان الأصلية تعيش حياة العزلة ، والتقوقع داخل سجونها التى فرضتها عليها طبيعة تضاريسها ، فى الوقت الذى تفاجىء فيه كريت حوالى منتصف القرن الخامس عشر ق . م . بزلزال ، أو بغزوة أجنبية ، تدمر قصورها من جديد إلى غير رجعة .

ولكن ما يلبث القرن السادس عشر ق . م أن يبدأ حتى نسمع عن حضارة جديدة فى بلاد اليونان ذاتها (Κυρίως Ἑλλάς) ، سميت بالحضارة الميكينية أو الموكينية[31] . تلك الحضارة التى خلدتها أثارها الباقية إلى اليوم فى كل من ميكينى (Μυκῆναι) وبيلــــــوس (Πύλος) ، تيرنس (Τίρυνς) ، وطيبة ، كذلك فى محافظة قيوتيا ، شمال غرب أثينا وشمال الخليج الكورنثى .

وكما نعرف جميعاً ، فقد كانت أهم خصائص المجتمع الميكنى هى الروح العسكرية التى لازمت وجودهم وميزت شخصيتهم وطبعت حضارتهم بطابع الإغارة المستمرة والاعتداءات المتكررة ، ليس فقط على المدن ومراكز التحضر الأجنبية ، بل أيضاً على

مدن وقرى يونانية مجاورة لمراكزهم[٣٢] . فنحن قد سمعنا عن الحرب الطروادية ، وعن غارات شعوب البحر الذين كان من بينهم الآخيون : « أهياوا (Ahiyyawa) أو أكاوشا (Akawasha) كما جاء ذكرهم عند المصريين القدماء[٣٣] .

ولكننا قبل الحديث عن أولئك الغزاة ، الذين يمثلون آخر صورة أو مرحلة من مراحل تطور الحضارة الميكينية ، فإننا لابد أن نصور بذاكرتنا تلك البعثات الدبلوماسية الراقية ، فى شكل وفود ملكية حاملة الهدايا إلى الفرعون المصرى ، تحتموس الثالث نابليون الشرق . كما ظهرت فى رسومات خمس مقابر فرعونية لوزرائه . مثل مقبرة رخمرع (Rekhmire) ومقبرة سنموت . إنهم جماعة الـ (Keftiu) أو (Kefti) الذين عادة ما يعتبرهم المؤرخون كريتيين[٣٤] .

وقبل ذلك ، حوالى منتصف القرن السادس عشر ق . م ، تقريباً حوالى ١٥٥٠ ق . م ، عرف الفنان الميكينى ظاهرة فنية جديدة عليه تماماً ولم يعرفها كذلك الفنان الكريتى الذى شارك مشاركة فعالة فى نهضة الفن الميكينى – إنها صناعة الأقنعة المعدنية ، وبصفة خاصة الذهبية ، والتى اكتشفت منها ثلاثة فى المجموعة الأولى من مقابر أكروبول ميكينى ، وأربعة أخرى فى أماكن أخرى متفرقة . وهذا الأسلوب الفنى بعينه ، هو دليل قاطع على تأثير الحضارة المصرية المبكر على الحضارة الميكينة وهى فى أوائل عهدها وبزوغ فجرها[٣٥] .

هنا لن نتدخل فى تفاصيل الظروف والملابسات التى أدت إلى تلك النتيجة من التأثير المصرى على تلك الحضارة الفنية ، إذ كانت هذه الظروف مادة اختلاف بين المؤرخين والأثريين ، وقد ناقش جزءاً منها الأستاذ الدكتور/ أحمد غزال فى مقالة منذ سنوات[٣٦] . كما أننا نتفق معه ومع الأثرى Pendlebury بأنه « **لا يوجد ما يفيد بأن الكريتيين قد ساندوا مصر فى طرد الهكسوس من أراضيها**[٣٧] » .

ولكننا نختلف اختلافاً تاماً مع د . غزال فيما توصل إليه من نتائج بحثه السابق ومنها التأثير الميكينى على الفن المصرى بمجرد وجود تشابه فى صورة الـ (Griffin) الموجود على بلطة أحمس الأول مع مثيلتها فوق خناجر ميكينية ، بالرغم من أن هذا الحيوان أصلاً ، ليس ميكينياً يونانياً ، بل من التأثيرات الشرقية على الحضارة اليونانية بدءاً من الحضارة الكريتية[٣٨] . هذا فضلاً عن اختلافنا معه حينما توصل إلى أن الذين ساعدوا مصر فى طرد الهكسوس لم يكونوا من كريت بل كانوا من موكيناى[٣٩] وذلك لأن أدلته التى ساقها

لا تقود بالضرورة إلى هذه النتيجة . فهو يقول :

« ولهذا فإن نص لوحة الكرنك والزخارف الإيجية على الحلي والأسلحة التى اكتشفت بمقبرة الملكة « راع حتب » يشدنا بالضرورة إلى الاعتقاد بأن المملكة (Hou-Nebu) التى تعنى جزر البحر المتوسط يُقصد بها موكيناى[٤٠] » .

وربما يحتاج الأمر إلى توضيح الصورة أكثر فيما يخص طبيعية العلاقات المصرية الميكينية ، وهى المرحلة التالية التى أعقبت ، بل وورثت العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بالفعل بين مصر وكريت من قبل ظهور هؤلاء الميكينين على مسرح الأحداث .

أولاً : يبدو للدارس المدقق أن اللوحات الجدارية للأجانب الـ (Keftiu) فى المقابر المصرية قد تغيرت ملابسها ، ولا سيما إزار الوسط ، مرتين ، ففى الأولى كان الزى كريتى ، وفى الثانية تم تعديله ليكون زياً شبيهاً بزى سكان البحر الإيجى إبان العصر الميكينى ، وهذا يعنى أنه كانت هناك سفارتان ، إحداهما الأخرى ، وإن اختلفت فى أزيائها لاختلاف التغيرات التاريخية وبحكم السيادة الجديدة فى حوض البحر المتوسط الشرقى والذى انتقل آنذاك إلى الميكينين[٤١] .

ثانيا : إن تفسير ظاهرة ظهور الذهب الكثير والمفاجىء فى المراكز الحضارية الميكينية على هذا النحو[٤٢] ، لم يعد – الآن فى ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة – كما كان من قبل دليلاً على وصول مرتزقة يونانيين ميكينين لمساعدة المصريين فى طرد الهكسوس ، ذلك لأن أشياء ذهبية كثيرة قد تم العثور عليها فى مقابر منطقة بيرستريا Περιστεριά وفويذوكيلياس (Βοϊδοκοιλιάς) فى منطقة بيليا (Πυλεία) على يد الأثرى اليونانى يُورغوس كوريس (Γιώργος Κορρές) – أستاذ آثار ما قبل التاريخ بجامعة أثينا – الذى مازال مستمرا فى حفائره هناك حتى الآن[٤٣] . وجميع هذه الأشياء أو أغلبها ، يؤرخ فيما قبل ١٥٧٠ ق . م ، وهو بداية تأسيس الدولة الحديثة فى مصر عقب طرد الهكسوس .

ثالثا : ثم كيف إذن وصل الميكينيون إلى مصر فى ذلك التاريخ المبكر من نشأة حضارتهم ، حتى ولو كانوا مرتزقة عسكريين – ولم يتركوا خلفهم آثارا تؤرخ بتلك الفترة المبكرة ؟ إن آثارهم التى تم الكشف عنها فى مصر الدولة الحديثة تُؤرخ بالقرن الرابع عشر . ق . م وما بعده وليس قبل ذلك .

هذا ، فضلاً عن تقليد عادة دفن الموتى ، الذين ينتمون إلى أسرة واحدة ولمدة أجيال متلاحقة ، فى مقابر صخرية تأخذ شكل الحجرات (Rock-Cut chamber tombs) والتى ظهرت واضحة فى مدافن الميكينين ، فى منطقتى مسينيا وأرجوليذا ، فى القرن السادس عشر ق . م[٤٤] .

وإنه ، فى ضوء النظرية الجديدة ، لصاحبها S. Hood بأن الميكنيين وحكامهم ربما كانوا أحفاد غزاة شرقيين كانوا قد وصلوا إلى بلاد اليونان الأصلية من نهاية العصر الهيللادى المبكر (أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م) وربما كانوا رعايا جزيرة كريت[٤٥] ، نستطيع أن نجد تفسيراً واضحاً لكل هذه التأثيرات المصرية المحدودة ، والهامة فى نفس الوقت ، ذلك لأنها كانت من نوع التأثيرات المعنوية مثل الإيمان بعقيدة ما بعد الموت ، مما جعل الميكنيين يضعون فى مقابرهم أحب أمتعتهم معهم ، كعادة المصريين القدماء . . وكذلك عادة اتخاذ الأسد رمزاً للقوة والجبروت[٤٦] وهذا تأثير شرقى واضح على الحضارة الميكينية ، تلك التى جعلت من هذا الأسد حارساً على قلعة الحكم فيها ، فى ميكينى ، حيث توجد بوابة الأسود λεόντων ἡ πύλη والتى تؤرخ بالعصر الهيللادى المتأخر[٤٧] (Late Helladic III) ، قبل ١٢٠٠ ق . م[٤٨] بقليل على وجه التقريب .

وقبل أن نصل إلى نهاية عصر البرونز وآخر مراحل العلاقات المصرية الميكينية فى الألف الثانية ق . م ، ندور بوجهتنا تجاه أقصى الحوض الشرقى للبحر المتوسط حيث تُوجد قبرص ، تلك الجزيرة التى كانت مطمع كل ملك من ملوك المنطقة المحيطة بها .

إنه بمجرد طرد الهكسوس من مصر ، استمرت وازدهرت حركة التجارة الخارجية مع مصر ، فكان انتشار السلام المصرى (Pax Aegyptiaca) عاملاً على تهيئة الظروف السليمة الملائمة للقيام بالعمليات التجارية وتبادل السلع وبالذات مع القبارصة « **ويبدو** – على حد قول العالم الأثرى القبرصى فاسو كارا يورغى[٤٩] – **أن قبرص وجدت نفسها مضطرة أمام قيام مصر بدور فعّال وخيِّر فى المنطقة أن تدفع** ضريبة من **نوع ما لفراعنة مصر** » وهذا ما نعرفه فعلاً من نصوص تل العمارنة ، فى مراسلات الملك القبرصى إلى إخناتون . وكانت هذه الضريبة ، فى الغالب ، تدفع فى صورة مبلغ معين من العملات النحاسية (τὰ τάλαντα)[٥٠] .

لقد كانت قبرص ، منذ ذلك التاريخ ، أكثر الأماكن لليونانيين – بحكم قرب موقعها من التأثير المصرى ، قوةً وضعفاً – تأثراً بمصر وحضارتها القديمة ، وهذا يتضح أكثر عندما غدت لهم أدوار ومساهمات فى العملية التجارية بين الشرق وبلدان حوض البحر

المتوسط الشرق ، جنباً إلى جنب مع الفينيقيين .

قامت قبرص باستيراد مادة الفيانس من مصر وتصنيعها محلياً عندها وأصبحت هى المُصدِّر لعالم البحر المتوسط فى القرنين الـ (١٣) والـ (١٢) ق . م[٥١] . فكان ذلك فرصة للقبارصة للتعرف على آلهة المصريين ، فاختاروا من بينها ما يتلاءم مع طبيعتهم وظروفهم ، ووقع اختيارهم ، بصفتهم تجار ، على المعبود « بس » الإله الحامى للتجار والجالب للحظ السعيد[٥٢] . عندئذ يمر حوض البحر المتوسط الشرقى بظروف تدهور واضمحلال[٥٣] ، انعكست آثاره على تفشى ظاهرة القرصنة والاعتداء على المدن الساحلية ، وفى عمليات سَرِقة جماعية من قِبَل قراصنة البحر ، الذين سُمُّوا – فى التاريخ القديم – باسم « شعوب البحر » .

وفى الفترة الواقعة من ١١٢٥ وحتى ٧٠٠ ق . م ، كانت اليونان تعيش عصر تجميع القوى والتعرف على ذاتها ، وكانت بالفعل ، كما أسمتها مراجع تاريخها لهذه الفترة[٥٤] « فترة إعادة البناء القومى والسياسى » .

وعن القرن الثامن ق . م على وجه الخصوص ، كتب J. Chadwick سنة ١٩٧٦ يقول واصفاً المجتمع اليونانى فى تلك الفترة من تاريخه :

"Greece in the eighth century B.C was a disorganized Collection of petty states, still living at a comparatively low level of civilization; houses were mainly of wood and mud bricks; precious materials were very scarce; the arts of painting and sculpture were primitive[55]".

وكأن اليونان قد أُخرِجَت من الجنة التى كانت تحياها فى قرون المجد والعظمة وأيام الحياة الهانئة ، المرفهة ، داخل القصور الملكية فى كريت وميكينى وطيبة وبيلوس وتيرنس فراحت تعيش على **الماضى** التليد ، **والمجد** الغابر ، فأسعفتها ذاكرتها ببعض صورها العظيمة ، فأحيت ذلك فى قصائد شعر خالدة ، كانت أقدم الأعمال الأدبية الملحمية فى العالم فعرفنا نحن اليوم « الإلياذة » (ἡ Ἰλιάς) والأوديسيا (ἡ Ὀδύσσεια) .

وعرفت اليونان الحروف الأبجدية ، حوالى ٧٤٠ ق . م ، وزادت أماكن عبادتها لآلهتها ، فبعد أن كانت ١٢ مكاناً مقدساً – بدون معابد – فى القرن التاسع ، وصل عدد تلك الأماكن إلى ٧٠ حولى عام ٧٠٠ ق . م ، كان بعضها – على الأقل – معابد مبنية بالأحجار والأخشاب ، وكان أضخم وأكبر معبد للربة هيرا (Ἥρα) وهو

ذلك المعروف باسم (τὸ Ἡραῖον) فى ساموس ، قد شيد حوالى عام ٨٠٠ ق . م[٥٦] .

إن أحد خبراء وعلماء تاريخ اليونان فى العصر الجيومترى ، وهو الانجليزى نيكولاس كولدستريم (N. Coldstream) يعتبر منتصف القرن الثامن ق . م – بالنسبة لتاريخ الحضارة اليونانية فى العصور التاريخية – هو بمثابة الفجر الحقيقى[٥٧] : (real dawn) .

وفى حوالى عام ٧٠٠ ق . م كانت محاولات اليونان لتقليد نحت الوجه بنفس المعايير الشرقية ، ولكنها سرعان ما تميزت بطابعها الخاص وأخذ نمط نحت ملامح الوجه شكلاً يونانياً خالصاً .

وبعد ذلك بقليل ، ظهرت ، أولاً فى كريت ، استخدامات القالب فى النحت (mould) ومعروف أن هذه الطريقة لزخرفة الآنية الكبيرة بنماذج تشكيلية بارزة وغائرة ، لانتاج أكبر الكميات ، قد جاءت إلى كريت مع وافدين أو مهاجرين من الشرق[٥٨] وفى الحال – كما عودتنا العبقرية اليونانية دائماً– ظهرت محاولات التقليد المحلية اليونانية الخالصة ، كما عثرنا على أمثالها فى رودوس ، والبلوبونيز .. مع إحداث تغييرات طفيفة وإدخال هذه الطريقة لرسم أنماط للرجال والنساء على السواء وبالذات ما عرف باسم الفن الديدالى (Δαιδαλική Τέχνη)[٥٩] .

وفى القرن السابع نفسه كانت البداية الحقيقية لمعرفة اليونان النحت الحجرى الضخم كدليل آخر على تأثرهم بالفن المصرى وطرق صناعة هذه الأحجام العملاقة من التماثيل .

أما عن الجانب المصرى ، فإننا نعرف أن مصر كانت تمر بصراعات عديدة بين الأمراء فى الشمال والجنوب على زعامتها واعتلاء عرش البلاد منذ القرن العاشر (الأسرة ٢٢)[٦٠] وحتى تأسيس الأسرة (٢٦) الصاوية ، تلك التى أسسها أبسماتيك الأول ، حوالى ٦٦٤ ق . م بمساعدة مرتزقة يونانيين من إيونيا (ἡ Ἰωνία) وكاريا (ἡ Καρία) فأصبحت مصر دولة مستقلة وتحت زعامة فرعون واحد لشمالها وجنوبها ، بعد تحريرها من الآشوريين والكوشيين على السواء[٦١] .

إن أقدم ما كُتِبَ عن أبسماتيك الأول وحكمه ، نجده عند هيرودوت[٦٢] أى بعد حوالى مائتى سنة تقريباً من عهد الفرعون المصرى ، عندما كانت ذكريات عهده ما زالت عالقة بأذهان الشعب المصرى وكهنته الذين استقى منهم هيرودوت معلوماته ،

وأصبح أبو التاريخ عندئذ ، المصدر الأول لكل من تعرض لنفس الموضوع من مؤرخى العصور التالية من الكتاب اليونان[٦٣] الذين أثاروا الغموض وأكثروا من الأساطير حول تلك الشخصية العظيمة فى تاريخ مصر الفرعونية .

هنا ، نستطيع أن نميز **مرحلة ثالثة** ، وهامة ، فى مراحل تطور العلاقات المصرية اليونانية ، **تلك المرحلة التى تتفق مع بداية الأسرة (٢٦) ونهايتها فى ٥٢٥ ق . م وغزو الفرس لمصر**[٦٤] .

فقد كانت هذه الفترة من أكثر الفترات ازدهاراً لوجود العنصر اليونانى داخل مصر الفرعونية ، وخلالها كانت لليونانيين ، أنشطة متنوعة ، تحت سمع وبصر الفرعون المصرى ذاته ، وبتصريح خاص منه ، لأول مرة فى تاريخ مصر الفرعونية .

لقد جاء اليونانيون إلى مصر هذه المرة ، فى إتصال مباشر تماماً ، ولكن ليس كما جاءوا آخر مرة فى القرن الثانى عشر ق . م كغزاة وقراصنة ولكن كتجار وجنود ومرتزقة يعملون فى خدمة الجيش المصرى[٦٥] .

وإذا كان اليونانيون قد جاءوا مصر بعد ذلك بالآلاف ليتاجروا وليقيموا بين المصريين أو فى معسكرات خاصة بهم كمرتزقة ، أو حتى كملاحين بحارة يساهمون فى بناء الأسطول الفرعونى ، سواء التجارى أو الحربى[٦٦] فإن الفراعنة المصريين كانوا باستمرار يقدرون خدماتهم الجليلة إلى أن جاء أماسيس (أحمس الثانى) حوالى ٥٧٠ ق . م ، فبنى لهم مدينةً خاصةً بهم لا يغادرونها ، بعد أن أثاروا حفيظة الجنود المصريين ضدهم بسبب امتيازاتهم العديدة واقطاعيات الأرض التى كانوا يحصلون عليها لقاء خدمتهم فى الجيش الفرعونى ، تلك المدينة هى نكراتيس (Ναύκρατις) التى كانت بالفعل موجودة منذ أواخر القرن السابع ق . م[٦٧] .

لقد وصل الأمر ، ثقةً فى الجنود اليونانين ، إلى أن جعل منهم أبسماتيك الثانى المَيْمَنَة فى جيشه وعلم أولاده اللغة اليونانية وثَقَّفهم بها[٦٨] .

كانت تجارة الخمر وزيت الزيتون من أكثر صادرات اليونانيين لمصر بهدف إيجاد أسواق شرقية جديدة لمنتجاتهم والسعى وراء حياة أفضل تجود بالخير[٦٩] ، وكانوا يعودون بخيرات مصر معهم إلى بلادهم ، من ذهب وقمح ومنسوجات كتانية[٧٠] .

وجدير بالذكر أنه تم العثور فى الأرض اليونانية ، داخل المعابد بوجه خاص ، على أفخم وأهم ما كُشِفَ من تماثيل مصرية أصلية فى اليونان ، وجميعها تقريباً تؤرخ بنفس

الفترة التاريخية التى قلنا أنها كانت أكثر فترات العلاقات المصرية – اليونانية ازدهاراً ، فتم اكتشاف كميات كبيرة من تماثيل برونزية صاوية من معبد هيرا فى ساموس وأكبر عدد من تماثيل الفيانس من جزيرة رودوس ، ومن أماكن أخرى متفرقة فى اليونان وجزرها.[٧١]

وهذا يؤكد أن العلاقات حينئذ ، كانت قد بدأت شكلها التجارى المتبادل على الصعيد الشعبى لأول مرة فى تاريخ علاقات البلدين ، كما عكست صورة الاندماج بين الشعبين الذين فتحا الباب أمامها للاختلاط والتجانس مما يسهل التفاهم الأفضل والتأثير الأعمق كما حدث فى العصر الهيللينستى بعد ذلك .

(١)



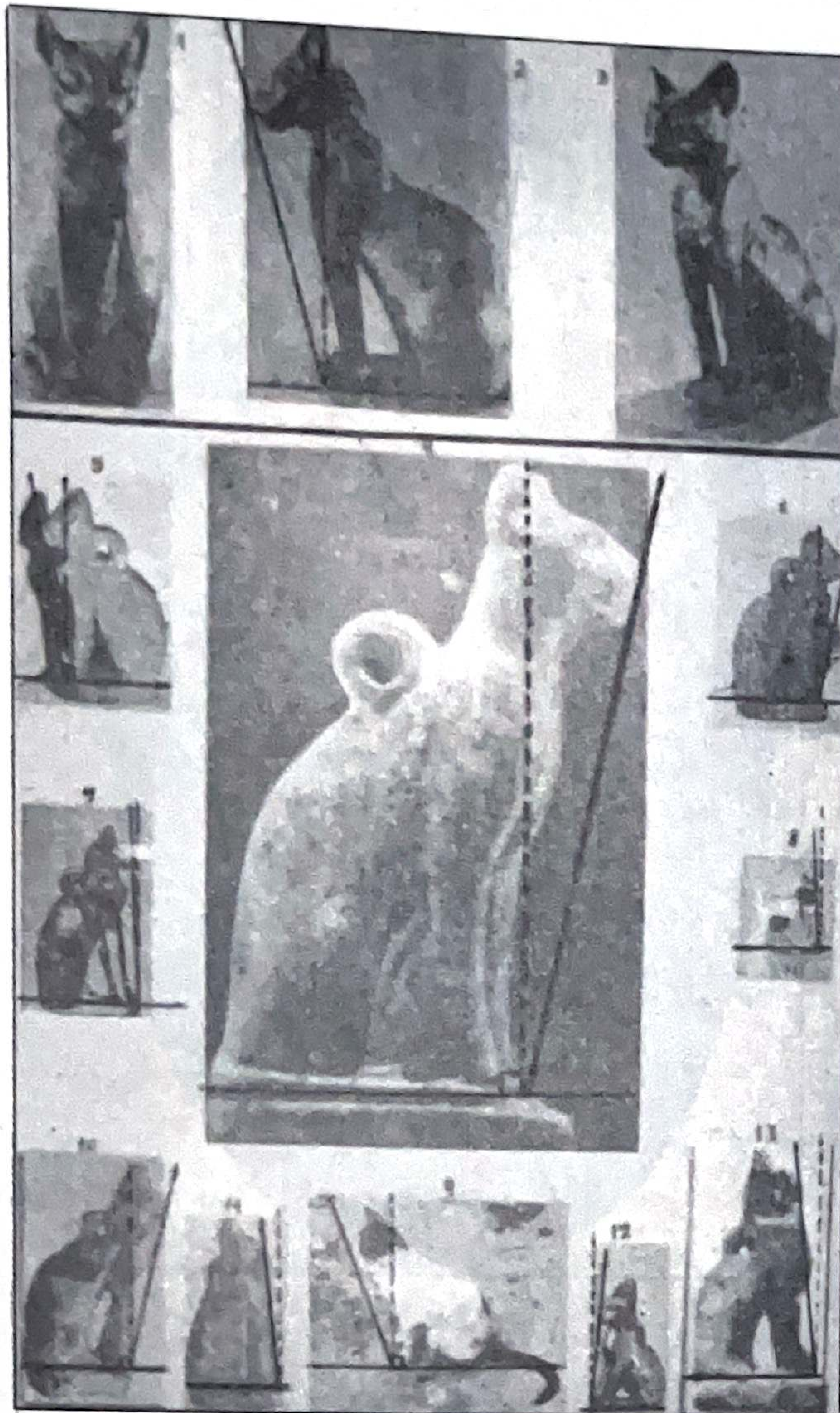
صورة أقدم أثر وأندر شكل لوجه إنسان فى المتن المينوى الكريتى . رسم ملامح الوجه فى وضع « المواجهة » (Frontal) . [الأصل كما هو موجود فى متحف هيراكليون – كريت] .

(٢)



حلق سيدة كريتية تحاول ترتيب زينتها بيدها اليسرى . تصوير جدارى على الجص [مادة جيرية تعرف بـ Fresco .] محاولة لتوضيح تفاصيل الحلق المينوى بالرسم] .

(٣)



مجموعة من تماثيل الالهة « باستت » تؤرخ بالقرنين ٧ و ٦ ق.م من اليونان مقارنة بالأصل المصرى (فى الوسط) ، فى ضوء الوضع الطبيعى لقطة حقيقية .



صورة كبيرة لشعار على خاتم مينوى ، ربما كان رمزا لأمير كريتى ، أقدم أثر للإلهة « باستت » خارج مصر الفرعونية .

The Abbreviations:

A A	: Archäologischer Anzeiger, Berlin.
A A A	
A,	
A J A	: American Journal of Archaeology.
B S A	: Annual of the British School at Athens, London.
J A R C E	: Journal of the American Research Center in Egypt.
J E A	: Journa of Egyptian Archaeology, London.
II A E	

هوامش

(1) Hood, S., **The home of the heroes, p. 36.**

(2) Op. cit.

(3) Hood, op. cit., p. 41.

(4) Sakellarakis, J., "Mycenaean Stone Vases", Studi Micenei ed Egeo-Anatolici, XVII (1976), pp. 173-187.

(5) Ibid., p. 174.

(6) Petrie, Royal Tombs, I, 18; Lucas-Harris, Ancient Egyptian Materials and Industries, p. 422.

(7) Sakellarakis, op. cit., 174.

(8) Warren, Minoan stone vases, Cambridge, 1969.

(9) Sakellarakis, op. cit., 175.

فمثلاً تم العثور على إناء حجرى فى منطقة أغْيُوس كُزْمَاس : (Ἄγιος Κοσμᾶς فى محافظة أتيكا (Ἀττική) أنظر
National Museum, Inv. 8945

Mylonas, Aghios Kosmas, An early Bnonze Age Cenitary in Attica, pl. 164, Nr. 760.

(10) Ward, W., **Egypt and the East Mediterranean World**, pp. 71-125.

(11) Hood, op. cit., p. 42.

(12) Was, "A greek tax record written in Linear A?", AAA, VI.2 (1973) pp. 304-306.

(13) Hogarth, D.G., "A egean Sepulchral Figurines", in **Essays in Aegean Anchaeolgy** presented to Sir Arthur Evans, pp. 55-62, Oxford 1927; Weinberg, S.S. "**Neolithc Figurines and Aegean Interrelations**", AJA,LV (1951), pp. 121-33; Renfrew, C. "**The Development and Chronology of the Early Cycladic Figurines**", AJA, LXXIII (1969), pp. 1-32.

(14) Hood, The arts in Prehistoric Greece, p.21.

(15) Ibidem, p.22.

(16) "Ἔργα καὶ Ἡμέραι, 162: " τοὺς μὲν ἐφ' ἑπταπύλου Θήβῃ, Καδμηΐδι γαίῃ, ".

(17) "Ἑπτὰ ἐπὶ Θηβῶν", (Cf. Loeb Classical Library).

(18) **The Expansion of Mycenaean Civilization**", C.A.H., Rev. ed. Vol. I&2, 1964, p. 5. "It was essentially an Argive expedition; the surviving first line of the Thebais, beginning makes that clear".

(19) Σπυρόπουλος, Γ., "Αἰγυπτιακός Ἐποικισμός ἐν Βοιωτίᾳ", ΑΑΑ, 5 (1972), PP. 16-27.

(٢٠) انظر د . عبد العزيز صالح : **الشرق الأدنى القديم** ، الجزء الأول (مصر والعراق) ، صفحات ٤١٠ - ٤١١ ، وكذلك د . محمد إبراهيم بكر : **من تاريخ مصر القديم** (محاضرات جامعية) ، ص ص ٤٦ - ٤٩ .

(٢١) حيث تم الكشف عن سكين برونزية ، ملقاة فوق رقبة جثة (هيكل عظمى) لرجل فى مقتبل العمر ، مما يفسر القيام بتقديمه كقربان بذبحه إياه ، وليس بتخديره أو بإعطائه سُماً ، كما كان يحدث فى حضارات مصر والعراق القديم .

(٢٢) الجدير بالذكر ، أن هذه العادة مازالت باقية فى تراثنا القومى ، حتى يومنا هذا ، فيقوم بعض الناس بذبح أضحية ، يمر عليها نعش الميت ، أو بعد دفنه .

(٢٣) إقرأ لى مقالة ، تحت عنوان : "Origin, Use and Rendering of animals Hide on Some Classical Vases", International Congress of Classical Archaeology, A Thens 1983.

(٢٤) عن الآلهة المصرية فى كريت القديمة منذ أقدم العصور وحتى العصر الصاوى ، إقرأ لى مقالة باليونانية الحديثة بعنوان : « Σαϊτικές θεότητες στη Κρήτη », ΧΙΙ ον Διεθνές Κρητολογικόν Συνέδριον, Ἁγίου Νικολάου, Κρήτης, 1980.

(٢٥) Xanthoudides, **Vaulted Tombs of Messara**, p. 128.

(٢٦) Ἀλεξίου, "Υστερομινωϊκοί τάφοι λιμένος Κνωσσοῦ

(٢٧) لمزيد من المعلومات حول العلاقات المصرية - الكريتية ، انظر : (4) Evans, **Index to the Palace of Minos**, s.v. Egypt, pp. 44-45. Kantor, "**The Aegean and the Orient in the second Millenium B.C.**", AJA, 51 (1947), p. 17ff, Pendlebury, **Aegyptiaca**, pp. 3-4. Passim: "**Egypt and the Aegean in late bronze age**", JEA,xvi (1930), pp. 75-92. Hood, **The Minoans**, pp. 38,39, 41,48.

(٢٨) (5) Hall, "**The two Labyrinths**", J.H.S, 25 (1905), p. 320 ff. Hood, **The Home of the Heroes**, p. 59.

(29) Kemp-Merrillees.

ويقول د . أحمد فخرى (**تاريخ الحضارة المصرية** : العصر الفرعونى ، المجلد الأول ص ٦٠٨) « كما نعرف أيضاً أنه كانت هناك صلة ما بين بيت أمراء طيبة وبين أهل كريت أثناء حرب الهكسوس ، وأنها كانت صلة صداقة ، بل وربما كانت اعترافاً بالجميل للملكة « اعح - حتب » أم الملكين كامس وأحمس ، بطلى التحرير ، والتى يظهر فى مجموعة حليها فى المتحف المصرى بالقاهرة أثر غير قليل من الفن الميسينى » .

(٣٠) ليس أدل على ذلك من أن نجد أسماء مدينة كنوسوس (Κνωσσός) عاصمة الحكم والادارة الكريتية

ومدينة أمنسُوس (Ἀμνισσός) من أهم مراكز عبادة الإله زيوس القديمة ، ضمن ما ورد من أسماء على معبد أمنحوتب الثالث الجنائزى ، انظر : Edel, **Die Ortnamenlisten aus dem Totentempel Amenophis** , Bonn 1966.

(٣١) حسب النطق القديم أو الحديث لعاصمة حكم هؤلاء وهى (Μυκῆναι) فى محافظة (Ἀργολίς) بشمال شرق البلوبونيز .

(٣٢) د . لطفى عبد الوهاب : **اليونان ، مقدمة فى التاريخ الحضارى** ، ص ٨٢ - ٩٢ ، وكذلك د . سيد الناصرى : **الاغريق ، تاريخهم وحضارتهم** ، ص ٧٢

(٣٣) عن شعوب البحر جميعاً ، انظر : Sandars, **The Sea-Peoples, warriors of the ancient Mediterranean** 1250-1150 B.C.,

وعن أحدث النظريات لتفسير أسماء شعوب البحر كما وردت فى النصوص المصرية ، والتعريف بهم ، راجع : **Nibbi, The sea peoples: A Re-Examination of The Egyption Sources,:**

(٣٤) فى واحدة من أحدث الدراسات حول تحديد هوية هؤلاء ، توصل J. Strange, Caphtor/Keftiu: **A new investigation (A cta theologica Danica, 14), Leiden-Brill 1980.** إلى أن ما ذكرته المصادر المصرية لهذا الاسم هو تحديد لجزيرة قبرص وموقعها ، أو ربما لجزء منها ، وبالتالى ليست هناك إشارة إلى كريت .. وهذا موضوع مازال مفتوحاً للمناقشة والبحث . ولكن هناك أثرى يونانى حدد هوية هؤلاء الأجانب - حاملى الهدايا للفرعون المصرى - بأنهم إيجيون (Αἰγαῖοι) أبان العصر الميكينى .

(٣٥) انظر ، فى هذا الموضوع ، ما كتبه د . أحمد غزال « تطور الفن الاغريقى فى العصر الهيلادى والتأثيرات المصرية » ، **عالم الفكر** (العصور الكلاسيكية) (٣) ، المجلد الثانى عشر ١٩٨١ ، ص ص ٥٧ - ٧٢ . وكذلك ما كتبه الأثرى اليونانى : Σταής, Β., « Περὶ τῆς χρήσεως Μυκηναϊκῶν τινων κοσμημάτων », Ἀρχ. Ἐφη.

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٧١

(٣٧) **«Egypt and the Aegean in the late Bronze Age»**, JEA, 16 (1930), p. 76ff.

(٣٨) CF. Hood, **the Home of the Heroes**, p. 82, plate 67,

حيث نجد مظهرين لهذا الطائر - الأسطورى ، وبدون أجنحة ، عن يمين ويسار كرسى العرش فى قصر كنوسوس ، ويؤرخ بحوالى ١٤٠٠ ق . م . كما أن هناك دراستين هامتين حول هذا الموضوع ، يمكن للدارس الاطلاع عليهما هنا

— Frank Fort H. **«Notes on the Cretan Griffin»**, BSA, xxxvii (1936-7), pp. 106-22.

— Dessenne, A. **«Le Griffon Creto-mycénien: invent-aire et remarques»**, BCH,Lxxxi (1957), pp. 203-215.

(٣٩) د . أحمد غزال : المرجع السابق ، ص ٧٢

(٤٠) المرجع نفسه .

(٤١) عن هذا الموضوع ودلالاته النسبة لنقل السيادة البحرية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط من يد الكريتيين إلى الميكينيين ، انظر : Ἐφη Σακελλαράκη: Τὸ Μινωϊκὸν Ζῶμα, Ἀθῆναι

وكذلك ، راجع العلامة الانجليزى Hood الذى يقول فى كتابه : The Home of the Heroes, pp. 118-119: «The Cretans in his tomb (i.e. Rekhmire: 1504-1450 B.C.) were originally painted wearing the traditional Cod-Piece; but after some years the Cod-Pieces were altered into kilts. It has been inferred that these are pictures of actusl envoys, and that the change of dress indicates a second embassy a generation or so after

the first, when the Cod-Piece had been replaced by the kilt in Crete.».

Hood, op. cit., pp. 73-74.

(٤٢) لمعرفة احتمال آخر ، انظر : Κορρές, Γ., «Ἀνασκαφαί ἀνά τήν Πυλίαν», ΠΑΕ (1980)

(٤٣) (44)— Hood, op. cit., p. 77. «This might be an imitation of Contemporary Egyptian burial custom».

(45) I bidem.

(٤٦) لم يتم العثور في اليونان كلها على أثر لوجود أسود فيها – في تاريخها القديم – حتى جاء د . كيليان نائب مدير المعهد الألماني للآثار في أثينا وواصل حفائره فوق أكروبول تيرنس القديمة (Tipuvs) وتم اكتشاف بقايا عظمية ، أكد خبيران ألمانيان بأنها تمت إلى أسد ما كان موجوداً في القصر الملكي أو في المنطقة المحيطة به ، انظر : Boessneck, J.-Vonden Driesch, A. «**ein Löwen knochen fund aus Tiryns**», AA, 1979, pp. 447-49.

(٤٧) جرت العادة بين العلماء والدارسين لحضارة اليونان القديم ، أن يسموا حضارة كريت Fig. 1a,b. باسم الحضارة المينوية ، نسبة إلى الملك الأسطوري مينوس (Minws) ، وأن يسموا حضارة بلاد اليونان الأصلية (شبه جزيرة المورة ذاتها : Hellas باسم الحضارة الهيلادية ، نسبة إلى تسمية اليونان باسم Κυρίως Ἑλλάς اشتقاقاً من اللفظة اليونانية : Ἑλλάς, Ἑλλάδος, ἡ

(٤٨) هذا التأريخ لهذا الأثر ، هو طبقا لاحدث كتاب عن الفن اليوناني فيما قبل التاريخ ، لصاحبه Hood, S., the Arts in Prehistoric Greece, p.101, fig. 82.

(49) Καραγιώργη, Β., Ἀρχαία Κύπρος, pp. 54-55.

(50) Ibidem.

(51) Peltenberg, **Excawation at Kition, I (1974)**, pp. 137-39.

(٥٢) تم العثور على تمثال من العاج لهذا الإله ، ارتفاعه حوالى ٢٠ سم ، في أحد المعابد بمدينة كتيون (Kition) القديمة .

(٥٣) عن العلاقات المصرية – الميكينية بوجه عام ، انظر : **Brown, Aprovisional catalogue**, pp. 106-111, 142-46. **Persson, New Tombs at Dendra near Midea**, pp. 176-196: "Mycenae and Egypt", **Astour, "Aegean Place-Names in an Egyptian inscription"**, AJA, 70 (1966), pp. 313-17.

وعن العلاقات المصرية – اليونانية القديمة على اختلاف مراحلها ، انظر :

Helck, Die Beziehungen Agyptens und Vordevasiens zur Agäis bis ins 7 Jahrhundert v.Chr., 1979. **Buchholz «Agaische Funde aus Ägypten»**, AA, (1974), pp. 439-462 **Vercoutter, L'Egypte** et le monde **Égéen prehellé-nique**, 1956. & passim: Essai sur les Relations entre Egyptiens et Prehellenes, 1954. **Smith, Interconnections in the Ancient Near East**, 1965.

(54)

(55) **The Mycenaean World**, P. 180.

(56) Coldstream, **Geometric Greece**, pp. 7,317, 327.

(57) op. cit., p.367.

(58) Ibidem.

(59) & Brookes, The Chronology and Development of Daedalic Sculpture, 1978,

(60) Herodotus, . 164-166

راجع هيرودوت حول دور المرتزقة الليبيين في الجيش المصري آنذاك . وكذلك أنظر ما كتبه سليم حسن : **مصر القديمة** ، الجزء الثاني عشر (١٩٥٧) ، ص ١

وما بعدها .

(61) Spalinger, **«Psammetichus, King of Egypt:I»**, JARCE, 13, (1976), pp. 133-147:

وذلك حول مدة حكم الفرعون المصرى الأول للأسرة (٢٦) : أبسماتيك الأول .

(62) Herodotus, . 152-157.

(63) Ε.g., Πολύαινος, Στρατηγήματα, VII.3. & Διόδωρος

(64) Vittmann, **«Die Familie der saïtischen Könige»**, Orientalia, 44 (1975), pp. 375-387.

(65) Boardman, **the Greeks Overseas**, p. 60:

يتفق بوردمان مع سليم حسن في أن أبسماتيك هو الذى أرسل في طلب الجنود المرتزقة الأيونيين والكاريين ، بينما يقول هيرودت (II. 152) ، بأنهم جاءوا صدفة ، مصداقاً لنبوءة كان الفرعون المصرى قد رآها ، ولكن ديودوروس (Διόδωρος) ، كان أكثر دقة حينما قال

« Ὁ Ψαμμήτιχος ἐκ τε τῆς Καρίας καὶ τῆς Ἰωνίας μισθοφόρους μεταπεμψάμενος.»;

(66) عن أنشطة اليونانيين في مصر الفرعونية وقتئذ ، في ضوء أحدث المراجع والاكتشافات الأثرية ، انظر :
ELSAADANI,
Αἱ Ἑλληνο-αἰγυπτιακαί Σχέσεις: 945-525 π.Χ., pp. 33-37.

(67) Lloyd, **Herodotus** Book II, Introduction, p.24.

(68) Διόδωρος, I. 67.9.

(69) Σάμψων, Αἱ ἀποικίαι τῶν ἀρχαίων Ἑλλήνων

(70) Brown, **A provisional Catalogue**, pp. 147-153.

(٧١) حول التماثيل المصرية والمتمصرة التي تم العثور عليها في اليونان ، ويُؤرَّخ أغلبها بالعصر الصاوى ، فضلاً عن توضيح نوعية ومدى التأثير المصرى على النحت اليونانى . أنظر رسالتى للدكتوراة المقدمة لجامعة أثينا – اليونان ، سنة ١٩٨٠ :

Ἐλσααντάνι, Μ., Αἱ Ἑλληνο-αἰγυπτιακαί Σχέσεις, ὑπό τό φῶς τῶν αἰγυπτιακῶν καί αἰγυπτιαζόντων πλαστικῶν ἔργων ἐκ τοῦ ἑλληνικοῦ χώρου: 945-525 π.Χ.,

الممتلكات المصرية في أسيا الصغرى وبحر إيجه في عصر البطالمة

د. أبو اليسر عبد العظيم فرج

مدرّس التاريخ القديم بآداب عين شمس

بسط البطالمة على عهد ملوكهم الثلاثة الأول سلطانهم على بعض المناطق خارج مصر ، وكانت أهم هذه المناطق وأطولها بقاء تحت الحكم البطلمى قبرص وقورينائية وجوف سوريه ، وإلى جانب هذه المناطق احتفظ البطالمة لسنوات طويلة بسيادتهم على ليكيا Lycia المشهورة بغاباتها وكاريا Caria التى كانت تعد مركزاً صناعياً وتجارياً وهاماً وكذلك جانب من أيونيا Ionia يشمل ميلتوس Miletus وافيسوس Ephesus إلى جانب أجزاء من كريت Crete وعصبة جزر بحر إيجه ، وكانت جزيرة ثيرا Thera أطولها بقاء تحت الحكم البطلمى ، كما شملت السيادة البطليمية أجزاء من تراقيا Thrace وساموا تراقيا Samothrace وأجزاء من شبه جزيرة البلبونيز[1] .

ويتناول هذا البحث دراسة ممتلكات البطالمة فى آسيا الصغرى وبحر إيجه ، وقد آلت هذه المناطق إلى التاج البطلمى فى فترات متفاوتة ، كما أن الكثير من هذه المناطق ظلت تحت السيادة البطليمية لفترات متقطعة ، ومرد ذلك إلى الظروف المضطربة التى كان العالم الهلينيستى يموج بها ، فبعد وفاة الاسكندر عام ٣٢٣ اقتسم قادة الجيش المقدونى الامبراطورية لكى يتولى كل منهم إدارة جزء منها بصفته والياً من قبل البيت المقدونى إلا أن هؤلاء القادة عملوا على تدعيم مركزهم فى ولاياتهم تمهيداً للاستقلال بها ، وذهبت جهود الأوصياء الذين تولوا الوصاية على العرش المقدونى سدى فى محاولة كبح جماح هؤلاء الولاة والإبقاء على وحدة امبراطورية الاسكندر . ويعد إعلان هؤلاء القادة أنفسهم ملوكاً آخر مسمار فى نعش هذه الامبراطورية التى تفتت إلى عدة ممالك متصارعة ، ونتيجة لذلك أصبح بحر إيجه مركز الثقل السياسى والحضارى فى العالم الهلينيستى ، فقد كان القادة الذين أسسوا دولهم على أنقاض امبراطورية الاسكندر فى

أشد الحاجة إلى تدعيم علاقتهم ببلاد الإغريق للاستفادة من خبرات مواطنيهم فى بناء دولهم على أسس إغريقية .

وكان على رأس هؤلاء القادة بطليموس بن لاجوس الذى آلت إليه ولاية مصر ، ومنذ أن انتصر بطليموس على برديكاس أحد الأوصياء على عرش الاسكندر عام ٣٢١ اعتبر مصر غنيمة اكتسبها بحد السيف ، وشرع فى بناء دولته على هذا الأساس ، ولما كان بناء هذه الدولة يتطلب أسطولاً قوياً لم تكن موارد مصر الطبيعية تسمح ببنائه فقد كان من الضرورى السعى للحصول على الأخشاب والمعادن اللازمة من الخارج ، وهذا يفسر حرص بطليموس على ضم جوف سوريه وقبرص وبعض أجزاء من آسيا الصغرى وبخاصة ليكيا ، ومن ناحية أخرى فقد كان بطليموس شأنه فى ذلك شأن غيره من ملوك العصر الهلينيستى يتجه إلى بناء دولته على الطراز الاغريقى لذا فقد كان فى أشد الحاجة إلى استقدام الاغريق إلى مصر للاستفادة من خبراتهم فى أوجه الادارة المختلفة وتجنيدهم للخدمة فى الجيش والأسطول ، لذلك فقد وضع منذ البداية نصب عينيه هدفاً أساسياً وهو تدعيم نفوذه فى البحر المتوسط وتأمين الطرق المؤدية إلى بحر إيجه .

وقد بدأ بطليموس نشاطه فى عام ٣١٠ بمحاولة للاستيلاء على كيلكيا Cilicia[٢] ، ثم قام بخلع آخر ملوك قبرص الوطنيين وبإقامة أخيه حاكماً عليها . وأتبع ذلك بإنشاء بعض القواعد فى باسيليا وليكيا وكاريا كما استولى على جزيرة كوس Cos وأخذ يعمل على التقرب من المدن الإغريقية بإدعائه أنه يعمل على تحريرها ، وقد كافأته عصبة جزر السكيلاديس Cyclades برفعه لأول مرة إلى مصاف الآلهة ، ولكنها لم تعبده إلا فيما بعد باسم الإله المنقذ سوتير Soter وهو الاسم الذى عرف به فيما بعد[٣] ، إلا أن سلوك بطليموس تجاه هذه المدن لم يلبث أن دعم شكوكها فى نواياه لذا فقد أحجمت عن مد يد المساعدة له لادراكها أنه لم يكن يهدف إلا إلى تقوية مركزه فى مواجهة خصومه فى العالم الهلينيستى على حساب حرية هذه المدن .

وفى عام ٢٨٦ أقدمت ميلتوس على عقد محالفة مع بطليموس الذى واصل تحقيق طموحاته فى المنطقة بالاستيلاء على جزيرة ثيرا ومن المحتمل أنه أسس لنفسه قاعدة بحرية على الساحل الشمالى الشرق لجزيرة كريت[٤] .

وعندما توفى بطليموس الأول عام ٢٨٣ أو ٢٨٢ ترك لخليفته السيادة على بحر إيجه وعصبة جزر السكيكلاديس وجزيرة ثيرا وكاونوس كما ترك له أكبر قوة بحرية فى العالم

الهلينيستى . وعمل بطليموس الثانى (فيلا دلفوس) على الاستمرار فى السياسة التى بدأها والده . إلا أن الظروف السياسية فى العالم الهلينيستى فى تلك الآونة عرقلت المضى فى تنفيذ هذه السياسة ، فقد أوقع الملك المقدونى جوناتاس هزيمة بالأسطول البطلمى قرب جزيرة كوس (عام ٢٥٨ أو ٢٥٦[٥]) واستتبع ذلك استيلاء الملك السلوكى أنطيوخس الثانى على أيونيا وجزيرة ساموس ودعم مركزه فى منطقة بحر إيجه بالاستيلاء على ساموتراقيا وأجزاء من تراقيا نفسها . واستطاع الملك المقدونى جوناتاس أن يحرز السيادة البحرية فى المنطقة واضطر فيلادلفوس إلى إبرام معاهدة مع جوناتاس عام ٢٥٦ تنازل بمقتضاها عن عصبة جزر السكيلاديس إلا أنه احتفظ بجزيرة ثيرا[٦] .

ولم يلبث بطليموس فيلادلفوس أن استعاد قوته واستعاد معها سيادته على بحر إيجه وعصبة السكيكلاديس وهذا ما تدل عليه اعادة الاحتفال بأعياد البطوليمايا فى جزيرة ديلوس Delos عام ٢٤٩ بعد أن كانت قد توقفت فى الفترة التى آلت فيها إلى جوناتاس[٧] .

وفى عهد بطليموس الثالث يورجتيس استغل الملك المقدونى جوناتاس فرصة انهماك الملك البطلمى فى الحرب السورية فاستولى على عصبة جزر السكيكلاديس مرة أخرى عام ٢٤٥ إلا أن مصر احتفظت بجزيرة ثيرا وكريت فضلاً عن ممتلكاتها فى آسيا الصغرى[٨] وفى عام ٢٤٣ ، ٢٤٢ عاودت مصر نشاطها البحرى فاستردت بعض الممتلكات التى كانت قد فقدتها ودعمت سيطرتها على ممتلكاتهم فى ليكيا وكاريا واستولت على الجزء الجنوبى من أيونيا وجزيرة لسبوس Lesbos وساموتراقيا . كما تشير الدلائل إلى أن جزيرة ساموس Samos كانت تابعة للبطالمة فى عهد يورجتيس ، وأنها كانت قاعدة هامة للأسطول البطلمى[٩] .

وبوفاة بطليموس الثالث عام ٢٢١ كانت الامبراطورية البطليمية فى آسيا الصغرى وبحر إيجه قد وصلت إلى أقصى اتساعها إلا أنها لم تكن تشمل عصبة جزر السكيكلاديس . ومنذ عهد بطليموس الرابع فيلوباتور أخذت عوامل الضعف تدب فى أوصال مملكة البطالمة وانعكس ذلك بشكل واضح على سياسة مصر الخارجية التى اتسمت بالخمول منذ ذلك الحين . وفى نفس الوقت ظهرت على المسرح السياسى للعالم الهلينيستى ثلاث قوى فتية هى الملك السلوكى انطيوخس الثالث والملك المقدونى فيليب الخامس وروما التى بدأت فى التدخل فى شئون شرق البحر المتوسط ، وإزاء هذه الأخطار التى كانت تلوح فى الأفق لم يكن أمام مصر غير اللجوء إلى الدبلوماسية فى

محاولة لدرء خطر أنطيوخس بالتقرب إلى مقدونيا ، لكن ذلك لم يثن أنطيوخس عن عزمه فأقدم على غزو آسيا الصغرى عام ٢٠٣ وأرغم بعض المدن التى كانت حليفة لبطليموس على الخضوع له[١٠] .

وفى هذا العام آل عرش البطالمة إلى طفل فى السادسة من عمره هو بطليموس الخامس ايفانيس ، واستغل أنطيوخس وفيليب ضعف دولة البطالمة فاتفقا على اقتسام ممتلكات البطالمة الخارجية فيما بينهما بحيث يحصل كل من الملكين على أقربها إلى مملكته فيأخذ فيليب ما تبقى لمصر من جزر السيكيكلاديس وممتلكاتها فى تراقيا والدرونيل ، ويأخذ أنطيوخس جوف سورية وما تبقى لمصر من ممتلكات فى آسيا الصغرى[١١] . وفى عام ١٩٨ - ١٩٧ استولى أنطيوخس على الممتلكات البطليمية فى كيليكيا وليكيا وكاريا[١٢] وهكذا فقدت مصر إلى الأبد ممتلكاتها فى آسيا الصغرى وبحر إيجه .

وعند دراسة التنظيمات التى وضعها البطالمة لادارة ممتلكاتهم (فى آسيا الصغرى وبحر إيجه تواجه الباحث صعوبة أساسية ، تتمثل فى المصادر التى يستقى منها مادته ، فإن هذه المصادر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف التى مرت بها السيادة البطليمية على هذه المناطق ، فعلى حين استمر الحكم البطلمى للمناطق الآخرى التى بسط عليها البطالمة سلطانهم خارج مصر مثل جوف سورية أو قبرص أو قورينائية لفترة طويلة متصلة[١٣] ، مما مكن البطالمة من وضع التنظيمات الكفيلة بتحقيق أغراضهم التى سعوا من أجلها إلى السيطرة على هذه المناطق وبالتالى هيأ الفرصة لوجود مادة أوفر يستطيع من خلالها الباحث الخروج بصورة أفضل عند دراسته لهذه المناطق فى ظل الحكم البطلمى ، نجد أن الوضع يختلف فيما يتعلق بالممتلكات البطليمية فى آسيا الصغرى وبحر إيجه . فبينما خضعت بعض هذه المناطق للسيادة البطليمية لفترة طويلة ، نجد أن البعض الآخر خضع للسيادة البطليمية لفترات قصيرة وغير متصلة ، ولهذا السبب فإن معلوماتنا عن جزيرة ثيرا على سبيل المثال أوفر بكثير من معلوماتنا عن أماكن أخرى .

ومن خلال هذه المصادر المتناثرة فإننا نحاول معرفة النظم التى طبقها البطالمة على هذه الممتلكات ، وإلى أى مدى اختلفت عن تلك النظم التى طبقوها فى مصر ذاتها ، وما هى طبيعة العلاقات الاقتصادية بين مصر وهذه الممتلكات .

وفى البداية يجب أن نشير إلى أنه كانت هناك حركة تجارية نشطة ما بين الاسكندرية ومنطقة بحر إيجه ، فقد كانت الاسكندرية تستورد المنتجات المحلية لتلك المناطق وتصدر

إليها ما تحتاجه من المنتجات المصرية[١٤] . ومن ثم فقد كان من أهم واجبات الأسطول البطلمى تأمين التبادل التجارى مع منطقة بحر إيجه .

وإذا أردنا أن نتحدث عن علاقة البطالمة بممتلكاتهم فى هذه المنطقة فإنه يمكننا القول أنه بالنسبة لجزر بحر إيجه التى شكلت حلفاً فيما بينهما فإن البطالمة لم يتعاملوا معها باعتبارها ولايات تابعة بل باعتبارها حليفات ، فإن مساهمات أعضاء الحلف كانت تذهب إلى خزانة الحلف وليس إلى الخزانة البطليمية إلا أنها كانت خاضعة لإشراف موظفى الملك البطلمى ، وكان يجرى إنفاق هذه المبالغ فى صيانة أسطول الحلف الذى كان يشكل عنصراً هاماً من عناصر الأسطول البطلمى[١٥] إلا أنه فى بعض الأحيان كان البطالمة يتعاملون مع بعض جزر السيكيكلاديس بشكل فردى خارج نطاق الحلف[١٦] .

والحقيقة أن معلوماتنا عن جزيرة ثيرا أوفر نظراً لطول عهد هذه الجزيرة بالحكم البطلمى ، فقد رابطت فى هذه الجزيرة حامية بطليمية كانت مهمتها الأساسية تكمن فى الدفاع عن الجزيرة ضد القوى الخارجية والقراصنة ، وإلى جانب ذلك كانت الحامية تشارك فى الحياة المدنية ، وكان قائد الحامية يأتى فى المرتبة الأولى ويليه من حيث الأهمية الأويكونوموس الذى كانت سلطاته فيما يبدو تشمل كريت وأجزاء من البلبونيز إلى جانب ثيرا[١٧] . وكان يوصف بأنه سكرتير الجند[١٨] ، ويقوم بمصادرة الممتلكات بناء على أوامر الملك[١٩] .

وتشير المصادر إلى أن ممتلكات البطالمة فى شمال بحر إيجه مثل ساموتراقيا ولسبوس كانت تتمتع بقدر من الحرية فى علاقاتها الخارجية ولكن كان عليها أن تضع فى اعتبارها مصالح الدولة البطليمية ، وكان مندوب الملك البطلمى (الاستراتيجوس) يمارس سلطات واسعة ليس فيما يتعلق بالإشراف على الحامية فقط بل فى الشئون المدنية والمالية[٢٠] . وكانت جزيرة ساموس أيضاً قاعدة هامة للأسطول البطلمى ، إلا أن مصادرنا لا تعيننا فى معرفة نظامها المالى والادارى ، ومن المرجح أنها كانت خاضعة للنظم المالية والادارية البطليمية وأنها كانت تحت إشراف موظفى الملك البطلمى فى كاريا[٢١] إلا أن البطالمة لم يتركوا للمدن الاغريقية فى ولاياتهم الدائمة من الامبراطورية نفس القدر من الحرية ، فقد كان على هذه المدن أن تشارك فى الدفاع عن الامبراطورية البطليمية ، وكانت ترابط فى كل منها حامية بطليمية قوية[٢٢] ، وكان على هذه المدن واجب ثقيل تجاه الأسطول البطلمى فقد كان عليها أن تمده بحاجته من البحارة . وتشير إحدى برديات زينون[٢٣] إلى أنه كان مفروضاً على مواطنى كاليندا Calynda فى كاريا أن

يقدموا المأوى للجنود وكذلك الغذاء والعلف لخيولهم . كما كانت هذه المدن تخضع للرقابة المالية من موظفى الملك إلى جانب قيامها بدفع الضرائب .

وبالطبع فإن كل المدن الاغريقية التى كانت خاضعة للبطالمة كانت لها حكومتها المحلية وكان من حق هذه الحكومة أن تفرض ما تشاء من الضرائب على مواطنيها والأجانب المقيمين فيها ، وأن تقوم بإنفاق هذه الضرائب فيما تراه ضرورياً من أوجه الانفاق ، ولكن حتى فى هذا الجانب فإن هذه المدن لم تكن حرة تماماً ، فحينما أرادت مدينة هاليكارناسوس Halicarnasos أن تبنى جنازيوم جديد كان لابد من أن تحصل على إذن من الملك البطلمى على الرغم من أنه لم يكن يساهم فى بنائه[٢٤] .

كما نلاحظ أيضاً أن المكاتبات الرسمية فى المدن الاغريقية التى كانت خاضعة للبطالمة لم تكن تبدأ باسم المدينة وشعبها ومجلسها كما جرت العادة بالنسبة للمدن الاغريقية بل باسم الملك البطلمى[٢٥] .

وقد خضعت بعض مناطق إقليم كاريا لسلطان البطالمة لفترة طويلة مثل منطقة كاونوس Caunus التى ينتمى إليها زينون مندوب أبوللونيوس وزير مالية فيلا دلفوس ، وقد استقدم زينون إلى مصر الكثير من مواطنيه . وكان على رأس النظام الادارى فى كاريا موظف يحمل لقب « استراتيجوس » ، وكان مسئولاً عن الدفاع عن الممتلكات البطليمية فى تلك المنطقة كما كان يشرف على بعض النواحى الادارية ، وكان يقابله على رأس الادارة المالية موظف يحمل لقب أويكونوموس ويشرف على الخزانة الملكية وكان رئيسه المباشر هو وزير المالية فى الاسكندرية ، ويبدو أنه كانت له بعض الاختصاصات المتعلقة بالنواحى العسكرية ، مثل الإشراف المالى على الحامية[٢٦] . ونعرف من الوثائق أن البطالمة كانوا يفرضون بعض الالتزامات على مدن اقليم كاريا وكانت الحكومات المحلية لتلك المدن تتولى توزيعها على المواطنين[٢٧] .

ويبدو من المصادر المتناثرة أن كاريا وليكيا والممتلكات الموجودة فى تراقيا وبعض جزر بحر إيجه وأيونيا ، قد تم تنظيمها بشكل متشابه من الناحية المالية ، فقد فرضت عليها ضرائب ثقيلة ومن المرجح أنها كانت تشبه مثيلتها التى كانت مفروضة على سكان مصر من حيث كثرتها وتنوعها ، وإلى جانب الضرائب التى كان على هذه المدن أن تؤديها إلى الملك البطلمى كان عليها أن تستمر فى جباية الضرائب التقليدية التى كانت تقوم بجبايتها من مواطنيها .

وكان يتم جباية الضرائب المقررة على تلك المناطق من قبل البطالمة عن طريق نظام

الالتزام كما هو الحال فى مصر ، حيث كان يتقدم للقيام بالتزام جباية الضرائب رجال من أهل تلك البلاد ، إلا أن العقود التى كان يتم بمقتضاها بيع حق التزام جباية الضرائب كان يتم توقيعها فى الاسكندرية[٢٨] .

وقد وافتنا بردية[٢٩] يرجع تاريخها إلى العام الرابع من عهد الملك بطليموس الخامس بخطاب أرسله وزير المالية فى الاسكندرية إلى مندوبيه (الأويكونوموس) فى عدة ولايات بطليمية هى تراقيا ولسيوس وليكيا وربما كاريا ، يستحث فيه الوزير مندوبيه على سرعة ارسال النقود والغلال والمواد الأخرى المخزونة فى هذه المناطق ، وربما كان القصد من ذلك الحيلولة دون وقوعها فى أيدى فيليب الخامس ، وهذا الخطاب وإن كانت قد أملته ظروف خاصة تتعلق بنشاط فيليب الخامس والظروف المضطربة التى كانت تعيشها المنطقة آنذاك إلا أنه من الممكن أن نستشف منه أنه كانت تجبى من سكان هذه المناطق كميات وفيرة من الغلال والأموال بمثابة ضرائب تذهب إلى خزانة البطالمة .

وفى النهاية فإننا يمكن أن نخلص إلى القول بأن حاجة البطالمة إلى بناء دولة قوية مستقلة ، وبناء أسطول قوى يذود عن هذا الاستقلال ويحافظ عليه ، دفعتهم إلى تدعيم نفوذهم فى منطقة بحر إيجه لضمان تدفق المواد التى كانت تفتقر إليها مصر وضمان تدفق الخبرات الإغريقية إلى مصر ، وقد وضع أسس هذه السياسة بطليموس الأول وسار عليها خلفاؤه من بعده حتى ضعفت مملكتهم وفقدت ممتلكاتها الخارجية تماماً فى عهد بطليموس الخامس .

وقد وضع البطالمة من النظم ما يكفل لهم حسن استغلال هذه المناطق وكانت تلك النظم تشبه إلى حد كبير تلك النظم التى طبقوها فى مصر نفسها ، وفيما عدا بعض الوظائف[٣٠] التى أملتها ظروف بعض هذه المناطق مثل وظيفة النيزيارخ Neisiarch[٣١] (حاكم الجزيرة) فإن ألقاب الموظفين واختصاصاتهم تكاد تكون متشابهة مع نظرائهم فى مصر ، ولعل أهم الوظائف التى مرت بنا هى وظيفة الاستراتيجوس حاكم الاقليم وهو نفس اللقب الذى كان يحمله قائد المديرية فى مصر[٣٢] ، أما مدير الشئون المالية (الأويكونوموس) فإنه من حيث اللقب والاختصاصات يشبه نظيره مدير الشئون المالية فى كل مديرية من مديريات مصر ومندوب وزير المالية فى المديرية[٣٣] . كما لاحظنا أيضاً أن البطالمة طبقوا نظمهم المالية التى كانت سائدة فى مصر على ممتلكاتهم فى آسيا الصغرى وبحر إيجه مثل الأخذ بنظام الالتزام فى جباية الضرائب .

هوامش

(1) C.A.H.VII.p.126.

(2) Bagnall, **The administration of the Ptolemaic possessions outside Egypt. p.** 114.

(٣) نصحى - **تاريخ مصر فى عصر البطالمة** جـ ١ ص ٨٢ ، ٨٣

(4) Rostovtzeff, Social & Economic History of the Hellenstic World. pp. 21-2.; C.A.H.VII.p.92.

(5) C.A.H.VII.862.

(٦) نصحى نفسه جـ ١ ص ١٢٥

(7) C.A.H.VII.715.

(٨) نصحى نفسه جـ ١ ص ١٣٦

(9) Bagnall. op. cit. p.81.

(10) C.A.H. VIII. p. 148.

(١١) نصحى نفسه جـ ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩

(١٢) نصحى نفسه جـ ١ ص ١٨٢

(١٣) **عن الادارة فى هذه المناطق فى ظل الحكم البطلمى وعلاقة هذه الممتلكات بالبطالمة أنظر المعالجة الطيبة التى قدمها** Bagnall فى إطار دراسته عن الادارة فى ممتلكات مصر الخارجية حيث قام بدراسة النصوص التى وافتنا بها المصادر عن هذه المناطق فبالنسبة لجوف سورية وفينيقيا .. انظر الصفحات من ١١ - ٢٢ وقورينائية . انظر من ٢٥ - ٣٣ أما قبرص فقد اختصها الباحث بدراسة أكثر تفصيلاً انظر الصفحات من ٣٨ - ٧٣ .

(١٤) **عن تجارة الاسكندرية مع مناطق بحر إيجه أنظر :**

Fraser, Ptolemaic Alexandria. pp. 169-73.

(15) Rostovtzeff, op. cit. p. 333.

(16) Bagnall, op. cit. p. 156.

(17) Bagnall, op. cit. pp. 123-30.

(١٨) من المعروف أن الأويكونوموس فى مصر كان يمارس بعض الاختصاصات فى النواحى العسكرية مثل اسكان الجنود انظر : Select Pap. II. 207

(19) I.G.XII. 3.327.

كان الأويكونوموس فى مصر يقوم بمصادرة الممتلكات أيضاً أنظر : P. Enteuxis. 61.

(20) Bagnall, op. cit. p. 165.

(21) Bagnall, op. cit. p. 88.

(22) Rostovtzeff, op. cit. p. 334.

(23) P. Cairo-Zenon. 59341b.

(24) Rostovtzeff, op. cit. p. 334-5.

(25) C.A.H. VII. p. 128.

(26) Bagnall, op. cit. p. 101-2.

(27) P. Cairo-Zenon. 59341.

(28) P. Cairo-Zenon. 59037.

(29) P. Tebt. 8.

(٣٠) عن موظفى البطالمة فى ممتلكاتهم الخارجية أنظر Prospographia Ptolemaica. VI. 15741-15785.

(٣١) عن هذه الوظيفة أنظر على سبيل المثال Prospographia Ptolemaica.VI. 15755.

(٣٢) **عن الاستراتيجوس أنظر : نصحى نفسه جـ ٢ ص ٣٨٠**

(٣٣) **عن الأويكونوموس فى مصر أنظر : أبو اليسر عبد العظيم فرح : مهام الأويكونوموس (عامل المالية) فى مصر فى عصر البطالمة - دراسة وثائقية .**

رسالة ماجستير غير منشورة جامعة عين شمس ١٩٨٠ .

مصر والعرش البيزنطي

د. رأفت عبد الحميد محمد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد بآداب عين شمس

« لو أنا سألنا أيًا من الأباطرة الرومان عن العلاقة الوثيقة التى تربط مصر بالامبراطورية .. لأجاب على الفور : القمح والنقود »

بهذه العبارة البليغة يصف المؤرخ « جونز »[1] A.H.M. Jones طبيعة العلاقة القائمة بين مصر والامبراطورية الرومانية سواء عندما كانت روما القديمة على ضفاف التيبر هى حاضرة الرومان ، أو بعدما انتقلت إلى « روما الجديدة » « القسطنطينية » على شطآن البسفور ، وهذه حقيقة نلمسها فى الوثائق الرسمية المعاصرة ، وكتابات مؤرخى ذلك الزمان ، فقد أصدر تيبريوس يوليوس اسكندر Tiberius Iulius Alexander والى مصر ، فى السادس من يوليه عام ٦٨ للميلاد ، منشوراً جاء فيه « إننى مهتم اهتماماً شديداً بأن تظل الحال فى مصر هادئة ، حتى تسهم بنشاط فى التموين السنوى ، وفى الرخاء العظيم للعصر الراهن » بينما يذكر تاكيتوس Tacitus أن أوغسطس أوكتافيانوس « عزل مصر ، مخافة أن يحتلها أحد ، فيهصر إيطاليا بمجاعة » ، ويعلل ذلك – إلى جانب الأسباب العسكرية بأن « مصر غنية بالقمح » . وقد تحقق ذلك بصورة عملية ، عندما زحف فسباسيان Flavius Vespasianus ، عام ٦٩ ، إلى الإسكندرية بسرعة ، عقب انكسار جيوش منافسه على العرش ، فيتلليوس Vitellius وذلك حتى يرهق روما بالمجاعة ، لاحتياجها إلى الموارد الأجنبية .

ويقر الخطيب الرومانى الأشهر بلينيوس Plinius هذا الأمر ، بقوله صراحة « إن مدينتنا (روما) لا تستطيع أن تطعم نفسها أو تقيم أودها ، دون ثروة مصر » Urbem nostram nisi opibus Aegypti ali Sustentarique non posse. وينوه المؤرخ ديون كاسيوس Doi Cassius بثروة مصر ووفرة قمحها ، ويقول يوسيفوس Iosephus « إنه

فضلاً عن الأموال التى تمد مصر بها روما ، فإنها تعد أقيم جزء فى الامبراطورية بسبب القمح الذى تمونها به »[٣] .

وبمرور الزمن ، راحت أهمية مصر الاقتصادية تزداد ، بالنسبة للامبراطورية ، وبالتالى من الناحيتين السياسية والعسكرية ، ولدينا من النصوص الباقية من القرن الرابع الميلادى ما يؤكد ذلك ، ففى ثلاثينيات ذاك القرن ، وإبان اشتداد الصراع العقيدى بين المسيحيين وأنفسهم ، حول « ولادة » المسيح و « خلقه » ، و « مساواته » فى الجوهر مع الآب أو « مشابهته » ، وظهور « النيقية » و « الآريوسية » ، وحيرة الامبراطور قسطنطين العظيم Constantinus I (٣٠٦ – ٣٣٧) بين هؤلاء وأولئك ، بلوغاً إلى تحقيق أولى قواعد الفكر السياسى الرومانى ، القاضية بسيادة الامبراطور المطلقة[٤] أقدم هذا الامبراطور على إصدار قراره بنفى أثناسيوس Athanasius الأسقف السكندرى (٣٢٨ – ٣٧٣) إلى غالة عام ٣٣٥ فور سماعه بأنه يحاول إحداث مجاعة فى العاصمة الجديدة للامبراطورية ، القسطنطينية ، فقد تلقى قسطنطين أنباء تفيد بأن أثناسيوس قد هدد بمنع وصول القمح من الإسكندرية إلى القسطنطينية . ويقول الأسقف السكندرى عن ذلك بنفسه « اشتعل على الفور غيظ الامبراطور ، واشتد حنقه ، وأمر بنفيى إلى غالة ، دون أن يسمع منى دفاعاً[٥] » .

لقد كان على مصر أن تقدم للقسطنطينية سنوياً ، ما يتراوح بين ثمانية وتسعة ملايين أردب من القمح[٦] ، لذا ليس غريباً أن يكون هناك جهاز خاص بالقمح يعرف بـ « إدارة الميرة » ، يتولى متابعة المحصول منذ جنيه حتى وصوله إلى العاصمة الامبراطورية ، وأن يحظى هذا الجهاز بعناية خاصة وفائقة ، على عهد الامبراطور جستنيان[٧] Iustinianus (٥٢٧ – ٥٦٥) ، الذى كان يعنيه فى المقام الأول أن يؤمن حاضرة ملكه من أية اضطرابات ناتجة عن نقص المؤون ، أثناء انشغاله الكامل بحروبه الاستردادية فى الغرب ، وأن يوفر لخزانته الأموال اللازمة لاستمرار هذه الحروب . وليس غريباً أيضاً أن يظل هذا الاهتمام بقمح مصر ، ديدن أباطرة بيزنطة حتى القرن السابع الميلادى ، عندما دخلها العرب فاتحين ، وضموها إلى سلطانهم ، لتفقد الامبراطورية بذلك – على حد قول شارل ديل[٨] Charles Diehl – قبو الحنطة الذى لا ينضب له معين .

لهذا .. ولأهمية مصر العسكرية ، بحكم موقعها الاستراتيجى الممتاز ، اختلفت نظرة الأباطرة الرومان تجاه مصر ، عن تلك التى نظروا بها إلى قريناتها من الولايات الرومانية

الأخرى . وكان هذا باعثاً قوياً لاختلاف آراء المؤرخين ، حول وضع مصر الفريد داخل الامبراطورية الرومانية ، فنتيجة للهزيمة التى لحقت بملكة مصر كليوباترا السابعة Cleopatra VII (٦٩ – ٣٠ ق . م) ، آخر ملوك البطالمة فى مصر ، والقنصل الرومانى ماركوس أنطونيوس Marcus Antonius (٨٢ – ٣٠ ق . م) فى موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق . م ، على يد زميله أوكتافيانوس أوغسطس Octavianus Augustus (٦٣ ق . م – ١٤ م) ، أمست مصر على هذا النحو ولاية رومانية . وإن كان تعبير « ولاية » لم يلق القبول من جانب نفر من الدارسين ، الذين استندوا إلى عدد من الحقائق ، كان فى مقدمتها العبارة التى وردت على لسان أوكتافيانوس ، والمدونة فى السجلات الرسمية ، متمثلة فيما يعرف بـ « أثر أنقرة » Monum entum Ancyranum ، والتى تقول « ضممت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى » Aegyptum imperio populi Romani adieci

وهذه العبارة لا تحمل فى طياتها ولا يسبقها كلمة « ولاية » بينما يتحدث أوكتافيانوس فى فقرة تالية لذلك ، عن احتمال تحويل أرمينيا الكبرى إلى ولاية حيث يقول « كان فى وسعى أن أجعل من أرمينيا الكبرى ولاية بعد مقتل ملكها أرتاكسيس Armeniam maiorem interfecto regeeius Artaxe cum possem facere provinciam

كما أن السجلات الرسمية الأخرى المعاصرة ، لم يرد فيها اسم مصر مقروناً بكلمة ولاية ، بل جاءت على هذا النحو : « أوغسطس ... قدم (هاتين المسلتين) هدية منه لإله الشمس (شكراً على) إخضاع مصر لسلطان الشعب الرومانى[٩] » . Augustus--- Aegypto in potestatem populi Romani redacta Soli donum dedit.

وزاد من تدعيم هذا الاتجاه عند هذا النفر من الدارسين ، ما حدث فى عام ٢٧ ق م عندما قسمت الولايات الرومانية بين ولايات تابعة للسناتو ، أى ولايات سناتورية ، وأخرى تابعة للامبراطور ، وكانت مصر فى عداد هذه الأخيرة .

وكان لابد أن تحظى مصر ، باعتبارها مخزناً للغلال ، ومورداً للأموال ، بنظام للحكم ، يختلف منذ الوهلة الأولى ، عنه فى سائر الولايات الأخرى . فتم اختيار حاكمها من بين طبقة الفرسان ، ولم يكن من الطبقة السناتورية ، كما جرى التقليد بذلك . ولم يكن يحمل – كما يحمل قرناؤه من حكام الولايات الأخرى – لقب « بروقنصل » Proconsul أو « بروبرايتور » Propraetor لكنه حمل لقب « حاكم عام » أو « وال » (برايفكتوس) Praefectus ، وسمى حاكم عام الإسكندرية ومصر

Praefectus Alexandreae et Aegypti وحرم على رجال السناتو زيارة مصر ، إلا بتصريح خاص من الامبراطور ، وذلك لعدم الثقة فيهم ، والخوف من أن يدفع الطموح أحدهم إلى الاستقلال بمصر ، معتمداً على وفرة مواردها ومناعة اقتحامها لو أحسن تحصين مداخلها . وقد عبر عن ذلك صراحة المؤرخ « تاكيتوس » Tacitus بقوله « ... فمنذ أيام أوغسطس المؤلة ، تولى مصر والقوات اللازمة لاخضاعها ، فرسان رومان فى منزلة الملوك ، هكذا رأى من المصلحة أن يضع تحت سيطرته (المباشرة) ولاية عسيرة المدخل ، وفيرة الغلال ، متنافرة الأهواء ، سريعة الهياج ... »[١٠] .

على أن هذا الوضع الذى عد متميزاً لمصر عن سائر الولايات الرومانية الأخرى ، خاصة تلك التى أمست تابعة للسناتو ، لم يشفع لروما عند مصر ، التى أدركت أنها فقدت مكانتها فى الساحة الدولية ، كدولة ذات سيادة ، وباتت ولاية تدور فى فلك روما ، ولم يغب عن ذهن مصر أنه فى الوقت الذى كانت هى فيه ، قاعدة لامبراطورية عريضة فى البحر المتوسط هى امبراطورية البطالمة ، حاضرتها الإسكندرية ، كانت روما ما تزال جمهورية محلية فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد وأوائل القرن الثالث . وزاد المرارة فى حلق مصر ، انتقال عاصمة الامبراطورية إلى القسطنطينية ، وليدة القرن الرابع الميلادى على يد قسطنطين ، الذى دشنها فى الحادى عشر من مايو عام ٣٣٠ ، فبدت على هذا النحو ، إلى جوار الإسكندرية ، صاحبة القرون السبعة من عمر الزمن وفى عينيها ، قزماً تتضاءل هامته .

ولعل مصر قد وجدت عوضاً بعض الشيء ، لفقدانها لمكانتها السياسية فى عالم البحر المتوسط ، فى المدرسة اللاهوتية الشهيرة التى ذاع صيتها فى الإسكندرية ، والتى اعتمدت اللاهوت العلمى الأفلاطونى ، والتفسير المجازى للكتاب المقدس ، منهاجاً للدراسة ، وعرفت باسم مدرسة « الموعوظين » Catechesis وذاع صيتها باسم « مدرسة المدافعين » Schola apologetica وقد حرص القائمون على أمرها ، على أن تتضمن برامج الدراسة فيها ، مختلف فروع المعرفة الإنسانية ، فى العلوم والآداب ، إلى جوار مهمتها الأصلية فى المسائل اللاهوتية ، كما تحدثنا عن ذلك اللاهوتى الكبادوكى الشهير ، جريجورى النازيانزى Cregorius Nazianzenus الذى كان أحد طلابها[١١] ، مما جعلها مقصداً لطلاب العلم وحجيج المعرفة آنذاك ، وراح أساقفة الكنائس الكبرى فى العالم الرومانى ، وأسقف روما من بينهم ، يسألون بطاركة الاسكندرية الرأى ، فى العديد من القضايا اللاهوتية[١٢] ، التى وجدت بصورة تلقائية ، نتيجة لامتزاج المسيحية بالفلسفات اليونانية السائدة ، فى النصف الشرق اليونانى من الامبراطورية الرومانية ، حتى غدت

الاسكندرية – على حد قول « كوكس » Coxe – تمثل عقل العالم المسيحى[١٣] ، أو كما يقرر « كريد » Creed بأنه ليس هناك بلد من البلاد ، أثر فى تطور العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر . وليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى ، بصورة أشد عمقاً ، من الاسكندرية[١٤] .

وكانت مدرسة اللاهوت السكندرى ، امتداداً طبيعياً لمدرسة الاسكندر الوثنية القديمة ، التى اشتهرت بها زمن البطالمة[١٥] وعلى امتداد عصرها الرومانى ، بقيت الاسكندرية تباهى أثينا الفلسفة ، خاصة وأن الرومان منذ استيلائهم على مصر ، شجعوا الدراسة بالمتحف ، وأضافوا إلى كراسى الأساتذة فيه كراسى خاصة بالفلسفة اليونانية فى مدارسها الأربع الأفلاطونية والمشائية والرواقية والأبيقورية . وعلى هذا النحو قدمت الاسكندرية فيلسوفها الشهير فيلون Philo (٣٠ ق . م – ٤٠ م) الذى عمل على التوفيق بين الفلسفة اليونانية والعهد القديم[١٦] . وأهدت الاسكندرية أيضاً إلى روما ، وأروقة الحكمة فى منتصف القرن الثالث للميلاد ، أفلوطين Plotinus (٢٠٥ – ٢٧٠) والأفلاطونية المحدثة Neo-Platonism وذاع باسمه صيت معلمه أمونيوس ساكاس Ammonius Saccas (١٧٤ – ٢٤٣) رجل الاسكندرية والفيلسوف المقتدر[١٧] .

ورغم كل هذا فإن مصر لم يذهب من مخيلتها أبداً ، أن حضارتها سبقت حضارة الرومان عدد قرون ، ولم تنس الاسكندرية فى يوم من الأيام أنها كانت عاصمة البطالمة . ووجد المصريون فى العقيدة الجديدة ، المسيحية ، موئلاً يلتفون حوله ، وسلاحاً يشهرونه فى وجه سلطان روما الوثنية ، أو حتى المسيحية بعدما تحولت الامبراطورية إلى هذه العقيدة ، وخالفت إيمان رعاياها فى مصر . وكلما ازدادت حدة الاضطهاد عنفاً ، والذى كان فى جوهره اضطهاداً سياسياً ، إزداد المصريون تمسكاً بعقيدتهم وتشبثا بها ، والتفوا حول أساقفة الاسكندرية ، العاصمة ، وأعطوهم كل تأييدهم باعتبارهم ممثلين لآلامهم ، معبرين عن آمالهم ، تجاه بطش السلطة الرومانية . ووجدت كنيسة الاسكندرية بدورها ، فى جماعات الرهبان ، الذين ازدادت أعدادهم آنذاك بصورة واضحة ، قوة لا يستهان بها فى مواجهة السياسة التعسفية للحكم الرومانى[١٨] . وليس أدل على ذلك مما يقوله « بودج » Budge من أن هذا الجمع الضخم من الرهبان المصريين ، يشكل جيشاً حقيقياً ، وقوة كافية لمقاومة أى إجراء غير شعبى ، قد تصدره الحكومة الامبراطورية[١٩] ، ولعل ما أقدم عليه الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ – ٣٧٨) ، بعد وفاة الأسقف السكندرى أثناسيوس Athanasius (٣٧٣) من إصدار

أوامره باقتحام الأديرة ، وتعقب الرهبان ومطاردتهم خاصة رهبان وادى النطرون[١٠] ، الذين كانوا خير عون لكنيسة الاسكندرية ، فى صراعها مع أساقفة القسطنطينية وأباطرتها ، لهو دليل عملى يؤكد مدى الدور الذى قاموا به فى الفترة المبكرة من العصر البيزنطى .

ولما كان هؤلاء الرهبان مصريين خلصاء لم يتأثروا باليونانية لغة ، ولا الهلنستية ثقافة ، وظلوا على الولاء للغتهم الأصلية وثقافتهم المصرية ، فقد نظروا أيضاً من هذه الزاوية ، نظرة الكراهية لهؤلاء المضطهدين ، باعتبارهم أجانب عن هذه البلاد ، دخلاء ، يمثلون سيادة غريبة مقيتة ، أثقلت كواهلهم بالضرائب ، وهى الآن تحاول صرفهم كرهاً عن عقيدة وجدوا فيها العزاء ، عن واقع القسوة الذى يعيشون ، من جراء الحروب الأهلية والأزمات الاقتصادية الطاحنة ، التى كانت تكابدها الامبراطورية فى النصف الثانى من القرن الثالث للميلاد ، وعانت مصر بصفة خاصة ، من جراء هذا التدهور الاقتصادى والانهيار السياسى .

وكان أمراً طبيعياً ، إزاء هذه النظرة المتبادلة بين مصر والامبراطورية ، الأولى باعتزازها بماضيها الحضارى ومكانتها السياسية وأهميتها العسكرية وثروتها الاقتصادية ، وكراهيتها للرومان باعتبارهم أصحاب الدور الرئيسى ، والمصلحة الحقيقية فى تخليها كارهة عن هذه المكانة ، والأخيرة بحرصها على السيادة على هذه « الولاية » الغنية بقمحها وأموالها ، لتوفير الدخل للخزانة ، ولإطعام شعب روما ثم من بعد القسطنطينية ، كان طبيعياً أن يكون لمصر فى كثير من الأحيان ، دور أساسى فيما يحدث فى العاصمة الامبراطورية ، من تيارات سياسية واضحة أو خفية ، وخلافات عقيدية جدلية ، وتقلبات اقتصادية .

لذا كان على الأباطرة حتماً مقضياً ، أن يضمنوا ولاء مصر الكامل ، وهدوء الأمور فيها إذا ما شاءوا أن يتجنبوا حدوث مجاعة فى العاصمة ، قد تودى بعرشهم ، خاصة إزاء حصص القمح المجانى التى كانت توزع فى روما أولاً ثم القسطنطينية ، وليس أدل على ذلك من أن هذا النظام ظل سارياً حتى عهد الامبراطور هرقل Heraclius (٦١٠ – ٦٤١) ، عندما تم إلغاؤه بعد أن اجتاحت الجيوش الفارسية الولايات الشرقية للامبراطورية ، واستولت على مصر عام ٦١٦ ، ففقدت بيزنطة بذلك قبو الحنطة ، الذى كانت تطعم به عاصمتها من جوع .

وإذا كان هذا الحرص من جانب الأباطرة يبدوا أمراً رئيسياً فى سياستهم تجاه مصر ،

فإنه كان يزداد بصورة واضحة ، إبان الأزمات السياسية الداخلية ، التى كانت تتعرض لها الامبراطورية ، من حدوث تنافس على العرش بين الطامحين إلى اعتلائه ، إذ يستبق المتنازعون من حول العرش على الفوز بتأييد مصر ، وضمان الفوز بها ، باعتبارها مفتاح الطريق الآمن ، إلى سدة الحكم فى روما أو القسطنطينية . وكان هذا واضحاً تماماً منذ بواكير تحول مصر كارهة إلى السيادة الرومانية .

ففى عام ٦٨ للميلاد ، قتل الامبراطور نيرون Nero (٥٤ – ٦٨ م) ، وتبع حادث الاغتيال هذا ، اندلاع الاضطرابات داخل الامبراطورية ، وكان السبب الرئيسى فى ذلك هو تدخل الجيش فى السياسة ، ضارباً عرض الحائط بسلطات السناتو الرومانى ، مجلس الشيوخ الجريح ، وإقدامه على اختيار الأباطرة ، حتى أصبحت هذه السنة (٦٩ م) وهى التى أعقبت مقتل نيرون ، تعرف بـ «السنة الشهيرة للأباطرة الأربعة » ، وهى التى علمت الجيش الرومانى أنه من الممكن أن يوجد الامبراطور فى أى مكان خارج روما[١١] . وكان من بين هؤلاء الأربعة ، فسباسيان قائد الفيالق الرومانية فى سوريا ، الذى بقى مركزه مزعزعاً ، بعد إعلان نفسه امبراطور ، إلى أن أعلن والى مصر والقوات الرومانية فى الإسكندرية ، وقوفهم إلى جانبه . ومن ثم لم يتوان فسباسيان عن الزحف مباشرة إلى الإسكندرية ، « ليهصر روما بمجاعة » – على حد تعبير تاكيتوس – وذلك بمنع إرسال القمح من الإسكندرية إلى روما ، والذى حان وقت شحنه . فيضطر منافسه فيتلليوس إلى الاستسلام . وعلى الرغم من أن هذا الأخير ظل يمارس سلطانه حتى الحادى والعشرين من ديسمبر عام ٦٩ ، إلا أن الامبراطور فسباسيان أعلن أن بداية حكمه تقع فى أول يولية من العام نفسه ، وهو التاريخ الذى أعلن والى مصر وفيالقها العسكرية تأييدها له[١٢] .

ولم يكن هذا التأييد مقصوراً على العناصر الرومانية وحدها – الوالى والجنود – بل امتد إلى الجموع ، التى رأت فى هذه الأحداث ، فرصتها السانحة كى تشفى غليلها بتزعم حركة التمرد ضد غريمتها روما ، وتمثل هذا فى الاستقبال الحافل الذى قوبل به فسباسيان على مشارف الإسكندرية . وإن كان سرعان ما خاب أمل السكندريين فيه ، بعد أن وجدوا فيه « رومانياً » حريصاً على تحصيل الضرائب كاملة كغيره من الأباطرة[١٣] .

ومع اقتراب القرن الثانى من نهايته ، وازدياد وطأة الضرائب على كواهل الأهلين ، وتعسف الادارة المالية الرومانية فى مصر ، فى معاملة دافعى الضرائب ، واضطرار أعداد

من هؤلاء إلى هجران أراضيهم والفرار إلى المدن الكبرى ، بحثاً عن حياة أفضل ، أو الاتجاه لقطع الطرق واللصوصية ، وخاصة بعد أن ساهمت الخدمات الإلزامية التى فرضتها الادارة الرومانية على المصريين دون أجر ، وتمثلت فى إقامة الجسور وشق القنوات وما إلى ذلك ، فى ازدياد السخط العام لدى المصريين تجاه الحكم الرومانى . لذا نجدهم بكل قواهم يعطون تأييدهم الكامل لأفيديوس كاسيوس Avidius Cassius الذى أعلن نفسه امبراطوراً فى مصر وذلك عام ١٧٥ ، على عهد الامبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١ – ١٨٠) . ورغم أن كاسيوس قد اغتيل بعد عدة شهور على يد أحد أعوانه ، إلا أن هذه الأحداث ، كانت تشير إلى خطورة الموقع الاستراتيجى والأهمية الاقتصادية لمصر ، دل على ذلك حضور الامبراطور ماركوس أوريليوس إلى مصر فى السنة التالية مباشرة (١٧٦) ، وتقربه إلى المصريين بإعلان العفو العام .

وقد توالت زيارة الأباطرة الرومان لمصر ، خلال القرن الثالث الميلادى ، للإبقاء على شقى العلاقة « القمح والنقود » موصولاً . فقدم إليها سبتمبوس سفروس Septimius Severus فى أوائل عام ٢٠٠ ، وابنه كاراكلا Caracalla سنة ٢١٥ ، وسفروس اسكندر Severus Alexanderus عام ٢٢٩ . وأعلنت مصر فى عام ٢٦٠ ، اعترافها بالوالى ايميليانوس امبراطوراً ، وإن كان لم يقدر له النجاح . وفى سبعينيات القرن الثالث قدم الامبراطور أوريليان Aurelianus (٢٧٠ – ٢٧٥) إلى مصر ، ليعيد نفوذه فيها ، بعد أن تمكن من إيقاع الهزيمة بالتدمريين ، وملكتهم زنوبيا Zenobia أما قائده بروبوس Probus الذى تركه فى مصر لتأمين الحدود الجنوبية – فقد تمت المناداة به امبراطوراً عام ٢٧٦ بعد وفاة أوريليان . وتمكن من اعتلاء العرش الرومانى ، وحكم الامبراطورية طيلة ست سنوات آتية . واضطر الامبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤ – ٣٠٥) إلى المجىء إلى مصر بنفسه ، فى تسعينيات القرن الثالث ، للإشراف بنفسه على إخماد الثورة العارمة التى أشعلها دوميتيوس دوميتيانوس Domitius Domitianus الذى أعلن نفسه امبراطوراً ، إلى أن تمكن دقلديانوس من القضاء عليه .

وكان تحول مصر إلى المسيحية ، وتباعدها العقيدى عما تدين به القسطنطينية ، عاملاً أضاف الكثير من المرارة إلى نفوس المصريين ، الذين رأوا فى كنيسة القسطنطينية – التى يدعمها الأباطرة بكل قواهم ، وعن طريق قوانين المجامع الكنسية المسكونية – منافساً خطيراً لكنيسة الإسكندرية ، التى تسبق قرينتها بثلاثة قرون كاملة .

وآلم شعورهم ما قررته هذه المجامع من احتلال أسقفية القسطنطينية ، للمرتبة الثانية بعد روما مباشرة ، متعالية بذلك على الإسكندرية[٢٤] . لذا تجمعت هذه العوامل جميعها .. المرارة السياسية ، القهر الاقتصادى ، والخلاف العقيدى ، والنزاع حول المكانة ، لتزيد من تعميق النظرة المتبادلة بين الامبراطورية ومصر ، الأولى بحرصها – كما أسلفنا – على القمح والنقود .. والثانية بمحاولة رد الاعتبار وإثبات الذات .

ففى عام ٣٥٠ للميلاد .. قتل قنسطانز Constans امبراطور النصف الغربى من الامبراطورية[٢٥] على يد أحد قادته ويدعى ماجننتيوس Magnentius ويعود إلى أصول جرمانية ، وأعلن نفسه امبراطوراً فى الغرب بعد تغلبه على منافسيه ، الذين دفعهم نجاح تمرده إلى الإقدام على مثل علمه[٢٦] . وبعث إلى امبراطور النصف الشرق قسطنطيوس ، يطلب إليه إقرار الأمر الواقع ، واعتباره امبراطوراً شريكاً . غير أن قسطنطيوس رفض هذه المساومة ، وصمم على أن يعيد من جديد توحيد شطرى الامبراطورية تحت سيادته ، وأعد نفسه لحرب خصمه وقاتل أخيه .

وكان ماجننتيوس يدرك جيداً القيمة الحقيقية لمصر ، فى هذا الصراع المرتقب بينه وبين قسطنطيوس ، وداعبته الآمال بنجاح مسعاه فى ضم مصر إلى جانبه ، خاصة وأن المصريين وكنيسة الإسكندرية ، كانوا يحملون العداء للامبراطور الشرعى ، بسبب الخلاف العقيدى الناشب بينهم وبين القسطنطينية ، فبينما تدين هذه بالأريوسية ، القائلة « بخلق المسيح » ، كانت الإسكندرية قائمة على الإيمان بالنيقية ، المبنية على « ولادة المسيح » و « مساواته » للآب فى الجوهر[٢٧] .

أما القضية فى جوهرها .. فكانت عداء شخصياً بين الامبراطور والأسقف السكندرى ، مرجعه الخلاف الفكرى العميق بين الدولة والكنيسة . فالفكر السياسى الرومانى كان يقوم على سيادة الامبراطور المطلقة على كل رعاياه فى كل الأمور ، وكما هو الحاكم المدنى والقائد العسكرى .. فهو أيضاً الكاهن الأعظم Pontefix Maximus فى الوثنية ، والأسقف الأعلى ونائب المسيح على الأرض ، فى المسيحية .. ومن ثم كان الفكر السياسى الرومانى يرفض تماماً وجود كيان مستقل داخل سلطان الدولة ، أو بتعبير آخر دولة داخل الدولة . وكان أمراً ضرورياً أن يصطدم هذا مع الفكر الكنسى القائم على أن هناك « ما لقيصر » وهناك « ما لله » . وقد رأى الامبراطور أن قسطنطين العظيم وابنه قسطنطيوس فى الأسقف السكندرى أثناسيوس ، وموقفه تجاههما ، خروجاً على الفكر السياسى الرومانى ، فأقدم كل منهما على نفيه ، الأول عام ٣٣٥ ، والثانى

سنة ٣٣٩ . وليس أبلغ دلالة على مدى هذا العداء ، مما جاء على لسان قسطنطيوس ، فى حديثه مع ليبريوس Liberius أسقف روما وهو يحاوره[٢٨] « ليس هناك نصر واحد من الذى تحقق لى ، ولا حتى ذلك الذى لم يكن متوقعاً على ماجننتيوس ، يعدل عندى طرد هذا الوغد (يعنى أثناسيوس) من شركة الكنيسة » .

وقد ساعد الكنيسة بصفة عامة خلال القرن الرابع ، وأثناسيوس بصفة خاصة آنذاك على تحقيق شيء من النجاح فى صراعها مع الدولة ، وجود عاهلين أو ربما ثلاثة على عرش الامبراطورية ، إذ كان كل فريق يحرص على أن يستقطب إلى قضيته ، هذا الامبراطور أو ذاك . وفى مثالنا هذا الذى نضربه ، لقى الأسقف السكندرى العون من امبراطورى النصف الغربى على التوالى ، الأخوين قسطنطين الثانى وقنسطانز ، لقضاء فترتى نفيه الأولى (٣٣٥ - ٣٣٧) والثانية (٣٣٩ - ٣٤٦) هناك ، نظراً لتمسك الغرب بالايمان النيقى النابع منه أصلاً[٢٩] وربطه بين هذا المعتقد وأثناسيوس باعتباره المدافع عنه ، ومسايرة عاهلى الغرب لرعاياهم ، بعد أن انقلب القول الذائع على رأسه ، ليصبح « الملوك على دين ناسهم » ، وذلك لعدم معرفة هؤلاء الملوك بشيء من كنه هذا الخلاف العقيدى الدائر حول المسيح ، ولتحقق سيادتهم بمقتضى الفكر السياسى الرومانى على أقاليمهم .

لذا لم يكن غريباً أن يكتب قنسطانز إلى أخيه قسطنطيوس ، فى مطلع سنة ٣٤٤ بشأن أثناسيوس ، مهدداً متوعداً ، طالباً إليه السماح له بالعودة إلى أسقفيته ومعه بولس أسقف القسطنطينية . وجاء فى رسالته « أثناسيوس وبولس فى معيتى ... والآن عاهد نفسك على أن تعيدهما ثانية إلى كنيستيهما ، وأن تعاقب أولئك الذين أساءوا إليهما دون عدالة . ولسوف أبعث بهما إليك ، ولئن رفضت تنفيذ مشيئتى ، فكن على يقين أنك ستجدنى هنا .. عندك ، لأعيدهما بنفسى رغم أنفك[٣٠] » .

ولم يغب عن ذهن قسطنطيوس الآن (٣٥٠) أنه أحنى ساعتها للعاصفة رأسه ، وأنه كان على وشك أن يفقد عرش الامبراطورية فى القسطنطينية ، بسبب أسقف الاسكندرية ، خاصة وهو يعلم علم اليقين أن أخاه وهو يشهر سيف التهديد فى وجهه ، كان جاداً فى قوله .. فهو لم يتورع عن قتل أخيه الأكبر قسطنطين الثانى لأربع سنوات خلت ، (٣٤٠) ، وهو على استعداد الآن أن ينفذ وعيده ، فى وقت كانت الأحوال العسكرية لقسطنطيوس على جبهة الفرات ، فى غير صالحه ، إذ تلقى هزيمة ساحقة على يد الفرس فى أوائل عام ٣٤٤ عند سنجار ، فقد فيها عدداً كبيراً من قواته . ولا يستطيع

مطلقاً أن ينسى تحدى الأسقف السكندرى له أثناء لقائهما فى أنطاكية ، فى طريق عودة أثناسيوس إلى الاسكندرية ، فعندما طلب الامبراطور منه تخصيص كنيسة للآريوسيين فى الاسكندرية ، أجابه الأسقف بأنه على استعداد لإطاعة أوامر الامبراطور ، شريطة أن يمنح النيقيين فى أنطاكية نفس الامتياز . ولا ريب أن هذه الإجابة كانت صدمة عنيفة للامبراطور ، على حد تعبير المؤرخ المعاصر ثيودوريت Theodretus ، عدها قسطنطيوس طعناً فى كرامته[٣١] وهيبة المنصب الامبراطورى ، وأسرها فى نفسه ولم يبدها له ، وآثر السلامة فى وقت لم يكن يمتلك عندئذ طريقاً سواها ، وهو يعلم أن اثناسيوس يرد بسيف أخيه عاهل الغرب !

وها هو قسطنطيوس يواجه فى عام ٣٥٠ ما واجه قبل ذلك بست سنوات ، فقد أدرك ماجننتيوس أن طريقه إلى القسطنطينية محفوف بالمخاطر ، وبقاؤه على العرش الامبراطورى هناك غير آمن ، إلا أن يضمن وصول القمح من مصر إلى أهالى العاصمة ، التى يطمح فى القفز عليها . ومن ثم بعث على الفور باثنين من أعوانه ، كلمنتوس Clementus وفالنز Valens إلى الإسكندرية ، الباب الذى يحمل منه القمح إلى العاصمة الامبراطورية . وقد استقبلهما أثناسيوس - كما يروى هو نفسه - « بدموع الحزن على الامبراطور الراحل[٣٢] » ومع أن الرجلين بذلا محاولات يائسة ، لضمان تأييد مصر لسيدهما ، وهجران جانب قسطنطيوس الذى يمارس سياسة العنف لفرض عقيدة معينة يرتضيها ، إلا أن الوفد باء بالخسران ، وكان هذا شيئاً طبيعياً ، فلم يكن من المعقول - كما يحدث أثناسيوس - « أن يصافح يداً امتدت لتقتل الرحمة والتقى[٣٣] » . ولا غرو فقد علمنا مدى الصلة الوثيقة التى كانت تربط الأسقف السكندرى بالامبراطور القتيل .

ولم يكن قسطنطيوس أقل حرصاً من ماجننتيوس ، على ضم مصر إلى جانبه ، خاصة وان موقفه كان أكثر من منافسه سوءاً . فهو يستعد لحرب فى الغرب ضد مدعى العرش هذا ، بينما القوات الفارسية تتحين الفرصة للهجوم على أنطاكية ، التى ظلت محط آمالها عدة قرون ، وهو لا يعلم متى ستنتهى هذه الحروب فى الغرب ، وقد طالت فعلاً إلى ثلاث سنوات . وعليه أن يضمن لعاصمته خلال غيابه ، أسباب الهدوء فيها . ولهذا فقد حمل أمين بلاطه باللاديوس Palladius رسالة إلى الأسقف السكندرى جاء فيها :

« قسطنطيوس أوغسطس المظفر .. إلى أثناسيوس .. لا يخفى على فطنتك ، كيف أنى على الصلوات عاكف .. والضراعة ، حتى أحقق بالنجاح كل ما كان ينتويه أخى الراحل قنسطانز ، وسوف تدرك حكمتك بجلاء ، كيف أنى مغتم ، فقد كُلمت بعد إذ

أتانى نبأ اغتياله بيد الأوغاد الآثمين . والآن نظراً لأنا على يقين من أن بعضاً يسعى دوما لايقاع الأذى بك والضرار ، منتهزين فرصة المأساة الأليمة ، فإنا قد رأيناه حسناً أن نبعث لنيافتكم هذه الرسالة ، نحضك فيها ، وأنت بالأسقفية قائم ، أن تعلم الناس كيف الخلود إلى السكينة ، وبالدين يقومون ، ولتشاركهم كما اعتدت الصلوات ، فهذا ما يتفق ورغباتنا[٣٤] » .

والرسالة على هذا النحو ، وفى جزئها الأخير ، أمر صريح إلى الأسقف السكندرى بالتزام الهدوء ، والانصراف إلى أداء الطقوس الكنسية ، وحث الجموع على التمسك بأهداب السلام ، فهذا كله وفقط هو « ما يتفق ورغبات الامبراطور » . وقد آتت هذه الرسالة أكلها ، فبقيت مصر على ولائها لقسطنطيوس ، حتى إذا تحقق له النصر على خصمه سنة ٣٥١ ، ثم التخلص منه نهائياً سنة ٣٥٣ ، راح يصفى مع الأسقف السكندرى حساباته القديمة . ولم يأت عام ٣٥٦ ، إلا وكان أثناسيوس قد ارتحل عن الاسكندرية فاراً بنفسه بعد محاولة القبض عليه من جانب جنود الامبراطور ، ملتجئاً إلى الرهبان فى صحراء مصر ، أعوانه وأنصاره ، مبتدئاً بذلك رحلة نفيه الثالث .

ولم يمض على ذلك ثمان سنوات ، كان أثناسيوس قد عاد فيها إلى الاسكندرية ثم نفى للمرة الرابعة ، ثم عاد ثانية[٣٥] ، إلا وأصدر الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨) أوامره بنفى أساقفة النيقية ، وفى مقدمتهم أسقف الإسكندرية ، فقد كان الامبراطور آريوسيا متحمساً . وقد أعلن هذا المرسوم فى الإسكندرية فى الخامس من مايو سنة ٣٦٥ ، فاندلعت الفوضى فى المدينة ، وعجزت الحامية عن التصدى لها ، وزاد الأمر سوءاً أن الثورة لم تقتصر على الثغر وحده ، بل امتدت إلى أنحاء مصر كلها كما يعبر ذلك المؤرخون المعاصرون[٣٦] ، الذين يذكرون أن الناس راحوا يتقاطرون من أنحاء مصر وصحاريها ، يعنون جماعات الرهبان ، على الإسكندرية ، حتى باتت المدينة على وشك الانفجار . وتضمن تقرير حاكم مصر ، فلافيانوس Flavianus الالليرى إلى الامبراطور عرضاً وافياً عن هذه الاضطرابات التى شهدتها المدينة على امتداد شهر كامل . غير أن الامبراطور ازداد اقتناعاً بأن أثناسيوس هو المحرك الأساسى لهذه الثورة ، وأنه يتحدى بذلك سلطان الامبراطور ، فأصر على ضرورة القبض عليه . لكن الجهاز السرى الدقيق للرهبان ، تمكن من « تهريب » أثناسيوس من الإسكندرية ، كما حدث من قبل ليبدأ فى حمايتهم رحلة نفيه الخامس فى الخامس من أكتوبر سنة ٣٦٥ .

على أن الصراع من حول العرش فى العاصمة الامبراطورية ، دفع فالنز إلى أن يلغى

مرسومه ثانية بعد أربعة أشهر فقط ؛ ذلك أن أحد القادة العسكريين ويدعى بروكوبيوس Procopius ، انتهز فرصة خلو العاصمة من الامبراطور ، الذى كان مقيماً فى أنطاكية ، لانشغاله فى التصدى للقوات الفارسية على جبهة الفرات ، وأعلن نفسه امبراطوراً قرب نهاية عام ٣٦٥ ، مدعياً أن الامبراطور الراحل .. جوفيان ، قد اختاره من قبل خلفاً له ، عندما أهداه العباءة الامبراطورية[٣٧] . وتمكن بروكوبيوس من أن يجمع حوله قوات كبيرة فى فترة قصيرة ، مما أصاب الامبراطور بحالة من « الهلع » - على حد تعبير المؤرخ المعاصر سقراط Socrates[٣٨] .

والتوقيت الذى اختاره بروكوبيوس ، لإعلان تمرده على فالنز ، وتنصيب نفسه امبراطوراً فى القسطنطينية ، يوحى بما لا يدع مجالاً للشك بأنه انتهز فرصة أحداث الإسكندرية ، والثورة المندلعة فيها والممتدة إلى « كل أنحاء مصر » حسب روايات شهود العيان ، وسخط المصريين على الامبراطور فالنز ، لتعسفه فى معاملة أسقف الإسكندرية ، ليضمن بذلك وقوف مصر دون تردد إلى جانبه ، انتقاماً من فالنز ، الذى أسقط فى يده ، وأبصر حرج موقفه تماماً .

فها هى القسطنطينية قد أمست فى قبضة بروكوبيوس ، ومصر توشك أن تضيع منه وتؤيد خصمه ، فيفقد بذلك الأموال والمؤن اللازمة لمقاومة مدعي العرش ، ومواصلة الاستعدادات العسكرية لمجابهة الفرس الذين يتحفزون الآن للقفز على أرمينيا . ولابد أن ذاكرة فالنز كانت تعى تماماً ما وقع من قبل زمن قسطنطيوس وماجننتيوس . وإذ وضع الامبراطور أمام ناظريه كل هذه الاعتبارات ، أصدر أوامره على الفور باستدعاء أثناسيوس ليعتلى كرسى أسقفيته من جديد ، وأعلن ذلك فى الإسكندرية فى أول فبراير سنة ٣٦٦ ، بل أمر أحد موظفيه فى مصر بأن يخف لاستقبال أثناسيوس . وقام ممثل الامبراطور بالفعل وخف للقاء الأسقف السكندرى وحمايته حتى دخوله الكنيسة[٣٩] .

ولاشك أن الامبراطور قد أيقن من خلال تجربته الشخصية ، أن وجود أثناسيوس على كرسيه فى الإسكندرية ، يمارس مهامه الرعوية ، تحت سمع الامبراطور وبصره ، أفضل بكثير من إبعاده عن بيعته ، مما يعطى الفرصة لأنصاره ، بإحداث الشغب فى مصر ، مما يعود بآثاره السياسية والاقتصادية السيئة على الامبراطورية .

ويعلق المؤرخ الكنسى المعاصر سوزومين Sozomenos على ذلك فى صراحة بالغة بقوله « لابد أن تساور الانسان الشكوك فى الدافع الذى حدا بفالنز إلى التصريح لأثناسيوس بالعودة إلى أسقفيته ، لا ريب أن ذلك لم يكن نابعاً من نية صادقة ... لكن

لابد أنه كان يخشى حدوث الفتنة من جانب أولئك المتعلقين بالأسقف وهم كثيرون ، مخافة أن يؤدى ذلك إلى الإضرار بالشئون العامة للامبراطورية » ثم يضيف إلى ذلك قوله « وإنى لعلى يقين أن هذا السبب هو الذى أبقى أثناسيوس على أسقفيته فى الوقت الذى لقى فيه العنت عدد كبير من الأساقفة الآخرين(٤٠) » .

وقد أصاب سوزمين كبد الحقيقة بقوله هذا ، فعبارة « الإضرار بالشئون العامة للامبراطورية » ترمز بوضوح إلى الأهمية التى يعلقها أباطرة القسطنطينية على مصر من الناحيتين الاقتصادية والسياسية .. وهذا يفسر تماماً عبارات مؤرخنا الأخيرة ، القائلة بعودة أثناسيوس إلى بيعته ، لتهدئة خواطر المصريين الثائرين ، بينما بقى زملاؤه من الأساقفة الآخرين « النيقيين » تحت طائلة النفى . ولم يكن سوزومين وحده هو الذى أدرك هذه الحقيقة ، بل سجلها بقلمه أيضاً المؤرخ الناقد ، المعاصر ، والذى كان يعيش فى القسطنطينية - سقراط - فى قوله « لقد عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية ، وحرص الامبراطور بعد ذلك على أن لا يعكر صفو السلام هناك ، فقد كان يعلم تماماً قوة تلك الجموع التى تؤيد أثناسيوس ، فلم يحاول أن يستثير غضبهم ، مخافة أن تتعرض أمور الدولة العامة للأخطار على يد السكندريين ، الذين كانوا بطبعهم جنساً غاضباً(٤١) » ويدعم هذه الآراء ، أن الامبراطور فالنز لم يقدم على حرب خصمه بروكوبيوس ، إلا بعد أن اطمأن إلى عودة الأسقف السكندرى إلى كرسيه الأسقفى ، واستقرار الأمور تماماً فى مصر ، هذا بالإضافة إلى أنه ظل طيلة سبع سنوات آتية ، هى الباقية من عمر أثناسيوس (+ ٣٧٣) لا يحاول الإقدام على التعرض بسوء له مرة أخرى ، فقد كان يعلم يقيناً عاقبة هذا العمل الذى يعنى إعطاء الفرصة لحدوث الاضطرابات والفوضى فى مصر . بينا امتدت يد عذابه إلى أساقفة النيقية الآخرين .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن مرسوم الامبراطور الخاص بنفى أثناسيوس أذيع فى الإسكندرية فى مايو ٣٦٥ .. وهذا التوقيت يوافق فترة جنى محصول القمح ، ثم جاء تأكيد الامبراطور وأوامره بضرورة القبض على أثناسيوس ، بعد حدوث الاضطرابات فى الإسكندرية ومصر ، فى أوائل أكتوبر من العام نفسه ، وهو الشهر الذى كان يتم فيه دائماً إرسال شحنة القمح من الإسكندرية إلى القسطنطينية ، وهذا يجعلنا نذهب إلى القول أن فالنز كان يسعى جاهداً لإبعاد أثناسيوس عن المدينة ، فى الوقت الذى تجرى فيه الاستعدادات من جانب حاكم مصر لإرسال القمح إلى العاصمة الامبراطورية ، مخافة أن يحرض رعيته على تعطيل وصول هذه الشحنة ، فلعله كان ماثلاً فى ذهنه تلك الاتهامات التى بمقتضاها تم نفى أثناسيوس على يد قسطنطين للمرة الأولى عام ٣٣٥ .

أو لعله خشى أيضاً أن يقدم الثائرون فى المدينة على مهاجمة صوامع التخزين فى الإسكندرية ونهب ما فيها من حصة العاصمة الامبراطورية ، وقد حدث هذا فى بعض الأحيان ، يدلنا على ذلك أن الأوامر قد صدرت فيما بعد ، بعدم نقل شحنة القمح المخصصة للقسطنطينية كلها دفعة واحدة من الأقاليم إلى الإسكندرية ، بل تنقل على مراحل ، بحيث يتم شحنها أولاً بأول إلى العاصمة .

ومع ازدياد حدة الخلاف العقيدى حول طبيعة المسيح بين الكنائس فى الامبراطورية ، خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادى ، والذى واكب نهاية أسرة ثيودوسيوس على العرش البيزنطى ، ووجود فترة طويلة تقترب من ثلاثة أرباع القرن (٤٥٠ - ٥١٨) خلت من وجود أسرة بعينها تتملك زمام الأمور فى القسطنطينية ، حدث صراع عنيف متعدد الأطراف من حول العرش ، شاركت فيه هذه المرة عناصر مختلفة ، مثل الأيزوريين ، الذين ينتمون إلى منطقة إيزوريا Isouria الجبلية فى آسيا الصغرى ، والجرمان ، الذين هطلوا على الامبراطورية بعد معركة سنة ٣٧٨ وهزيمة الامبراطورية ، وانسياح الجرمان داخلها ، بحثاً عن مستقر لهم ومقام على أرضها ، وبلوغهم أعلى المناصب العسكرية ، وتحكمهم فى تعيين الأباطرة وعزلهم فى القسطنطينية ، كما حدث على يد جايناس Gainas القوطى ، ناهيك عن نفوذهم الواسع فى البلاط الامبراطورى فى النصف الغربى من الامبراطورية(٤٢) .

نقول إنه مع حدوث هذه الاضطرابات ، وتدخل عناصرها ، وفقدان الامبراطورية - إلى حين - للنظام السياسى الذى وضعه قسطنطين العظيم لاعتلاء العرش الامبراطورى ، وما صحبها من حدة النزاع العقيدى ، كان لابد أن يكون لمصر دورها الهام خلال هذه الأحداث . ساعد على ازدياد أهميته أن مصر اتخذت لنفسها معتقداً يخالف ما آوت إليه القسطنطينية . فبينما آمنت هذه بطبيعتين فى المسيح ، مستقلتين غير منفصلتين ، آمنت الإسكندرية بطبيعة واحدة من طبيعتين . وكان طبيعياً إذن أن يقدم المتنافسون على العرش البيزنطى ، على إظهار ميلهم وتأييدهم - على الأقل ظاهرياً - لكنيسة الإسكندرية ، حتى تطمئن نفوسهم إلى أن مصر بأموالها وقمحها سوف تؤمن ظهورهم فى عاصمتهم ، وأن أهلها لن يسببوا لهذا المدعى للعرش قلقاً يذهب بآماله .

وكان هذا واضحاً فى سبعينيات القرن الخامس ، عقيب وفاة الامبراطور ليو الأول Leo I (+ ٤٧٤) ، إذ خلفه حفيده وسميه الثانى ، ولما كان طفلاً فى السادسة من عمره ، فقد تولى أبوه زينون Zeno الوصاية عليه ، ثم لم يلبث أن صار امبراطوراً شريكاً

فى الشهر التالى مباشرة ، ليقفز على العرش بعد ذلك بتسعة أشهر ، امبراطوراً منفرداً بعد وفاة إبنه الامبراطور الطفل . إلا أن الأصل الايزورى الذى يعود إليه زينون ، كان ستاراً أخفى وراءه الطامحون فى العرش أهدافهم الأساسية ، وحيكت المؤامرات من جانب الامبراطورة الجدة « فرينا » Verina زوجة ليو الأول ، وشقيقها باسيليسكوس Basiliscus ضد ابنتها أريادنة Ariadne وزوجها زينون ، مما اضطرها للفرار إلى المناطق الشرقية من آسيا الصغرى ، فأتاح ذلك الفرصة أمام باسيليسكوس لاعتلاء العرش فى يناير ٤٧٥ .

وطبيعى أن يكون هذا الامبراطور فى حاجة ملحة إلى الأموال ، للانفاق منها على أنصاره الذين رفعوه إلى عرش الامبراطورية ، وزاد فى شدة احتياجه ، أن زينون استولى على ما فى الخزانة قبل هروبه ، ونقله معه إلى حيث يقيم ، ليقدمه هو الآخر عطية لمؤيديه ، فى هذا الصراع المحتدم بينه وبين مغتصب العرش . ولذا فرض باسيليسكوس عدداً من الضرائب ، واستولى من الكنيسة على الأموال قهراً[٤٣] لكن هذا كله ما كان يغنيه عن أموال مصر وقمحها ، وأيقن خطورة موقفه إذا لم يسارع بضمها إلى صفه ، حيث كان زينون موجوداً فى المناطق الشرقية من آسيا الصغرى ، وبمقدوره أن يستخدم أعوانه وجنوده من الايزوريين ، بنى جلدته ، فى بسط سلطانه على سوريا ومصر ، فيهدد القسطنطينية بحصار اقتصادى ، يخنق أهلها ويسقط خصمه من على العرش .

ولما كان هذا كله ماثلاً لعينى باسيليسكوس ، فقد أصدر على الفور فى التاسع من إبريل ٤٧٥ ، ولما يمض على اعتلائه العرش أكثر من أشهر ثلاثة ، ومع اقتراب موسم حصاد القمح ، منشوراً أدان فيه قانون الايمان الصادر عن مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ، القائل بالطبيعتين فى المسيح ، ووضع تحت طائلة اللعنة ، رسالة العقيدة[٤٤] Tomus التى كان البابا ليو الأول قد بعث بها من روما ، لتتلى فى مجمع إفسوس الثانى المنعقد سنة ٤٤٩ . وجاء فى منشور باسيليسكوس « ... إن الاجراءات التى صدعت وحدة كنائس الله المقدسة ونظامها ، وعكرت صفو سلام العالم كله ، نعنى بها .. ما يدعى « رسالة العقيدة » الخاصة بـ « ليو » ، وكل ما قيل أو وقع فى خلقيدونية ، (٤٥١ – المجمع المسكونى الرابع) من بدع حاقت بالأنموذج المقدس ، السابق ذكره ، للآباء الثلاثمائة والثمانية عشر المقدسين (يقصد مجمع نيقية المسكونى الأول المنعقد عام ٣٢٥) سواء عن طريق الشروح ، أو التعليم ، أو الحديث ، فلتكن أناثيما ، (ملعونة) هنا أو فى أى مكان آخر ، بواسطة الأساقفة المقدسين[٤٥] .

وقد قصدت بهذا الجزء الصغير الذى أقتطعته من المنشور المطول الذى أصدره باسيليسكوس ، أن أوضح إلى أى مدى يبدو اهتمام هذا الامبراطور المغتصب للعرش ، باستقرار الأمور فى الإسكندرية ومصر عامة ، فى صراعه المرتقب مع الامبراطور زينون . ويبين هذا من إيراده لاسم البابا « ليو » الأول بابا روما (٤٤٠ – ٤٦١) مجرداً من أى لقب حتى كلمة الأسقف ، وذلك عند حديثه عن « رسالة العقيدة » Tomus بينما يقرن الأسقف السكندرى تيموثيوس Timotheus بألقاب التبجيل والاحترام الكاملين « من الامبراطور باسيليسكوس ... إلى تيموثيوس رئيس أساقفة الإسكندرية ، المدينة العظيمة ، الموقر محبوب الرب[٤٦] » .

والأمر الآخير أن هذا الامبراطور المغتصب ، كان على استعداد لأن يضحى بكل ما فعله الأباطرة الأسلاف ، ليرفعوا القسطنطينية مكاناً علياً بين الكنائس الرسولية ، وليجدوا لها منزلة مرموقة فى الصراع الذى شغل من القرن الخامس معظمه ، ودار بين الكنائس الرسولية فى الامبراطورية من أجل الزعامة[٤٧] ، وذلك فقط لاسترضاء أسقف الإسكندرية والأكليروس المصرى وجماعة الرهبان ، لما يعلم من تأثيرهم البالغ على نفوس شعب الكنيسة وجموع المصريين . فقد جاء فى منشوره ، فى الجزء الذى اقتطفناه ، لعن ما تمخض عنه مجمع خلقيدونية المسكونى ، أو حسب تعبيره ، « كل ما قيل أو وقع » وجاء فى مواضع أخرى من المنشور نفسه ، التأكيد على هذه « اللعنة » والسؤال الذى نطرحه هنا .. هل كان باسيليسكوس يعنى بهذه « الأناثيما » كل ما صدر عن مجمع خلقيدونية المسكونى ؟ . أعنى قانون الإيمان والقوانين التنظيمية الصادرة عن المجمع المكملة لأعماله ، والبالغ عددها ثلاثون قانوناً[٤٨] ، أم يعنى قانون الايمان فقط والخاص بإقرار الطبيعتين فى المسيح ؟

لو أخذنا بمنطوق لفظ الامبراطور فقط فى منشوره هذا ، أعنى قوله « كل ما قيل أو وقع فى خلقيدونية » لكان هذا كافياً كى تنسحب « لعناته » على قانون الإيمان الخلقيدونى والقوانين التنظيمية الثلاثين . وذلك لضمان تأييد الأسقف السكندرى واكليروسه ورهبانه وشعب كنيسته كما أسلفنا . فالقانون الثامن والعشرون من قوانين المجمع ، ينزل أسقفية القسطنطينية منزلاً رفيعاً إلى جوار أسقفية روما ، باعتبار القسطنطينية هى روما الجديدة . وهو يعد تأكيداً جديداً وإضافة تفصيلية لما قرره القانون الثالث الصادر عن المجمع المسكونى الثانى . المنعقد فى القسطنطينية عام ٣٨١

على عهد الامبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٨ – ٣٩٥) Theodosius I وكان هذا
يعنى لطمة قاسية وجهت إلى كنيسة الإسكندرية ، التى كانت هى تحتل المرتبة الثانية
بعد روما مباشرة ، تبعاً لما جرى به التقليد الكنسى فى ترتيب الكنائس الرسولية ، ولما
أقره مجمع نيقية المسكونى عام ٣٢٥ ، من جعل الترتيب على هذا النحو : روما
فالإسكندرية فأنطاكية فالقدس . وكان معنى القانون الثالث لمجمع القسطنطينية ،
والثامن والعشرين لمجمع خلقيدونية ، أن تنزل الإسكندرية عن مكانتها كارهة لتحتلها
القسطنطينية ، وأن تتخلف أنطاكية إلى المركز الرابع متخلية عن مركزها الثالث لتجلس
عليه الإسكندرية ، وتتوارى إلى الظل فى المرتبة الخامسة كنيسة القدس .

لهذا لم يجد باسيليسكوس غضاضة فى أن يلعن قوانين مجمع خلقيدونية وكأنه يعيد
بذلك إلى الإسكندرية حقاً ، كان قد اغتصب منها فى خلقيدونية ، خاصة وأن الجلسة
الثالثة من جلسات هذا المجمع ، كانت قد خصصت لإدانة الإسكندرية فى شخص
أسقفها ديوسقورس Dioscorus الذى تعرض للإهانة من جانب أساقفة المجمع . يدل على
هذا الاتجاه عند باسيليسكوس ، أنه أقدم على العفو عن الأسقف السكندرى تيموثيوس
وإعادته من المنفى إلى الإسكندرية بعد نفى امتد ثمانية عشر عاماً ، قضاها فى مدينة
خرسون[٤٩] Cherson ، فإذا ما علمنا أن منشور باسيليسكوس هذا قد صدر بوحى من
تيموثيوس نفسه ، أثناء وجوده فى القسطنطينية ، بعد شخوصه إليها فى طريقه إلى
الإسكندرية[٥٠] ، أو على حد تعبير مؤرخى القرن السادس ، زكريا الميتلينى Zachariah
of Mityline وايفاجريوس Evagrius قد صدر « بإغراء » تيموثيوس[٥١] ، وأن الامبراطور
المغتصب صمم على إعادة تيموثيوس من المنفى ، رغم المعارضة الشديدة من جانب
أكاكيوس Acacius أسقف العاصمة الامبراطورية[٥٢] ، إذا ما علمنا هذا .. أدركنا على
الفور ، المغزى الحقيقى لما ورد فى المنشور من إنزال اللعنة على « كل ما قيل أو وقع » فى
خلقيدونية ، أدركنا أيضاً الضرورة الملحة والظروف التى أحاطت بالامبراطور ، ودفعته
إلى الإقدام على هذه الخطوة .

ويزداد الأمر وضوحاً إذا أضفنا إلى كل هذا ، أن باسيليسكوس أقدم على تعيين طبيبه
الخاص ثيوكتستوس Theoctistus السكندرى ، كبيراً للأمناء فى القصر الامبراطورى ،
وصار من المقربين جداً إلى الامبراطور ، كما أنه استقبل فى قصره وفداً من الرهبان
المصريين ، من ذوى المكانة المرموقة ، كما يصفهم زكريا الميتلينى[٥٣] سرعان ما حازوا
إعجاب الامبراطور وزوجه . وكان من بينهم ثيوبومبوس Theopompus شقيق

ثيوكتستوس ، كبير الأمناء والطبيب الخاص للامبراطور ، وعن طريق نفوذ هذا الأخير
لدى باسيليسكوس ، أعيد الأسقف السكندرى من منفاه ، وتم استقباله فى القسطنطينية
استقبالاً حافلاً ، شارك فيه البحارة المصريون الذين كانوا فى العاصمة آنذاك .

ويبدو أن الهمس سرى فى القسطنطينية ، لابد بناء على أخبار تسربت من القصر
الامبراطورى ، بأن هناك خيوط اتفاق يجرى إعداده ، لعزل أكاكيوس وتعيين
ثيوبومبوس أسقفاً للعاصمة الامبراطورية بدلاً منه . وقد ترك هذا أثره السيء على نفس
أكاكيوس[٥٤] ، الذى أضمر الكراهية لهذا « النفوذ » المصرى فى البلاط البيزنطى ، ومن
ثم حاول إعاقة عودة تيموثيوس من منفاه ، لكن جهوده ذهبت عبثاً ، بينا توطدت
العلاقات الودية سريعاً بين الامبراطور وزوجه ، وبين الأسقف السكندرى ، والتى
عبرت عن نفسها فى صدور هذا المنشور .

إلى هذا الحد كان يبدو دور مصر بارزاً فى التأثير على الأحداث التى تجرى على
المسرح السياسى فى القسطنطينية ، بل فى صنع هذه الأحداث فى كثير من الأحيان ،
خاصة تلك التى يدور فيها الصراع من حول العرش البيزنطى . وهذه الحقيقة أدركها
مؤرخو العصر البيزنطى ، كما تيقنها من قبل المؤرخون الرومان منذ القرن الأول للميلاد ،
فقد أورد زكريا الميتلينى رواية قدوم وفد الرهبان ، الذى سبقت الإشارة إليه الآن ، إلى
القسطنطينية ، وقدم لها بعبارة بليغة ، بالغة الدلالة على إيجازها . يقول « وعندما وقف
السكندريون على هذه الأزمة السياسية فى إدارة شئون الامبراطورية ، أرسلوا (إلى
القسطنطينية) وفدهم المنتقى ، الذى يضم خاصة الرهبان[٥٥] » ، ومؤرخنا الميتلينى هنا
يقر حقيقة لامراء فيها ، وهى أن مصر عرفت كيف تنتهز فرصة الفوضى الحادثة فى
الامبراطورية ، لتتدخل بصورة عملية ، فعالة ومؤثرة ، فى تسيير مجرى الأحداث ، بما
يحقق مصالحها . ويمكننا القول بتعبير آخر ، إن مصر كان لها ، إلى حد بعيد جداً ،
الرأى الأخير فى المفاضلة بين المستبقين على عرش الامبراطورية ، وبالتالى تهافت هؤلاء
على أن يخطبوا ودها ، وكل يقدم ما فى جعبته قرباناً على مذبح رضاها ، إلى الحد الذى
يجىء فيه هذا القربان فى صورة تنازلات مهينة ، على حساب العقيدة الارثوذكسية
الملكانية ، والسيادة الكنسية لأسقفية العاصمة . ومن ثم لم يكن غريباً أن تمتلىء نفوس
بطريرك القسطنطينية ورجال الأكليروس فيها ، بالمقت الشديد للإسكندرية وأسقفها .
وقد بدا هذا جلياً ، عندما تملك نفر من هؤلاء أذن الامبراطورة ، وأوغروا صدرها على
تيموثيوس ، موضحين لها ضرورة نفيه ثانية . ويبدو أن مسعاهم قد حقق لديها بعض
النجاح ، رغم إعجابها السابق به ، ولم ينقذه هذ المرة إلا ثيوكتستوس السكندرى ،

كبير الأمناء الذى أوعز إليه أن يرتحل عن القسطنطينية مسرعاً ، ليعود إلى الإسكندرية[٥٦] .

وكان هذا الشعور العدائى سبباً فى تحول ولاء إكليروس العاصمة ، وعلى رأسهم أكاكيوس ، وانصرافهم عن تأييد باسيليسكوس ، وكيف لا ، وهم يرونه يتخلى عن عقيدة الدولة ، منحرفاً إلى عقيدة الإسكندرية ، مغمضاً عينيه عما يدور وراء أستار القصر الامبراطورى ، من محاولات كى يعتلى كرسى القسطنطينية الأسقفى ، راهب مصرى هو ثيوبمبوس . وإلا فبم نفسر نكوص الامبراطور على عقبيه ، وإصداره منشوراً جديداً[٥٧] ، يلغى فيه كل ما جاء فى منشوره الأول ، ويخلع على أكاكيوس ألقاب التمجيد والإطراء ، لكن هذا كله لم يجده نفعاً ، فسرعان ما فقد عرشه على يد الامبراطور الشرعى زينون .

ولعل الامبراطور زينون قد وعى هذه الحقيقة تماماً ، وأيقن ما لمصر من تأثير كبير على مجرى الأحداث فى القسطنطينية من حول العرش ، ولذا لم يكن هو الآخر أقل حرصاً من منافسه « المخلوع » باسيليسكوس على تجنب إثارة غضب مصر . فبينما أصدر قراره بعزل كل من بطرس القصار أسقف أنطاكية ، وبولس أسقف إفسوس Ephesus ، وهما من أخلص أصدقاء تيموثيوس ، وكانا هما الآخران قد عادا إلى كرسيهما على عهد باسيليسكوس ، استثنى الأسقف السكندرى ممن شملتهم قرارات العزل ، وبقى تيموثيوس على كرسيه الأسقفى إلى أن ودع دنياه فى آخر أيام يولية عام ٤٧٧[٥٨] .

ولم يقف الأمر من جانب زينون عند هذا الحد ، بل أقدم على إصدار ما يعرف بـ « قانون الاتحاد[٥٩] » Henoticon قصد به إعادة الهدوء إلى مختلف الكنائس ، خاصة فى الولايات الشرقية ، بعد عزل أساقفها ، وحرم به على المتصارعين لاهوتيا ، القول بطبيعة واحدة فى المسيح أو طبيعتين . على أن الذى يعنينا فى هذا الأمر ، أن الذى حمل هذا « الهنوطيقون » إلى بطرس ، أسقف الإسكندرية الجديد ، هو برجاميوس Pergamius الذى كان قد عين مؤخراً مديراً للإدارة المالية بمصر[٦٠] فإذا ما ربطنا هذا بما يرويه زكريا الميليني فى تاريخه الزمنى[٦١] عن قدوم « متولى » الضرائب فى مصر على تيموثيوس ، عند عودته من القسطنطينية بعد العفو عنه على يد باسيليسكوس ، وهو يحمل رسالة من الملك ، أدركنا دون عناء طبيعة العلاقات التى كانت تربط مصر بالامبراطورية البيزنطية ، ومدى دورها فى صنع الأحداث فى بلاط القسطنطينية .

ولم تغب هذه الناحية عن فكر امبراطور إدارى حازم ، مثل الامبراطور جوستنيان

Iustinianus فى القرن السادس الميلادى ، وقد بات لزاماً عليه أمام مشروعاته الضخمة ، لاستعادة المجد الرومانى الضائع بضياع الولايات الرومانية فى الغرب على يد الجرمان ، ومتطلباته المالية المتزايدة باستمرار ، أن يجعل من جباية الضرائب فى الولايات البيزنطية ، ومصر فى مقدمتها ، شغله الشاغل ، وقد أفصحت قوانينه العديدة عن ذلك ، ورغم أن هذه التشريعات كانت تعنى ولايات الامبراطورية بصفة عامة ، إلا أن نصيب مصر منها كان كبيراً . وقد أفصح عن ذلك فى مقدمة القانون الثامن الذى عزا فيه انخفاض دخل الدولة من الضرائب ، إلى الفساد الادارى الذى كان مستشرياً فى عهد أسلافه ، على حد قوله[٦٢] . وراح يتوجه بقوانينه إلى دافعى الضرائب ، « إدفعوا الضرائب دون تأخير ، فمشروعاتنا العظيمة ليس من السهل إتمامها دون الأموال[٦٣] » بل إنه أعطى لحكام الأقاليم سلطات خاصة تصل إلى حد استخدام القسوة مع المتهربين من دفع الضرائب أو المماطلين[٦٤] .

ولا شك أن هذه الاجراءات الصارمة ، التى اتبعت مع أهالى الولايات ، على امتداد عهد جوستنيان الذى يمتد قرابة ثمانية وثلاثين عاماً (٥٢٧ – ٥٦٥) ، قد تركت بصماتها واضحة عند المصريين بصفة خاصة ، الذين وجدوا فى الحكم البيزنطى تسلطاً سياسياً وإنهاكاً اقتصادياً وتعسفاً عقيدياً ، مما أدى إلى ازدياد سخطهم بصورة واضحة ، عبرت عن نفسها فى عدم وقوفهم إلى جانب البيزنطيين أثناء اكتساح الفرس للولايات الشرقية واحتلالهم لمصر سنة ٦١٦ ، وكان هذا هو نفس موقفهم عند دخول المسلمين إليها عام ٦٤١ .

على أن مصر لعبت الدور الرئيسى والأخير ، فى الصراع الذى دار حول العرش البيزنطى عام ٦١٠ ، بين الامبراطور فوقاس Phocas (٦٠٢ – ٦١٠) وهرقل إبن أرخون ولاية أفريقيا ، والمرشح للعرش البيزنطى . ويبين من الصراع بين المتنازعين ، الأهمية القصوى التى كان يعلقها كل منهما على الاستئثار بالسيادة على مصر . ويذكرنا ما يجرى الآن فى القرن السابع ، بما جرى من قبل فى السنة الشهيرة للأباطرة الأربعة ، أعنى عام ٦٩ للميلاد ، فقد زحف فسباسيان من سوريا إلى مصر ، « ليصهر إيطاليا بمجاعة » وكان نجاحه فى ذلك محققاً بالقضاء على منافسه فيتللوس . والآن تزحف قوات هرقل من أفريقية إلى مصر ، « لتصهر القسطنطينية بمجاعة » وكان نجاح هرقل فى ذلك أيضاً محققاً ، بإعدام خصمه فوقاس .

وكان فوقاس ، وهو أحد ضباط الصف فى الجيش الرومانى العامل عند الدانوب فى

مواجهة الآفار ، قد تمرد على الامبراطور موريس (٥٨٢ – ٦٠٢) وأطاح به من على العرش وأعدمه هو وأبناءه الخمسة ، وحكم الامبراطورية حكماً بالغ السوء ، تدل عليه القالة المنسوبة خطأً إلى أثناسيوس Spuria Athanasiana والتى يسأل فيها الله ، كيف سمح لطاغية مثل فوقاس أن يصبح امبراطوراً ؟ فيجيب الله : « لأنى لم أجد من هو أسوأ منه ![٦٥] » . لذا استقر السناتو فى القسطنطينية ، وأهلها وأحزابها السياسية وبحارة الأسطول ، على استدعاء أرخون أفريقية ، هرقل ، إلى العاصمة ، لإنقاذ الامبراطورية من هاوية توشك على التردى فيها ، فعهد هذا إلى إبنه وسميه أن يتولى الأمر بنفسه .

أدرك هرقل الإبن للوهلة الأولى أن نجاحه فى مهمته يتوقف فى المقام الأول ، على حرمان القسطنطينية ، أو بتعبير أكثر دقة ، الجالس على عرشها ، من المورد الأساسى الذى يمده بالأموال ويوفر لعاصمته الغلال . ومن هنا اتجه ببصره إلى مصر أولاً قبل الذهاب إلى العاصمة ، على اعتبار أن الطريق إلى القسطنطينية يبدأ من الإسكندرية .

ولقد عبر المؤرخ بتلر عن ذلك تعبيراً رائعاً بقوله « كان فتح مصر عند هرقل يمثل موضع القطب من خطته ، تدور عليه رحاها ، وهى العقبة لا عقبة سواها بينه وبين القسطنطينية . فإذا هو فتحها ملك بذلك الفتح أرضاً يستطيع أن يجند منها الجنود ، وتمكن من « مزرعة النيل » تخرج له القمح والخيرات ، ووضع يده على ميناء الإسكندرية وما فيها من السفين ... كان عليه أن يملك الإسكندرية – المدينة الثانية فى الدولة جمعاء – فإذا هو ملكها قطع عن القسطنطينية ما كان يبعث إليها من قمحها ، ووضع يده على موضع يستطيع فيه أن يجهز سرية يرمى بها فوقاس ، فإذا لم يتهيأ له ذلك أمكنه على الأقل أن يقطع عنه كل إمداد من ذلك القطر[٦٦] » .

وبناء على هذا المفهوم ، والإدراك الواعى لأهمية مصر فى هذا الصراع ، قدم نيقتاس ، قائد هرقل إلى الإسكندرية ، وتمكن بمساعدة ليونتيوس Leontius حاكم مريوط من دخول المدينة ، التى لم يلبث أهلوها أن أعلنوا تأييدهم الواضح لقوات هرقل ، وتمثل ذلك فى تدمير تماثيل الامبراطور فوقاس ، وذبح البطريرك الملكانى ، وفى الوقت نفسه لم يكن فوقاس بغافل عما يدبره خصومه ، وخطورة موقفه إذا ما تم لهم الاستيلاء على مصر ، لذا فقد بادر على الفور بإرسال قوات عسكرية ، دخلت مصر عن طريق الفرما . ورغم أن قوات فوقاس قد حققت انتصارات سريعة فى أول الأمر ، ووصلت إلى الإسكندرية ، حيث دارت رحى معركة حاسمة بين قوات المتصارعين على العرش البيزنطى ، شارك فيها أهالى الإسكندرية مشاركة فعالة ، تعبيراً عن سخطهم على فوقاس

وعهده ، كانت الغلبة فى النهاية لجيش نيقتاس[٦٧] وهكذا حسم الأمر لصالح هرقل الذى أصبح الطريق مفتوحاً أمامه الآن للقفز على العرش البيزنطى ، بعد أن تمكن من تخطى العقبة الرئيسية ، التى لا عقبة سواها ، على حد تعبير بتلر ، فى طريقه إلى العاصمة الامبراطورية .

ولا شك أنه كان يزيد الأمر صعوبة بالنسبة لفوقاس ، أن الملك الفارسى كان قد بدأ استعداداته الفعلية لمهاجمة البيزنطية ، انتقاماً – فى الظاهر – لمقتل « صديقه » الامبراطور موريس على يد فوقاس ، وتحقيقاً – فى الواقع – للطموح الفارسى ، بالوصول إلى البحر المتوسط ، مركز الثقل الحضارى آنذاك ، وامتداداً للصراع التقليدى بين الفرس والرومان ، والذى أنهاه المسلمون . وكانت مصر ضمن برنامج التوسع الفارسى الآن . كما أثبتت الأحداث بعد ذلك بست سنوات فقط . إذ لم يمنع فارس مقتل فوقاس ، واعتلاء هرقل العرش ، من الاستيلاء على الولايات الشرقية للامبراطورية ومن بينها مصر . ومن ثم كان فوقاس يقدر حقيقة الموقف تماماً ومدى خطورته بالنسبة له . وكانت مصر على هذا النحو تمثل له القلعة العسكرية و « الحصن » الاقتصادى ، الذى لا بد له من الاستئثار به ، إذا ما أراد أن يحتفظ بعرشه .

هكذا فعل هرقل فى القرن السابع ، قادماً من الغرب ، ما فعله فسباسيان فى القرن الأول ، قادماً من الشرق ، فقد كانت مصر معقد آمال المتصارعين على العرش البيزنطى ، كل يسعى للفوز بها قبل كل شىء ، ليوقن أن أقدامه قد رسخت فى القسطنطينية . ورغم أن مصر لم تعد كونها ولاية رومانية أو بيزنطية ، إلا أن نظرة الأباطرة لها كانت تختلف – منذ اليوم الأول – عنها بالنسبة للولايات الأخرى ، لموقعها الاستراتيجى وثرائها الاقتصادى ومواردها البشرية . ولكل هذا .. ولإدراكها لسبقها الحضارى ، وتفوقها الفكرى راحت تمارس دورها فيما يجرى على المسرح السياسى فى روما أولاً ومن بعد القسطنطينية .

هوامش

(1) Egypt and Rome, (in Legacy of Egypt, p. 283).

(٢) دكتور عبد اللطيف أحمد علي ، **مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية** ، ص ٥٣ – تابع الحاشية رقم (٢) من ص ٥٢ ، وعن تيبريوس اسكندر نفسه راجع ص ١٣٩ – ١٤٠ .

(٣) – **للوقوف على هذه التفاصيل راجع ، دكتور عبد اللطيف ، المرجع السابق ص٥٢ – ٥٣ ، حاشية ٢ .**

(٤) – **للمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع العقيدي ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة** ، الجزء الثاني ص ١٥٥ – ٢٥٤ .

(٥) – أنظر ATHANAS. apol. C. Arian. 87

(٦) – أنظر SOCRAT. hist. eccl. II, 13 وراجع أيضاً Johnson & West, **Byzantine Egypt**, pp. 234, 236.

(٧) – Ibid. p. 236

(٨) **Byzantium, Greatness and Decline**, p. 83

(٩) للوقوف على تفاصيل هذه الآراء والآراء المعارضة ، والمناقشات التي دارت حول هذه الناحية ، راجع : دكتور عبداللطيف ، المرجع السابق ص ٤٧ – ٥٢ .

(١٠) **راجع تفاصيل ذلك في تاريخ الحضارة المصرية** ، المجلد الثاني ، مصر في عصر الرومان بقلم دكتور إبراهيم نصحي ، ص ١١١ – ١١٢ ؛ مصطفى العبادي ، **مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي** ، ص ١٥٣ – ١٦٣ ؛ عبداللطيف أحمد علي مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ٥٤ – ٥٧ .

(١١) GREG-NAZ. orat. VII, 6, 7; XVIII, 31

(١٢) Jones, **Constantine and the Conversion of Europe**, pp. 161-162

وراجع : Duchesne, **Histoire anciene de L'eglise**, II, p. 154

وأيضاً : Lietzmann, **from Constantine to Julian**, pp. 95-99

(١٣) Coxe, introductory note to Clement of Alexandria, in (**Ante Nicene Fathers**, II, pp. 165-169).

(١٤) Creed, Egypt and the Christian Church, (in **Legacy of Egypt**. p. 300).

(١٥) أنظر : سارتون ، **تاريخ العلم** ، ج ٤ ، ص ٨٢ – ١٠٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧ – ٢٨٢ .

(١٦) نجيب بلدي ، **تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها** ، ص ٩٢ .

(١٧) HIER. vir. ill. 55

وراجع أيضاً Nock, The development of Paganism in the Roman Empire, (in C.A.H., XII, pp. 438-442).

(١٨) PALLAD. hist. Laus. 34-36.

(١٩) Budge, **Stories of the holy fathers**, p. 51

(٢٠) SOCRAT. hist. eccl. IV, 20

وأيضاً SOZOM. hist. eccl. VI 20

(٢١) Jones, **Constantine**, p.2; Idem. the decline of the ancient world, pp. 13-14.

(٢٢) Dudley, **the civilization of Rome**, pp. 166-167 وكان هؤلاء الأباطرة الأربعة هم « جالبا » Galba في اسبانيا ، وأوتو Otho في روما ، الذي قتله الحرس البرايتوري الذي اختاره من قبل ، ورفع على العرش بدلاً منه فيتلوس . أما الرابع فهو فسباسيان .

(٢٣) للمزيد من التفاصيل راجع عبد اللطيف أحمد علي ، **مصر والامبراطورية** ، ص ١٣٩ – ١٤٤ . ويعتبر دكتور عبداللطيف ، أن تيبريوس اسكندر الوالي كان مصرياً ، حيث ولد بالاسكندرية ، وشغل منصب مدير عام « ابيستراتيجوس » منطقة طيبة عام ٤٢ .

راجع المرجع السابق – ص ١٤٠ .

(٢٤) للمزيد من التفاصيل عن هذه العلاقات العدائية بين كنيستي القسطنطينية والإسكندرية ، خصص الباحث الجزء الخامس من كتاب – الدولة والكنيسة ، للحديث عن الصراع الكنسي على الزعامة .

(٢٥) كان الامبراطور قسطنطين العظيم قد أقدم قبل وفاته في سنة ٣٣٧ على تقسيم إدارة الحكم في الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة ، فذهب أكبرهم – قسطنطين الثاني – بغالة وبريطانيا واسبانيا ، وساد أصغرهم – قسطانز – على داشيا ومقدونيا وبانونيا وافريقيا . وتملك ثالثهم – قسطنطيوس – تراقيا وبونطس وآسيا والشرق . وبعد مضي ثلاث سنوات ، نشبت الحرب بين الأخوين الأكبر والأصغر .. وتم قتل أولهما .. فاستولى قسطانز على أملاكه ، وأصبح سيداً لثلثي الامبراطورية .

(٢٦) للوقوف على تفاصيل فوضى هذه الحروب الأهلية – راجع SOCRAT, hist. eccl. II, 25, 28, 32; SOZOM. hist. eccl. IV, 4.

(٢٧) الآريوسية نسبة إلى قس الإسكندرية الشهير آريوس ، الذي نادى بأن المسيح مخلوق شأنه شأن سائر الخلائق . وقد جهر بهذه الآراء عام ٣١٨ . أما النيقية ، فالمقصود بها قانون الايمان النيقي الصادر عن مجمع الأساقفة في نيقية عام ٣٢٥ ، والقائل بأن المسيح « مولود غير مخلوق » وأنه « مساو » للآب في الجوهر .. وهو ما ذاع باسم « الهوموسية » Homoousius . راجع تفاصيل هذه الآراء في **كتابي الدولة والكنيسة** ، الجزء الثاني : قسطنطين ، ص ١٥٥ – ٢٥١ .

(٢٨) THEOD, Hist. eccl II, 13

(٢٩) يعود مصطلح « الهوموسية » Homoousius « المساواة في الجوهر » إلى ديونيسيوس Dionysius أسقف روما في القرن الثالث الميلادي . وقد قدمها هوسيون Hosius أسقف قرطبة ، وأبو المجامع الكنسية ، إلى الأساقفة في نيقية ، وقبلها بعد أن أصر الامبراطور قسطنطين على ذلك ، ليحقق الوحدة الكنسية بين شطري الامبراطورية . راجع للباحث – **الدولة والكنيسة** ، الجزء الثاني – قسطنطين ص ١٨٠ – ١٨٤ .

(٣٠) SOCRAT. hist. eccl. II 22

(٣١) THEOD. hist. eccl. II 9

وأيضاً SOZOM. hist. eccl. III 20

(٣٢) ATHANAS. apal. ad Const.9

(٣٣) Ibid. 7

(٣٤) Ibid. 22

(٣٥) **بعد وفاة الامبراطور قسطنطيوس عام ٣٦١ ، اعتلى العرش ابن عمه جوليان** Iulianus آخر أفراد بيت

قسطنطين ، ولما كان فيلسوفاً وثنياً ، اتبع في معاملته للمسيحيين أسلوباً عرف باسم « الاضطهاد السيل » ، فسمح للأساقفة الذين كان قسطنطيوس قد نفاهم ، بالعودة ثانية إلى ديارهم ، لكنه عاد فأصدر قراراً بنفي أثناسيوس . وكان هذا هو النفي الرابع للأسقف السكندري . فلما قتل جوليان عام ٣٦٣ ، وخلفه جوفيان Iovianus أعاد أثناسيوس إلى كرسيه في الرابع عشر من فبراير ٣٦٤ . راجع تفاصيل هذه الأحداث في كتابي - **الدولة والكنيسة** ، الجزء الثالث ، أثناسيوس . ص ٣١٣ - ٣٦٥

(٣٦) HIST. ACEPH. X, 15 وأيضاً : SOZOM. hist. eccl. VI, 21

(٣٧) AMM. MRRC. res gest. XXVI,6

(٣٨) SOCRAT. hist. eccl. IV, 3

(٣٩) HIST. ACEPH. XI,6

(٤٠) SOZOM. hist. eccl. VI, 12

(٤١) SOCRAT. hist. eccl. VI 20

(٤٢) راجع تفاصيل هذه الأحداث في C.M.H. vol. 1, pp. 457-486

(٤٣) Bury, **history of the Later Roman Empire**, I, p. 389

(٤٤) ZACH. Chron. V, 1

وأيضاً EVAG. hist. eccl. III, 4.

(٤٥) EVAG. hist. eccl. III, 4

(٤٦) Id.

(٤٧) أفردت لهذا الموضوع « الصراع الكنسي على الزعامة » كتاباً خاصاً ، هو الجزء الخامس من كتابي « الدولة **والكنيسة** » .

(٤٨) عن قوانين مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ راجع

Hefele, A history of the Councils of the Church, III, pp. 385-422

وأيضاً : Percival, **The Seven ecumenical Councils of the undivided Church**, N.F.Vol. XIV, pp. 267-292

وكذلك : Stevenson, Creeds, Councils and Controversies, 337-451, pp. 324-333

(٤٩) SACH. Chron. V, 1 وأيضاً EVAG. hist. eccl. III, 4

(٥٠) EVAG. hist. eccl. III, 4

(٥١) ZACH. Loc. cit. وأيضاً EVAG. Loc. cit.

(٥٢) ZACH. Loc. cit.

(٥٣) - Id.

(٥٤) - Id.

(٥٥) Id.

(٥٦) Ibid. V, 4

(٥٧) Ibid. V, 5 وراجع نص المنشور في EVAG. hist. eccl. III,7

(٥٨) EVAG. hist. eccl. III, 8,11 وقارن ZACH. Chron. V 5

(٥٩) راجع نص المرسوم في EVAG. hist. eccl. III, 14

وأيضاً : ZACH. Chron. V, 8

(٦٠) EVAG. hist. eccl. III, 13 وقارن ZACH. Chron. V, 7

(٦١) ZACH. Chron. V, 4

(٦٢) IUS. Nov. VIII, praef.

(٦٣) IUS. Nov. VIII, 8,10; Nov. XVIII, 1; Nov. XXX,2

(٦٤) IUS. Nov. VIII, 10; Nov. XXVIII,5

(٦٥) **مسى العالم البيزنطي** ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٦٦) بتلر ، **فتح العرب لمصر** ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، ص ٥ .

(٦٧) للوقوف على تفاصيل هذه الأحداث كلها ، راجع « مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي » رسالة ماجستير غير منشورة ، لعمر صابر ، جامعة القاهرة ١٩٨١ ، ليلى عبد الجواد « الدولة البيزنطية في عصر الامبراطور هرقل » رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٢٤ - ٢٩ ، بتلر ، **فتح العرب لمصر** ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، ص ٤ - ٢٥ .

الحركة الديرية فى مصر وأثرها على بلدان البحر المتوسط

فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين

د. عبد الحفيظ محمّد على

مدرس التاريخ الوسيط بآداب سوهاج

الرهبنة[1] تعنى الانعزال والانفراد فى الأماكن النائية ، وتدريب النفس على ترك متاع الدنيا ، وتطهير الروح واحتقار الجسد والإعراض عن شهواته اعتقاداً بأن ذلك يقرب الإنسان إلى ربه ويكفل له الخلاص والنجاة ، وهذه الكلمة (الرهبنة) أصبحت تستعمل أيضاً للتدليل على الحياة الديرية القائمة على أسس اجتماعية .

وكانت الرهبنة معروفة فى العالم قبل ظهور المسيحية ومنذ القدم ، فقد مارسها البوذيون ، ومازالت الرهبنة موجودة فى الديانة البوذية حتى اليوم ، كما عرفها قدماء المصريين ، وأيضاً عرفت الديانة اليهودية الرهبنة فى فلسطين قبل ظهور السيد المسيح ، كما دعت الفلسفة الأفلاطونية الحديثة إلى التقشف وإذلال الجسد والزهد والبعد عن المجتمع[2] .

ويرى بعض المؤرخين أن الرهبنة المسيحية تأثرت بالبوذية ، وذهب البعض الآخر إلى أن هناك علاقة بين الرهبنة المسيحية وبين المتزهدين من اليهود فى مصر ، ورأى فريق ثالث من المؤرخين أن الرهبنة المسيحية تأثرت بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة التى كان لها تأثير ضخم فى الفكر المسيحى فى القرون الأولى . غير أنه من الواضح أن أصول الرهبنة وجدت فى الديانة المسيحية نفسها لأن الأناجيل والتوراة دعت إلى حياة التنسك والبتولية والفقر الاختيارى[3] .

وهناك عدة عوامل أدت إلى انتشار الرهبنة فى مصر ، فبجانب الدافع الدينى هناك دوافع اجتماعية واقتصادية وسياسية ، تدفع الشخص إلى حياة الرهبنة والتنسك ، وقد أورد بلاديوس قصة الرجل الذى وقع بينه وبين زوجته خلاف وترك بسببه الحياة الأسرية وذهب إلى صومعة أنطونيوس وأصبح راهباً[4] .

وأدى سوء الحالة الاقتصادية فى مصر منذ القرن الرابع الميلادى إلى ازدياد انتشار الرهبنة ، فقد أصبحت الضرائب عبئاً ثقيلاً ترك بسببها عدد كبير من صغار المزارعين أراضيهم وانسحبوا من المجتمع إلى حياة الرهبنة ، وساهم فى انتشار الرهبنة ما تعرض له المسيحيون من اضطهاد دينى من قبل الأباطرة الرومان ، وحتى بعد أن أصبحت المسيحية ديناً معترفاً به من قبل الدولة تعرضت للانقسامات الداخلية نتيجة للخلافات المذهبية بين الأريوسيين والأثناسيوسيين ، وقد اضطر أنصار أثناسيوس أن يلجأوا إلى الأديرة بسبب الاضطهاد الأريوسى . كما أن القانون الذى أصدره قسطنطين الكبير الخاص بإعفاء الأعزب ومن لا أولاد له من الضرائب وإعفاء الرهبان من الخدمة العسكرية أغرى الكثيرين بالامتناع عن الزواج والذهاب إلى الأديرة[٥] .

كانت بداية انسحاب المسيحيين إلى الصحراء فى عهد الامبراطور ديكيوس Decius (٢٤٩ – ٢٥١) ، وذكر ديونيسيوس الأول Dionysius بطرك الاسكندرية فى الخطاب الذى أرسله إلى فابيوس Fabius بطرك أنطاكية أن عدداً كبيراً من المسيحيين فر إلى الصحراء والجبال ، بسبب الاضطهاد والتعذيب الذى تعرضوا له من قبل هذا الامبراطور ، وأن هذا العدد الكبير هام فى الصحراء ، ووقع عدد كبير منهم فى قبضة الأعراب ، والذين عجزوا عن دفع الفدية تحولوا إلى رقيق كما هلك منهم خلق كثير[٦] . وتكرر هذا الاضطهاد فى عهد الامبراطور فاليريان Valerian (٢٥٣ – ٢٦٠ م) وهجمت القوات الرومانية على منازل المسيحيين ، الأمر الذى أدى إلى هروب عدد كبير منهم ، اتخذوا من الجبال والمغائر مخابىء لهم واستمر الاضطهاد ثلاث سنين ونصف[٧] .

وهذه الحالات الخاصة بالهرب والاقامة فى الصحراء مؤقتاً لا يجوز تسميتها بداية لحياة الرهبنة المصرية على اعتبار أن هؤلاء أصبحوا النساك المسيحيين الأوائل ، ومن ناحية أخرى لا نستطيع إنكار أن هذا الوضع تمخض عن بعض حالات التنسك الفردية خاصة بعد أن ذكر القديس جيروم Jerome بأنه فى أيام الاضطهادات التى حدثت فى عهد الامبراطور ديكيوس كان بولا قد بلغ ستة عشر عاماً ، وأن والديه قد ماتا وتركاه فى وصاية زوج اخته ، وكان بولا يعتنق المسيحية ولذلك عزم زوج اخته تسليمه إلى الوالى طمعاً فى ماله ، ولما علم بولا بذلك فر بدينه إلى أحد الجبال على شاطىء البحر الأحمر ، وظل بولا فى عزلته المطلقة عن المجتمع حتى وفاته سنة ٣٤١ م[٨] .

القديس أنطونيوس مؤسس الرهبنة

بالرغم من أن القديس بولا يعتبر أول المتوحدين[٩] الذين عاشوا حياة الزهد والتقشف فى الصحراء إلا أنه لم يستطع أن يلقن حياة التنسك لغيره ، وذلك بعكس أنطونيوس الذى استطاع أن يلقن حياة التنسك لتلاميذه حيث ظلت الأجيال تتوارثها ، وقد ولد أنطونيوس فى عام ٢٥١ م فى بلدة كوما (قمن العروس حالياً مركز الواسطى محافظة بنى سويف) وفقد والديه وكان عمره حينذاك عشرين عاماً ، وذكر أثناسيوس أن أنطونيوس كان أمياً لا يعرف الكتابة أو القراءة ، وتربى تربية دينية ، وكان كثير الذهاب إلى الكنيسة للاستماع للوعظ والارشاد ، وذات يوم سمع الكاهن يردد فى خطبته الآية الواردة فى إنجيل متى « إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء[١٠] » . وعلقت هذه الفكرة فى ذهنه لأن أباه كان قد ترك له ثروة كبيرة ، وقرر التخلص من جميع أملاكه بعد أن ترك جزءاً منها لأخته لتعيش منه ، ثم أودع أخته دور العذارى وترك القرية فى سنة ٢٧٠ وذهب إلى مكان لا يبعد كثيراً عنها حيث عاش حياة التنسك والتوحد بالقرب من الريف ، وعاش أنطونيوس لا يأكل غير الخبز والملح[١١] .

لم يستمر القديس أنطونيوس فى هذه الوحدة بالقرب من المدن وقرر التوغل فى الصحراء ، ووصل إلى سلاسل جبال على البحر الأحمر ، وعبر النيل إلى الصحراء الشرقية وكان ذلك فى عام ٢٨٥ م حيث سكن فى بقايا قلعة قديمة قريبة من النيل وكانت هى منطقة بسبير Pispir (مكان دير الميمون الآن فى منتصف المسافة بين أطفيح وبنى سويف) ، ولجأ إليه فى هذه المنطقة عدد كبير من المريدين والمحبين الذين عاشوا حوله حياة الزهد والتنسك كل منهم فى قلايته[١٢] ، وظل فى بسبير عشرين عاماً لا يلتفت لمن حوله ، وكان يأكل مرة واحدة فى اليوم وأحياناً كل ثلاثة أيام ، وعندما ضاق أنصاره من تجاهله لهم اقتحموا باب قلايته عنوة ووافق على مطالبهم وخرج لهم من عزلته لكى يرعاهم ، وكان ذلك فى سنة ٣٠٥ م[١٣] ، وهكذا قامت أول منشأة رهبانية فى مصر أو بمعنى آخر أول دير قبطى[١٤] ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ يتدفق إلى الصحراء عدد كبير من المصريين طالبين حياة الزهد والتنسك وكان دير القديس أنطونيوس الرئيسى عبارة عن عدة قلايات متناثرة حول مسكنه تبعد كل قلاية عن الأخرى عدة أمتار[١٥] .

عاشت جماعات القديس أنطونيوس نظاماً وسطاً بين التنسك الخالص ونظام نصف الشركة ، وسجل الرهبان رقماً قياسياً فى كبح الشهوات وتعذيب الجسد ، وكان التنافس بينهم شديداً ، كما كان هناك ترابط بين الرهبان فإذا مرض أحدهم سارعوا إلى قلايته يمدون إليه يد المساعدة والعون ، وكان القديس أنطونيوس يجمع الرهبان من وقت إلى آخر ويقدم لهم النصح والمشورة ، وخرج أنطونيوس من عزلته فى الصحراء لأول مرة فى سنة ٣٠٥ م عندما اشتد الاضطهاد على المسيحيين وذهب إلى مدينة الاسكندرية يشجع المسيحيين على الصبر والصمود مستهيناً بكل الأخطار[١٦] . وبذلك يعتبر أنطونيوس أول راهب وقف يحرك أحداث الكنيسة . واستمر الرهبان يحذون حذو القديس أنطونيوس ويقفون خلف الكنيسة القبطية منذ القرن الرابع الميلادى وعلى امتداد تاريخها . وعندما بدأ الصراع يشتد فى الاسكندرية بين أنصار آريوس وأنصار أثناسيوس ، حاول الأريوسيون أن يكسبوا أنطونيوس إلى جانبهم ولذلك أشاعوا فى المدينة أن أنطونيوس وافق على آرائهم ، وانتشرت هذه الشائعة فى مدينة الاسكندرية الأمر الذى جعل الأسقف أثناسيوس يطلب من أنطونيوس التوجه إلى مدينة الاسكندرية لإعلان رأيه ضد الأريوسيين ، وتوجه أنطونيوس إلى الاسكندرية وأعلن معارضته لمذهب آريوس[١٧] .

إنتشر نظام الرهبنة الأنطونية عند نهاية القرن الرابع الميلادى من أسيوط (lycopolis) إلى البحر المتوسط ، غير أن نظام أنطونيوس يبدو واضحاً فى منطقة نيتريا وبرية شيهات[١٨] ، لأن تلك المنطقة سلطت عليها الأضواء فى أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادى بمعرفة النساك الأوربيين الذين كتبوا الكثير عن رهبانها عند زيارتهم لتلك المنطقة[١٩] ، ووصلت الرهبنة الأنطونية إلى منطقة وادى النطرون عن طريق آمون الذى تتلمذ على يد القديس أنطونيوس والذى يعتبر مؤسس أديرة وادى النطرون ، وأيضاً مكاريوس الذى قضى بعض الوقت تحت إشراف أنطونيوس ثم استقر فى وادى النطرون[٢٠] . وزاد عدد الرهبان زيادة كبيرة حيث ساهمت الخلافات الدينية حول مذهب آريوس ومذهب أثناسيوس[٢١] فى تلك الزيادة . فقد تولى حكم الجزء الشرق من الامبراطورية الامبراطور قسطنطيوس (٣٣٧ - ٣٦١ م) وكان يؤمن بمذهب آريوس وساند الأريوسيين ، وخلال هذه الفترة وقع اضطهاد على الأرثوذكس . ويذكر بلاديوس أن الأسقف أثناسيوس اختفى فى أحد بيوت العذارى فى مدينة الاسكندرية عدة سنوات أثناء حكم ذلك الامبراطور خوفاً من الأريوسيين ، وفى سنة ٣٥٦ م دخلت كتيبة عسكرية الكنيسة التى كان يقوم فيها أثناسيوس بالوعظ ولكنه استطاع

الهرب إلى وادى النطرون ، ووقف بجانبه الرهبان ، وظل هناك عدة سنوات وألف عدة مؤلفات منها كتاب حياة القديس أنطونيوس[٢٢] .

وفى وادى النطرون كان بعض الرهبان فى الصحراء الداخلية يسكنون فى صوامع وهؤلاء نساك بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، يعيشون على مرمى السمع من بعضهم البعض ، ويجتمعون لتأدية العبادات فى أيام السبت والأحد فقط ، وفى وادى النطرون نفسه كان الراهب يختار إما أن يسكن وحده أو مع واحد أو اثنين من زملائه . وهنا أيضاً كما فى الصحراء الداخلية يجتمع الرهبان فى الكنيسة الكبيرة من أجل العبادة وتأدية الطقوس الدينية فى أيام السبت والأحد ، وفى الأيام الأخرى يقيمون القداس فى صوامع منفصلة وأديرة منفصلة ، وفى هذا النظام يترك لكل راهب أن يمارس العبادة بقدر ما يستطيع ، ولم تكن هناك قاعدة لنظام الحياة[٢٣] .

وكان مجتمع الرهبان فى تلك المنطقة تسيطر عليه الروح الديمقراطية ، وكان كبار السن من الرهبان يستطيعون ممارسة بعض السلطات ، وإن لم تكن هناك رقابة كافية على الأفراد لحمايتهم من التهور أو التطرف . وكان الرهبان يداومون على الصلاة والصيام ودراسة الكتاب المقدس ، وجرت العادة على عقد مؤتمرات يحضرها عدد كبير من الرهبان لشرح القضايا الدينية فقط حيث لا يسمح بأى استفسار خاص بالعلوم الأخرى ، فقد ذكر بلاديوس أن الرهبان تجمعوا فى برية شيهات ذات يوم وأرادوا أن يستفسروا عن بعض الأحداث التاريخية غير أن أحد شيوخ الرهبان نهاهم عن ذلك فانصرفوا جميعاً إلى صوامعهم[٢٤] .

أما بالنسبة للطعام فقد عاش الرهبان على القليل منه ، وكان يتكون من الخبز والملح ، وكان يوجد فى تلك المنطقة سبعة خبازين لصنع الخبز ، وكان هناك اختلاف بين الرهبان بالنسبة لتناول الطعام ، فبعض الرهبان يتناول وجبة واحدة فى اليوم ، والبعض الآخر يأكل كل يومين ، ولم يكن شرب الخمر ممنوعاً إذ ذكر بلاديوس أن بعض الرهبان فى هذه المناطق كان يشرب قليلاً من الخمر ، كما أن الخمر كان يقدم للزوار . أما العمل اليدوى فكان منتشراً بين الرهبان ، ولم يقتصر على أن يعمل الراهب لكى يكفى نفسه فقط بل إن شيوخ الرهبان حثوا على العمل حتى يكون هناك فائض منه ، وكان الرهبان يبيعون هذا الفائض فى المدن المجاورة ، كما أن بعض التجار كان يذهب إلى هناك لشراء الفائض من عمل الرهبان . ويلاحظ أن حياة النسك أخذت فى التدهور وحل محل النسك الخالص حياة نصف الشركة[٢٥] .

الطريقة الباخومية أو نظام الشركة

كان هناك فى الجنوب نظام يختلف عن الرهبنة الأنطونية وضعه باخوميوس ، والشىء البارز فى هذا النظام أنه اتخذ مرة واحدة شكل جماعة كاملة منظمة لها رئيس عام ونظام للعقاب . وقد ولد باخوميوس فيما بين سنتى ٢٨٥ ، ٢٩٥ م من أبوين وثنيين فى بلدة كينوبوسكيون (Kenoboskion) ويقال أن مكانها الحالى بلدة قصر الصياد محافظة قنا ، والتحق باخوميوس بالجندية وهو فى سن العشرين ، واشترك فى جيش قسطنطين الكبير وليكينوس Lecinus فى الحملة التى أرسلت لإخضاع والى الحبشة المتمرد ، وتوقفت الحملة أثناء مرورها عند بلدة لاتوبوليس Latopolis وهى مدينة إسنا حالياً ، وخرج أهلها من المسيحين وقدموا خدمات لأفراد الكتيبة دون سابق معرفة ، وتأثر باخوميوس بهذه المعاملة واعتنق المسيحية بعد تسريحه من الجيش[٢٦] .

قرر باخوميوس فى عام ٣١٤ م أن يعتزل المجتمع وذهب إلى مكان قريب من القرية ، وتتلمذ على يد القديس بلامون ، ونصحه بلامون فى البداية بالابتعاد عن حياة الرهبنة لأنها حياة صارمة وقاسية ، غير أن باخوميوس أصر على رأيه وعاش لمدة سبع سنوات مع القديس بلامون . مارس خلالها حياة الزهد والقيام بالأعمال الشاقة وكبح جماح الجسد ، وبعد ذلك توجه إلى البرية حتى وصل إلى تبانيسى شمال فاو الحالية بمحافظة قنا ، ومكث فترة فى صومعته يمارس حياة التقشف ، ويبدو أن باخوميوس بعد هذه التجربة رأى أن حياة التوحد وتعذيب الجسد بدرجة تفوق التصور لا تتفق وطبيعة البشر ، ولذلك فكر فى الخروج من مغارته لتأسيس دير يجمع فيه الرهبان ، ووضع قانوناً يسيرون عليه[٢٧] ، وبذلك يعتبر باخوميوس مؤسس أول دير مسيحى ، كما يعتبر مؤسس الحركة الديرية فى العالم المسيحى كما كان أنطونيوس مؤسس الحركة الرهبانية .

واتسع دير باخوميوس فى تبانيسى ووصل عدد الرهبان به إلى ألفين ، وأنشأ ديراً آخر فى بابو Pabou وهى فاو حالياً فى صعيد مصر فى شرق النيل ، وأنشأ ديراً ثالثاً فى شنسيت بناء على طلب رهبان تلك المنطقة الذين طلبوا أن ينضموا إلى نظامه ، وديراً رابعاً فى أخميم بمحافظة سوهاج حتى بلغت أديرة باخوميوس عند وفاته حوالى عشرة أديرة منها إثنان للنساء ، وكان أول دير للعذارى ذلك الذى أسسه باخوميوس لاخته مريم بعد أن استجابت لنصيحته ، بالانخراط فى سلك الرهبانية[٢٨] .

ووضع باخوميوس نظاماً دقيقاً لأديرته متأثراً فى ذلك بالنظم العسكرية التى عاشها

فى الجيش الرومانى ، وشمل النظام كل الوسائل والأنظمة التى تحتاج إليها الجماعة . ومثل هذا النظام الديرى لم يظهر إلا فى القرن الثانى والثالث عشر للميلاد عندما تطور نظام القديس بندكت فى أوروبا . والنظام الداخلى لأديرة باخوميوس تحكمه قاعدة تشبه القانون لضبط السلوك وفرض النظام[٢٩] كالنظام العسكرى تماماً . وفى الأديرة المختلفة توجد بيوت عديدة منفصلة عن بعضها كل منها يحتوى على ثلاثين أو أربعين راهباً وله مشرف وخازن وبعض العاملين ، وكانت تقام كثير من الشعائر الدينية فى هذه البيوت للرهبان . وكان كل دير يحتوى على ما بين ثلاثين وأربعين منزلاً ، وقد تم تنظيم بيوت الرهبان على أساس الحرفة التى يجيدها الراهب ، فكان للخبازين بيت ، وللنجارين بيت ، ولصانعى الفخار بيت وللنساجين بيت ، ولصانعى الأحذية بيت ، وكان بجانب ذلك بيت منفرد للرهبان الذين يتحدثون اللغة اليونانية ، وكان لكل دير رئيس ووكيل ، ولجميع الأديرة رئيس عام ووكيل وأمين ، وقد اتخذ باخوميوس أحد الأديرة فى فاو مركزاً له لإدارة الأديرة التابعة له فى الصعيد[٣٠] .

تميز نظام باخوميوس عن ذلك النظام الذى وجد فى وادى النطرون بالعمل الدائم والمنظم ليس فقط من أجل مد الدير بحاجاته ، أو لأنه عمل من أجل التوبة ، وإنما لأنه جزء من حياة الإنسان ومكمل لها ، وذكر بلاديوس أنه عندما زار أحد الأديرة الباخومية وجد جميع أنواع الحرف والمهن ، فكانت تمارس هناك الزراعة ، وعمل البساتين والحدائق والنجارة والحدادة والصباغة وصناعة الأحذية ، كما كان هناك تدريب على تعليم الخط ، وكان الرهبان يحفظون الكتاب المقدس عن ظهر قلب ، وذكر مؤلف **تاريخ الرهبنة المصرية**[٣١] أن الأديرة الباخومية كانت أكثر روعة من أديرة وادى النطرون وبالنسبة لممارسة الصرامة والتنسك فقد تفوقت أديرة وادى النطرون الأنطونية على الأديرة الباخومية ، والفكرة الأساسية لقانون باخوميوس هى إنشاء نظام معتدل للطقوس الدينية يكون ملزماً للجميع ، ثم ترك الباب مفتوحاً لمن يريد أن يزيد فى هذه العبادات عن القدر المحدد طبقاً لجهده وقوته وحماسته ، أى أن هناك قدراً معيناً لابد أن يقوم به الراهب ، ومن يرى فى نفسه الكفاءة يستطيع أن يتجاوز هذا الحد ، وهذه الفكرة أوردها بلاديوس بوضوح[٣٢] .

ونلاحظ أن الرهبنة المصرية امتازت بطابع خاص فى كل مظاهرها سواء كانت النسك الخالص الذى قام فى وادى عربة ، أو نظام نصف الشركة الذى قام فى وادى النطرون ، أو نظام الشركة الذى قام فى تبانيسى ، فإن السمات الظاهرة فى كل هذه

الأنظمة هى الفردية ، فجميع الواجبات تنبثق من الفرد ، وكل واحد يعمل ليزيد من طهارته وعفته شخصياً ، وكان كل فرد يبذل كل ما يستطيع فى صيامه وصلاته ، وكانوا يحاولون أن يسجلوا أرقاماً قياسية فى أنواع العبادات ، حيث يتنافس الواحد مع الآخر فى كبح الشهوات والتعذيب الذاتى ، وكانوا يتفاخرون بهذه الأعمال الروحية ، والمجهودات الفردية التى كان يحاول فيها كل راهب أن يتفوق على زميله ، ولم تقتصر هذه الأعمال على رهبان وادى النطرون بل كانت أيضاً مسيطرة على الأديرة الباخومية ولكنها كانت فى حدود ضيقة[٣٣] .

ونلاحظ أيضاً أن الرهبنة المصرية انقسمت إلى ثلاث طبقات ، طبقة الفلاحين والمزارعين من النساك أمثال آمون ومكاريوس المصرى ، والطبقة الثانية متوسطة من ملاك الأراضى والتجار مثل أنطونيوس فقد كان والده من أصحاب الأملاك ، وبول الاسكندرى الذى ترك نصيبه من تركة أبيه وفر إلى الصحراء . أما الطبقة الثالثة فكانت من النبلاء مثل الأمير مكسيموس والأميرة ايلاريا ابنه الامبراطور زينون والقديسة أنسطاسية التى رفضت أن تتزوج من امبراطور القسطنطينية . أما الناحية الثقافية فإن الأديرة المصرية لم تهتم بها فقد كان أنطونيوس ومكاريوس المصرى ومكاريوس الاسكندرى والأنبا دينال يكتبون القبطية ويقرأونها بدرجات متفاوتة ، وكان الأنبا بوا أميا وهو من قادة الفكر فى جبل نيتريا ، وعاش عدد كبير من الرهبان فى هذه المناطق ، معظمهم من الأميين ، ولم تهتم المؤسسات الرهبانية بالقضاء على الأمية بل كانت تفضل صانع السلال على ناسخ الكتب[٣٤] .

انتقال الرهبنة إلى فلسطين وسوريا

عند الحديث عن الرهبنة خارج مصر فإننا نرى صورة من التطور والتعديل الذى خضع له نظام الرهبنة المصرية عندما انتقل إلى بيئات أخرى أو مناطق أخرى ، فالنظام المصرى كانت له صفات ومميزات خاصة به لم تنقل برمتها إلى البيئات الأخرى ، لاختلاف الظروف والمناخ . وأول من نقل الرهبنة إلى فلسطين الراهب هيلاريون Hilarionis فى أوائل القرن الرابع الميلادى حيث تتلمذ على يد القديس أنطونيوس ، ونشر الرهبنة هناك[٣٥] ، غير أن الدفعة القوية التى شهدتها الرهبنة فى فلسطين كانت على يد الراهب روفينوس Rufinus[٣٦] فبعد أن زار مصر ومكث فى مدينة الاسكندرية حوالى ست سنوات زار خلالها الآباء المصريين فى الصحراء من أمثال مكاريوس وإسيدور

Isidor وبامبو Pambo ، ذهب فى عام ٣٨١ إلى بيت المقدس حيث أسس مع ملانيا الرومانية Melania ديراً مزدوجاً للرهبان والراهبات تحت إدارة عامة مشتركة دون أن يكون هناك حاجز أو سور بين الديرين المتلاصقين ، ويرتبط الديران معاً بروابط اقتصادية وقانونية[٣٧] .

وقد لعب القديس جيروم أيضاً دوراً بارزاً فى تأسيس الأديرة فى فلسطين ، وكان جيروم قد ترك مدينة روما مع أخيه بولينيان Paulinian وبعض الرهبان واتجه إلى فلسطين وزار جزيرة كريت ومدينة أنطاكية ، ثم توجه مع الراهبة بولا Paula وبعض النساء الرومانيات إلى صحراء مصر ، وقام بزيارة الأديرة هناك ، وفى عام ٣٨٦ م استقر فى بيت لحم ، وأسس بالتعاون مع بولا وملانيا ديراً مزدوجاً للرهبان والراهبات بنفس النظام الذى اتبع فى بيت المقدس ، وهكذا انتشرت الرهبنة فى فلسطين .

ولم تظهر فى فلسطين حياة النسك الخالص ، وكان الميل إلى نظام الشركة ، غير أنه ساد فى معظم الأماكن نظام نصف الشركة . أما نظام أديرة الراهبات فقد اختلف عن النظام المصرى ، فقد أسس باخوميوس لأخته ديراً بجوار أخميم وكتب قانوناً لهذا الدير سار عليه . وكان ممنوعاً اشتراك الرهبان والراهبات فى أى عمل من الأعمال ، ونظمت العلاقات بين أديرة الرهبان والراهبات باحتراس شديد . أما النظام الذى أسسه روفينوس والراهبة فلانيا فى بيت المقدس وجيروم والراهبة بولا فى بيت لحم ، فقد اتصفت العلاقات بين أديرة الرهبان والراهبات بالحرية الكاملة[٣٨] .

أما فى سوريا فقد تأكدت حياة النسك الخالص ، وأقام القديس كريسوستوم Chrysostom إقامة مؤقتة بالقرب من أنطاكية ، وقد ذكر ثيودريت Theodoret أن الصرامة التى كانت موجودة هناك فى حياة النسك فاقت كل ما ورد فى حياة النسك المصرى ، فقد طرأ على قانون الرهبنة تطور غريب لم يسمع عنه ، وكانت أعظم ظاهرة لذلك القديس سيمون العمود الذى عاش ثلاثين عاماً فوق عمود عند جبل أنطاكية ، وكما ذكر سوزومين Sozomen فقد كان هناك رهبان فى سوريا يسكنون فى الجبال ولا يأكلون اللحم أو الخبز ويحصدون الحشائش ومنها يصنعون طعامهم ، وأيضاً نجد فى سوريا تطوراً لم يظهر فى الرهبنة المصرية ، فقد كان هناك رهبان يحملون بصفة دائمة على ظهورهم أحمالاً ثقيلة من الحديد ، وهناك ناسك لبس قيداً حديدياً ونام على الأرض دون أن يفترش شيئاً ، وصام لمدة عشرين يوماً متواصلة ، ووقف فى الصلاة دون أن يتحرك فى المطر والرياح والثلج ، ويتضح من ذلك أن الرهبنة عندما انتقلت من مصر

إلى سوريا لم تفقد شيئاً من صفاتها الأصلية كما كانت عند القديس أنطونيوس وإنما زادت صرامة وقسوة[٣٩] .

انتقال الديرية إلى بلاد اليونان

يعتبر القديس باسيل Basil مؤسس الديرية اليونانية ، فبعد أن زار مصر ومكث بها عاماً كاملاً وعرف الكثير عن نظام أديرة باخوميوس ، عاد إلى بلاده فى عام ٣٦٠ م ولجأ إلى مكان منعزل بالقرب من قيصرية فى بنطس وأسس أول دير له مع عدد من أتباعه الذين تجمعوا حوله ، واتسمت حياة الرهبان بالجماعية : الصلاة الجماعية وترتيل المزامير فى المساء والعمل فى الحقول ، وكان الرهبان يتناولون وجبة واحدة فى اليوم تتكون من الخبز والخضروات ، وكانوا يقومون بدراسة منتظمة للكتاب المقدس ، وبذلك أدخل باسيل تعديلات أساسية فى الحياة الديرية ، واختلفت الحياة هناك عن تلك التى كانت تمارس فى مصر ، فقد عارض باسيل بشدة حياة النسك ، وقد ذكر سوزومين أن الرهبان فى الولايات اليونانية المجاورة يعيشون فى مجتمعات ولا يوجد نساك ، وأن هناك مجتمع حقيقى للحياة بالمعنى الكامل يختلف عن أديرة باخوميوس . وكانت موائد الطعام جماعية ولا يسمح لأى راهب بأن يتخلف عن ذلك ، وكان العمل جماعياً ، وكذلك الصلاة جماعية سبع مرات فى اليوم ، ولا يمارس الرهبان الصرامة دون الحصول على موافقة رئيس الدير ، وأعلن باسيل أن ممارسة الصرامة فى الصيام لدرجة ارهاق الجسم وجعله لا يستطيع القيام بالعمل فكرة خاطئة تتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس وأن العمل أهم من الصيام[٤٠] .

انتشر نظام الأديرة الباسيلية فى ولايات آسيا الصغرى وفى بلاد الأرمن ، ونتيجة لتأثير مجمع خلقدونية الذى أصدر عدة مراسيم لتنظيم الحياة الديرية والحياة المدنية ، فقد شق نظام باسيل طريقه وأصبح معروفاً فى كل مكان باليونان كعنصر أساسى للحياة الديرية ، ومع أن قانون باسيل أصبح نموذجاً للحياة الديرية فى الكنيسة اليونانية إلا أنه كان هناك اتجاه قوى للعودة إلى الرهبنة البدائية فى صورتها الأولى وهناك استعداد لحياة النسك المصحوبة بالممارسات الشخصية للرهبنة والزهد[٤١] . وقد أصبحت الأراضى المقدسة فى القرن الخامس الميلادى تمثل المركز الرئيسى لنشاط الرهبنة اليونانية ، وكان هناك نوعان من الرهبنة : نظام الأديرة الباسيلية ، والنظام اللوراسى Louras ، وهذا النظام يعنى نظام نصف الشركة الذى أسسه القديس سباس الفبادوقى Sabas حيث أنشأ

ما لا يقل عن سبعة أديرة فى فلسطين وكتب لها قانوناً تسير عليه ، أما النظام الباسيلى أو نظام الشركة فكان يشرف عليه ثيودوسيوس Theodosius . وقد اضمحل نظام الرهبنة اليونانية فى فلسطين فى القرن السادس ، وانتقل مركز ثقل الرهبنة اليونانية فى القرن السابع الميلادى إلى مدينة القسطنطينية[٤٢] .

انتقلت الرهبنة كذلك إلى شمال أفريقية عن طريق القديس أوغسطين (٣٥٤ – ٤٣٠ م) وهو أشهر المدافعين عن المسيحية فى ذلك الوقت ، وتصدى للرد على الوثنيين فى كتابه **مدينة الله** ، وقد عرف أوغسطين قوانين الرهبنة من أثناسيوس أثناء وجوده فى روما ، وعاد أوغسطين إلى وطنه شمال أفريقية فى عام ٣٨٨ م ، وعندما أصبح أسقفاً لمدينة هيبو Hippo (حالياً بونة فى مدينة الجزائر) وذلك فى عام ٣٩٦ ، قام بتأسيس الأديرة فى أسقفيات المدن وانتشر هذا النوع من الأديرة فى شمال أفريقية كما أسس ديراً للنساء فى مدينة هيبو قامت بالاشراف عليه اخته ، وقد ازدهرت الحركة الديرية فى شمال أفريقية منذ أوائل القرن الخامس الميلادى[٤٣] .

أما فى أسبانيا فقد كانت بداية الحركة الديرية غامضة وما تم تسجيله عنها يعتبر قليلاً ، لكن توجد إشارة إلى قانون صدر فى عام ٣٨٠ م ، يمنع رجال الدين من الانخراط فى سلك الرهبانية ، وهذا يشير إلى أن المؤسسات الديرية قد انتشرت فى هذا التاريخ فى أسبانيا ، غير أنه لا يوجد دليل على وجود مؤسسات ديرية فى أسبانيا قبل بداية القرن السادس الميلادى ، وقد انتقل نظام الديرية من أفريقية إلى أسبانيا ، غير أن الحركة الديرية ارتبطت فى أسبانيا باسم مارتن Martin أسقف براغا Braga الذى مات فى سنة ٥٨٠ م وقد تعرضت الحركة الديرية فى أسبانيا للاضطهاد من قبل القوط الغربيين[٤٤] .

انتقال الرهبنة إلى غرب أوروبا

كان أول من عمل على نشر الرهبنة فى أوروبا بطرك الاسكندرية أثناسيوس Athnasius عندما تم نفيه بمعرفة قسطنطين الكبير فى سنة ٣٣٥ م عقب مؤتمر صور الذى أقر مذهب آريوس وأدان مذهب أثناسيوس ، وتم نفيه إلى مدينة تريفى Trevy فى شمال بلاد الغال (فرنسا وجزء من بلجيكا حالياً) ، واستمر هناك إلى أن أعاده الامبراطور قسطنطين الثانى إلى وظيفته بعد وفاة قسطنطين الكبير فى سنة ٣٣٧ م ، غير أن أسقفيات الشرق عزلت أثناسيوس وأدانته مرة ثانية فى مجمع أنطاكية (٣٣٧ –

٣٣٨) . وذهب أثناسيوس إلى البابا فى روما حاملاً قضيته حيث تم عقد مجمع رومانى فى بداية عام ٣٤١ م أصدر مرسوماً ببراءة أثناسيوس ، إلا أن أساقفة الشرق رفضوا هذا المرسوم ولذلك استمر أثناسيوس فى إيطاليا ، وكان معه راهبان مصريان قاما بنشر الرهبنة فى مدينة روما والمدن المجاورة لها ، وانتشرت الأديرة الخاصة بالنساء والرجال ولعبت النساء النبيلات دوراً بارزاً فى الحركة الديرية فى روما(٤٥) .

وبالرغم من ضآلة المعلومات عن الحركة الديرية فى إيطاليا خلال القرن الخامس الميلادى إلا أن لدينا إشارات تساعد على إلقاء الضوء على هذه الحركة خلال القرن المشار إليه فقد قام روفينوس بترجمة مختصرة لقوانين القديس باسيل من اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية ، على أمل نشر النظام الباسيلى فى إيطاليا ، كما أن القديس جيروم ترجم قوانين باخوميوس فى عام ٤٠٤ م من اللغة اليونانية إلى اللاتينية ، ومن الواضح أن هذه القوانين كان لها أثر كبير على الحركة الديرية فى إيطاليا بدرجات متفاوتة ، ولكن ليس هناك دليل على أن أديرة إيطاليا قامت على نمط الأديرة الباخومية أو الأديرة الباسيلية فى ذلك الوقت ، ويبدو أن الأديرة الإيطالية استمدت نظمها من مصادر مختلفة وانتقت كل ما اعتبرته الأفضل لها سواء من النظام الباخومى أو النظام الباسيلى أو من وثائق أخرى كتلك التى كتبها كاسيان عن الرهبنة المصرية(٤٦) .

وأول دير فى بلاد الغال أسسه القديس مارتن(٤٧) على بعد ثمانية كيلو مترات من بوانيه وذلك فى عام ٣٦٠ م ، وعندما أصبح أسقف تور وجمع حوله ثمانين تلميذاً أسس ديراً آخر فى مارموتيه Marmoutier فى بقعة منعزلة تبعد ميلين عن مدينة تور ، وفى هذا الدير عاش مارتن حياة النسك ومعه ثمانين راهباً يسكنون فى كهوف محفورة فى الصخور فى الجبل ، لا يتركون صوامعهم إلا فى حالة الاجتماع للصلاة ومن أجل تناول الوجبة اليومية ، ومن الواضح أن ذلك نسخة طبق الأصل من نظام أنطونيوس(٤٨) .

وكان أعظم منظم للحياة الديرية فى بلاد الغال هو حنا كاسيان – راهب وقسيس وكاتب كنسى – ولد حوالى عام ٣٦٠ م ومكان ولادته غير معروف ، والأرجح أنه ولد فى بلاد الغال ، وقضى بعض الوقت فى أحد الأديرة فى بيت لحم ، ثم توجه إلى مصر قبل حلول عام ٣٨٥ م لكى يواصل حياة التوحد والنسك فى مصر ، وقد قضى فى مصر أكثر من سبع سنوات زار خلالها الرهبان فى وادى النطرون كما هو واضح فى محادثاته Conférences . وفى حوالى عام ٤٠٠ م عاد إلى مدينة القسطنطينية حيث عين شماساً واستمر هناك خمس سنوات ، ومن المحتمل أنه قام فى تلك الفترة بزيادة الأديرة فى

فبادوقيا حيث تحدث عنها فى المؤسسات Institutions ثم توجه إلى روما عدة سنوات ، ثم وصل إلى بلاد الغال حوالى سنة ٤١٥ م حيث أسس ديرين بالقرب من مرسيليا وهما دير القديس سان فيكتور ودير الليران(٤٩) .

أوضح كاسيان سياسته الرهبانية التى اتبعها فى أديرته فى المقدمة الخاصة بالمؤسسات والمحادثات ، فقد تمسك بالنظم المصرية بقدر ما تسمح به ظروف البيئة التى أسس فيها أديرته ، إذ يقول فى مقدمة المؤسسات أنه عندما يجد نصوصاً فى النظام المصرى تتعارض عند تطبيقها مع المناخ أو لاختلاف العادات والتقاليد وأنه من الصعب القيام بها فى هذه البلاد فإنه يلجأ إلى الموازنة بينها وبين تلك النظم الموجودة فى بنطس وفلسطين ، وقد كان برنامج كاسيان ينقسم إلى قسمين : الأول إدخال الرهبة إلى بلاد الغال ، والثانى هو إدخال نظام الشركة المصرى مع مزجه بالنظام الذى كان سائداً فى فلسطين وآسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين ، وقام كاسيان فى السنوات ٤٣٢ – ٤٣٣ بمجهود كبير وازدهرت أديرته فى اكيتانيا ، ولعب دوراً ممتازاً بالنسبة للحركة الديرية(٥٠) .

وبالرغم من أن كاسيان قد امتدح الرهبنة المصرية وكانت دعوته إلى الأفكار المصرية ، كانت واضحة فى محادثاته ، إلا أنه يعترف صراحة أن أسلوب الرهبنة المصرية لا يمكن تطبيقه كاملاً فى مرسيليا ، ومع ذلك فإن كاسيان نفسه بارك نظام الأديرة التى أسسها بعض الأساقفة فى الجنوب الشرقى من بلاد الغال والذى أقام حياة الصرامة الشديدة(٥١) .

استطاع كاسيان أن يجدد نظام الشركة وأن يجعل نظام النسك أكثر رصانة ومثالية وخاصة الناحية الروحية ، وبهذا فقد أثر كاسيان فى الحركة الديرية عندما أنشأ مستعمرات للرهبان فى مرسيليا وغيرها من ولايات بلاد الغال ، ولا شك إن عناية كاسيان أدت إلى الاصلاح ، حيث أن حياة التوحد اختفت وحل محلها أسلوب رهبانى أكثر نظاماً وأكثر ثقافة . ولم يقتصر تأثير كاسيان على أديرة بلاد الغال بل تأثرت به البلدان الأخرى فى أوروبا ، ونقلت قوانين كاسيان إلى نظام القديس قيصر Caesarius ، وإلى نظام كولمبا Columba ، وكاسيودورس Cassiodorus والقديس بندكت Banedict ، وكانت استفادة كاسيودورس وبندكت من قوانين كاسيان أكثر ، فقد زكى الثالث قوانين كاسيان فى دير فيفاريوم Vivarium أما القديس بندكت فقد أوصى تلاميذه قائلاً اقرءوا واستمعوا إلى الكاهن كاسيان الذى كتب فى تعليم الرهبان المؤمنين ، ومن شاء أن يشبع نفسه فى هذا الشأن فليقرأ كاسيان الفصيح الذى يحدثنا فى مقالتيه التاسعة

والعاشرة عن أنواع الصلاة بطريقة مثالية بحيث يبدو أن الروح القدس نفسه يتكلم على لسانه[٥٢].

والكتب التى اعتبرها القديس بندكت مكملة لقوانينه وهى تعليمات ومقالات كاسيان ، ويعتبر بندكت مقالات الآباء وتعليماتهم وسيرهم ، وأيضاً قوانين باسيل وسائل يستفيد بها الرهبان ، ولقد كان لتوصيات القديس بندكت صدى واسع ومؤثر فى معظم أديرة العصور الوسطى ، ولا شك أن كتابات كاسيان كانت من المصادر المباشرة التى اعتمدت عليها قوانين بندكت فى حدود ضيقة ، وإذا كان القديس بندكت يعتبر شيخ الحركة الديرية فى غرب أوروبا ، فإن كاسيان يعتبر أستاذ ومعلم هذه الحركة فى غرب أوروبا[٥٣].

وتزعمت الحركة الديرية فى القرن الخامس الميلادى فى بلاد الغال أيضاً جزيرتى لرنس Lerins وليبارى Lipari ، تحت إشراف هونورات Honoratus وانتشر خلال القرن الخامس والسادس الميلادى – نتيجة لتأثير هاتين الجزيرتين – عدد من الأديرة فى الجنوب الشرق لبلاد الغال ، كما ظهرت أديرة أخرى[٥٤] فى أجزاء من بلاد الغال أشهرها دير كوندات Condat فى جبال جورا Jura .

ولعب قيصر الأرلى Caesarius دوراً بارزاً فى الحركة الديرية فى بلاد الغال ، وقد ولد قيصر فى اقليم برجنديا من أسرة نبيلة ، ودخل الدير الذى أسسه هو نورات فى القرن الخامس الميلادى فى جزيرة لرنس وهو فى سن العشرين ، ثم خرج من الدير واستقر فى آرل وتلقى هناك تعليماً دنيوياً ، وتم تعيينه شماساً ثم قسيساً فى أسقفية آرل ، وعندما مات أسقف آرل عين أسقفاً لها وذلك فى عام ٥٠٢ م ، وصدّق على انتخابه الاريك الثانى Alaric ملك القوط الغربيين الذى كان حاكماً على آرل رغم أنه كان يعتنق المذهب الأريوسى ، وقد ذاع صيت قيصر بعد أن وصل إلى أسقفية آرل واستعان به البابوات فى روما للاشتراك فى عدة مجامع دينية[٥٥].

وكانت أعمال قيصر البارزة وضعه قانوناً للرهبان وآخر للراهبات ، غير أن قانون الراهبات كان أهم من قانون الرهبان وقد استعان قيصر فى كتابة هذا القانون بالاقتباس من قوانين كاسيان وأوغسطس وبندكت . وأسس القديس قيصر دير القديس حنا للراهبات فى عام ٥١٢ م فى آرل ، وكانت أول رئيسة لهذا الدير أخته قيصرية التى تمرنت فى الدير الذى أسسه كاسيان للنساء فى مرسيليا فى القرن الخامس الميلادى ، وتولت رئاسة الدير راهبة من بعدها تحمل نفس الاسم وصلت إلى درجة عالية فى

الدراسات اللاهوتية ، ويتضح لنا مدى حرص قيصر على عدم اختلاط الرهبان بالراهبات من التعليمات التى بعث بها إلى رئيسة الدير الجديد ، وخشى من الفتنة حتى على رئيسة الدير فقد طلب أن تصون نفسها وتكون على احتراس وحذر عندما تتعامل مع القسيس والشماس داخل أسوار الدير ، وعندما تدعو حاجة العمل إلى مناقشة رئيس الخدم يتم ذلك بحضور اثنين أو ثلاث من الراهبات ، وقد نفذ قيصر ما يقوله عملياً ، إذ أنه لم يدخل الدير وبعث بتلك التعليمات كتابة ، وكان لا يسمح لأى رجل أن يتناول الطعام داخل الدير حتى لو كان أسقف آرل نفسه .

وكان القانون يقضى بأن تبقى الراهبة المستجدة تحت الاختبار لمدة عام كامل ، تحت ارشاد إحدى الراهبات الضليعات فى الرهبنة ، وتتخلى كل من تريد دخول الدير عن أملاكها قبل أن يسمح لها بالدخول ، وتقوم رئيسة الدير بإدارته تحت إشراف أسقف الأسقفية التى يقع الدير فى دائرتها ، ويجب أن تكون الرئيسة قدوة حسنة للراهبات فى سلوكها وتصرفاتها ، وتكون أول من تبدأ العمل اليدوى وآخر من تكف عنه ، وأول من تدخل كنيسة الدير وآخر من تغادرها ، وفى حالة استقبال زوار فى الدير تصطحب معها اثنتين أو ثلاث من الراهبات المشهود لهن ، وأيضاً فى حالة الرد على المراسلات التى تصل إلى الدير يجب على الراهبات إطاعة رئيسة الدير وتنفيذ أوامرها ، ونص القانون على تعيين وكيلة للدير ، ومعلمة لمراقبة الراهبات الشابات وراهبة مسئولة عن المريضات ، وينص القانون على اختيار مجموعة من الراهبات المسنات المشهود لهن بالكفاءة تكون كل واحدة منهن مسئولة عن واحدة أو أكثر من الراهبات المستجدات وتقوم بالرعاية والمراقبة لهن ، ويقضى القانون أن تنام الراهبات فى عنبر كبير وتخصص حجرة للعجائز والضعيفات من الراهبات وتكون المفروشات بسيطة للغاية ولا يسمح باستخدام الوسائد فى النوم[٥٦].

نظم القانون أيضاً الأعمال اليدوية ، ونص على أن يكون العمل الرئيسى فى الدير إنتاج ملابس الراهبات ، وكل راهبة تشترك فى أعمال الدير وتتناوب الراهبات أعمال الطهى ، وتأكل الراهبات معاً فى حجرة الطعام ولا يسمح لأى راهبة أن تأكل منفردة ويسمح بكمية مناسبة من النبيذ للمريضات والضعيفات ، ومنع أكل لحوم الحيوانات إلا فى حالة المرض الشديد . كما نص القانون على أن الصمت واجب فى الدير ولا يسمح لأى راهبة أن ترفع صوتها فى أى وقت من الأوقات ، وكل راهبة يجب أن تعرف كيف تقرأ ، وعلى الراهبات اللاتى لا يعرفن القراءة أن يتعلمن بمجرد دخولهن الدير ،

وخصص القانون ساعتين للقراءة فى الصباح الباكر . وتقوم بعض الراهبات بنسخ المخطوطات الدينية تحت إشراف رئيسة الدير(٥٧) . وكثير من بنود هذا القانون تشبه قانون القديس باخوميوس الذى وضعه لدير الراهبات فى صعيد مصر .

ويبدو أن تلك الأديرة التى انتشرت فى هذه المناطق نظرت - كما نظر كاسيان - إلى مصر كنموذج ومثل لحياة الرهبنة ، ومهما يكن من أمر فقد أمدنا جريجورى بمعلومات موثوق بها خاصة برهبان أوفرن Auvergne ووسط فرنسا فى القرن السادس الميلادى ، ونعلم من صفحاته أن حياة النسك كانت شائعة هناك ، وكانت الصرامة الشخصية القاسية مألوفة ، ويتبين من ذلك أن حياة الرهبنة فى بلاد الغال خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد كانت مصرية من الناحيتين النظرية والعملية(٥٨).

الحركة الديرية فى إيطاليا فى القرن السادس الميلادى

ازدهرت الحركة الديرية فى إيطاليا فى القرن السادس . ومن الشخصيات التى لعبت دوراً بارزاً فى هذا المجال أوريليوس كاسيودورس Aurelius Cassiadorus ، وقد ولد فى بلدة سكويلاكيوم Squilacium حوالى سنة ٤٨٥ م بمقاطعة كالابريا Calabria فى جنوب إيطاليا ومات حوالى ٥٨٠ م ، وكان رجل دولة وكاتب ومؤسس فيفاريوم Vivarium(٥٩) . وعندما نتحدث عن كاسيودورس نستطيع القول بأن إيطاليا انتقلت من مرحلة التقليد إلى مرحلة الاستقلال والاجتهاد فى النظم الديرية . وقد التحق كاسيودورس بخدمة ملوك القوط الشرقيين أثناء حكمهم لإيطاليا فتولى الإدارة المالية ثم عمل سكرتيراً لثيودريك العظيم من سنة ٥٠٧ إلى ٥١١ م ، ثم قنصلاً فى سنة ٥١٤ م ، ثم تولى فى سنة ٥٢٣ م منصب المستشارية فى البلاط القوطى وفى عام ٥٣٣ م منصب المحافظ البرتيورى(٦٠).

ويبدو أن كاسيودورس كان على اتصال برهبان مصريين كانوا موجودين فى مدينة روما ، لأنه فى سنة ٥٣٤ م حدثت بعض المشاكل بالنسبة لهؤلاء الرهبان ، ولذلك توسط كاسيودورس لدى البابا حنا الثانى لصالح رهبان لا سقيط ، ونجح فى اصلاح ذات البين . ولقد أحب مبادىء رهبان لاسقيط حتى آخر عمره ، وكانت هناك علاقة وطيدة بين كاسيودورس والبابا أجابيتوس Agapitus خليفة حنا الثانى ، ولذلك عرض

عليه كاسيودورس فى عام ٥٣٥ م إنشاء مدرسة مسيحية وتعيين أساتذة لتدريس اللاهوت كما جرت العادة فى مدينة الاسكندرية منذ زمن بعيد(٦١).

ولم يمنع كاسيودورس من تأسيس هذه المدرسة إلا قيام الحرب ، فقد استولى القائد بليزاريوس Belisarius على جزيرة صقلية فى عام ٥٣٥ م ثم على مدينة روما فى ديسمبر ٥٣٦ م ، وعندما فشلت قوات القوط فى استرداد مدينة روما فى عام ٥٣٨ م ، وانسحبت من أمام المدينة ، كان معنى ذلك تراجع كاسيودورس عن مسرح الحياة العامة ، وأصبح واضحاً أنه فقد كثيراً من سلطاته ؛ ذلك لأنه فى ربيع عام ٥٣٧ م فشل فى منع المذبحة التى قام بها الملك القوطى فيتجس Vitigis ضد النبلاء الرومان الذين أخذهم كرهائن ، وغير معروف على وجه التحديد ما إذا كان كاسيودورس قد ترك وظيفته من تلقاء نفسه أم أن الملك القوطى عزله من تلك الوظيفة ، وعلى أية حال فقد تنبأ كاسيودورس بسقوط دولة القوط فى إيطاليا ، وكان سعيداً لأنه تخلى عن مسئوليته فى تلك الحكومة وحتى يتفرغ للقضايا الدينية التى شغلت تفكيره منذ فترة(٦٢).

استمر كاسيودورس فى مدينة رافنا بعد أن ترك وظيفته ، حيث كان يحتفظ بعلاقات طيبة مع أفراد البلاط هناك ، واستطاع استكمال كتابه المسمى **المنوعات** Variae ويحتوى على أربعمائة وثمان وستين رسالة ووثيقة أعدها كاسيودورس باسم بعض ملوك القوط الشرقيين ، ومهما يكن من أمر فقد كانت الفترة التى قضاها فى رافنا بداية لحياته الدينية بعد انسحابه من الحياة العامة ، وليس من المحتمل أن يكون قد استمر فى رافنا بعد أن استطاع بليزاريوس الاستيلاء عليها فى عام ٥٤٠ م ، ويبدو أن كاسيدورس أرسل إلى مدينة القسطنطينية مع الملك القوطى المهزوم واستقبله الامبراطور جستنيان Justinian استقبالاً حسناً ، وبناء على ذلك بقى بمدينة القسطنطينية حيث تأثر بالثقافة اليونانية التى ظهرت فيما بعد فى كتاباته(٦٣).

تأسيس دير فيفاريوم

عاد كاسيودورس من القسطنطينية إلى بلدته سكويلاكيوم فى سنة ٥٥٥ م وأقام ديره فى أملاك أسرته فى فيفاريوم بإقليم كالابريا ، وكان يريد بذلك إحياء مشروعه القديم الذى توقف بسبب حروب الامبراطور جستنيان فى إيطاليا ، ولذلك لم تقتصر رسالة الدير على تعليم العلوم الدينية بل شملت تعليم العلوم الدنيوية ، كما أصبح الدير مركزاً لنسخ المخطوطات ، واعتبر كاسيودورس بهذا العمل أول من أسس ديراً فى المسيحية يقوم

بالتعليم ونسخ المخطوطات(٦٤).

وضع كاسيودورس نظاماً لديره يتركز فى الكنيسة الصغيرة وفى المكتبة ، ومن أجل الرهبان الذين أبدوا رغبة فى أن يعيشوا حياة النسك أنشأ ديرين منفصلين يبعد كل منهما مسافة عن الدير الرئيسى لهؤلاء الذين يعدون أنفسهم لحياة النسك ، وكان دير هؤلاء يقع فى حصن جبلى ، وقد كتب كاسيودورس لرهبانه قواعد للسلوك وتعليمات فى كتابين ، يحتوى أولهما على وصف الموضوعات اللاهوتية وقد حث فيه الرهبان على القراءة لكى يستطيعوا فهم الكتاب المقدس ، وطلب منهم أن يفسروا الكتاب المقدس بالرجوع إلى كتابات آباء الكنيسة والمؤرخين ، وشرح المزامير واعتمد فى ذلك على أوغسطين وغيره من آباء الكنيسة ، وفى نفس الوقت ظهرت فى كتاباته شخصيته وأفكاره(٦٥).

وطلب كاسيودورس من رهبانه الذين اكتسبوا قدراً معقولاً من التعليم أن يكرسوا أنفسهم لتصحيح وتنقيح نصوص الكتاب المقدس حتى يستطيع أن يستخدمه الجميع ، وضرب لهم مثلا عندما جمع نصوصاً من سفر المزامير وأقوال الرسل ، ورسائل الإنجيل ، للاستفادة منها بشكل أكثر ، وقدم وصفاً تفصيلياً لشروح وتعليقات آباء الكنيسة وكبار الكتاب والمؤرخين من أمثال القديس جيروم وهيلارى Hilary ورفينوس الأكويلى ، وشمل ذلك أيضاً كتابات الاغريق مثل كتابات القديس باسيل ، وكريسوستوم Chrysostom ويوسيبيوس Eusebius ، ومعظم هذه الكتب كان موجوداً فى مكتبة الدير ، تلك المكتبة التى تعرض كاسيودورس فى سبيل استكمالها ، بقدر ما استطاع ، إلى صعوبات شتى فى ذلك الوقت الذى كانت الحروب فيه لا تنتهى ، وبحث عن المخطوطات التى كان يحتاج إليها هو نفسه أو يحتاج إليها النساخ من الرهبان فى ديره ، فى إيطاليا وبلاد اليونان وفى شمال أفريقيا(٦٦).

ووضع كاسيودورس تعليمات دقيقة لنساخ دير فيفاريوم طلب فيها من الرهبان قراءة تاريخ الكنيسة عند يوسيبيوس وروفينوس وغيرهما من الكتاب حتى تتسع مداركهم ، كما طلب منهم قراءة كتب الجغرافيا ، وشملت تعليماته فن النسخ ونصح الرهبان بعدم التدخل فى النص وتحريفه ، وذكر الأسماء اليهودية الحقيقية وعدم اغفالها(٦٧).

لم يرض هذا القدر من التعليمات طموح كاسيودورس ولذلك أضاف كتابه الثانى ، وهو عبارة عن مختصر للآداب الحرة السبع ، والتى تشمل النحو والبلاغة ، والمنطق

والحساب ، والجبر ، والفلك ، والموسيقى ، وأضاف إلى الكتاب حواشى شملت المؤلفين الذين تعاملوا مع تلك العلوم ، وقد اعتبر كاسيودورس تلك العلوم ضرورية لفهم الإنجيل(٦٨).

وهناك وصف لفهرس مكتبة فيفاريوم التى تعتبر أول مكتبة ديرية ، فقد احتوت على العديد من المخطوطات التى شملت شتى الموضوعات ، وتم تصنيف الموضوعات المتشابهة معاً حتى تكون سهلة بالنسبة للدراسين ، ورتبت الكتب بحيث يمكن الاستدلال عليها بسهولة ويسر ، وشملت العناية غلاف المخطوطات الذى كان من القماش ، حتى الألوان تم اختيارها بعناية ، ووفر كاسيودورس كل وسائل الراحة للناسخين حتى يستطيعوا أن يؤدوا عملهم على الوجه الأكمل ، فهناك مصابيح تضاء بزيت الوقود وضعت بمهارة ، وساعات شمسية تعمل بالنهار ، وساعات مائية تعمل عندما يكون هناك سحب ، وفى ساعات الليل . ولم ينس كاسيودورس الضعفاء من الرهبان فقد أعد للمرضى كل ما يحتاجونه فأنشأ لهم الحمامات وحث المشرفين على أن يعطفوا عليهم ، ووضع شروطاً للأطباء الذين يشرفون على المرضى ، فلابد أن يكون هؤلاء الأطباء على دراية تامة بأنواع الأعشاب الطبية وأن يكون لديهم حجة فى تعلم الطب عن طريق دراسة كتابات ابقراط Hipocrates ، وجالين Galen(٦٩).

كان يشرف على دير فيفاريوم رئيسان ، ويبدو أن مشاغل كاسيودورس لم تمكنه من الاشراف على الدير والقيام بالأعمال الإدارية وركز على النواحى العملية فقط ، وكان الراهب يبدأ حياته العملية فى الديرية فى حجرة المخطوطات ، ويوضع تحت الاختبار لفترة من الزمن ، وإذا استطاع اتقان النسخ استمر فى ذلك وإذا لم يستطع يحول إلى العمل فى الحقل والعناية بالحدائق ، ومعنى ذلك أن كاسيودورس يعترف بأن الأعمال اليدوية مهنة مناسبة للرهبان غير أنه يفضل عليها العمل فى مكتبة الدير تلك المكتبة التى كان لها أثر بعيد المدى فى العصور الوسطى . وعلى الرغم من أن مكتبة فيفاريوم حطمت بعد وفاة كاسيودورس ، إلا أن معظم مخطوطاتها نقلت إلى مكتبة البابوية فى اللاتيران ، واستفاد بندكت فيما بعد بالنظام الذى وضعه كاسيودورس لمكتبة فيفاريوم(٧٠).

القديس بندكت

ولد بندكت فى عام ٤٨٠ م ومات حوالى ٥٤٣ م وهو ينتمى إلى عائلة ارستقراطية ، وقد تعلم فى مدينة روما ، وبدأ حياة العزلة فى سن الخامسة عشرة فى

كهف بالقرب من وادى سوبياكو Subiaco . كان طعامه من الخبز ويقوم بإعداده له الراهب رومانوس Romanus من صخرة عالية كان كهفه معلقاً فيها ، وكان شرابه الماء وحلته من جلد الحيوانات ، وعاش بندكت حياة وصلت إلى أبعد حدود الصرامة والشدة ، واستمر لمدة ثلاث سنوات فى ممارسة حياة النسك الخالص ، وفترة ثانية لم نستطع تحديدها[٧١] .

ثم انتقل بعد ذلك مع أتباعه الذين التفوا حوله إلى مونت كاسينو Monte Cassino حيث أقام هناك ديراً على أنقاض معبد وثنى حوالى عام ٥٢٠ م ، وكتب قانونه بعد أن مر بتجربة الزهد ، ولذلك نجده قد أعرض عمداً عن الصرامة والتطرف التى كانت سائدة ، والتى كان ينظر إليها فى ذلك الوقت بأنها من الوسائل الرئيسية للفوز بالدرجة القصوى للحياة الرهبانية وسمى القديس بندكت قانونه قاعدة صغيرة للمبتدئين[٧٢] ، وتركز نظامه على انكار الذات والطاعة والعمل[٧٣] وقد حددت هذه القاعدة شكل الحياة الديرية التى سادت الكنائس العربية فى القرن السابع والثامن الميلادى ، وكثير من الأديرة التى أسست فى شمال أوروبا بمعرفة الرهبان الأيرلنديين ، طبقت قاعدة القديس بندكت[٧٤] .

وعندما نقارن نظام بندكت بنظام الرهبنة المصرية سنجد العديد من التناقضات فبالنسبة لمن يريد أن يدخل الدير ليصبح راهباً ، وضع بندكت شروطاً بحيث يمر الراهب المستجد بعدة مراحل فهو لا يفتح باب الدير للطالب إلا بعد أن يتردد أكثر من أربع مرات ، وعندما يتم قبول الطالب يبقى فى صومعة الضيوف لعدة أيام ، ثم ينقل إلى صومعة المستجدين ويقوم بملاحظته أحد الرهبان القدماء ، وبعد مرور شهرين يقرأ عليه قانون الدير ، فإذا لم يوافق عليه له حرية ترك الدير ، أما إذا وافق عليه يذهب مرة أخرى إلى صومعة المستجدين ثم يقرأ عليه القانون بعد مرور ستة أشهر ، فإذا استمر فى صلابته يقرأ عليه بعد مرور أربعة أشهر أخرى ، وبعد ذلك يقبل ضمن رهبان الدير[٧٥] ، أما أنطونيوس فكان لا يسمح بدخول الدير بسهولة ، وكان يكلف الطالب بالقيام بأعمال شاقة ومضنية لاختبار مدى تحمله للحياة الشاقة فى الدير[٧٦] . أما من كان يريد الانضمام إلى دير من أديرة باخوميوس فلم يكن مسموحاً له بدخول الدير ، ويظل الطالب بالخارج بضعة أيام يراجع نفسه ويتعلم خلالها الصلاة أمام الباب وكذلك ما يستطيع حفظه من المزامير ، وإذا رضى بكل ذلك ، يلقن باقى تعليمات الدير التى يجب عليه الخضوع لها . وبعد ذلك يضم إلى الدير حيث يجرد من ملابسه ويرتدى ملابس الرهبان[٧٧] .

وبالنسبة للطعام فى الأديرية البندكية ، كان الرهبان يتناولون الطعام مرتين فى اليوم وربما تصل إلى ثلاث وجبات فى حالة الحصول على الخضروات أو الفواكه ، ومع أن لحوم الحيوانات كانت ممنوعة ، إلا أنه كان مسموحاً بها للمرضى والضعفاء ، وفرض بندكت الاقتصاد وتجنب التخمة والنهم فى الأكل ، أما الأديرة الباخومية فقد دعت إلى التقشف فى الطعام والصيام مرتين فى الأسبوع ، وفى الأيام شديدة الحرارة يكتفى بعض الرهبان بوجبة واحدة ، الغذاء أو العشاء وفى حالة امتناع أحد الرهبان عن الحضور إلى المائدة يرسل له فى صومعته خبز وماء وملح فقط كل يوم أو كل يومين ، ومع اعتراف بندكت بأن النبيذ لا يكون شراباً للرهبان ، إلا أنه سمح بأن يتناول الراهب $\frac{1}{8}$ جالون يومياً من النبيذ لأنه لم يستطع منع الخمر كلية ، أما الذين يستطيعون الامتناع عن تناول النبيذ فهم أفضل من أولئك الذين لا يستطيعون الامتناع عن تناوله . أما الأديرة الباخومية فقد كان تناول النبيذ ممنوعاً فيها ، وابيح فقط للمرضى ونلاحظ أن الحضور إلى قاعة الطعام فى الظهر أو المساء كان إلزامياً ، فى حين ان التخلف عن الأكل الجماعى كان مسموحاً به فى النظام الباخومى[٧٨] .

سمح بندكت للراهب بسرير ومرتبة وبطانية ووسادة ، ويلاحظ أن هناك اختلافاً كبيراً بالنسبة للرهبان المصريين ، فقد كان الرهبان حفاة ينامون على الحصر ويستخدمون الحجارة كوسائد لهم ، ووجود بطانية فى الدير كان يعتبر مخالفة جسيمة ، وقد جعل القديس باخوميوس الرهبان ينامون جلوساً مضطجعين أو متكئين[٧٩] وكان هناك تشجيع دائم لتخفيض ساعات النوم إلى أضيق الحدود الممكنة . أما القديس بندكت فقد سمح لرهبانه أن يناموا ثمانى ساعات فى أغلب أيام السنة ، وفى الصيف ست ساعات فى الليل بجانب نوم الظهر (القيلولة)[٨٠] ، وكانوا ينامون على أسرّة منفصلة ، وفى جميع الأحوال يجب إنارة شمعة حتى طلوع الفجر ، ولم يكن مسموحاً للرهبان الشبان أن يناموا مع بعضهم البعض ، بل كانوا ينامون بين الرهبان كبار السن[٨١] .

اهتم بندكت اهتماماً كبيراً بالعمل اليدوى ، واعتبر البطالة عدو النفس البشرية ، واعتبر العمل عبادة ، ولذلك نظم بندكت العمل فى فصل الشتاء وفصل الصيف وكان الرهبان يعملون فترتين فى الصباح وفى المساء ، وخصص وقت بين فترتى العمل الصباحية والمسائية ، ودعا بندكت إلى عمل إضافى إذا كانت حاجة الاقليم الذى يقع فيه الدير تدعو إلى ذلك[٨٢] . ومع أن الأديرة الباخومية اهتمت بالعمل اليدوى إلا أنه لم يكن هناك نظام دقيق للعمل كالذى وضعه بندكت ، وفى الوقت الذى اهتم فيه بندكت

بتخصيص وقت للقراءة ، اهتمت الأديرة الباخومية بتعليم الرهبان القراءة والكتابة وخصصت وقتاً معلوماً لتعليم الأميين من الرهبان إجبارياً[٨٣] .

وفيما يتعلق بالصلاة راعى بندكت نفس التعديل ، وقد تم تشكيل الهيكل الكهنوتى على النمط الذى كان سائداً فى سوريا وفلسطين والعراق ، وكانت الصلاة أطول مما كانت عليه فى مصر ، ومجموعة المزامير التى يرددها الرهبان تصل إلى أربعين مزموراً مع أنشودة دينية وفصل من الكتاب المقدس ، ويستغرق ذلك العمل ما بين أربع وخمس ساعات[٨٤] . أما بالنسبة لباخوميوس فإنه بناء على الأمر الذى تلقاه من الملاك ، كان على الرهبان أن يقوموا بترديد اثنى عشر مزموراً فى كل يوم واثنى عشر فى كل مساء واثنى عشر ابان الليل ، وترك الباب مفتوحاً لمن يريد من الرهبان أن يزيد على تلك الأجزاء[٨٥].

سار بندكت على درب الأديرة الباخومية بالنسبة للصيام الكبير ، فكان يحرض الرهبان لكى يضيفوا إلى عباداتهم العادية بعض الزيادة طوعاً واختياراً ، ولكن لم يترك الرهبان لكى يتصارعوا ويتسابقوا فى ذلك ، وكان كل راهب ملزماً أن يحصل على موافقة رئيس الدير للقيام بذلك ، وإلا كان عمله ذلك من أجل التباهى والتفاخر وليس من أجل الثواب والجزاء عند الله ، وكانت القوانين التى وضعها القديس بندكت للعقاب تشابه تلك التى وضعها باخوميوس ، فقد كان العقاب فى النظام البندكى على درجات فيوجه إلى المذنب أولاً الوعظ والإنذار فإذا فشل الإنذار تكون الوسيلة عقوبة بدنية كالجلد بالنسبة لحالة تمرد الراهب[٨٦] أما قوانين باخوميوس فنصت على اللوم والتوبيخ العلنى والحرمان من الطعام بالنسبة للأخطاء الصغيرة ، ثم الجلد بالسياط والحبس فى القلاية بالنسبة للرهبان المتمردين أما الراهب الذى يرتكب جريمة كبرى فيطرد من الدير[٨٧].

أسس بندكت حكومة قائمة بذاتها لها نظامها وقوانينها الخاصة بها ، ووضع نظاماً دقيقاً لاختيار رئيس الدير ، فهو ينتخب لفضله فى الحياة وحكمته وعلمه حتى لو كان فى أدنى الدرجات بالنسبة لجماعة الرهبان ، ومن الصفات الواجب توافرها فى رئيس الدير العدل والأمانة والإيمان ، ويجب أن يكون قدوة للرهبان ، وعندما يعقد رئيس الدير اجتماعاً لمناقشة موضوع يخص الدير يجب أن يدعو جميع الرهبان ويسمع إلى نصائحهم ثم يقرر ما يرى أنه صالح للجميع ، وكانت الطاعة من أهم أركان حكومة بندكت وأعتبرها من أولى درجات التواضع ، واعتبر بندكت أوامر رئيس الدير مستمدة

من أوامر الله ، وتنفذ دون مناقشة ولا تحتمل التسويف أو التأجيل ، وبمجرد أن يسمع الراهب أوامر الرئيس عليه أن ينفذها دون تباطؤ ودون فتور أو تذمر ، وكان كل دير مستقلاً عن الآخر وقائماً بذاته ، ولكل دير وكيل للمؤونة أو خازن للدير ، وفى حالة انحراف رئيس الدير فإنه من حق الأسقف الذى يقع الدير فى دائرته أن يتدخل لتوقيع العقوبة اللازمة ، وإعادة الأمور إلى نصابها حفاظاً على سمعة الدير[٨٨].

أما القديس باخوميوس فقد أظهر مقدرة فائقة فى تأسيس حكومته وقسم الإدارة إلى قسمين إدارة محلية لكل دير والحكومة المركزية لكل الأديرة[٨٩] ولكل دير رئيس ووكيل ورئيس منازل ومشرف وأمين على خزائن الدير ، ووضع باخوميوس شروطاً لاختيار هؤلاء الرؤساء والوكلاء والمشرفين ، واتخذ باخوميوس من أحد الأديرة فى فاو قاعدة لحكومته الديرية لإدارة جميع الأديرة التابعة له فى الصعيد ، وكان يدعو إلى اجتماع سنوى عام فى عيد رأس السنة القبطية يحضره جميع الرهبان لمناقشة القضايا الهامة ، وكانت الطاعة[٩٠] ركناً هاماً فى النظام الباخومى[٩١].

ولم يكتب باخوميوس قاعدته دفعة واحدة ، بل كتبها على مراحل بعد الوصايا التى تقول الأسطورة أنه تلقاها من الملاك وتتكون من مائة وأربعة وتسعون قانوناً ، وتنقسم إلى تعليمات وأنظمة وأحكام وشرائع[٩٢]، لم تقض هذه القاعدة بشكل قاطع على النزوع إلى الفردية والتى كانت سمة من سمات نظام الرهبنة المصرية . أما قاعدة بندكت فتتكون من ثلاثة وسبعين قانوناً[٩٣] تمت كتابتها دفعة واحدة وقد لجأ بندكت إلى الجماعية بالنسبة للنظام الروحى ، وأسس نموذجاً عاماً للحياة الديرية جعل هدفها الواجبات الجماعية ، حيث يتجه فكر الراهب إلى حياة الجماعة ، والراهب فى قاعدة بندكت لا يفعل شيئاً إلا ما تفرضه القاعدة ، وما يحض عليه رؤساء الأديرة ، وفى جميع الحالات تكون القاعدة مرشداً لهم ، وانصهار الفرد فى الجماعة يجعل قاعدة بندكت ثورة أكثر منها تطوراً فى نظام الديرية[٩٤].

ملحق البحث

فهرس قوانين القديس بندكت

(١) فى أنواع الرهبان وسيرتهم

(٢) فى صفات الاب الرئيس .

(٣) فى الأخوة المستشارين .

(٤) ما هى وسائل الأعمال الصالحة ؟ .

(٥) فى طاعة التلاميذ وكيف يجب أن تكون .

(٦) فى الصمت .

(٧) فى التواضع .

(٨) فى الصلوات الإلهية ليلاً .

(٩) كم مزموراً يتلى فى الساعات الليلية ؟ .

(١٠) كيفية التسبحة الليلية صيفاً .

(١١) كيفية إقامة العشية أيام الأحد .

(١٢) كيفية الاحتفال بصلاة الفجر .

(١٣) كيفية صلاة الفجر فى أيام العادة .

(١٤) كيفية إقامة العشية فى أعياد ميلاد القديسين .

(١٥) فى أية أيام تقال هلليلويا .

(١٦) كيف تتلى صلاة الفرض نهاراً .

(١٧) كم مزموراً يتلى فى هذه الساعات .

(١٨) بأى ترتيب تتلى هذه المزامير .

(١٩) فى نظام تلاوة المزامير .

(٢٠) فى الاحترام الواجب فى الصلاة .

(٢١) فى واجبات المشرفين على الدير .

(٢٢) فى كيفية نوم الرهبان .

(٢٣) فى حرمان المذنبين .

(٢٤) فى كيفية الحرمان .

(٢٥) فى الكبائر .

(٢٦) فيمن يختلط بالمذنبين بلا ترخيص .

(٢٧) فى كيفية اهتمام الاب الرئيس بالمحرومين .

(٢٨) فيمن لم يرتدع بعد عقوبات متكررة .

(٢٩) أمن الواجب قبول الأخوة الذين غادروا الدير ؟

(٣٠) تأديب الأحداث غير البالغين .

(٣١) فى واجبات خازن الدير .

(٣٢) عدد الدير وأمواله .

(٣٣) أللرهبان أن يملكوا شيئاً ؟ .

(٣٤) أمن الواجب أن ينال الجميع الضروريات بالمساواة ؟ .

(٣٥) فى أسبوعيات المطابخ .

(٣٦) فى الأخوة المرضى .

(٣٧) فى الشيوخ والأطفال .

(٣٨) فى قارىء الأسبوع .

(٣٩) فى كمية الطعام .

(٤٠) فى كمية الشراب .

(٤١) متى يطعم الرهبان ؟ .

(٤٢) فى ألا يجوز لأحد أن يتكلم بعد صلاة النوم .

(٤٣) فى المتأخرين عن صلاة الفرض أو تناول الطعام .

(٤٤) فى العقوبات وتنفيذها .

(٤٥) فيمن يخطئون فى الصلاة .

(٤٦) فى المخالفات الأخرى .

(٤٧) فى علامة العمل الإلهى (صلاة الفرض) .

(٤٨) فى الأعمال اليدوية اليومية .

(٤٩) فى الحفاظ على الأربعين .

(٥٠) فى الأخوة العاملين بعيداً عن مكان الصلاة .

(٥١) فى الأخوة المسافرين إلى مكان غير بعيد .

(٥٢) فى مصلى الدير .

(٥٣) فى استقبال الضيوف .

(٥٤) فى ألا يقبل الراهب رسائل أو هدايا .

(٥٥) فى ملابس الأخوة وأحذيتهم .

(٥٦) فى مائدة الاب الرئيس .

(٥٧) فى صناع الدير .

(٥٨) فى كيفية استقبال الأخوة .

(٥٩) فى أبناء النبلاء والفقراء .

(٦٠) فيمن شاء من الكهنة المبيت فى الدير .

(٦١) فى الرهبان الغرباء .

(٦٢) فى كهنة الدير .

(٦٣) فى نظام التجمع .

(٦٤) فى رسامة الاب الرئيس .

(٦٥) فى المشرف .

(٦٦) فى بوابى الدير .

(٦٧) فى الأخوة المسافرين .

(٦٨) إذا ما تلقى الأخ أمراً مستحيلاً من الرئيس .

(٦٩) فى ألا يتكلف فى الدير أن يدافع الواحد عن الآخر .

(٧٠) فى ألا يتجرأ أحد أن يضرب الآخر .

(٧١) أن يطيعوا بعضهم بعضاً .

(٧٢) فى الغيرة الصالحة الواجب على الراهب أن يتحلى بها .

(٧٣) فى أنه لم ينص على كل العبادات فى هذا القانون .

هوامش

(١) أركان الرهبنة خمسة : العبادة لله ، والانفراد لها . العفة . والفقر الاختيارى . والطاعة . .. انظر القمص عبدالمسيح صليب : **تحفة السائلين فى أديرة رهبان المصريين** ص ٣٣

(٢) Griliomont. J: **in New Catholic Ency.** pp 1032-33

ـ السيد الباز العرينى : **مصر البيزنطية** ص ٢٥ – ٢٦

ـ ليب حبشى : **فى صحراء العرب والأديرة الشرقية** ص ٩ – ١٣

ـ عبدالقادر أحمد : **العصور الوسطى الأوربية** ص ٧٣

(٣) حكيم أمين : **دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية** ص ١ – ٣

ـ ليب حبشى : المرجع السابق ص ١٣ – ١٦

(٤) Palladius: **The Book of paradise.** pp. 184-85.

(5) Meinardus, F.A: **Manks and Monasteries of the Egyptian Deserts.** pp 384-85.

ـ حكيم أمين : المرجع السابق ص ٦ – ٧

(6) Eusebius: The history of the church. pp 278-79

ـ السيد الباز العرينى : المرجع السابق ص ٢٦ – ٢٧

ـ منسى القمص : **تاريخ الكنيسة القبطية** ص ٨٧

(7) Eusebius: op. cit.p 292-79

ـ منسى القمص : المرجع السابق ص ١١٤ – ١١٥

(٨) متى المسكين : **الرهبنة القبطية فى عصر القديس انبا مقار** ص ٤١ ، وللمزيد من التفاصيل عن حياة القديس بولا انظر — Palladius: op. cit. p 304-307.

(٩) يرى البعض أن أول النساك كان فرونتيوس (١٣٨ – ١٦١ م) عاش فى وادى النطرون واعتنق الرهبنة قبل انتشارها وعاش معه سبعون أخا بقصد التنسك . انظر :

ـ رؤوف حبيب : **تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر** ص ٣٥.

(١٠) انظر : إنجيل متى الاصحاح التاسع عشر الآية ١٩ : ٢١

(11) Athanasius: Archbishop of Alexandria. the life of Saint Anthony; in **The book of paradise** P. 6-9

ـ السيد الباز العرينى : المرجع السابق ص ٢٧ – ٢٨

ـ متى المسكين : المرجع السابق ص ٤٣

ـ رؤوف حبيب : المرجع السابق ص ٣٧٨ – ٣٨

(١٢) القلاية كلمة لاتينية الأصل cellula ومعناها منزل الراهب وجمعها قلالى وقلايات ، وقد تكون منحوتة فى الصخرة بفعل الطبيعة كما هو الحال بالنسبة لقلاية أنطونيوس وقلاية بولا أو مصنوعة بأيدى الرهبان أنفسهم . انظر : القمص صموئيل السريانى : **الأديرة المصرية العامرة** . ص ٣٥

(١٣) وردت حياة القديس أنطونيوس بقلم أثناسيوس بطرك الاسكندرية فى مجموعة **Patralogiae graecae cursus, ed. J.P. Migne** وترجمت إلى الانجليزية بمعرفة Wallis Budge فى كتاب **الفردوس (The Book of paradise)**

(١٤) يقال للدير «موناستيريوس» وهى كلمة يونانية للتعبير عن المؤسسات الرهبانية التى أقيمت فى الصحراء ، واستخدمت منذ بداية القرن الرابع للميلاد . وعندما بدأ باخوميوس نظام الشركة الكامل أطلق على الدير كنوبيون أو كنوبيوس وهى كلمة يونانية الأصل تتكون من مقطعين Koinos وتعنى مشترك و Bois وتعنى حياة أو معيشة إلا أن انتشار الكلمة الأولى كان أكثر ذيوعاً وأخذت بها معظم اللغات الغربية . وعندما انتشرت العربية فى بلاد المشرق المسيحى ترجمت كلمة «موناستيريوس» إلى دير وأطلقها النساك المسيحيون على مؤسساتهم الرهبانية فى اليمن والجزيرة والعراق . انظر :

ـ القمص صموئيل السريانى : المرجع السابق ص ١٣

ـ متى المسكين : المرجع السابق ص ٤٤

(15) Athanasius archbishop of Alexandria: op. cit p.23-25

— **Cambridge Medieval History** p.524

— Griliomont. J: in New catholic Ency., pp. 1033-34.

— **Farag. F. sociological and moral studies in the fields of coptic Monasticism p. 16-18.**

(16) Butler: op. cit. p. 233

القمص صموئيل السريانى : المرجع السابق ص ١٦

— Meinardus. F.A: op. cit. P 32

— Maloney. G. A: in New catholic Ency., p 997 Vol. 10

(17) Palladius: op. cit. p.82-85.

(١٨) نيتريا مدينة تقع فى وادى النطرون ، وقد سمى العرب والأقباط وادى النطرون الحالى بعدة أسماء منها : برية الأسقيط ، وبرية شيهات ، ووادى الرهبان ، ووادى الملوك ووادى هبيب : انظر : الأمير عمر طوسون : **وادى النطرون ورهبانه وأديرته** ص ٨ – ١٠

— White. H. E: **The Monastries of wadi-el Natrun**, pp. 4-3

(19) Palladius: op. cit: p. 143-148.

— Cassian J. **conférences**, No 64.

— Butler: op. cit. p. 233.

(20) Palladius: op. cit. p 577, **Dom Butler:** op. cit p 193

— Fedden. R. :**A study of the monastry of Saint Antony in estern desert** pp 22-23.

ـ منسى القمص : المرجع السابق

(٢١) قال آريوس أن المسيح مخلوق لا إله بمعنى هذه الكلمة المطلق . وقال أثناسيوس أن فكرة الثالوث المقدس تحتم

بأن يكون الإبن مساوياً للإله الآب تماماً فى كل شىء

(22) Palladius: op. cit p 225-227

(23) Palladius: op. cit p. 143-145.

— Butler: op. cit. pp. 233-234.

(24) Palladius: op. cit. p. 677.

— Butler: op. cit. p. 234.

(25) Palladius: op. cit. pp. 167, 614, 697, 716.

— Butler: op. cit p. 235.

— Loc cit.

(26) Loc cit

— عزيز سوريال عطية : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر ، رسالة مارمينا القبطية ص ١٧

— السيد الباز العرينى : المرجع السابق ص ٣٤

— حكيم أمين : المرجع السابق ص ٤٣

(٢٧) ذكر بلاديوس أن باخوميوس أخبره بأنه كان جالساً ذات يوم فى صومعته فجاءه ملاك وقال له : لقد أكملت نظامك ولا داعى أن تستمر فى هذه الصومعة ، واخرج واجمع الرهبان من حولك واسكنوا معاً ، وضع لهم القانون الذى سوف أعطيه لك ، ودفع الملاك إليه بلوحة الوصايا وجاء فيها : أن يترك كل راهب يأكل ويشرب حسبما يريد ، وكل راهب يعمل بقدر ما يستطيع وأن يأكل الرهبان معاً فى قاعة واحدة ، ويسكن كل ثلاثة فى صومعة .. الخ

انظر :

— Palledius: op. cit pp. 214-215

— القمص عبد المسيح صليب : المرجع السابق ص ٣٠ – ٣٢

— رؤوف حبيب : المرجع السابق ص ١٦١ – ١٦٢

— عن حياة الزهد والتقشف التى مارسها باخوميوس قبل تأسيس ديره انظر :

— palladius: op. cit: 621

(28) Ibid p 217

— حكيم أمين : المرجع السابق ص ٢٦

— رؤوف حبيب : المرجع السابق ص ١٦٦ – ١٧١ .

— Cambridge Medieval History, op. cit. p 524

(٢٩) قوانين القديس باخوميوس نقلها القديس جيروم راهب بيت لحم من اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية لكى يستفيد منها الرهبان الأجانب الذين كانوا فى أديرة مصر ويجهلون اللغة القبطية واللغة اليونانية : انظر :

— Patrologiae Latinae p 60-74 Vol 23.

وقد نقلها إلى اللغة العربية الأب جيوارفيو من النص الفرنسى الذى نقله الأب بلاسيد عن النص اللاتينى من القديس جيروم/ انظر الاب جيوارفيو : **قوانين الانبا باخوميوس أب الشركة** ص ٧ وما بعدها

(٣٠) اغريغوريوس : الدير المحرق ص

— Palladius: op/cit p 217

— Butler: op. cit p 235.

الاب جيوارفيو : المصدر السابق ص ١١

(٣١) كان الاعتقاد السائد لمدة طويلة أن مؤلف هذا التاريخ Monachorum in Aegypto هو الراهب روفينوس Rufinus غير أن العلامة الراهب بطلر أثبت بالدليل القاطع أن روفينوس لم يؤلف هذا الكتاب وإنما قام بترجمته من اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية وهذه الترجمة موجودة فى Patrologiae latinae, v. 21 p 393-465

— لمزيد من التفاصيل انظر :

— Butler: op. cit, Appendix, 2, pp 276-77

(32) Palladius: op. cit P. 216

— Butler: op. cit p 236

(33) Ibid. pp 237-38.

(٣٤) القمص صموئيل السريانى : المرجع السابق ص ٨٤ – ٨٥

(٣٥) لمزيد من التفاصيل عن حياة هيلاريون ، انظر :

— Patrologiae latinae' pp 29-52 Vol 21.

(٣٦) لمزيد من التفاصيل عن حياة روفينوس وزيارته لمصر ، انظر :

Patrologaie latin pp 49-52 Vol 21.

(37)Griliomont. J: in New catholic Ency., p 1021 vol 7

— Cambrige medieval History: op. cit p 526

(38) Griliomont. J., and Murphy. F.X. in New catholic Ency., pp 1021, 873 V. 7, 9.

(39) Butler: op. cit pp 240-241.

(40) Ibid pp 243-44

— Cambridge Medieval History: op. cit pp 527-28.

(41) Butler: op. cit p 245

— Combridge Medieval History: op. cit p 529

(42) Cambridge Medieval History: op. cit. p 529.

(43) Duckett. E. S: op. cit p 359.

— Cambridge Medieval History: op. cit p 532.

(44) Cambridge Medieval History: op. cit. p 532.

— The history of Medieval p. 121.

(45) Clercq. v.c: in New Catholic Ency., pp 296-97 v, 1 Cambridge Medieval History: op. cit 531.

— ابن المقفع : تاريخ البطاركة جـ ١ ص ٢٧

(46) Butler: op cit P 249.

عن حياة القديس مارتن : انظر :

— Gregory of Tours/The History of the Franks. pp 91-97

— Vie de Saint Martin: dans sources chrétiennes commentaire; p 1044 F.

(47) Butler: op. cit p 245

— سعيد عاشور : **تاريخ أوربا فى العصور الوسطى** ص ١٥٣

— Butler: op: cit p 245.

— Guire. M.R.: op. cit pp 303-304
(48) Dictionnaire d' Histoire et Geographie ecclesiastiques. p 1319-326 Vol 11
— Cassien. J. institutions cénolitiques: dans sources Chretiennes, No 9 introducion. pp 7-8
— Butler: op cit. pp 245-46.
— Duckett. E. S: The Gateway to the middle ages p 359
(49) Cassien. j. op. cit p 30-33.
— Butler: op cit. p 245
(50) Loc cit, cassien, J. ConFérences No 64 Sources Chretiennes pp 184-85
(51) Dictionnaire d'Histoire: op. cit. p 1344.
(52) Ibid. pp 1344-345.
(53) Thorndike. L:The history of Medieval Europe I 121.
— Combridge Medieval History: op. cit pp 534-35.
— إدوارد جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية ص ٣٢٢
(54) Duckett. E.S. op. cit p 391, 93, 970, 403-404.
— Ibid: p. 412, 415-416.
(56) Duckett. E. S: op cit. pp 412-413.
— Ibid pp 413-414.
(57) Ibid pp. 413-414.
(58) Butler: op. cit. p 247.
(٥٥) يرى بعض المؤرخين أن كاسيودورس لم يكن راهباً رغم أنه أسس دير فيفاريوم ووضع نظامه وعايش رهبانه . انظر :
— Dictionnaire d' Histoire op. cit, p 1361-63
(59) Corpvs christianorvm, series latina X cvl magni Avrelii cassiodori. p. 307.
— The New Ency. Britannica vol, 2 P 616.
— La grand Ency. vol, p 710
— علي الغمراوي : مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبي الوسيط ص ١١٠
(60) Dictionnaire d' Histoire. op cit p 1355.
(61) Corpvs christianorvm. op. cit introduction pp 504-505
— Dictionnaire d' Histoire: op. cit pp 1355-56
(62) Corpvs christianorvm: op. cit p 505.
— Dictionnaire d' Histoire: op cit pp 1355-57.
(63) Sellery. G Medieval Foundations of western civilization pp 55.
— Dictionnaire d' Histoire: op. cit pp 1357-358.
— علي الغمراوي : المرجع السابق ص ١١٠
(64) Duckett. E.S: cit pp 377-78.
— Murphy. F. X. in New Catholic Ency. p. 189.
(65) Duckett: op cit pp 381-82

(66) Ibid P 389.
(67) The New Ency. Britannica. p 616 Vol 2.
— Murphy F.X: in New Catholic Ency. p. 184
— Duckett. E.S: op. cit p 387.
(68) Duckett. E.S: op. cit p 387
(69) New Cotholic Ency: op. cit p 184.
— Duckett. E. S: op. cit p, 388.
(70) Butler: op. cit p 251, Duckett. E. S: op cit p 378 Stephenso, C: Medieval History of Europe from the second to the Sixteenth century, pp 73-74
— عبد القادر أحمد اليوسف : العصور الوسطى الأوروبية ص ٧٣ - ٧٤
(71) La regle de saint Bendict Source chretiennes No 182, pp 672-73.
(72) Stephenson. C: op. cit p 79.
— Butler: op cit p 252
— سعيد عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ص ١٥٥
73 Tierney, B:Source of Medieval History: p. 74.
(74) La regle de saint Bendict: op. cit p 610.
— Tierney: op. cit p. 181.
75 Palladius: op. cit pp 186-187.
(٧٦) الآب جيرارفيو : المصدر السابق ص ٢٠
(77) La regle de saint Bendict: op. cit pp. 567-77
— Tierney, B.:op. cit pp 78-80
— الاب جيرارفيو : المصدر السابق ص ١٢
(٧٨) ويقول باخوميوس (يجب على الراهب أن يتعب نفسه فى مرقده لأن روح الزنا تقفز على الرجل بشدة لاسيما إذا رقد منفرشا ممتداً) انظر :ط بستان الرهبان عن أباء الكنيسة القبطية ص ٣٦ ·
La regle de saint Bendict: op. cit P 618-623
— Butler, D: op. cit P 253
(80) Tierney. B: op. cit p 78.
(81) La regle de saint Bendict. op. cit p, 598-605.
(٨٢) الاب جيرارفيو : المصدر السابق ص ٣٣ ، ٣٤
83 La regle de saint Bendict: op. cit pp 536-37, 610-11
— Butler: op. cit pp 253-54.
84 Palladius: op. cit p. 210.
(85) La regle de saint Bendict: op. cit p 604-607, 543-47
سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ص
— Butler: op. cit p. 255.
(٨٦) الاب جيرارفيو : المرجع السابق ص ٢٠ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤١
— عزيز سوريال : المرجع السابق ص ٢٥ - ٢٦

(87) La regle de saint Bendict: op. cit No 181- p.p 440-55, 464-69.

— Tierney: op. cit. p 76-77, 87-81.

(٨٨) طبق نظام المركزية فى أديرة غرب أوروبا عندما انحل وتدهور النظام البندكتى وقامت حركة الاصلاح الكلونية فى القرن العاشر الميلادى . انظر :

ـ سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٣٠ - ٣١

(٨٩) لمزيد من التفاصيل عن الطاعة فى الرهبنة المصرية : انظر :

— Palladius: op. cit p 661-666

(٩٠) الاب جيرارفيو : المصدر السابق ص ١٢ ، ٣٧ ، ٣٩ ، الدير المحرق ص ٢٩

(٩١) عزيز سوريال : المرجع السابق ص ٢٨

(٩٢) الاب جيرارفيو : المصدر السابق

(93) La regle de saint Bendict: op. cit p 455-477-79 -Butler: op. cit p 254-56.

(٩٤) تمت ترجمة هذا الفهرس من اللغة اللاتينية إلى العربية وتوجد نصوص هذه القوانين وترجمة فرنسية لها فى مجموعة

Sources chrétiennes, no. 181, 182, series des textes monastiques d' occident, p. 426-437 (Paris, 1972.)

مصر الفاطمية وعالم حوض البحر المتوسط

د. عطية القوصى

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بآداب القاهرة

لقد تسابقت الدول العظمى ، على مر عصور التاريخ ، فى السيطرة على حوض البحر المتوسط وإخضاعه لنفوذها ، وذلك لتحقيق السيادة الاستراتيجية العالمية والتفوق الاقتصادى ، نظراً لكون هذا البحر حلقة الاتصال الرئيسية بين قارات العالم القديم وطريق التجارة الهام الموصل بين الشرق والغرب . وبسبب هذا التسابق : دخل عالم حوض البحر المتوسط فى لعبة السيادة والتفوق العالمية ، الأمر الذى جعله ميداناً رئيسياً مستمراً لصراع مراكز القوى الدولية والعالمية .

وفى العصور الوسطى ، دخلت مصر الفاطمية ، لعبة السيادة على حوض البحر المتوسط لمدة قرن من الزمان ، وبالتحديد من منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى وحتى منتصف القرن الخامس . ولقد فرض عليها موقع دولتها وظروف قوتها هذا التدخل ؛ فهى تشرف على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية لهذا البحر بحكم سيطرتها على مصر والشام ، كذلك فقد كانت تعد هى والدولة البيزنطية أكبر قوتين عالميتين رئيسيتين آنذاك يهمهما فرض السيادة على حوض هذا البحر .

ولقد نجحت الدولة الفاطمية فى إحراز السيادة الكاملة على حوض البحر المتوسط ، طيلة هذا القرن ، مستعينة ، فى تحقيق ذلك ، بقوتها العسكرية البحرية والبرية فى شرق حوض هذا البحر ، وبقوة حلفائها المغاربة البرية والبحرية فى حوض هذا البحر الغربى ، ومستفيدة من الظروف السيئة التى مرت بها آنذاك غريمتها الدولة البيزنطية .

ولقد شهد عالم حوض البحر المتوسط أثناء هذه السيادة الفاطمية ازدهاراً اقتصادياً ورواجاً تجارياً وتقدماً حضارياً ، وجاء ذلك انعكاساً للازدهار الاقتصادى والحضارى

الذى عاشته مصر فى النصف الأول من عهد حكم الفاطميين لها ، وتعد هذه الحقبة ، بحق ، العصر الذهبى لاقتصاد كل شعوب هذا البحر مسلمين كانوا أم مسيحيين .

ومع بداية النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ، بدأت السيادة الإسلامية تنحسر عن حوض البحر المتوسط ، وأخذت بيزنطة وحلفاؤها اللاتين يستردون سيادتهم على حوض هذا البحر ، وذلك بسبب ضعف الدولة الفاطمية الاقتصادى والعسكرى آنذاك ، وانهيار مقاومة حلفائها من مسلمى العرب أمام قوة المسيحيين الناشئة . وما أن أطل القرن السادس الهجرى برأسه حتى صارت للأوربيين الغربيين السيطرة التامة على الحوض الغربى للبحر المتوسط وكذلك مدوا أعناقهم للحوض الشرقى ، وصارت بلاد الدولة الفاطمية نفسها ومعاقلها هدفاً للهجوم الأوربى الذى عُرف فى التاريخ بالحروب الصليبية . وبدون شك كانت لهذه التغيرات فى مسألة السيادة على حوض البحر المتوسط آثارها السياسية والعسكرية والاقتصادية السيئة على سكان هذا الحوض عموماً ، المسلمين منهم والمسيحيين .

الوضع السياسى فى عالم حوض البحر المتوسط غداة قيام دولة الفاطميين فى مصر والشام

كانت السيادة البحرية على عالم حوض البحر المتوسط ، قبل الإسلام ، فى يد الدولة البيزنطية ، وكان البحر المتوسط كله بحيرة رومانية . ومع الفتح العربى الإسلامى لبلاد حوض هذا البحر بدأت مياهه تتحول إلى مياه إسلامية ، وأخذ زمام السيادة فيه يتحول من أيدى البيزنطيين إلى أيدى المسلمين . ومع حلول القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى أصبح التفوق فيه للمسلمين بعد نجاحهم فى الاستيلاء على جزيرتى صقلية وكريت .

ولقد استمات البيزنطيون ، فى هذا القرن ، من أجل الابقاء على هذه السيادة فى أيديهم ؛ فحاربوا عدوهم الإسلامى فى حوض البحر الشرقى وفى حوضه الغربى ، وحاولوا استرداد كريت بإرسال حملة بعد أخرى لطرد المسلمين منها دون جدوى . كذلك حاولوا فرض سيادتهم على شواطىء جنوب إيطاليا وبلاد اليونان وعلى البحر الأدرياتى[١] .

وبارتحال الفاطميين من المغرب إلى مصر ، فى بداية النصف الثانى من القرن الرابع

الهجرى ، ونجاحهم فى أن يرثوا مُلك الإخشيديين فى مصر والشام ، نجحوا فى وصل قوة الإسلام البحرية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط مع قوة الإسلام البحرية فى حوضيه الأوسط والغربى[٢] . وبذلك أصبحت لهم ولحلفائهم من مسلمى الغرب السيطرة الكاملة على حوض هذا البحر[٣] .

وكان الخليفة الفاطمى ، المعز لدين الله ، حين نزح بقواته البحرية والبرية إلى مصر ، قد قام بتقسيم ممتلكات الفاطميين فى الغرب بين حليفين له رئيسين : الكلبيين الذى جعلهم نواباً عنه على صقلية ، وبنى زيرى الصنهاجيين الذين جعلهم نواباً عنه فى حكم المغرب . وإضافةً إلى هاتين القوتين الرئيسيتين فى الغرب الإسلامى ، ظهرت قوتان إسلاميتان أخريان إحداهما حكمت فى طرابلس الغرب والأخرى أسرة بنى حماد ، التى حكمت فى الجزائر . وقد ظلت هذه القوى محافظة على تفوق السيادة الإسلامية على غرب حوض البحر المتوسط مدة القرن الذى شهد ازدهار قوة دولة الفاطميين العسكرية والاقتصادية . أما عن دولة الأمويين فى الأندلس ، فإنها ظلت محافظة على سيادتها على سواحلها برغم بداية فقدها لقوتها البحرية العظيمة آنذاك . ومن الجدير بالذكر أن مسلمى الأندلس لم يتطلعوا إلى السيادة على حوض البحر المتوسط ، إلا فى فترات قصيرة من حكمهم ، أما طوال عهد الإمارة والخلافة فقد كانت عنايتهم بالبحر المتوسط عناية دفاع لا عناية غزو ؛ ومن هنا لم يكن للأندلس أثر كبير على الموقف العام فى البحر المتوسط عدا تحول شواطئه إلى شواطىء إسلامية والعمل على استمرارها كذلك[٤] .

ولقد واجهت القوة البحرية الفاطمية القوة البحرية البيزنطية وجهاً لوجه فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط بعد انتقال الفاطميين إلى مصر ، كذلك وسع مسلمو المغرب وصقلية هجومهم على السواحل والمدن الإيطالية .

وكان الأسطول الفاطمى قد سيطر سيطرة تامة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، على حساب البيزنطيين ، باستخلاصه جزيرة كريت من أيديهم سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م ، وجزيرة قبرص سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م وكل جزر الحوض الشرقى[٥] . كذلك قام هذا الأسطول باستخلاص أنطاكية سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م . وانتهز الفاطميون تراخى الامبراطور البيزنطى « حنا تزيمسكس » وانشغاله بالحرب مع الروس عند البحر الأسود ، ووسعوا هجومهم فى سوريا واستولوا على معظم ممتلكات البيزنطيين بها . وبرغم نجاح هذا الامبراطور فى استرداد بعض هذه الممتلكات ، إلا أن الفاطميين نجحوا بعد وفاته بعامين (٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م) فى استرداد كل الأراضى السورية التى وقعت

فى يد البيزنطيين ما بين أنطاكية وحلب وذلك بفضل تدعيم قوتهم البحرية . ولم تستطع بيزنطة فى عهد الامبراطور باسيل الثانى أن تعاود سيطرتها على البلاد الشامية . وأرسل هذا الامبراطور سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م يطلب الصلح مع الفاطميين ؛ فقدمت رسله إلى بلاط الخليفة العزيز بالله الفاطمى تحمل له الهدايا وتطلب المصالحة . وقد تم التصالح بين الطرفين على أن يظل السلام بينهما مدة سبع سنوات[٦] .

وبرغم أن الامبراطور باسيل الثانى (٣٦٥ – ٤١٥ هـ/ ٩٧٥ – ١٠٢٥ م) نجح فى أن يعيد للامبراطورية سلامها ووحدتها إلا أن الأسطول البيزنطى ضعف تماماً فى عهده وعجز عن مواجهة السفن الفاطمية فى البحر المتوسط[٧] ، وقد جاء هذا الضعف نتيجة فقده معظم قطعه فى اخماد الثورات الداخلية والحرب مع الروس ، لذلك لم يتعرض الأسطول البيزنطى للأسطول الفاطمى وتركه يصول فى مياه البحر المتوسط الشرقية ويجول طوال العشرين سنة التالية .

ولم يركن الفاطميون إلى ضعف الأسطول البيزنطى فى مياه البحر المتوسط ويهملوا الاهتمام بتدعيم قوتهم البحرية فى هذا البحر ؛ بل على العكس من ذلك نجد الخليفة العزيز يأمر بصنع ستمائة سفينة جديدة كبيرة الحجم بدار الصناعة بالمقس لتضاف لقطع الأسطول القائم . وبرغم تعرض بعض قطع هذا الأسطول الجديد لحريق نسب إلى وكلاء وعملاء البيزنطيين فى العاصمة المصرية ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من مواصلة بناء السفن رغم نقص الخشب عندهم[٨] وامتناع تجار البندقية من حمل خشب السفن إليهم[٩] .

ولقد حاول الامبراطور البيزنطى استغلال ما حل بالأسطول الفاطمى فهاجمت سفنه سواحل الشام واستولت على حمص وبعلبك وهاجمت طرابلس ، ولكن باقى قطع الأسطول الفاطمى تصدت لسفنه وأوقعت بها هزيمة ساحقة عند ساحل عكا سنة ٣٨٩ هـ/ ٩٩٨ م . ونجحت هذه السفن فى فك الحصار عن طرابلس واستردت حمص وبعلبك ، واضطر الأسطول البيزنطى إلى الانسحاب عن ساحل الشام[١٠] مسلماً بسيادة الأسطول الفاطمى على مياه الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وانسحب البيزنطيون ، نتيجة لهذه الهزائم ، إنسحاباً مؤقتاً عن مياه البحر المتوسط صارفين نظرهم إلى غزو بلاد البلغار ، وأهملوا تبعاً لذلك ، أمر أسطولهم تماماً فى البحر المتوسط مدة ستين عاماً تاركين السيادة التامة فى الحوض الشرقى لهذا البحر للأسطول الإسلامى الفاطمى وقوته الضاربة[١١] .

ولقد تحدث المقريزى فى خططه عن قوة البحرية الفاطمية فى عصر دولتها الأول فى حوض البحر المتوسط ، وعن اعتناء خلفاء الفاطميين بأمر الأسطول حيث قال : « وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قام المعز لدين الله وأنشأ المراكب الحربية واقتدى به بنوه ، وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد واعتناء بالأسطول وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر واسكندرية ودمياط[١٢] » . كذلك أضاف بأن عدد سفن الأسطول الفاطمى فى عهد خلافة المعز بلغت ما يزيد على ستمائة قطعة بحرية ، تضاعف عددها فى أيام الخليفة العزيز . ووصف ناصرى خسرو سفينة من سفن المعز الحربية التى شاركت فى فتح مصر وذكر أن طولها بلغ ٢٧٥ قدماً فى عرض ١١٠ قدماً[١٣] . كذلك أكد ابن خلدون فى مقدمته على أن الفاطميين سيطروا بأسطولهم القوى سيطرة تامة على حوض البحر المتوسط[١٤] ويروى القلقشندى[١٥] أن وحدات الأسطول الفاطمى كانت مرتبة بعناية بجميع الشواطىء الساحلية المصرية والشامية على حوض هذا البحر . ولقد خصصت الدولة الفاطمية جزءاً كبيراً من ميزانيتها للنفقة على إعداد أسطولها القوى فى مياه البحر المتوسط وتجهيزه بما يحتاج إليه من أدوات الحرب أو من الرجال المقاتلين . كذلك بلغ من اهتمام هذه الدولة بالأسطول أنها خصصت له ديواناً خاصاً للنظر فى أمره عُرف بديوان الجهاد أو « ديوان العمائر » ، وكان يقوم بالاشراف على عمليات بناء المراكب وتجهيزها فى دور الصناعات بالعاصمة أو بمدن مصر الأخرى ووضع النفقة للرجال العاملين فيها[١٦] .

وقد ساند هذه الأساطيل فى البحر جيش برى قوى ، ويروى المقريزى ، أن الجيش الفاطمى كان ، فى عصر دولتهم الأول ، من أقوى الجيوش التى وطئت مصر بعد جيش الاسكندر المقدونى ، وأنه كان من عادة الفاطميين إنزال العساكر فى مراكز الحدود (الثغور) فى دمياط وتنيس ورشيد والفرما وعيذاب وأسوان والاسكندرية[١٧] كذلك لاحظ ناصرى خسرو ، أثناء قيامه برحلته فى بلاد العالم الإسلامى[١٨] ، وجود حامية مسلحة تسليحاً قوياً فى تنيس على البحر المتوسط تسهر على حمايتها من هجمات العدو . وقد كان الجيش الفاطمى معداً بتسليح كامل للحرب . فزيارة واحدة لخزائن السلاح فى عهدهم تبين لنا مدى أهمية هذه الخزائن للجيش الفاطمى[١٩] .

ولقد انعكس صدى قوة الأسطول الفاطمى فى مياه الحوض الشرقى للبحر المتوسط وضعف الأسطول البيزنطى فى هذه المياه على مسرح الأحداث فى الحوض الغربى لهذا البحر فشهدت الشواطىء الإيطالية هجوماً متزايداً من مسلمى صقلية الكلبيين ،

وتُركت هذه الشواطىء تواجه بمفردها هذا الهجوم الإسلامى الواسع عليها . وكان الكلبيون قد انتهزوا هذه الفرصة وقاموا بشن غارات متلاحقة على الساحل الإيطالى ، فهاجموا سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م مدن كالابريا وأبوليا وجرافينا الإيطالية . وعاودوا الهجوم بعد ذلك بعامين على كالابريا ، كذلك هاجموا تارينتوم وأترانتو وأوريو[٢٠] .

وحاول الامبراطور الجرمانى أوتو الأول الدفاع عن جنوب إيطاليا ضد المد الإسلامى فلم يستطع ، ولمّا طلب من البندقية أن تساعده بأسطولها لم تجبه البندقية إلى طلبه وتخلت عنه فى أحرج الأوقات ، وعندما خرج يائساً بسفنه لمحاربة المسلمين سنة ٣٧٢ هـ/ ٩٨٣ م لقى الهزيمة القاسية على يد سفن الكلبيين .

ووسعت بحرية مسلمى صقلية هجومها على المدن الإيطالية ، فهاجمت سنة ٣٧٥ هـ/ ٩٨٦ م كالابريا للمرة الثالثة . وفى العام التالى هاجمت كوزنزا ، ثم هاجمت بارى ثلاث هجمات متتالية سنوات ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ هـ . وزاد مسلمو صقلية من ضغطهم على المدن الإيطالية ، حين وصلتهم أنباء هزيمة الأسطول البيزنطى أمام الأسطول الفاطمى عند سواحل الشام فهاجموا سنة ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٢ م داخل إيطاليا واستولوا على بنيفينتيوم ، وفى سنة ٣٩٤ هـ/ ١٠٠٣ م استولوا على بارى ، الأمر الذى أزعج البنادقة .

وعاود مسلمو صقلية هجومهم على الشواطىء والمدن الإيطالية الجنوبية ، فهاجموا بيزا سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م ، كذلك هاجموا كالابريا للمرة الرابعة سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م واستولوا على كوزنزا[٢١] ، وعاودوا الهجوم على بيزا بعد ذلك بعامين . وهاجمت سفنهم مدينة سالرنو سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م وتصدى لهجومهم آنذاك النورمان الذين ظهروا لأول مرة على مسرح الصراع عند مياه جنوب إيطاليا[٢٢] .

ونتيجة للتفوق البحرى الإسلامى فى حوض البحر المتوسط ، أُغلق البحر الأبيض الغربى فى وجه سفن أوربا الغربية ، فامتنع ركوب البحر على أهل غالة وشرق إيطاليا فى عهد دولة الكارولنجيين ، وكان لهذا آثاره البعيدة فى أحوال أوربا الاقتصادية والاجتماعية فى ذلك الوقت[٢٣] .

الوضع السياسى فى عالم حوض البحر المتوسط فى عصر دولة الفاطميين الثانى

مع بداية النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ، أخذ

الضعف يدب فى دولة الفاطميين وفى بلاد العالم الإسلامى الواقعة على حوض البحر المتوسط فى الشرق والغرب وكان لهذا الضعف أكبر الأثر فى زوال السيادة الإسلامية من على عالم حوض البحر المتوسط وتحولها إلى دول الغرب المسيحى .

وكانت مصر الفاطمية قد أخذت فى الضعف السياسى والتدهور الاقتصادى على عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) وفى عهد خلفائه من بعده ، وعانت مصر المزيد من الضعف والاضطراب على يد عساكر السودان والترك والبربر حتى نهاية دولة الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م .

كذلك ضعفت دولة بنى زيرى فى المغرب حين زال سلطان الفاطميين عنها وتعرضت لغزوات البيزنطيين وهجوم عرب بنى هلال وغزو المرابطين . وكان الجفاء بين القيروان والقاهرة فى العلاقات قد بدأ بينهما عقب موت المعز بن باديس الصنهاجى ، ووصل هذا الجفاء إلى أقصى مداه حين أعلن بنوزيرى الصنهاجيون خروجهم عن الولاء للفاطميين ، واعترافهم بالتبعية للخلافة العباسية سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٧ م[٢٤] . وقد حذت كل مدن المغرب الأوسط والأقصى حذو الزيريين فى خلع طاعة الفاطميين وإعلان التبعية والولاء للعباسيين ولم يستطع الخليفة الفاطمى الضعيف المستنصر بالله أن يتخذ أى إجراء فعال ضد ذلك الخروج عن طاعته سوى إرسال قبائل بنى هلال وبنى سليم البدوية إلى المغرب سنة ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢ م لتخريب دولة بنى زيرى . ولقد انساح هؤلاء العربان فى بلاد المغرب يخربون ويدمرون فيها ، ونجحوا ، بالفعل ، فى تحقيق رغبة الخليفة الفاطمى ، لكنهم نجحوا ، فى نفس الوقت ، فى خلق حالة من الفوضى وعدم الاستقرار فى كل مدن الساحل المغربى على طول البحر المتوسط[٢٥] . ولقد مهد هذا الغزو البدوى الطريق للبيزنطيين لغزو الساحل المغربى ، كذلك مهد الطريق لقبائل البربر القادمة من الصحراء المغربية لتكوين دولة المرابطين التى ضمت بلاد المغرب والأندلس فى دولة واحدة[٢٦] .

ولقد حذا أمراء صقلية الكلبيون حذو بنى زيرى الصنهاجيين فى التحول عن الخلافة الفاطمية وقطع العلاقات معها ، حتى أنهم طلبوا المساعدة من بنى زيرى حين تعرضت جزيرتهم للهجوم البيزنطى سنوات ٤٣٠ و ٤٣٦ هـ ولم يطلبوها من الفاطميين وقد سارع الأمير الصنهاجى المعز بن باديس بإرسال تلك المساعدة لصقلية فأرسل أسطولاً قوامه أربعمائة سفينة لمساعدة الصقليين ضد الغزو البيزنطى لكن هذا الأسطول تحطم لسوء الحظ ، عند جزيرة بانتلريا وغرق سنة ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٢ م ، وذلك بسبب

هبوب رياح شديدة اعترضت طريقه . وحين تعرضت صقلية ثانية للغزو البيزنطى لم يدافع عنها بنو زيرى بسبب انشغالهم فى صد هجمات عرب بنى هلال عن أراضيهم . ولقد التقطت صقلية أنفاسها حين انسحبت القوات البيزنطية الغازية عن شواطئها ، بسبب المشاكل التى تعرضت لها فى الداخل عقب وفاة الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى . وكانت صقلية قد وصلت إلى حالة شديدة من الضعف آنذاك بسبب الصراع المرير الذى كان دائراً على مسرحها بين العرب والبربر .

ولقد وصف التغير والضعف الذى أصاب قوة عالم البحر المتوسط الإسلامية اثنان من كبار المؤرخين المسلمين[٢٧] ، ففى سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢ م شكى ابن حوقل من أن الروم أهانوا المسلمين بهجومهم على شواطىء البحر المتوسط واستيلائهم على سفنهم ومصادرة تجارتهم . وكتب بعده المقدسى ، بخمس عشرة سنة ؛ يشكو من نفس الشكوى ويقول أن قبرص التى كانت تحمى الشام ، وكريت التى كانت تحمى مصر ، وصقلية التى كانت تحمى المغرب من الروم قد ضاعت من يد المسلمين بعد انتصار الروم عليهم وقد قصد بالروم البيزنطين والإيطاليين[٢٨] .

ومما يجدر ذكره أن الضعف فى البحر المتوسط آنذاك لم يكن قصراً على القوة الإسلامية ، بل شمل أيضاً القوة البيزنطية . وكان الحال فى بيزنطة فى ذلك الوقت مماثلاً تقريباً فى أحداثه للحال فى بلاد العالم الإسلامى . فلقد ورث الامبراطور البيزنطى المعمر قسطنطين التاسع (مونوماخوس) الذى حكم الامبراطورية من ١٠٤٢ م حتى ١٠٥٥ م مشاكل الامبراطورية ومتاعبها ، وكان عليه مواجهة الاضطراب فى داخل الدولة ومواجهة خطر الأتراك السلاجقة فى الخارج ؛ هذا الخطر الذى ظهر على طول حدود دولته الشرقية وازداد مع نهاية حكم البيت المقدونى . فبسبب ذلك ، وبسبب فقدانها السيطرة على التجارة الخارجية التى تحولت إلى يد البندقية ، سقطت الدولة البيزنطية فى الفوضى والاضطراب واستتبع ذلك حروب أهلية وخلافات عائلية على الحكم . وجاءت الطامة الكبرى على الامبراطورية بهزيمتها فى معركة فنريكرت (ملاذكرد) على يد السلاجقة وتحطيم جيشها وأسر امبراطورها رومانوس الرابع . وفتحت هذه الهزيمة القاسية باب آسيا الصغرى على مصراعيه أمام السلاجقة ليعيشوا فيها مثلما فعل بنو هلال فى المغرب . وسقطت ، تبعاً لذلك ، منطقة الأناضول فى يد السلاجقة وهددوا العاصمة نفسها ، وحين وصل اليكسيس كومنين إلى الحكم سنة ١٠٨١ م وجد امبراطورية ممزقة ودولة محتلة من عناصر قبلية كثيرة .

وقد أعطى هذا الضعف والاضطراب ، الذى أصاب مصر الفاطمية والمغرب والأندلس الإسلامية والدولة البيزنطية ، الفرصة لشعوب غرب أوربا أن تنهض وتصول فى ميدان حوض البحر المتوسط وأن تكون لها السيادة فيه . ولقد استفاد لاتين الغرب من هذا التغيير الخطير فى موازين القوى فى حوض هذا البحر ، فما كاد القرن الخامس الهجرى ينصرم إلا وكان الغرب اللاتينى مسيطراً فى حوض هذا البحر : على جزر كورسيا وسردينيا وصقلية وعلى مدن جنوب إيطاليا وسواحل الشام ، وصار هو المتحكم الوحيد فى طريق التجارة العالمية ما بين الشرق والغرب .

ولقد استطاع مغامرو إقليم بروفانس من عناصر البتوتون ، بعد أن عبروا الألب إلى إيطاليا ، من تطهير شواطىء بروفانس من هجمات رجال البحر المسلمين[٢٩] . كذلك نجحت أساطيل جنوة والبندقية فى هزيمة بقايا القوة البحرية الأندلسية ، وبعد أن اكتشفت مغانم القرصنة دفعت بسفنها عبر البحر المتوسط لممارسة القرصنة ضد الشواطىء الإسلامية على حوض البحر المتوسط . فى نفس الوقت نجحت البندقية ، بعد أن استكملت قوتها ، فى تحويل البحر الأدرياتى إلى بحيرة بندقانية ، وقاموا بتطهير أبوليا من رجال البحر المسلمين وأخضعوا لسيادتهم مدن الساحل الدلماشى . ومع حلول عام ١٠٤٣ م أصبح هؤلاء الإيطاليون الجنويون القوة البحرية الوحيدة الفعالة فى حوض البحر المتوسط ، وإليهم صار ينتسب نشاط المستقبل البحرى فى حوض ذلك البحر[٣٠] .

وكانت قوة غربية أخرى قد بدأت آنذاك فى الظهور عند مدخل البحر الأدرياتى ، وهى قوة النورمان . وكان أول ظهور النورمان فى تلك المنطقة سنة ١٠١٦ م ، ومع حلول عام ١٠٤٠ م كونوا لأنفسهم قوة ضاربة فى أبوليا . وفى سنة ١٠٦١ م أرسل الملك النورماندى روجرز تنكرد قواته واحتل مسينا ثم تقدم جنوباً بهدف مهاجمة صقلية الإسلامية .

وكان مسلمو صقلية قد تخلصوا آنذاك من الخطر البيزنطى ، وما كادوا يستردون أنفاسهم حتى هاجمهم الغزو النورماندى الذى أجهز عليهم . وقد لقيت القوات الإسلامية على يد النورمان هزيمة ساحقة قرب مياه كاسترو جيوفانى . ولم يواصل النورمان زحفهم على صقلية بسبب بعض المشاكل الداخلية التى عنت لهم داخل إيطاليا .

ولقد أرعب الغزو النورماندى مسلمى صقلية فطلبوا العون من المهدية سنة ١٠٦٣ م[٣١] ، وأرسل الأمير الصنهاجى بعض قواته ، فى العام التالى ، لدفع الخطر

الخارجي عن الجزيرة . وبعد استقرار دام أربع سنوات لهذه القوات المغربية فى جزيرة صقلية انسحبت عنها ، نتيجة للخلاف الذى وقع بين رجالها وأهل صقلية ، تاركة الجزيرة تواجه بمفردها الغزو النورماندى .

وفى عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م قام روبرت جوسكارد النورماندى بمهاجمة الجزيرة ، بعد أن احتل بارى آخر معاقل البيزنطيين فى إيطاليا ، على رأس جيش كبير وأسطول قوامه ٥٦ سفينة . ونجح الأمير النورماندى فى فتح العاصمة بالرمو براً وبحراً لتسقط فى يده دون أن يهرع أحد لنجدتها[٣٢] . وبسقوط العاصمة تتابع سقوط بقية مدن الجزيرة لتصبح جميعها فى يد النورماند سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩٠ م[٣٣] .

وبعد سقوط صقلية استولى النورمان ، فى نفس العام ، على جزيرة مالطة . وباستيلاء النورمان على مالطة سيطر الغرب اللاتينى على معابر المرور الرئيسية فى البحر المتوسط بين شمال أفريقية وصقلية . ولقد استفاد تجار إيطاليا من هذا الوضع الجديد فى منطقة وسط حوض البحر المتوسط بأن أحرز هؤلاء الإيطاليون الامتيازات الخاصة فى جزيرة صقلية . وقد سمحت لهم هذه الامتيازات بالمشاركة فى عائد التجارة الدولية ، كذلك شاركوا فى عائد الصناعة التى سبق أن أقامها المسلمون أصحابها على ظهر هذه الجزيرة مدة قرون عديدة .

ولقد صاحب غزو النورمان لصقلية غزو آخر لهم مشابه عبر البحر التيرانى . فقبيل أن يتم اسقاط صقلية نهائياً ، قام روجرز بفتح نابلى وغيطة وسالرنو وأمالفى من مدن كمبانيا ، وكذلك قبلت أمالفى التبعية للنورمان سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م ، وأتم النورمان أيضاً فى نفس الوقت ، قبضتهم على سالرنو[٣٤] .

وفى الوقت الذى كان فيه روجرز يبنى قوة النورمان على الساحل الغربى لإيطاليا وفى صقلية ، كان أخوه الأكبر روبرت يواصل نشاطه عند ولماشيا على الساحل الشرقى . لكن أسطول البندقية اعترض هنالك توسعات روبرت ، لذلك حول نشاطه نحو الجنوب الإيطالى فى ممتلكات بيزنطة هناك . ولكن البندقية تصدت له ثانيةً ، وقد كانت البندقية كارهةً فى قيام قوة فعالة مناهضة لها على جانب مدخل بحر الأدرياتيك لذلك وقفت البندقية تساند بأسطولها ، بحزم ، القوة البحرية البيزنطية هناك ضد القوة النورماندية المنافسة . ولمَّا وقع الاحتكاك بين الأسطول البندقانى والأسطول النورماندى ، نجح أسطول البندقية ، المكون من سبعين قطعة بحرية ، فى إيقاع الهزيمة الثقيلة بالأسطول النورماندى ، المكون من ١٢٠ سفينة ، مرتين ؛ الأمر الذى أجبر النورمان على

الانسحاب من هذه المياه ، والاعتراف بالسيادة فيها لأسطول البندقية .

وفى مقابل وقوف البندقية بأسطولها إلى جانب الأسطول البيزنطى فى حربه ضد النورمان تسلمت البندقية مكافأة عظيمة من امبراطور بيزنطة ، تمثلت فى إصدار تعهد امبراطورى قطعه الامبراطور على نفسه فى سنة ١٠٨٢ م ، بأن يمنح سفن البندقية اعفاءً كاملاً من كل الرسوم التى كانت تدفعها سفنها فى موانى الامبراطورية فى بحر إيجه والمتوسط ، فيما عدا الرسوم التى تُدفع فى جزيرتىْ قبرص وكريت ، إضافة إلى إشراف البندقية على وكالات أمالفى فى العاصمة البيزنطية وانتقال تبعيتها إليها[٣٥] ، وقد عُرف هذا التعهد باسم Quid pro quo وبمقتضى هذا التعهد صار للبندقية حق السيطرة على كل تجارة الامبراطورية البيزنطية الخارجية فى موانىء البحرين الأسود والمتوسط . وبذلك بلغ النفوذ البندقانى قمته فى المياه البيزنطية ، وكانت بداية هذا النفوذ قد تحققت فى القرن الثامن الميلادى .

ولقد أدى وجود قوة النورمان فى إيطاليا وصقلية والبحر الأدرياتى ، وازدياد قوة بيزا وجنوة القتالي فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وبداية نشاط الاقطاعيين والمغامرين الشبان الفرنسيين على سواحل الأندلس ، فضلاً عن ازدهار القوة البندقانية الضاربة فى المياه البيزنطية ، أدى ذلك كله إلى تشجيع بابا روما على التفكير فى توجيه ضربة انتقامية قاضية ضد المسلمين تمخضت عما عُرف فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى ؛ تلك الغزوة الغربية المتعصبة التى إتخذت لها قناعاً جديداً تستر تحت اسم الدين والصليب .

وبمعنى آخر ، فإنَّ الحملة الأولى على بلاد العالم الإسلامى جاءت نتيجة لتفاعلات القوى البحرية النشطة فى الحوض الأوسط والغربى للبحر المتوسط مع بعض المشاعر الدينية عند بعض المسيحيين المتدينيين البسطاء مع الرغبة فى النهب والسلب وتحقيق الأرباح والمكاسب التجارية فى بلاد الشرق الغنية .

ومن الجدير بالذكر ، أن نجاح هذه الحملة لم يتحقق بسبب كفاءة العناصر الصليبية التى شاركت فيها ، وإنما تحقق نتيجة عاملين رئيسيين : أولهما ، مساندة الأسطول الإيطالى لقوى المهاجمين وقيامه بتوصيل ما يحتاجونه من عتاد وسلاح عند الساحل السورى لدى غزوهم مدن المسلمين الساحلية ، وثانيهما : إخفاق الأسطول الفاطمى – بسبب ما اعتوره من ضعف – فى الدفاع عن مياهه ضد المعتدين الصليبيين .

لتلخيص الموقف نقول : أنه مع مطلع القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى

صار الأوربيون الغربيون يسيطرون سيطرة تامة على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، واضعين أقداماً ثابتة لهم فى جزر كورسيكا وسردينا وصقلية ومالطة ومدن جنوب إيطاليا . وقد قامت أساطيلهم ، بفضل هذه السيطرة ، بالغارة على السواحل الإسلامية فى المغرب والأندلس وعلى سواحل بلاد الشام . كذلك سيطر هؤلاء الأوربيون الغربيون ، من خلال البندقية ، على معظم مياه بيزنطة وتحكموا فى سواحل بحر إيجه وسواحل اليونان وجنوب آسيا الصغرى . ولقد أصبح فى قبضة أيديهم مدخل ومخرج طريق التجارة العالمية بين الغرب والشرق عبر البحر المتوسط . ومن هذه المواقع الاستراتيجية الهامة كانت لهم السيادة البحرية التامة فى حوض البحر المتوسط من القرن السادس الهجرى/ ١٢ م فصاعداً . وبفضل هذه السيادة تجرأ الغرب وهاجم القوة البحرية الفاطمية فى مصر والشام ، وعند تأكده من ضعف هذه القوة وتدهور حالها بدأ غزوه ضد الساحل الإسلامى السورى والمصرى فيما عُرف فى التاريخ باسم الحروب الصليبية .

وفى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى يتغير الوضع فى عالم حوض البحر المتوسط بسبب تغير القوى السياسية وتبدل موازينه فى العالم آنذاك . فنرى مسلمى بلاد المغرب يتحدون مع مسلمى الأندلس فى دولة واحدة هى دولة المرابطين ثم دولة الموحدين . وتحت حكم هاتين الدولتين تبنى بلاد المغرب والأندلس أساطيلها القوية وتعيد سيطرتها البحرية على سواحل شمال أفريقية وجزر البليار وتصبح لها قوة بحرية ضاربة فعالة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط . كذلك تصبح لمصر وسوريا قوة بحرية ضاربة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط بعد اتحادهما فى دولة واحدة قوية على يد الناصر صلاح الدين ، وتصبح هذه القوة العسكرية قوة كافية لوضع حد لنشاط الصليبيين على الساحل السورى . كذلك تستعيد بيزنطة قدراً كبيراً من قوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية تحت حكم آل كومنين ، الأمر الذى يجعلها قادرة على مراجعة حساباتها فى حوض البحر المتوسط مع البندقية ومع غيرها .

ورغم هذه التغيرات الجديدة فى مراكز القوى فى عالم حوض البحر المتوسط ، فإن دول غرب أوربا اللاتينية ظلت محتفظة لنفسها بالسيادة فى الحوض الغربى لهذا البحر ، السيادة على مياهه وعلى تجارته . وظل حالهم حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادى هو نفس حالهم عند مطلع القرن الثانى عشر : رجال الحوض الغربى لهذا البحر[٣٦] . وفى القرن السادس عشر ، ينزل إلى حلبة الصراع منافسون جدد مثل : الأسبان والبرتغال

والهولنديون ، فيدخل صراع القوى فى عالم حوض البحر المتوسط فى طور آخر جديد[٣٧] .

الوضع الاقتصادى والعلاقات التجارية بين مصر الفاطمية وعالم حوض البحر المتوسط

يُعد القرن الأول من عهد حكم الفاطميين لمصر عصر ازدهارها الاقتصادى ورواجها التجارى وتقدمها الحضارى . ولم يقتصر هذا الازدهار والرواج على مصر وحدها ، بل عكسته مصر على كل جيرانها من بلاد البحر المتوسط من لشبونة إلى دمشق ، وتعدُ هذه الفترة ، بحق ، العصر الذهبى لكل شعوب عالم هذا البحر مسلمين كانوا أم مسيحيين[٣٨] . وكانت للدولة الفاطمية علاقاتها التجارية الواسعة مع عالم البحر المتوسط وقامت بعقد الاتفاقيات التجارية مع حكامه ؛ تلك الاتفاقيات التى عادت بالنفع على كلا الجانبين وظلت سارية المفعول طوال حكم الفاطميين ، ولم تتأثر بالحرب التى أعلنها الغرب المسيحى ضدها ؛ وذلك بسبب رغبة حكامه فى الحفاظ على الأرباح والمكاسب التى كانت تحققها لهم هذه الاتفاقيات .

وكانت مصر الإسلامية ، التى ازدهرت اقتصادياً فى عهد الطولونيين والإخشيديين ، قد وصلت إلى أوج ازدهارها فى العصر الفاطمى الأول ، فتقدمت زراعتها ونهضت صناعتها وراجت تجارتها ، ووصل الاقتصاد المصرى إلى قمته فى ذلك العصر . وكانت تجارة المرور الغنية بين الشرق والغرب ، التى تشرف وتهيمن مصر عليها ، هى عصب اقتصاد الدولة ، لما كانت تدره عليها من عائد طائل من وراء رسوم المرور المقررة عليها[٣٩] . وظلت مصر ، فى عهد الفاطميين كما كانت فى أيام الطولونيين والإخشيديين ، مقصداً لتجار الغرب المسلمين والمسيحيين فى طلبهم لمنتجات الشرق الأقصى التى كانت تتدفق عليها ، كما ظلت محط مرور هؤلاء التجار فى طريقهم من بلادهم إلى بلاد الشرق الأقصى طلباً لسلع الشرق الفائقة القيمة فضلاً عن السلع التى تنتجها مصر نفسها[٤٠] .

ويرجع سر ازدهار اقتصاد مصر الفاطمية إلى عاملين رئيسيين : أولهما يتمثل فى التدخل المحدود للحكومة فى أمر التجارة ، وعملها ، قدر طاقتها ، على تشجيعها بفرض رسوم معقولة عليها ، فضلاً عن إتجار الخلفاء أنفسهم ومشاركتهم فى أرباح التجارة[٤١] . والعامل الثانى يتمثل فى نظامهم الإدارى الممتاز ، فضلاً عن رعايتهم الناجحة للتجار

وتسامحهم المطلق مع أهالى الأديان الأخرى[٤٢] . وكان التسامح الدينى هو طابع سياسة الفاطميين مع غير المسلمين ، فأطلقوا لهم الحرية فى شتى مظاهرها ، واستغل الكثيرون منهم هذه الحرية فى المجال الاقتصادى . كما فتحت البلاد أبوابها للتجار الأجانب يفدون إليها من أوربا وحوض البحر المتوسط والشرق حاملين معهم سلعهم الغالية ، متمتعين فيها بالأمن والسلام .

ولقد انعكست آثار هذا الازدهار الاقتصادى على المدن المصرية ، وعلى جميع مدن حوض البحر المتوسط آنذاك ، وتجلى ذلك فيما أصابته هذه المدن من تقدم ، وما حفلت به أسواقها من رواج ، وما حققه أهلها من ثروات وخيرات .

وتأتى مدينة الاسكندرية فى مقدمة المدن المصرية التى شهدت قمة ازدهارها فى العصر الفاطمى . وقد عمرت هذه المدينة آنذاك بالمبانى الفخمة والقصور العامرة والدور الجليلة والمتنزهات الواسعة ، فضلاً عن المساجد العديدة والمدارس المختلفة والأسواق العامرة بالخيرات . وقد تردد ذكر ذلك كله عن هذه المدينة فيما روته كتب المؤرخين والجغرافيين المسلمين[٤٣] ، وما ورد عنها على لسان الرحالة المسلمين[٤٤] وغير المسلمين[٤٥] الذين زاروها فى ذلك الوقت ، كذلك فيما ذكره عنها الشعراء المعاصرون لأيام دولة الفاطميين من أمثال ابن قلاقس الشاعر وابن مكنسة وظافر الحداد[٤٦] .

واشتهرت الاسكندرية ، فى العهد الفاطمى ، بصناعاتها الفاخرة ، وبخاصة منسوجاتها الحريرية ، كذلك كانت الاسكندرية دار صناعة بحرية تصنع فيها الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات ، وكانت قاعدة بحرية حربية هامة يخرج منها الأسطول الفاطمى للغزو والجهاد ، ومركزاً رئيسياً للحط والاقلاع ترسو فيه سفن الغرب التجارية والمدنية . وكانت سفن المسيحيين من ثمانى وعشرين دولة مسيحية تتردد على مينائها بصفة منتظمة ، وكان لكل الطوائف المختلفة فنادقها الخاصة بالمدينة لإقامة تجارها فيها ، ومخازنها الخاصة لتخزين بضائعها .

وكانت سفن تجار الغرب تحمل إلى الاسكندرية تجارة غرب أوربا من أخشاب وحديد وسلاح ومرجان وزعتر وشمع وفراء ومصنوعات حديدية وبلورية ، وكانت تحمل عند عودتها منها التوابل والأقمشة والمنسوجات الغالية الثمن والسكر والصمغ ومواد الصباغة والدباغة والأدوية والأعشاب الطبية ، فضلاً عن البردى والعطور[٤٧] . ولقد ذكر وليم الصورى أن معظم السلع التى تحتاج إليها أوربا كانت توجد فى أسواق الاسكندرية[٤٨] .

وإلى جانب الاسكندرية ازدهرت باقى موانى مصر على البحر المتوسط مثل دمياط وتنية والفرما ، وكانت هذه المدن مراكز هامة للتجارة الخارجية مع بلاد الروم ، كذلك كانت قواعد هامة لصناعة السفن والمنسوجات المرتفعة القيمة والذائعة الصيت فى كل عالم آنذاك[٤٩] .

ولقد شاركت القاهرة والفسطاط هذه المدن فى الازدهار فى العصر الفاطمى ، وبرغم أن القاهرة كانت العاصمة العسكرية للدولة ، فإنها كانت فى عهدهم أكبر وأهم مدن الشرق الإسلامى[٥٠] . وكانت الفسطاط ، فى عهد الفاطميين ، مركز المال ، والاقتصاد للدولة ومقر خروج البضائع إلى أعالى البحار ، ومعقل الصناعة والتجارة وأزهى مدن مصر كلها[٥١] . ولقد اشتهرت الفسطاط ، فى عهد الفاطميين ، بصناعاتها الفاخرة من الصلب والنحاس والزجاج وصناعة المنسوجات التى كانت تصدر لبلاد البحر المتوسط .

وشاركت مدن المغرب الإسلامى على حوض البحر المتوسط فى هذا الازدهار الاقتصادى والرواج التجارى . فلقد كانت القيروان من مدن حوض البحر المتوسط التجارية الهامة ، وكان يُحصل عندُ بوابتها يومياً ما قيمته ٢٦ ألف درهم رسوماً على البضائع الخارجة منها والداخلة إليها . وكانت هذه المدينة قد تخصصت آنذاك فى تصدير رقيق وذهب غرب أفريقية[٥٢] .

كذلك ازدهرت مدن تونس وسوسة وقابس وصفاقس ، وكانت مراكز هامة للتجارة على حوض البحر المتوسط أيام حكم بنى زيرى الصنهاجيين ، وازدهرت أيضاً مدن طرابلس الغرب وبرقة . وكانت أهم صادرات مدن المغرب الإسلامى إلى عالم حوض البحر المتوسط تتركز فى انتاجها الزراعى وثيابها الحريرية ، فضلاً عن جلود الأبقار والورق والعسل والزئبق والفخار[٥٣] .

وشاركت جزيرة صقلية فى الرخاء والانتعاش الاقتصادى فى عصرها الإسلامى وكانت عاصمتها بالرمو آنذاك من أهم مراكز الاقتصاد الرئيسية فى العالم الإسلامى . وكانت صقلية تصدر إلى كل دول حوض البحر المتوسط حاصلاتها الزراعية ومعادنها ومنتجاتها الصناعية وبخاصة ملابسها الحريرية ذات الشهرة العالية ، كذلك كانت تستورد ما تحتاجه من هذه البلاد[٥٤] . وقد ظلت علاقات صقلية مستمرة مع بلدان العالم الإسلامى فى حوض البحر المتوسط فى عصرها الإسلامى وفى عصر حكم النورمان لها[٥٥] .

وازدهرت تجارة الأندلس عبر حوض البحر المتوسط ، وكانت سفنها تتردد باستمرار على بعض موانى هذا البحر بقصد التجارة ، وكان بعض هذه السفن يصل حتى ميناء الاسكندرية ويعود منها محملاً ببضائع الشرق الغالية الثمن . وبالمثل كانت السفن الإسلامية الشرقية تتردد على الموانى الأندلسية ، إضافة إلى تردد السفن الأوربية عليها . وقد شهد على ذلك الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى عند حديثه عن مدن الأندلس[٥٦] .

ولقد شاركت الامبراطورية البيزنطية عالم حوض البحر المتوسط الإسلامى ازدهاره الاقتصادى أيام دولة الفاطميين ، وقد تحققت لها هذه المشاركة الفعلية حين أصبحت جزر كريت وقبرص فى يدها فأصبحت فى وضع يجعلها تتقاسم مع مصر الفاطمية أرباح التجارة العالمية بين الشرق والغرب . كذلك فإن استيلاء بيزنطة ، لبعض الوقت ، على أجزاء من شمال سوريا أعطاها ميزات تجارية فى إقليم الجزيرة الشمالى . وقد شهدت القسطنطينية رواجاً تجارياً عظيماً لم تشهده منذ عصر جستنيان ، وشهد على ذلك الرحالة الذين زاروها وترددوا عليها ذلك الوقت[٥٧] ، وكانت الدولة البيزنطية على اتصال تجارى مع مصر الفاطمية برغم حالة الحرب القائمة بينهما وكانت سفنها ترتاد موانى مصر ، كذلك سفن البندقية التى كانت تعمل لحسابها[٥٨] .

وبرغم تحذير بعض أباطرة بيزنطة لتجارهم وتجار المدن الإيطالية ، من وقت لآخر ، بعدم الإتجار مع بلاد المسلمين ؟ إلا أن تجارة بيزنطة استمرت ، برغم ذلك مع مصر الإسلامية ، ووجدنا تجاراً بيزنطيين يترددون ما بين موانى مصر ، وأكثر من ذلك فقد كان بالقاهرة الفاطمية حى لتجار بيزنطة عُرف بحى الروم . كذلك كان يتواجد فى القسطنطينية عدد من تجار مصر ، جاء ذكرهم فى جملة من ذكرهم الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى من بين الجاليات الإسلامية فى العاصمة البيزنطية .

ومن مظاهر إقبال بيزنطة على المتاجر المصرية وسعيها إلى جذب التجار المصريين إلى عاصمتها أنها أقامت بها وكالتين لتجار الشرق ، إحداهما لتجار الحرير المصرى الفاخر ، والثانية لتجار التوابل والعطور[٥٩] . وتحدثت وثائق الجينزة عن سفر تجار مصر إلى القسطنطينية ، كذلك تحدثت عن ورود تجار الروم إلى مصر ، وعن إقبال هؤلاء التجار على بضائع الشرق فى أسواق مصر الفاطمية[٦٠] .

كذلك كانت سفن البندقية تجلب للعاصمة البيزنطية احتياجاتها من بلاد المسلمين ، وكانوا يقومون بدور الوسيط التجارى بين الطرفين[٦١] . وكانت أهم السلع التى تستوردها مصر الفاطمية من بيزنطة : الأخشاب والأثاث والجبن والفراء والمناديل

والمساند الرومية المطرزة . وقد ذكر الرحالة الفارسى ناصرى خسرو أن كثيراً من السلع التى رآها وأعجب بها فى مدينة أسوان والفسطاط كانت من واردات بلاد الروم[٦٢] ، وكذلك أفاد هذا الرحالة المسلم عن تردد السفن المصرية على ميناء القسطنطينية ، حيث ذكر أن السفينة تذهب من تنيس إلى القسطنطينية فى عشرين يوماً[٦٣] .

أما عن المدن الإيطالية التجارية ، فلقد تغير اقتصادها تغيراً ملحوظاً مميزاً فى ذلك الوقت ، وذلك بسبب العائد المادى الذى جنته من وراء التجارة وقيامها بدور الوسيط التجارى . ولقد أصبحت البندقية من أهم مراكز التجارة آنذاك وقد تمتعت تحت حكم دوقاتها من آل أورسيولى بقوة اقتصادية لم تعرفها طوال تاريخها من قبل[٦٤] . وقد جاء أساس ثروة البندقية الحقيقى من وراء ارتباطها السياسى والتجارى مع الدولة البيزنطية منذ أواخر القرن العاشر الميلادى والامتيازات والتسهيلات التجارية التى حصلت عليها منها .

وكان أهم ما تصدره البندقية لبلاد العالم الإسلامى ، وخاصة لمصر الفاطمية ، أخشاب السفن والحديد والسلاح والرقيق الأبيض ، وحقق تجار البندقية الثروة والجاه من وراء هذه التجارة وانعكست آثار ذلك على حياتهم الاجتماعية وعلى معيشتهم اليومية .

ونافست أمالفى البندقية فى الاتجار مع بيزنطة وبلاد العالم الإسلامى ، وحقق تجارها من وراء ذلك أرباحاً طائلة وثروة طيبة ، كذلك حصلوا على امتيازات لهم فى مدن مصر والشام . وقامت بقية المدن الإيطالية مثل نابولى وسالرنو بنشاط مماثل .

وعلى الجملة ، فإن التجارة قد ازدهرت ونشطت نشاطاً كبيراً آنذاك فى حوض البحر المتوسط ، مما يشهد على استمرار العلاقات التجارية بين عالم حوض هذا البحر الشرق والغربى رغم المعارك التى كانت تقع بينهما بين الحين والحين على صفحته . وقد حققت موانى هذا البحر الازدهار والانتعاش الاقتصادى الذى لم تشهده من قبل . وشاركت شعوب غرب أوربا فى هذا النشاط التجارى بفضل مساعدة السفن الإيطالية ، ولها التى فتحت باب وادى الرون وممرات الألب للبضائع العظيمة النفع التى كانت تحملها من وإلى أوربا . وبدأ الغرب اللاتينى ، بعد أن ظهرت قوته ، فى المطالبة بنصيبه فى تجارة البحر المتوسط ، التى ظلت ولفترة طويلة تحت سيادة البيزنطيين والمسلمين .

الاتفاقات التجارية

لتسهيل أمر الإتجار مع عالم حوض البحر المتوسط ، أطلق خلفاء الفاطميين يدهم فى عقد المعاهدات التجارية مع حكوماته ، وقد حصل تجار المدن التجارية الإيطالية ، عن طريق هذه المعاهدات ، على تسهيلات تجارية وامتيازات خاصة داخل بلاد العالم الإسلامى[٦٥] . ولقد سبقت مدن إيطاليا التجارية : أمالفى والبندقية وجنوة وبيزا غيرها من مدن حوض البحر المتوسط الغربية فى عقد معاهداتها واتفاقاتها التجارية مع مصر الفاطمية[٦٦] ، ونظمت هذه المعاهدات حقوق وواجبات تجار هذه المدن فى مصر .

وكانت أمالفى ، أول هذه المدن فى عقد تلك المعاهدات ، وتبعتها بيزا والبندقية وجنوة[٦٧] وكان الأمالفيون أول تجار حوض البحر المتوسط الأوربيين الذين ترددوا على مصر فى العصر الفاطمى ولقد شوهدت سفن الأمالفيين فى مياه مدينة الاسكندرية فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وكان مائتان منهم ، على وجه التقريب ، فى العاصمة المصرية فى صيف السنوات الأخيرة من هذا القرن[٦٨] . واتجه اهتمام تجار أمالفى ، بوجه خاص ، إلى نقل المنسوجات الحريرية التى تصنع فى مدينة دبيق إلى أسواق روما[٦٩] .

ولم تحدد المصادر تاريخ هذه المعاهدة التى عقدها الأمالفيون مع مصر الفاطمية ، واكتفت بالإشارة إلى أنها كانت فى القرن الحادى عشر الميلادى . وبمقتضى هذه المعاهدة ، سمح الخليفة الفاطمى المستنصر بالله للأمالفيين ، ما بين عامى ٤٥٦ و ٤٦٣ هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٧٠ م بامتلاك قطعة فسيحة من أرض بيت المقدس ، ليشيدوا عليها دير القديسة مريم اللاتينية لاستضافة حجاجهم وتجارهم[٧٠] . كذلك سمح لهم بإقامة دير للرجال ومبنى لإيواء الحجاج الفقراء والمرضى ، وسُمح لهم أيضاً بإقامة فندق بالاسكندرية .

وعقدت البندقية أولى معاهداتها التجارية مع الفاطميين سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٦ م[٧١] ، وقد حصلت بمقتضاها على امتيازات خاصة لتجارها وسفنها فى موانى مصر . كذلك عقدت معاهدة ثانية مع الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م حصلت بمقتضاها على تعهد من الدولة الفاطمية بحماية رعاياها أثناء تواجدهم فى مصر[٧٢] . هذا وقد حمل تجار البندقية إلى مصر فراء بيزنطة والحديد والنحاس ، وكانت سفنهم واسطة النقل بين بيزنطة ومصر الفاطمية[٧٣] ، وقد نقلوا إلى بيزنطة من

مصر القمح والحبوب والنسيج والتوابل والبخور[٧٤] .

أما جنوة فإن أول معاهدة تجارية عقدتها مع مصر الفاطمية ترجع إلى سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م[٧٥] . وتوجد فى أرشيف جنوة نصوص اتفاقيات تجارية تغطى الفترة ما بين سنوات ٥٥٠ - ٥٥٩ هـ/ ١١٥٥ - ١١٦٤ م وقد ورد فى هذه الاتفاقات ذكر أسماء عربية[٧٦] . وكانت الجالية الجنوية من أكبر الجاليات الأجنبية المقيمة بمدن مصر التجارية ، كذلك كانت سفنهم من أكثر السفن تردداً على الشواطىء المصرية .

وتأتى بيزا فى ذيل قائمة المدن التجارية الإيطالية التى عقدت معاهداتها مع مصر ، وكان توقيع أول معاهداتها معها فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى . وجاء توقيع أول معاهدة لبيزا مع الحكومة الفاطمية على أثر اعتداء بعض البيازنة فى البحر بالقتل والسلب على بعض التجار المصريين ، ورغبة الحكومة البيزية فى اصلاح الأمر وتسوية الخلاف مع مصر ، حرصاً منها على مصالحها التجارية فى مصر .

وكانت الحكومة المصرية قد ثأرت لرعاياها المصريين وعاقبت ، فى المقابل ، التجار البيازنة المقيمين فى مصر[٧٧] . وقد أرسلت حكومة بيزا ، بسبب خطورة الموقف : على رأس سفارتها رئيس أساقفتها ويُدعى فيلانوس Villanus وقنصلها رانيرى بوتاشى Ranieri Bottacci ، لمقابلة الخليفة الفاطمى الظافر بأمر الله ووزيره ، على متن سفينة بيزية حربية . وكان قدوم سفارات المدن التجارية الإيطالية الأخرى ، عادةً ، على متن سفن تجارية[٧٨] .

ونجحت هذه السفارة فى تسوية الخلاف بين الجانبين ، وعقدت معاهدة مع الحكومة الفاطمية تتعهد فيها الحكومة البيزية بالقصاص من المعتدين والامتناع عن تقديم أية مساعدة للصليبيين عند هجومهم على الشام أو تقديم أية مساعدة لأى عدو لمصر. واحتفظت مصر لنفسها بالحق فى عقد أى معاهدة أو اتفاق مع أى عدو لبيزا فى حالة نقضها الاتفاق ودخولها الحرب إلى جانب الصليبيين . وتعهدت الحكومة الفاطمية ، من جانبها ، بإطلاق سراح البيازنة المسجونين ، كذلك تعهدت بحماية التجار والحجاج البيازنة المسافرين على سفن غير حربية . ووافقت الحكومة الفاطمية على السماح لبيزا بإقامة فندق ثان لرعاياها فى الفسطاط بناءً على طلب منها تقدمت به للحكومة المصرية هذا فضلاً عن السماح لها بالاشراف على فندقهم بالاسكندرية . كذلك منحتهم الحكومة الفاطمية حق حرية التجول فى أى مكان داخل البلاد المصرية[٧٩] .

ويوجد فى أرشيف بيزا الحكومى خطاب ، كتبه مسئول كبير فى مصر إلى حكومة

بيزا ومن المحتمل أن يكون هذا المسئول هو الوزير الفاطمى طلائع بن رزيق ، وزير الخليفة الفاطمى الفائز[٨٠] . وقد أبان هذا الخطاب وأكد على النقاط الهامة فى الاتفاقية المبرمة بين حكومة مصر وحكومة بيزا . كذلك اشتمل هذا الخطاب على عرض وتأكيد للمعاملة الحسنة التى يحظى بها البيزيون فى مصر والعناية الخاصة التى يتمتعون بها[٨١] .

ومن دراسة الاتفاقية والخطاب نخلص إلى التالى :

أولاً : أرسلت الحكومة البيزية وفداً من عندها إلى مصر يهنىء بتولى الوزير الفاطمى طلائع بن رزيق الوزارة (٩ ربيع الأول ٥٤٩ هـ/ ٤ يونية ١١٥٤ م) ، حتى سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م . ويعتذر فى نفس الوقت عن حادث اعتداء البيزيين على ركاب السفينة المصرية .

ثانياً : قام ابن رزيق بإرسال الخطاب المذكور إلى حكومة بيزا بعد توليه الوزارة بحوالى ثمانية شهور (ذو الحجة ٥٤٩ هـ/ ١٧ فبراير ١١٥٥ م) ، بواسطة حاكم الاسكندرية ، يؤكد فيه على استمرار العلاقات الطيبة بين مصر وبيزا ويؤكد حمايته للبيازنة[٨٢] .

ثالثاً : لمّا وجدت الحكومة البيزية استعداداً من الحكومة المصرية للتفاهم بصدد حادث الاعتداء وذلك لترحيبها بالوفد البيزى ، سارعت بإرسال قنصلها ورئيس أساقفتها لمقابلة الخليفة الطفل (الفائز بنصر الله) ووزيره الجديد إبن رزيق ، لعقد مصالحة مع مصر حرصاً على مصالحها التجارية .

رابعاً : عقد القنصل البيزى بوتاشى مع الوزير ابن رزيق الاتفاقية المذكورة فى المحرم سنة ٥٥٠ هـ/ ٢٠ مارس ١١٥٥ م .

ولقد استمرت العلاقات طيبة ، بعد ذلك ، بين الجانبين لمدة عامين ، وشوهدت بعض السفن التجارية المصرية تتردد آنذاك على بيزا ، وحكى ذلك نيقولا الراهب الذى زار بيزا أثناء قيامه بالحج إلى روما والقدس[٨٣] . ولقد ساءت العلاقات بين الطرفين بعد ذلك ، بسبب تقارب بيزا لمملكة بيت المقدس وعقدها اتفاقية مع الملك بلدوين الرابع ، ملك بيت المقدس ، تتعهد له فيها بعدم إرسال خشب السفن والحديد لمصر . وقد طلبت الحكومة المصرية من حكومة بيزا تفسيراً لهذا العمل ، لكن الأحداث لم تمهل الحكومة الفاطمية لتتخذ إجراء ضد بيزا ؛ ذلك لانشغالها آنذاك بمشاكلها الداخلية التى أدت إلى نهاية حكمها[٨٤] . ولقد حكمت المصلحة الذاتية سياسة حكومة بيزا فى علاقتها

مع مصر وتعاونت مع الصليبيين ضدها وذلك لإحراز المزيد من المكاسب والامتيازات التجارية مع الحليف الجديد إذا ما نجح فى حربه ضد مصر[٨٥] .

ومن الملاحظ ، عموماً ، أن الحكومات الإيطالية لعبت مع مصر الفاطمية دوراً غير مخلص فى علاقاتها معها ، فبينما ارتبط هؤلاء الإيطاليون مع مصر باتفاقات تجارية ومعاهدات دولية ، فإنا نراهم ، فى ذات الوقت ، يتعاملون مع أعدائها ، ويسهمون فى إنجاح الحركة الصليبية الموجهة أصلاً إلى مصر ؛ قلب العالم الإسلامى . وبفضل العون الذى قدمه هؤلاء الإيطاليون للصليبيين تمكن هؤلاء من السيطرة على المدن الساحلية بالشام ، وفى مقابل ذلك ظفروا بامتيازات خاصة فى الثغور الشامية التى سقطت فى يد الصليبيين ، الأمر الذى جعلهم يشرفون هنالك على التجارة وعلى نقل الحجاج المسيحيين[٨٦] .

كذلك استجابت تلك الجمهوريات الإيطالية لقرار الصليبيين بوقف الإتجار مع مصر ومقاطعة تجارة المرور بين الشرق والغرب التى كانت تستفيد منها مصر . وقد أراد قادة هذه الحرب ، بإعلان هذه المقاطعة ، ضرب اقتصاد مصر والإجهاز عليها بحرمانها من عائد يمثل عصب اقتصادها وقوتها ، ليسهل لهم بذلك هزيمتها اقتصادياً وعسكرياً بعد أن فقدت قوتها الضاربة فى حوض البحر المتوسط .

غير أن هذه المحاولة ، وإن نجحت لبعض الوقت فى تحقيق أغراضها فى أواخر أيام الفاطميين ، إلا أنه لم يكتمل لها النجاح بسبب عدم مقدرة هذه الجمهوريات الاستمرار فى المقاطعة نظراً لما تكبدته من خسائر وما جرته هذه المقاطعة على اقتصادها من نكبات[٨٧] ، فقامت هذه الجمهوريات بكسر الحصار الاقتصادى المفروض على مصر بعد أن تغلب لديها حب الكسب على الوازع الدينى[٨٨] .

ومع فشل حركة المقاطعة الأوربية لتجارة المرور بين الشرق والغرب عبر مصر ، عادت سفن تجار إيطاليا إلى الموانى المصرية ، وعاد لمصر مع بداية حكم صلاح الدين ازدهارها التجارى الذى كان لها طوال عهد الفاطميين .

هوامش

(1) Lewis Archibald: Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500-1100, Prineceton 1951, p. 132.

(2) Jean Richard: Les relations entre L'Orient et l'Occident au Moyen Age, London 1977, p.I.

(3) Lopez, R.S: Medieval Trade in the Mediterranean World, London 1955, p. 24.

(٤) حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، مقال **بالمجلة المصرية للجمعية التاريخية** ، العدد الأول ، المجلد الرابع ، مايو ١٩٥١ ، ص ١٢٠ .

(5) Dufourcq ch: La Vie Quotidienne dans l'Europe Médiéval Sous domination Arabe, Paris 1978, p. 10.

(٦) محمد جمال الدين سرور : **سياسة الفاطميين الخارجية** ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٤٠ . (ذكر ناصرى خسرو (سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٨٤) عند حديثه عن مرآة منارة الاسكندرية أنه جاء شخص للخليفة الحاكم بأمر الله وعرض عليه اصلاحها فرفض قائلاً : إن الروم يرسلون إلينا الآن الذهب والمال كل سنة ونحن معهم فى سلام تام) .

(7) Lewis, A: Naval Power, p. 190.

(8) Lewis: Op. cit., p. 190

(٩) كان الامبراطور حنا تزيميسكس قد منع التجار البنادقة من حمل خشب السفن إلى مصر ، وأورد لوبيز نص قرار المنع ، وذكر أن المصريين رغم ذلك عاودوا بناء أسطولهم بمعدل بناء سفينتين فى كل شهر : (Lopez: Medieval Trade in the Mediterranean World, pp. 333-335)

(١٠) العبادى وعبد العزيز سالم : **تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام** ، بيروت ١٩٨١ ، ص ١٠٠

(11) Lewis: Op. cit, p. 192.

(١٢) المقريزى : **الخطط** ، طبعة بولاق . ١٢٧ هـ ، جـ ٢ ص ٩٤ . (نقلاً عن ناصرى خسرو)

(13) Lewis: Naval Power, p. 190

(١٤) ابن خلدون : **المقدمة** ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٢٠ .

(١٥) **صبح الأعشى فى صناعة الانشا** ، ص ٣ ، القاهرة ١٩١٥ ، ص ٥١٩ .

(١٦) عبد المنعم ماجد : **نظم الفاطميين ورسومهم** ، حـ ١ ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢١٩ .

(١٧) المقريزى : **الخطط** ، حـ ١ ، ص ٩٤ .

(١٨) زار ناصرى خسرو مصر سنة ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م فى عهد خلافة المستنصر بالله الفاطمى ، وقص علينا أخبار

رحلته فى كتابه « **سفر نامة** » الذى سجله باللغة الفارسية .

(١٩) عبد المنعم ماجد : **نظم الفاطميين** ، حـ ١ ، ص ٢٠٧ .

(20) Lewis, A: op cit, p. 192.

(٢١) لم تجد بحرية مسلمى صقلية من يتصدى لها آنذاك فى المياه الإيطالية بسبب ضعف الأسطول البيزنطى وانشغال بيزنطة فى حربها مع البلغار ، كذلك بسبب موت الامبراطور أوتو الثالث .

(22) Lewis, A: op. cit., p. 194.

(٢٣) حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢٤) محمد جمال الدين سرور : **سياسة الفاطميين الخارجية** ، ص ٢٢٧ .

(٢٥) حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ، ص ١١٨ .

(26) Goitein: A Mediterranean Society of the High Middle Ages, V.I, Los Angels 1967, p. 41.

(27) Lewis A: Naval Power, p. 203.

(٢٨) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ٢٠٥ ، **المسالك والممالك** ، ليدن ١٨٧٢ ، ص ١٣٧ ، المقدسى : **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** ، ليدن ١٨٧٧ ، حـ ١ ، ص ١٤٨ يقول ابن حوقل ما نصه : « وقد ألح الروم فى هذا الوقت على سواحل الشام بالغارة ونواحى مصر فهم يختطفون مراكبهم ويأخذونها » .

(29) Ibid, p. 184.

(30) Ibid, p. 201.

(31) Ibid, p. 235.

(32) Archibald: Naval Power, p. 236.

(٣٣) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٣٦

(34) Archibald: op. cit., p. 236.

(٣٥) جاء بند بإشراف البندقية ، على وكالات أمالفى فى العاصمة البيزنطية رداً على تحالف الأمالفيين مع النورمان ضد بيزنطة سنة ١٠٧٦ م ووقوف أسطولهم فى الحرب مع الأسطول النورماندى ضد الأسطول البيزنطى .

(36) Lewis: Naval Power, p. 251.

(37) Goitein: A Mediterranean Society, I, pp. 29-30.

(38) Lewis, A: Op. cit., p. 212.

(٣٩) محمد جمال الدين سرور : **تاريخ الحضارة الإسلامية** ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٥٠ .

(٤٠) عطية القوصى : **تجارة مصر فى البحر الأحمر** ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١١٦ .

(41) Lewis, A: Op. cit., p. 208.

(٤٢) كلود كاهن : تجار القاهرة الأجانب فى عهد الفاطميين والأيوبيين ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، حـ ٢ ، مارس - إبريل ١٩٦٩ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٨٧١ .

(٤٣) تحدث عنها المؤرخ الجغرافى المسلم الادريسى ، كذلك تحدث عنها ياقوت الحموى فى معجمه (السيد عبد العزيز سالم : **تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى** ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢١٤)

(٤٤) زار الاسكندرية فى العصر الفاطمى ، عصر الخليفة المستنصر بالله ، الرحالة الفارسى المسلم ناصرى خسرو وتحدث عنها فى كتابه : **سفر نامة** ، كذلك زارها الرحالة المسلم الأندلسى ابن جبير مع بداية تولى صلاح الدين حكم مصر وتحدث عن ازدهارها .
(A. Mazahéri: La Vie Quatidienne des Musulmans au Moyen Age, Paris 1951, p. 204).

(٤٥) زارها الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م وأفاض فى الحديث عنها فى كتاب رحلته (M. Kamroff: Contemporaries of Marco Polo, Newyork 1937, pp. 252, 318.)

(٤٦) السيد عبد العزيز سالم : **تاريخ الاسكندرية** ، ص ٢١٤ .

(47) Lopez: The Role of Trade in the 7Th Century, Washington, 1959, p. 76.

(48) Heyd: Histoire du Commerce, I, Leipzig 1923, p. 383.

(٤٩) عن تنيس وازدهارها فى العصر الفاطمى ، انظر للمؤلف مقال : من أخبار المدن الإسلامية المندثرة - تنيس ، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية** ، جامعة الكويت ، العدد الثانى ، المجلد الأول ، ص ٨١

(50) De Somogyi: Egypt's Trade and Transport relations with other Islamic Lands, SI, NewDelhi, v.xx, 1978, p. 151.

(51) Lewis, A: Naval Nower, p. 209.

(52) Ibid, p. 209.

(٥٣) عبد العزيز سالم : **تاريخ الاسكندرية** ، ص ٢٠٧ .

(54) Lewis, A: Naval Power, p. 209.

(٥٥) عقد الملك النورماندى روجرز الثانى ملك صقلية سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٣٧ م اتفاقاً مع مدينة سالرنو على أن تدفع له ضريبة مقابل السماح لسفنها بالسفر للإتجار مع الاسكندرية . وفى نفس العام حصل التجار الصقليون على تخفيض على المكوس المفروضة على تجارتهم والواردة إلى مصر وقاسمهم تجار سالرنو ذلك الامتياز . وبعد عدة سنوات عقد الملك روجرز معاهدة ثانية مع الخليفة الفاطمى حصل بمقتضاها على امتيازات لتجاره بمصر . ولقد شاهد الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى سفن صقلية التجارية راسية فى ميناء الاسكندرية أثناء مروره بها (Heyd: Histoire du Commerce, p. 391).

(56) Komroff: Contemporaries of Marco Polo, p. 253.

(57) Lewis, A: Op. cit., p. 213.

(58) Heyd: Op. cit., I, p. 330.

(٥٩) العبادى وسالم : **تاريخ البحرية الإسلامية** ، ص ١٧٦ .

(٦٠) هناك خطابات كثيرة وردت فى جنيزة القاهرة اليهودية بالفسطاط ترجع إلى العهد الفاطمى تحدثت عن هذا الأمر . وعلى سبيل المثال هناك خطاب يرجع تاريخه لسنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦٠ م يقول فيه كاتبه ما نصه : (أخيراً وصلت سفن الروم ، وما أن وصلت ، حتى انتشر تجارها فى الأسواق واشتروا النيلة بأسعار عالية وكذلك اشتروا خشب الصندل كل حمل جمل بـ ١٢٠ دينار . وقد قالوا أن غيرهم من الروم سوف يحضر قريباً لمصر) Goitein: A Mediterranean Society, I, p. 45.

(61) Lewis: Op. cit., p. 215.

(٦٢) سرور : **الدولة الفاطمية فى مصر** ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٥٨ .

(٦٣) **سفر نامة** ، ص ٨٠ .

(64) Lewis: Op. cit., p. 217.

(٦٥) عقدت مصر الفاطمية وثائق ومعاهدات كثيرة مع دول إيطاليا التجارية لم يصلنا منها إلا العدد الخاص بيزا وفلورنسة وقام بنشرها أمارى ، وهذه المجموعات كُتب بعضها باللاتينية أو الإيطالية أو الفرنسية ولا يزال معظمها محفوظاً فى دور الأرشيف الخاصة بهذه المدن (أحمد دراج : الوثائق العربية المحفوظة فى دور الأرشيف الأوربية ، أبحاث الندوة الدولية ، حـ ١ القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(66) Lopez: Medieval Trade in the Mediterranean World, London 1955, p. 69.

(٦٧) أحمد دراج : الوثائق العربية ، ص ١٢١ .

(٦٨) كلود كاهن : التجار الأجانب ، ص ٨٧٢ .

(69) Heyd: Op. cit., p. 107.

(70) Wiet: L'Egypte Arabe, T. IV, Paris 1937, p. 306.

(٧١) أحمد دراج : الوثائق العربية ، ص ١٢٤ .

(72) Pirenne: Les Villes du Moyen Age, Paris 1971, p. 66.

(73) Heyd: Histoire du Commerce, I, p. 386.

(٧٤) كانت سفن البندقية تنقل لمصر الفاطمية أخشاب السفن والحديد والسلاح ، واستمرت كذلك حتى أمر الامبراطور حنا تزيميسكيس سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧١ م دوقهم بطرس الرابع وأسقفهم كانديانو بمنع تجارهم من تصدير خشب السفن للمسلمين . وحين لم يأخذ التجار هذا الحظر مأخذ الجد قام بتهديدهم بحرق سفنهم وإغراقها بحمولاتها ، فاضطروا إزاء ذلك إلى الإذعان وأوقفوا تصدير خشب السفن لمصر (العبادى وسالم : **تاريخ البحرية الإسلامية** ، ص ٩٤) .

(٧٥) محمد جمال الدين سرور : **سياسة الفاطميين الخارجية** ، ص ٢٥٠ .

(76) Heyd: Op. cit., I, p. 390.

(٧٧) سرور : **سياسة الفاطميين الخارجية** ، ص ٢٤٩ .

(78) Heyd: op. cit., I, pp. 392.

(79) Amari, M: DipLomi Arabi del Archivio Fiorentino, Firenze 1863, pp. 241-249.

ـ وقد أورد أمارى نص هذه المعاهدة باللاتينية فى كتابه .

(٨٠) كانت نهاية الخليفة الفاطمى الظافر على يد مؤامرة دبرها له وزيره العباس وأحل مكانه إبنه الطفل باسم الخليفة الفائز وكان يبلغ من العمر خمس سنوات ، وحكم باسمه حكماً استبدادياً لكن حكم العباس لم يطل فقد ثار ضده طلائع بن رزيق وأطاح بحكومته وتولى الوزارة للخليفة الفائز فى ٩ ربيع الأول ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م ، وسارعت الحكومة البيزية بتهنئته .

(٨١) وجاء فى مقدمة هذا الخطاب ذكر اسم ابن رزيق واضحاً فيما نصه :
[من السيد الأجل الصالح ناصر الأئمة كافل الأمة أمير الجيوش سيف الإسلام غياث الأنام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبى الغارات طلائع الشيع فوز مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ....] Amari: Op. cit., p. 455

(82) Heyd: Histoire du Commerce, I, p. 394.

(83) Heyd: Histoire du Commerce, I, p. 395.

(84) Ibid, p. 395.

(٨٥) أعلنت بيزا ، استعدادها لمساعدة أمورى ملك بيت المقدس فى الهجوم على الشام ومصر مقابل وعد منه بمنحها بعض الامتيازات التجارية فى مصر والشام فى حالة نجاح الغزو الصليبى . وعندما اتضح لبيزا فشل مخطط أمورى تدخلت للوساطة بين الطرفين مستفيدة من ذلك بتسهيلات تجارية منحها لها الخليفة العاضد ، لكنها عادت ثانية إلى إيثار مصلحتها الخاصة فاشتركت مع الصليبيين سنة ١١٧٠ م فى الهجوم على دمياط (سرور : **سياسة الفاطميين الخارجية** ، ص ٢٥٠) .

(٨٦) العبادى وسالم : **تاريخ البحرية** ، ص ١٧٤ .

(٨٧) عطية القوصى : **تجارة مصر فى البحر الأحمر** ، ص ١٣٧ .

(88) Wiet: L'Egypte Arabe, p. 307.

مدرسة مصر الدينية
وصلتها بالأندلس
حتى أواخر القرن الثالث الهجرى

د. محمد بركات البيلى

مدرس التاريخ الإسلامى بآداب القاهرة

ما أن فتح المسلمون مصر عند نهاية العقد الهجرى الثانى ، حتى أخذوا يبذرون فيها بذور حركة علمية جديدة ، تتفق فى توجهاتها ومشارب الإسلام . وأدت ظروف الدولة الإسلامية الناشئة حينذاك وشغف المسلمين بتبليغ الدعوة ونشر الإسلام الصحيح فى الأمصار المفتوحة إلى الاهتمام بالعلوم الدينية أكثر من غيرها من العلوم الأخرى ، فظهرت فى الأمصار - فضلاً عن المدينة ومكة - مدارس دينية ، انصب جل اهتمامها على علوم الدين كالقراءة والحديث والفقه وما إلى ذلك .

وسارعت مصر الإسلامية لتنهل من علوم الدين الإسلامى فى أعقاب الفتح الإسلامى ، وكانت مدرستها الدينية من أسبق المدارس الإسلامية ظهوراً ، وربما كان ذلك نتيجة للعوامل الآتية :

١ - كان الفتح الإسلامى لمصر مبكراً عن كثير غيره من الفتوحات الإسلامية الأخرى ، فسنح[١] لمصر أن يدخلها نفر من الصحابة أحصاهم السيوطى ثلاثمائة ونيف[٢] وكان لكثير منهم رواية عن النبى ﷺ ، ولا شك أن العلماء منهم أخذوا يعلمون المصريين أصول الدين الإسلامى ، ويضعون الأساس لمدرسة مصر الإسلامية ، وكان أعظم هؤلاء الصحابة تأثيراً - بطبيعة الحال - من استوطن منهم مصر ، أو استقر فيها وقتاً طويلاً ، كعمرو بن العاص وأبى ذر الغفارى[٣] وعبد الله بن عباس[٤] وعقبة بن عامر الجهنى[٥] وقبل هؤلاء جميعاً عبد الله بن عمرو بن العاص الذى شهد فتح مصر مع أبيه واختط بها ويروى عنه أهلها نيف ومائة حديث[٦] ويعتبره البعض مؤسس مدرسة مصر الدينية[٧] .

٢ - كان لاختطاط الفسطاط ومسجدها الجامع المعروف بجامع عمرو ، أثره فى

ارساء قواعد مدرسة مصر الدينية ، فقد غدا الجامع العتيق مركزاً للحركة العلمية الدينية فى مصر زمناً طويلاً ، فكان يؤمه العلماء ويفد إليه طلاب العلم ويقصده الناس للاستفتاء فيما عن لهم من مسائل[٨] .

٣ - موقع مصر فى وسط العالم الإسلامى ، مما يسر لمدرستها الدينية سبل الاتصال بالمدارس الأخرى التى نشأت فى الحجاز والشام والعراق ، وقد أفادت المدرسة المصرية من هذه الاتصالات فائدة عظيمة ومع أن أكثر اتصالها كان بمدرسة المدينة لاعتبارات كثيرة ، فإن كثيراً من علماء مكة والكوفة وغيرهما كانوا يفدون إلى مصر بين آونة وأخرى[٩] .

٤ - ظهور جيل من المصريين من التابعين والأئمة المجتهدين ، تتلمذوا على من سبقوهم واستوعبوا علومهم ثم اجتهدوا بآرائهم التى تأثروا فى صياغتها بالبيئة المصرية[١٠] فأتموا بذلك إرساء قواعد مدرسة مصر الدينية ، وكان من هؤلاء - على سبيل المثال - عبد الرحمن بن حجيرة المعروف بابن حجيرة الأكبر ، روى عن عمرو بن العاص وإبنه عبد الله وعن أبى ذر الغفارى وعقبة ابن عامر الجهنى ، وكان من أفقه الناس فى وقته ، إذ قيل فيه أن رجلاً من أهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة ، فرد عليه ابن عباس مستهجناً أتسألنى وفيكم ابن حجيرة[١١] . ومنهم يزيد بن أبى حبيب المصرى الذى كان نوبى الأصل[١٢] وكان فى وقته فقيه مصر ومفتيها وقيل أنه أول من أظهر بمصر العلم والمسائل فى الحلال والحرام ، وكانت وفاته سنة ١٢٨ هـ[١٣] . ومنهم عبد الله بن لهيعة المصرى الذى خرج فى طلب الحديث والفقه ، وتولى قضاء مصر من قبل أبى جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ[١٤] وكان أول قاض استن الخروج لاستطلاع الهلال فى نفر من أهل المسجد ممن عرفوا بالصلاح[١٥] . وكان أشهر هؤلاء وأهمهم قاطبة قبل قدوم الشافعى إلى مصر ، الإمام الليث ابن سعد ، كبير الديار المصرية وإمامها فى وقته والذى دارت عليه الفتوى فى زمانه ، قال فيه الشافعى « كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه » وكانت وفاته سنة ١٧٥ هـ[١٦] .

بهؤلاء العلماء ومن جاء بعدهم توطدت أركان مدرسة مصر الدينية فى القرن الثانى الهجرى وتعددت اهتماماتها لتشمل كافة علوم الدين الإسلامى .

ففى القراءات ، كان للمدرسة المصرية باع طويل ، فبعد أن تتلمذ المصريون على نفر من الصحابة كعبد الله بن عمرو وعقبة بن عامر الجهنى وغيرهما ، وبعد أن أخذوا عن عدد من التابعين المصريين ، كأبى الخير مرثد اليزنى وقباب بن رزين ، وعن عدد من

الوافدين كعكرمة ومجاهد المكى تلميذى ابن عباس اللذين زارا مصر أواسط القرن الأول الهجرى[١٧] وعن أبى طعمة هلال القارىء المدنى الذى قدم إلى مصر وسكنها وتوفى بها سنة ١٠١ هـ[١٨] ، بعد ذلك توجه عدد من المصريين لتعلم القراءة على نافع ، قارىء المدينة الأشهر ، ومنهم : أبو سعيد سقلاب بن شنينة المصرى وأبو دحية معلى بن دحية ثم عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش والذى أوصل الإقراء فى مصر إلى ذروته . ومع أن ورشاً لم يكن المصرى الوحيد الذى قصد نافعا ، فقد كان هو الوحيد الذى اشتهر من بينهم فى الإقراء وأصبح صاحب مدرسة فيه[١٩] ولم يتسن لورش ذلك لمجرد أن صوته كان جميلاً لفت إليه انتباه أستاذه نافع فأولاه عنايته ، ولكن ورشا بعد عودته إلى مصر تعمق فى الدراسات النحوية واللغوية ، فاكتملت شخصيته العلمية ، وتمكن من إدخال تعديلات كثيرة على أستاذه نافع وخالفه فى بعض الأصول العامة للأداء وفى قراءة بعض الحروف وخرج من ذلك بقراءة خاصة مميزة تحمل اسمه وتنسب إليه[٢٠] .

وغلبت قراءة ورش على مصر بفضل تلاميذه كداود بن أبى طيبة المصرى وأبى يعقوب الأزرق الذى لزم ورشا مدة طويلة وأتقن عنه الأداء وخلفه فى رياسة الإقراء بالديار المصرية[٢١] وأبى الأزهر عبد الصمد بن عبد الرحمن العتقى أحد تلاميذ ورش المبرزين[٢٢] .

وفى علم الحديث : كان اهتمام المصريين به عظيماً كذلك ، إذ حفزهم إلى حفظ الحديث كثرة الداخلين إلى مصر من الصحابة ذوى الرواية ومن التابعين ، فوجدت فى مصر جمهرة من حفاظ الحديث كان لبعضهم رحلة للاستزادة فيه ، مثلما فعل عبد الله بن لهيعة الذى رحل فى طلب الحديث[٢٣] وعبد الله بن وهب المصرى الذى كان من أوائل من دونوا الحديث ، فدون فيه كتابه الجامع فى الحديث ، الذى يعد من أقدم الكتب فى موضوعه وقيل أن ابن وهب حدث بمائة ألف حديث ليس من بينها حديث منكر[٢٤] . وكان الحارث بن مسكين (ت ٢٥٠ هـ) من علماء الحديث ، ثقة ، ثبتا وله تصانيف[٢٥] ومن المعروف أن أصحاب الكتب الستة المشهورة فى الحديث وهم : البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ، قد زاروا مصر فى القرن الثالث الهجرى ، بل إن أحمد بن شعيب النسائى أقام فى مصر مدة طويلة قبل أن يغادرها سنة ٣٠٢ ليتوفى فى الرملة سنة ٣٠٣ هـ[٢٦] .

أما فى الفقه ، فقد زخرت مصر بالأئمة المجتهدين ، كابن حجيرة الأكبر وأبى الخير مرثد اليزنى ويزيد بن أبى حبيب الذين سبق ذكرهم ، وارتقى الفقه فى مصر على أيديهم

ثم وصل إلى أعلى مراتبه على يد الليث بن سعد أكبر أئمة مصر المجتهدين حتى وقته والذى كان خليقاً بتكوين مذهب خامس يضاف إلى المذاهب الأربعة المشهورة ، إلا أنه - على حد قول الشافعى - قد ضيعه أصحابه . فبدلاً من الاهتمام بفقه الليث ، اتجه الفقهاء المصريون - فى حياة الليث وبعد وفاته - إلى إمام دار الهجرة ليتفقهوا عليه ، ويعزو بعض الباحثين ذلك إلى قرب الشقة بين مصر والحجاز فى ذات الوقت الذى بعدت بين مصر والعراق ، ويعزوه أيضاً إلى تقدير المصريين للحجاز باعتباره مهد الرسالة وكعبة الحج وتقديرهم للمدينة بوجه خاص باعتبارها حاضرة ثقافية وروحية للمسلمين حتى بعد انتقال الخلافة إلى دمشق ، ونظرتهم إلى عمل أهل المدينة على أنه أقرب الأعمال لما كان عليه عمل النبى ﷺ[27] .

ومع أن فقه مالك قد أدخل إلى مصر فى حياة الليث[28] إلا أن وفاة الليث قبل مالك بنحو أربعة أعوام[29] ، فتحت - فيما يبدو - الطريق أمام انتشار المذهب المالكى فى مصر دون منافسة ، فذاع فيها على أيدى جماعة من فقهاء المالكية ممن رحلوا إلى مالك وتتلمذوا عليه كعبد الرحمن بن القاسم العتقى[30] وإسحاق بن الفرات التجيبى[31] وأشهب بن عبد العزيز[32] وعبد الله بن عبد الحكم[33] . وافرزت المالكية فى مصر جلة من الفقهاء لم يدركوا مالكا وإنما تتلمذوا على أصحابه من المصريين ، فأصبحت المالكية فى مصر فرعاً قائماً بذاته . كان يستقى منه ، وكانت تشد إليه الرحال خصوصاً بعد وفاة مالك نفسه ، ولمعت فى مصر طبقة ثانية من فقهاء المالكية منهم - على سبيل المثال - أصبغ بن الفرج[34] والحارث بن مسكين[35] وبنو عبد الحكم : عبد الحكم ومحمد وسعد وعبد الرحمن أبناء عبد الله بن عبد الحكم صاحب مالك ، ومنهم أيضاً أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن البرقى الذى كان يعد فى فقهاء المصريين وكانت له فى مصر حلقة مشهورة[36] .

هيمن المذهب المالكى على مصر ولم يفسح فيها مجالاً كبيراً للمذهب الحنفى[37] . وظل الحال على ذلك حتى قدم إلى مصر محمد بن إدريس الشافعى سنة ١٩٥ هـ واستوطنها وصنّف بها مذهبه الجديد ، الذى تضمنته كتبه الجديدة : الام والأمالى ومختصرات البويطى والمزنى والربيع المؤذن وغيرها من كتب الشافعية[38] وتتلمذ على الشافعى جلة من الفقهاء المصريين ولم يمض قرن حتى أصبحت مصر قسمة بين المذهبين المالكى والشافعى[39] .

واشتهر من فقهاء الشافعية فى مصر - من الطبقة الأولى - جماعة منهم - على سبيل

المثال - البويطى أبو يعقوب يوسف بن يحيى « أكبر أصحاب الشافعى وخليفته فى رئاسة الشافعية[40] والربيع بن سليمان المرادى المؤذن راوية كتب الشافعى ، والذى كانت إليه الرحلة من الافاق فى تصانيف الشافعى[41] ، والربيع بن سليمان الجيزى . وقحزم بن عبد الله الأسوانى ويونس بن عبد الأعلى المقرىء المحدث[42] .

وثمة ظاهرة جديرة بالتنويه هى وجود كثير من الأئمة المجتهدين الذين جمعوا بين فقه المالكية وفقه الشافعية على السواء حتى أن مصنفى كتب الطبقات والتراجم يضعونهم فى المالكية حيناً أو يضعونهم فى الشافعية حيناً آخر ، من هؤلاء الأئمة - على سبيل المثال - محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذى كان مالكياً أول أمره ثم لازم الشافعى وتفقه به ، فلما مات الشافعى رجع إلى المالكية وانتهت إليه رياستها فى مصر وقيل فى سبب ذلك ، أنه كان يتطلع إلى رياسة الشافعية بعد الشافعى لكن الشافعى قدم عليه أبا يعقوب البويطى ، فترك محمد بن عبد الحكم مذهب الشافعى ورجع إلى المذهب المالكى[43] ومن الفقهاء الذين جمعوا بين الشافعى ومالك الحارث بن مسكين : الذى يذكر السبكى أنه أخذ عن الشافعى على الرغم من أنه كان فقيهاً مالكياً ، ومنهم أيضاً عبد العزيز بن عمران الذى كان من أكابر المالكية ثم لزم الشافعى وتفقه على مذهبه[44] .

وجدير بالتنويه أيضاً أن بعض الفقهاء كانوا يأخذون أول أمرهم عن أحد المذاهب ثم لا يلبثون أن يجتهدوا ويستقلوا ويصدرون عن آرائهم الخاصة واجتهادهم الشخصى بل وكونوا لأنفسهم مذاهب خاصة بهم ، من هؤلاء - على سبيل المثال - حرملة بن يحيى التجيبى المصرى ، الذى قيل عنه أنه كان صاحب وجه[45] والمزنى الذى قيل أنه صاحب مذهب مستقل[46] .

وأسهمت مصر فى ميدان التصوف إسهاماً بارزاً ولا نغالى كثيراً إذا قلنا أن نشأة التصوف الإسلامى كانت مصرية . ففى مصر أطلق هذا الإسم - الصوفية - لأول مرة فى العالم الإسلامى على جماعة ظهرت بالاسكندرية حوالى عام ٢٠٠ هـ كانت تأمر بالمعروف وتعارض السلطان ، وكان يرأسها رجل يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى[47] . وكانت تحيط بعيسى بن المنكدر الذى ولى قضاء مصر سنة ٢١٢ هـ فى خلافة المأمون جماعة أطلق عليهم إسم الصوفية أيضاً وكانت هذه الجماعة كجماعة الاسكندرية ترمى إلى إصلاح أحوال المجتمع الإسلامى[48] .

وفضلاً عن هذا فلم يصبح التصوف مذهباً قائماً بذاته له تعاليمه وقواعده إلا على يد ذى النون المصرى ، الذى ولد بأخميم فى صعيد مصر ، وتتلمذ على مالك والليث وإبن

لهيعة وغيرهم واشتهر فى وقته بالعلم والزهد والورع ، وكان أول من تكلم فى علوم الصوفية ويعتبره الصوفية قطبهم ، ورائدهم ، وتأثر به الكثير منهم فى المشرق والمغرب وتوفى سنة ٢٤٥ هـ[٤٩] .

واشتهر من متصوفة المصريين بعد ذى النون ، أبو بكر الزقاق الذى كانت إليه رحلة الصوفية فلما مات انقطعت حجتهم فى دخولهم إلى مصر[٥٠] وكانت مصر قد غدت فى وقته قبلة الصوفية فنزلها الكثير منهم كأبى الحسن الواسطى وأبو على الروذبارى وغيرهما[٥١] .

على هذا النحو اكتمل نضج مدرسة مصر الدينية فى القرن الثالث الهجرى وكان من الطبيعى أن تنتقل من دور التأثر إلى دور التأثير ، وكان الأندلس – على وجه الخصوص – من أكثر الأمصار الإسلامية تأثراً بمدرسة مصر الدينية .

تأخر بزوغ الحياة الفكرية فى الأندلس نسبيا عن المشرق الإسلامى ، وقد أرجع بالنثيا ذلك إلى إنشغال الفاتحين بما دب بينهم من خلاف عصبى بين العرب أنفسهم حيناً آخر ، كما أرجعه أيضاً إلى قلة احتياج الأسبان الذين دخلوا فى الإسلام إلى التعمق فى الثقافة الإسلامية ، لأن الدخول فى الإسلام لم يكن يتطلب منهم إلا النطق بالشهادتين[٥٢] .

إلا أننا لا نستطيع مجاراة بالنثيا فيما ذهب إليه ، فلم يكن تأخر بزوغ الحياة الفكرية الأندلسية إلا لتأخر الفتح الأندلسى نفسه إلى نهاية القرن الأول الهجرى فلم يحظ الأندلس بقدوم أحد من الصحابة إليه اللهم ما قيل عن دخول صحابى واحد يسمى المنيذر الأفريقى[٥٣] ولم يحظ الأندلس إلا بقلة من التابعين تعد على أصابع اليد الواحدة[٥٤] إلا أن هؤلاء – على قلتهم – وضعوا البذرة الأولى للعلوم الدينية على نحو ما كان فى المشرق الإسلامى[٥٥] وكان الاهتمام بالعلوم الدينية مطلوباً ، ليس فقط لتعليم المسالمة[٥٦] أصول الدين الإسلامى ولكن أيضاً لتعليم القسم الأكبر من الفاتحين من البربر ، الذين كانوا حديثى عهد بالإسلام ولم يتعمقوا فى أصوله بعد ، ومن ثم فلم يكن عصر الولاة كما اعتقد بالنثيا – خلوا من الحياة الفكرية – وإلا فكيف تسنى لواحد من أبناء المسالمة كمهدى بن مسلم أن يتعمق فى الدين الإسلامى حتى يوصف بأنه من أهل الدين والعلم والورع وأن يستقضيه عقبة بن الحجاج السلولى على قرطبه[٥٧] بل ويكلفه أن يكتب لنفسه عهد توليته على لسان عقبة فجاء هذا العهد فريداً فى بابه ومثالاً يحتذى[٥٨] .

غير أن ما وصل إلينا عن الحياة الفكرية فى الأندلس فى عصر الولاة قليل وربما يرجع

ذلك إلى قصر هذا العصر الذى لم يستغرق من عمر الأندلس إلا أربعة عقود فقط[٥٩] .

على أية حال – لم تلبث الحياة الفكرية فى الأندلس أن نشطت بعد قيام الإمارة الأموية وربما يرجع ذلك إلى تشجيع أمويى قرطبة والاستقرار النسبى الذى تهيأ للأحوال السياسية على عهدهم ، واتصال الأندلس بالمشرق الإسلامى والتلقى عنه ، إما عن طريق ارتحال الأندلسيين إلى المشرق أو قدوم المشارقة إلى الأندلس[٦٠] ويمكن القول أنه فيما عدا الحجاز لم يؤم الأندلسيون بلداً من بلدان المشرق أكثر من مصر ، بل إن رحلتهم إلى الحجاز كانت تعنى بالضرورة رحلة إلى مصر ، إذ لم يكن لهم من سبيل إلى الحجاز دون المرور بها ومن ثم فقد كانت العلاقات الثقافية بين مصر والأندلس أوثق ما تكون حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، على الرغم من العداء السياسى بين عباسيى بغداد وأمويى قرطبة ، وكان لمصر نفوذ كبير على تكوين ثقافة الأندلس فى هذه الفترة[٦١] . لاسيما فى مجال العلوم الدينية .

ارتحل إلى المشرق عدد كبير من أهل الأندلس حتى أن المقرى ينص على أن « حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك على الاحاطة إلا علام الغيوب شديد المحال[٦٢] » .

وكانت الرحلة إلى المشرق لأغراض عديدة ، للحج وللتجارة ولطلب العلم ، أو لهذه الأغراض مجتمعة وكانت مصر قبلة طلاب العلم الأندلسيين خصوصاً بعد وفاة مالك وانتقال زعامة المالكية إلى فقهائها المصريين[٦٣] وأخذ الأندلسيون عن المصريين فى كافة علوم الدين الإسلامى .

ففى القراءة وعلى الرغم من أن الأندلسيين قد تعرفوا على قراءة نافع بعد أن حملها إليهم الغازى بن قيس فى صدر إمارة عبد الرحمن الداخل[٦٤] فإن الأندلسيين ما لبثوا أن أقبلوا على قراءة ورش المصرى ينهلون منها وانقطعوا عليها ، فتتلمذ الأندلسى محمد ابن عبد الله القرطبى على ورش نفسه وأخذ القراءة عنه عرضاً ثم عاد بها إلى الأندلس[٦٥] ثم أقبل كثير من الأندلسيين للتتلمذ على أصحاب ورش كأبى يعقوب الأزرق يوسف بن يسار الذى خلف ورش على الإقراء بمصر[٦٦] .

وقد ذكر ابن خير الأشبيلى أنه قرأ على شيوخه كتاباً فى قراءة ورش رواية أبى يعقوب الأزرق[٦٧] وكان أبعد تلاميذ ورش أثراً فى الأندلسيين ، أبو الأزهر عبد الصمد بن عبد الرحمن العتقى المصرى[٦٨] الذى تتلمذ عليه عدد كبير من قراء الأندلس أشهرهم محمد

بن صالح بن ربيع وإبراهيم بن محمد بن باز اللذين قدما إلى مصر فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وحوالى هذه الفترة قدم إلى مصر عبد الله بن مسعود الطليطلى وقرأ بها . وفى الثمانينات من هذا القرن قدم إلى مصر أيضاً المقرىء الأندلسى زكريا بن يحيى الذى أخذ عنه كثير من تلامذة ورش وأصبح ممثلاً قوياً لقراءة ورش فى الأندلس . وقبل أن ينتهى القرن الثالث قدم إلى مصر سعد بن حاتم الأشبيلى فقرأ بها وأتقن القراءة على أحمد بن هلال وغيره من الورشية ثم عاد إلى أشبيلية فكان يستقدم إلى قرطبة فى شهر رمضان من كل عام للقيام .

وفى الحديث : تلمذ الأندلسيون أول الأمر على نفر من المحدثين المصريين الذين دخلوا الأندلس ، ويأتى فى مقدمة هذا التابعيان المصريان : زيد بن قاصد السكسكى وعلى بن رباح اللخمى اللذان كانا يرويان الأحاديث عن الصحابة ويتبعهم آخرون كأحمد بن حازم المعافرى المصرى الذى بلغ درجة عالية فى حفظ الحديث حتى أن عبد الله بن لهيعة كان يروى عنه قبل أن ينتقل الأندلس ، واستوطن ابن حازم الأندلس وأعقب بها .

ثم أخذ الأندلسيون يرحلون إلى مصر طلباً للحديث منذ القرن الثانى الهجرى وربما كان أول من ارتحل إلى الشرق من الأندلسيين معاوية بن صالح الحضرمى الذى كان قد دخل الأندلس سنة ١٢٣ هـ ثم كلفه عبد الرحمن بن معاوية الداخل بالتوجه إلى الشرق لإحضار أخته أم الأصبغ ، وفى هذه الرحلة اتصل معاوية بن صالح بالمصريين وروى عنهم ورووا عنه .

وتوالى ارتحال المحدثين الأندلسيين بعد ذلك إلى الشرق فخرج محبوب بن قطن البجانى إلى مصر قبل سنة ٢٢٢ هـ طلباً للحديث فسمع من عبد الله بن صالح كاتب الليث . وقريباً من هذا الوقت — رحل إلى مصر أيضاً عبد الله بن محمد بن زرقون السرقسطى فحدث عن عبد الله بن صالح وعن أصبغ بن الفرج . وحتى منتصف القرن الثالث الهجرى كان قد توافد على مصر جلة من المحدثين الأندلسيين رووا الحديث عن حفاظها ، من هؤلاء الأندلسيين — على سبيل المثال — بقى بن مخلد ورفيق رحلته قاسم بن محمد قاسم بن سيار وأحمد بن عمرو الأسيرى ، سمع من يونس بن عبد الأعلى وغيره ولقى محمد بن سنجر الجرجانى وروى عنه مسنده ، وظلت رواية أحمد بن عمرو هذا لمسند ابن سنجر متداولة حتى رواها عن شيوخه ابن خير الأشبيلى فى القرن السادس الهجرى وكان أحمد بن عمرو عالماً بالحديث حافظاً له بصيراً بعلله إماماً فيه

وكانت إليه الرحلة فى وقته . وحوالى سنة ٢٥٧ هـ قدم إلى مصر ألبيرى آخر من أهل الحديث هو محمد بن فطيس بن واصل الغافقى ، وبعده بعامين — أى سنة ٢٥٩ هـ — قدم إلى مصر مسلم بن أحمد بن أبى عبيدة الليثى القرطبى المعروف بصاحب القبلة، فلقى جماعة من أهل الحديث وسمع من المزنى والربيع المؤذن ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهم . وفى سنة ٢٨٨ هـ قدم إلى مصر ثابت بن حزم وابنه قاسم بن ثابت ، وكانت رحلتهما واحدة وسماعهما واحد ، فسمعا بمصر من أحمد بن عمرو البزاز وأحمد بن شعيب النسائى ، وكان ثابت وابنه قاسم أول من أدخل الأندلس كتاب العين وهو مصنف فى الحديث لابن سنجر ، وألف قاسم بن ثابت كتاباً فى شرح غريب الحديث ومعانيه أسماه الدلائل لكنه توفى دون أن يكمله فأكمله أبوه ثابت بن حزم الذى عمر طويلاً ، وقبيل نهاية القرن الثالث الهجرى رحل إلى مصر المحدث الأندلسى فسمع بها ومات فيها سنة ٢٩٣ ، ورحل إلى مصر أيضاً أبو بكر محمد بن معاوية المعروف بابن الأحمر فلقى فيها أحمد بن شعيب النسائى وروى عنه مصنفه فى السنن وكان أول من أدخله الأندلس ، وقد ذكر ابن خير أنه قرأ سنن النسائى برواية ابن الأحمر وأن ابن الأحمر سمعها على النسائى بفسطاط مصر سنة ٢٩٧ هـ .

وفى الفقه يمكن القول أن مدرسة مصر الدينية كان لها صدى عميقاً جداً فى الأندلس ، ولم يقتصر ما أخذه فقهاء الأندلس عن الفقهاء المصريين على الفقه المالكى بل أخذوا عنهم أيضاً فقه الليث بن سعد وفقه الشافعى .

وعلى الرغم من أن مذهب الليث بن سعد لم يعمر طويلاً إلا أنه باشر نفوذاً عظيماً فى الأندلس لم يقدر له فى مصر نفسها ، فقد أخذ عن الليث وكاتبه عبد الله بن صالح عدد من الأندلسيين منهم معاوية بن صالح الحضرمى وزياد بن عبد الرحمن اللخمى المعروف بشبطون وعباس المعلم القرطبى وقرعوس بن العباس الثقفى ويحيى بن يحيى الليثى وداود بن عبد الله القيسى الأشبيلى وسمع كثير من فقه الليث عن طريق يحيى بن عبد الله بن بكير .

وقد كان الأندلسيون يعتدون بكثير من آراء الليث حتى أن يحيى بن يحيى الليثى مع علو كعبه فى المالكية وفضله فى التمكين لها فى الأندلس ، كان يأخذ برأى الليث فى بعض المسائل تاركا فيها رأى مالك — من ذلك أنه ترك القنوت فى الصبح اتباعاً لرأى الليث بن سعد ، وترك يحيى أيضاً رأى مالك فى اليمين مع الشاهد وأخذ بقول الليث فى ذلك وإيجاب شهيدين وتوارث بنو يحيى الليثى علم الليث بن سعد خلفاً عن سلف فظل

معتداً به في الأندلس زمناً طويلاً .

وكان للمالكية المصرية أعظم الأثر في الفقه الأندلسي فحتى هؤلاء الذين اتصلوا بمالك نفسه من الأندلسيين كانوا لا يستغنون عن الاتصال بأصحابه من المصريين ، يأخذون عنهم في حياة مالك وبعد وفاته . فكما أخذ شبطون عن مالك ، أخذ أيضاً عن عبد الرحمن بن القاسم أكبر تلاميذ مالك وزعيم المالكية المصرية في وقته[100] ، وكما أخذ يحيى بن يحيى الليثي عن مالك وروى عنه أفضل روايات الموطأ ، أخذ أيضاً عن عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب ونقل عنهما كثيراً[101] . وكان القاضي محمد بن بشير المعافري قد لقي مالك ثم طلب العلم بمصر ، ثم عاد إلى الأندلس فولاه الحكم الربضي قضاء قرطبة ، فكان إذا اختلف عليه العلماء واشكل عليه الأمر ، كتب إلى مصر يستشير ابن القاسم وابن وهب[102] .

وبعد وفاة مالك ، أصبحت المالكية المصرية قبلة طلاب العلم الأندلسيين فتتلمذوا على أئمتها جيلاً بعد آخر فأصبح للمالكية المصرية تلاميذ في كافة المدن الأندلسية يعتدون بآراء المصريين ويرجعون إليهم في المعضلات التي تعن لهم .

تتلمذ على عبد الرحمن بن القاسم عدد كبير من الأندلسيين منهم – على سبيل المثال – شبطون الذي كان له سماع معروف عن ابن القاسم[103] ، ويحيى بن يحيى الليثي ، وعيسى بن دينار الغافقي ، كان يلقب بفقيه الأندلس ، سمع من ابن القاسم وصحبه وعول عليه وكان ابن القاسم يجله ، وانصرف إلى الأندلس فكانت الفتيا تدور عليه لا يتقدمه في وقته أحد[104] ، وأخذ عن ابن القاسم محمد بن بشير القاضي والفرج بن كنانة الذي ولي قضاء قرطبة بعد ابن بشير[105] وفضل بن عميره الكناني الذي ولي قضاء تدمير في إمرة الحكم الربضي[106] . وأخذ عن ابن القاسم أيضاً محمد بن خالد الأشج المعروف بابن مرتنيل ، تولى الشرطة للأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم[107] وآخرون .

وتتلمذ على ابن وهب وأشهب بن عبد العزيز عدد من الأندلسيين منهم هشام بن حيش الطليطلي ، سمع من ابن القاسم وأشهب[108] ، وعبد الملك ابن الحسين بن زريق سمع من ابن القاسم وابن وهب وأشهب[109] ، وكذلك حسين بن عاصم العريان[110] . وكان القاضي يحيى بن معمر الالهاني فقيه أشبيلية في وقته ثم تولى قضاء الجماعة بقرطبة من تلاميذ أشهب بن عبد العزيز[111] . واختص داود بن جعفر بن أبي صغير بابن وهب[112] واختص موسى بن الفرج الشجيلة بأشهب بن عبد العزيز وهو الذي دعا

عليه ابن القاسم لسعيه بالوقيعة بين أشهب وابن القاسم حتى أفسد ما بينهما[113] . وكان سعيد بن حسان الصائغ يغلب عليه حفظ رأي أشهب ، وكان مشاوراً مع يحيى بن يحيى وقاسم بن هلال[114] .

وتتلمذ الجيل التالي من الأندلسيين على أصبغ بن الفرج مفتي مصر وقته وتلميذ ابن القاسم وابن وهب ، وقيل أنه كان أعلم خلق الله برأي مالك وأن مصر ما أخرجت مثله[115] ، وتتضح مكانته في كثرة تلاميذه من الأندلسيين الذين لم يتوفر عدد مثلهم لغيره من الفقهاء المصريين ، وانتشر تلاميذه في كافة المدن الأندلسية وشغلوا مناصب هامة في القضاء والشرطة فكان لهم نفوذ عظيم . وربما كان أهم تلاميذ أصبغ هو عبد الملك بن حبيب السلمي الذي كان مشاوراً مع يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان الصائغ وغيرهما ، وكان يقال له عالم الأندلس وله تواليف كثيرة قيل أنها بلغت ألفاً ، أشهرها كتاب الواضحة في مذهب مالك[116] . وتتلمذ على أصبغ بن الفرج أيضاً عامر بن معاوية اللخمي ، كان أصله من ريه وولاه الأمير المنذر قضاء الجماعة بقرطبة[117] وعنه كانت تروى آداب القضاة من تأليف أصبغ[118] ومنهم أيضاً عبد الله بن محمد بن خالد الذي كان رأس المالكية في وقته وكان أشد أصحابه على بقي بن مخلد[119] وعبد الأعلى بن وهب الذي كان مشاوراً في الأحكام مع يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وعبد الملك بن حبيب وكان يرجع إليه للتثبت من رأي أصبغ[120] ومحمد بن يوسف بن مطروح ولاه الأمير محمد الصلاه ، وكانت الفتيا تدور عليه في أيامه مع عبد الأعلى بن وهب وأصبغ بن خليل[121] ، وكان أصبغ بن خليل تلميذاً لأصبغ بن الفرج وكان من أكثر الأندلسيين تعصباً لرأي أصحاب مالك المصريين ولابن القاسم منهم خاصة[122] وغير هؤلاء كثيرون .

ولم يدان أصبغ بن الفرج في كثرة تلاميذه من الأندلسيين سوى محمد بن عبد الله بن الحكم رئيس المالكية في وقته ، ولم يأخذ الأندلسيين عنه فقه مالك فقط بل أخذوا عنه أيضاً فقه الشافعي الذي كان ضليعاً فيه . تتلمذ عليه من المالكية الأندلسيين عدد كبير منهم – على سبيل المثال – إسماعيل بن عروس الشذوني كان مفتي أهل بلده في وقته[123] ، وحفص بن عمرو بن نجيح الألبيري[124] ، وعمر بن يوسف بن عمروس الأشبيلي أخذ عن محمد وعن أخيه سعد[125] وغير هؤلاء كثيرون أخذوا عن بني عبد الحكم . ثم توافدت أجيال من المالكية الأندلسية أخذت عن يونس ابن عبد الأعلى والحارث بن مسكين وأبي الطاهر بن السرح وأحمد بن عبد الرحيم البرق وغيرهم من

أئمة المالكية المصرية .

أما الفقه الشافعى ، فقد عرف هو الآخر طريقه إلى الأندلس على يد جماعة من فقهائه الذين تتلمذوا على أصحاب الشافعى ومالوا إلى مذهبه ، ويعد بقى بن مخلد أول من أدخل فقه الشافعى إلى الأندلس[١٢٦] ولفت إليه أنظار الأندلسيين فأخذوا يتوافدون لدراسته . تتلمذوا على أصحاب الشافعى كالبويطى والمزنى والربيعين ، ومحمد ابن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهم .

وقدم إلى مصر قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار فسمع من محمد بن عبد الله ابن الحكم ومن المزنى وإبراهيم بن محمد الشافعى وغيرهم وكان لقاسم هذا تحقق بمذهب الشافعى وتواليف فيه[١٢٧] بل إن بالنثيا يعزو إليه إدخال المذهب الشافعى إلى الأندلس[١٢٨] .

ثم قدم إلى مصر جماعة من تلاميذ بقى بن مخلد فتتلمذوا على الشافعية المصريين ، من هؤلاء أسلم بن عبد العزيز الذى لقى المزنى والربيع المؤذن ومحمد بن عبد الحكم[١٢٩] ، ومنهم مسلم بن أحمد بن أبى عبيده يملا بمصر من المزنى والربيع المؤذن وابن عبد الحكم[١٣٠] وهارون بن نصر القرطبى الذى صحب بقى بن مخلد أربعة عشر عاما وحفظ كتب الشافعية وتفقه فيها[١٣١] .

إلا أن المذهب الشافعى لم يقدر له الانتشار فى الأندلس لشدة ما لقيه من معارضة فقهاء المالكية على الرغم من أن الدولة فى الأندلس أفسحت صدرها لفقهاء الشافعية[١٣٢] حتى أن أسلم بن عبد العزيز تولى قضاء قرطبة مرتين .

وكان لمدرسة مصر الدينية تأثيرها فى ميدان آخر فى الأندلس هو ميدان التصوف ، إذ دانت الأندلس بظهور التصوف فيها إلى متصوفة مصر لاسيما الصوفى المصرى ذى النون الأخميمى ، الذى كان لأرائه تأثير عظيم فى آراء ابن مسرة القرطبى[١٣٣] فقد كان أبو عبد الله بن مسرة بن نجيح القرطبى أول من سلك طريق التصوف فى الأندلس على طريقة ذى النون المصرى . يقول عنه ابن الفرضى فى تحامل ظاهر عليه « كان يقول بالاستطاعة وإنفاذ الوعيد ويحرف التأويل فى كثير من القرآن » وكان مع ذلك يدعى التكلم على تصحيح الأعمال ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق فى نحو من كلام ذى النون الأخميمى وأبى يعقوب النهرجورى وكان له لسان يصل به إلى تأليف الكلام وتمويه الألفاظ وإخفاء المعانى[١٣٤] وكما كان موقف المصريين من ذى النون متفاوتاً بين مؤيد

وطاعن ، كان موقف الأندلسيين من ابن مسرة كذلك فقد انقسموا فرقتين : فرقة تبلغ به مبلغ الإمامة فى العلم والزهد وفرقة تطعن عليه بالبدع[١٣٥] .

هكذا يتضح أن مدرسة مصر الدينية كان لها صلة بل تأثير عظيم على الحياة الفكرية فى الأندلس حتى القرن الثالث الهجرى بل إن هذا التأثير قد استمر لما بعد ذلك بوقت طويل .

هوامش

السانح ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك .

(١) فى لسان العرب ، مادة سنح : السانح ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك .

(٢) **حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة** ، جـ ١ ، ص ١٦٦ وما يليها .

(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .

(٥) البلاذرى : **فتوح البلدان** ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ .

(٦) السيوطى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٥ .

(٧) سيدة كاشف : **مصر فى عصر الولاة** ، ص ١٧٤ .

(٨) محمد بهجت عصفور : **المجتمع المصرى فى عصر الولاة** ، رسالة ماجستير ص ١٠٢ . وسيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ١٨١ .

(٩) عبد الله خورشيد : **تاريخ القرآن وعلومه فى عصر الولاة** ، رسالة ماجستير ص ١٢١ وما يليها .

(١٠) يدل على تأثر فقهاء مصر بالبيئة المصرية ما ذكره المقريزى فى خططه (جـ ١ ص ٢٠١) عن مخالفة بعضهم لمالك فى بعض المسائل كرأيهم فى سبى النوبة المخالف لرأى مالك وتبرير الليث بن سعد ذلك بقوله « نحن أعرف بأرض النوبة من مالك » . ويدل عليه أيضاً ما هو مشهور عن تعديل الشافعى لبعض قواعد مذهبه بعد قدومه إلى مصر وسكناه فيها .

(١١) العسقلانى : **رفع الإصر عن قضاة مصر** ، قسم ٢ ، ص ٣١٦ .

(١٢) ابن عبد الحكم : **فتوح مصر وأخبارها** ، ص ١٨٨ .

(١٣) ابن سعد : **الطبقات الكبرى** ، جـ ٧ ، ص ٥١٣ .

(١٤) العسقلانى : المصدر السابق ، قسم ٢ ، ص ص ٢٨٧ – ٢٨٨ .

(١٥) الكندى : **كتاب الولاة والقضاة** ، ص ٣٧٠ .

(١٦) ابن سعد : **الطبقات الكبرى** ، جـ ٧ ، ص ٥١٧ . والسيوطى ، **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٣٠١ .

(١٧) عبد الله خورشيد البرى : المرجع السابق ، ص ص ١٢٠ – ٢٢ .

(١٨) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ١٧١ .
وعبد الله خورشيد البرى : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(١٩) أحمد نصيف الجنابى : **الدراسات اللغوية والنحوية فى مصر منذ نشأتها حتى نهاية القرن الرابع الهجرى** ، ص ٣٢ .

(٢٠) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٤٨٥ ، ومحمد بهجت عصفور : المرجع السابق ص ١٠٦ .

(٢١) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٤٨٦ ، ومحمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٣٧ ، وسيدة كاشف : المرجع السابق ص ١٧٧ .

(٢٢) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٤٨٦ .

(٢٣) العسقلانى : **رفع الأمر** ، قسم ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٢٤) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٣٠٢ – ٣٠٣ . ومحمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٣٩ – ٤٠ .

(٢٥) السبكى : **طبقات الشافعية** ، جـ ٢ ، ص ١١٣ .

(٢٦) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٣٥٠ . وسيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٢٧) عبد الله خورشيد : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٢٨) اختلف المؤرخون حول من أدخل فقه مالك إلى مصر ، فذكر المقريزى أنه عبد الرحيم بن خالد بن يزيد الجمحى ، بينما يذكر ابن فرحون والسيوطى أن الذى أدخله إلى مصر عثمان بن الحكم الجذامى . لكن ابن حجر العسقلانى يجمع بين الرأيين ويذكر أن عبد الرحيم بن خالد وعثمان بن الحكم كانا معا أول من قدم بمسائل مالك إلى مصر .

(٢٩) توفى الليث ١٧٥ هـ بينما توفى مالك ١٧٩ هـ .

(٣٠) السيوطى ، **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٣٠٣ .

(٣١) ابن فرحون : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، ص ٩٦ .

(٣٢) نفس المصدر ، ص ٩٨ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، والسيوطى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ .

(٣٤) ابن فرحون : **الديباج المذهب** ص ٩٧ ، والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ، ص ٣٠٨ .

(٣٥) ابن فرحون : المصدر السابق ص ١٠٦ .

(٣٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٨٣ .

(٣٧) يذكر الكندى (الولاة والقضاة ، ص ٣٧١) : أن إسماعيل بن اليسع الحنفى جاء قاضياً لمصر بعزل ابن لهيعة سنة ١٦٤ هـ ولكن المصريين لم يكونوا يعرفون المذهب الحنفى وشنقوه ، ويذكر السيوطى (**حسن المحاضرة** ، جـ ٢ ، ص ١٤١) أن إسماعيل بن اليسع الحنفى الكوفى تولى قضاء مصر فكتب الليث فى عزله ، غير أن السبكى (**طبقات الشافعية** ، جـ ١ ، ص ٣٢٧) يذكر صراحة أنه « قبل ظهور مذهب الشافعى بالديار المصرية لم يكن يلى القضاء ولا الخطابة إلا من هو على مذهب مالك فلم يكن للحنفية مدخل فى هذه البلاد فى وقت من الأوقات إلا القاضى بكار فإنه ولى الديار المصرية مدة » .
ومع ذلك فإننا نجد دلالات قاطعة على وجود بعض قضاة الحنفية قبل بكار كابن أبى الليث غريم البويطى الذى حرض ضده الخليفة الواثق .

(٣٨) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٣٠٤ .

(٣٩) سيدة إسماعيل الكاشف : المرجع السابق ، صص ١٨٠ – ١٨١ .

(٤٠) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ ، والسبكى : **طبقات الشافعية** جـ ٢ ، ص ١٦٢ .

(٤١) السبكى : المصدر السباق ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ – ١٣٤ .

(٤٢) نفس المصدر : جـ ٢ ، ص ١٧٠ والسيوطى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ .

(٤٣) السبكى : طبقات الشافعية ، جـ ٢ ، ص ٦٨ والسيوطى : **حسن المحاضرة** جـ ١ ، ص ٣٠٩ .

(٤٤) السبكى : **طبقات الشافعية** جـ ٢ ، ص ١١٣ ، السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٣٩٨ .

(٤٥) السيوطى : **حسن المحاضرة** جـ ١ ، ص ٣٠٧ .

(٤٦) نفس المصدر ، نفس الصفحة .
(٤٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٦٢ ، وآدم متز ، **الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى** . جـ ٢ ، ص ٢٢ .
(٤٨) آدم متز : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢ .
(٤٩) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٥١١ – ٥١٢ . وسيدة إسماعيل الكاشف ، المرجع السابق ، ص ٨٢ – ٨٣ .
(٥٠) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٥١٢ ، وآدم متز ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤ .
(٥١) السيوطى : المصدر السابق ، جـ ١ ، صص ٥١٢ – ٥١٣ .
(٥٢) بالنثيا : **تاريخ الفكر الأندلسى** ، ص ١ .
(٥٣) الحميرى : **صفة جزيرة الأندلس** ، ص ٣ .
(٥٤) المراكشى : **المعجب فى تلخيص أخبار المغرب** ، ص ١٤ .
والحميرى : المصدر السابق ، ص ٤ ، والحميدى : **جذوة المقتبس** ، ص ٦ .
(٥٥) أحمد أمين : المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٨ .
(٥٦) المسالمة : لفظ كان يطلق على الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام .
(٥٧) كان عقبة بن الحجاج السلول والياً على الأندلس فى الفترة من ١١٦ – ١٢٣ هـ .
(٥٨) الخشنى : **قضاة قرطبة** ، ص ٩ – ١٢ .
والنباهى : **المرقبة العليا** : ص ٤٢ .
(٥٩) استغرق عصر الولاة ، فى مصر نحو قرنين ونصف واستغرق فى المغرب أكثر من ثلاثة أجيال .
(٦٠) ليفى بروفنسال : **الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية** ، ص ١٧ ، وما بعدها .
(٦١) M. A. Makki, Ensayo Sobre les apratationes orientales en le espana Musulmana, RIEIM, Vols XI-X, (1961-1962) pp. 65-231.
(٦٢) المقرى : **نفح الطيب** ، جـ ٢ ، ص ٦ .
(٦٣) Makki, op. cit., pp. 183-185.
(٦٤) ابن الفرضى : **تاريخ علماء الأندلس** ، ١٥ – ١ والحميدى : **جذوة المقتبس ٧٤٨** ، والضبى : بغية الملتمس ، ١٢٧٢ .
(٦٥) عبد الله خورشيد البرى : المرجع السابق ، ص ١٨٣ .
(٦٦) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٤٨٦ .
(٦٧) ابن خير : **فهرسة ما رواه عن شيوخه** ، ص ٣٣ .
(٦٨) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٤٨٦ .
(٦٩) ابن الفرضى : ١١٣٦ .
وعبد الله خورشيد : المرجع السابق : ص ١٨٣ .
(٧٠) ابن الفرضى : ٦٤٣ .
(٧١) عبد الله خورشيد : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .
(٧٢) ابن الفرضى : ٥٣٩ .
(٧٣) الحميدى/ ٤٤ ، الضبى/ ٧٥٧ ، المراكشى ، **المعجب** ، ص ١٤ .
(٧٤) ابن الفرضى/ ٩١٥ ، الحميرى : **صفة جزيرة الأندلس** ، ص ٤ ، السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١، ص ٢٩٧ .
(٧٥) ابن الفرضى/ ٥٥ ، الحميرى ، ٢٠٤ ، الضبى : ٣٩٥ .

(٧٦) النباهى : المرتبة العليا ، ص ٤٣ ، ابن الفرضى ، ١٤٤٥ ، الحميدى/ ٧٩٦ ، الضبى/ ١٣٣٨ .
(٧٧) الحميدى/ ٨١٦ ، الضبى/ ١٣٦٤ .
(٧٨) ابن الفرضى/ ٦٣٩ ، الحميدى/ ٥٢٢ ، الضبى/ ٥٧١ .
(٧٩) ابن الفرضى/ ٢٨٣ ، الحميدى/ ٣٣١ ، الضبى/ ٥٨٤ . وابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود على مكى ، ص ٢٦٢ – ٢٦٥ .
(٨٠) ابن الفرضى/ ١٠٤٩ ، الحميدى/ ٧٦٤ ، الضبى/ ١٢٩٣ . والسيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٣١٠ .
(٨١) ابن خير ، **فهرسه** ، ص ٢٤٢ .
(٨٢) ابن الفرضى/ ٧٦ ، الحميدى/ ٢٧٣ ، الضبى/ ٤٤٩ .
(٨٣) ابن الفرضى/ ١٢٠٥ ، الحميدى/ ١٢٩ ، الضبى/ ٢٥٢ .
(٨٤) ابن الفرضى/ ١٤٢٠ ، الحميدى/ ٨٢٢ ، الضبى/ ١٣٧٢ .
(جعل ابن الفرضى وفاته سنة ٢٩٥ هـ وجعلها الحميدى سنة ٣٠٤ هـ) .
(٨٥) ابن الفرضى/ ٣٠٨ ، الحميدى/ ٣٤٥ ، الضبى/ ٦٠٣ ، يسميه القفطى ثابت بن عبد العزيز . (أنباه الرواة ص ٢٦٢) .
(٨٦) المقرى ، **نفح الطيب** ، جـ ٦ ، ص ١٢٣ ، والقفطى ، المصدر السابق جـ ١ ، ص ٢٦٢ .
(٨٧) ابن خير : **فهرسه** ، ص ١٩١ – ١٩٢ .
(٨٨) الحميدى/ ٤٠ ، الضبى/ ٩٥ .
(٨٩) الحميدى/ ١٤٠ ، الضبى/ ٢٧١ .
(٩٠) ابن خير ، فهرسه ، ص ١١٠ – ١١١ .
(٩١) محمود على مكى ، التأثيرات المشرقية فى الأندلس ومدى أثرها فى تكون الثقافة الأندلسية ، صحيفة معهد الدراسات بمدريد (**ملخصات**) ص ٤٩٤ – ٤٩٩ .
(٩٢) ابن الفرضى/ ١٤٤٥ ، الحميدى : ص ٧٩٦ ، الضبى/ ١٣٣٨ ، الخشنى : **قضاة قرطبة** ، ص ١٥ . والنباهى : **المرقبة العليا** ، ص ٤٣ .
(٩٣) ابن الفرضى/ ٤٥٨ ، الحميدى/ ٤٣٩ ، الضبى/ ٧٥١ ، والمقرى ، **النفح** جـ ٦ ، ص ١٠٨ .
Makki, op. cit., p. 192.
(٩٤) ابن الفرضى/ ٨٧٩ .
(٩٥) ابن الفرضى : ١٠٨٤ ، الحميدى/ ٧٨٠ ، الضبى/ ١٣١٢ .
(٩٦) ابن الفرضى/ ١٥٥٦ ، الحميدى/ ٩٠٩ ، الضبى/ ١٤٩٨ ، المقرى ، **النفح** جـ ٦ ، ص ١٦ – ١٩ . وابن حيان ، **المقتبس** ، ص ٨٤ .
(٩٧) ابن الفرضى/ ٤٢٦ .
(٩٨) ابن الفرضى/ ١٥٥٦ .
(٩٩) Makki, op. cit., p. 193.
(١٠٠) ابن الفرضى/ ٤٥٨ ، الحميدى/ ٤٣٩ ، الضبى/ ٧٥١
(١٠١) والمقرى ، **النفح** ، جـ ٦ ، ص ١٠٨ . ابن الفرضى : ١٥٥٦ ، الحميدى/ ٩٠٩ ، الضبى/ ١٤٥٨ ، والمقرى ، **النفح** ، جـ ٦ ، ص ١٦ – ١٩ ، وابن حيان : **المقتبس** ، ص ٨٤ .
(١٠٢) الخشنى : **قضاة قرطبة** ص ٣٥ ، والنباهى : **المرقبة العليا** ، ص ٤٨ .
(١٠٣) ابن الفرضى/ ٤٥٨ ، الحميدى/ ٤٣٩ ، الضبى/ ٧٥١ ، المقرى ، جـ ٦ ، ص ١٠٨
(١٠٤) ابن الفرضى/ ٩٧٥ ، الحميدى ، ٦٧٨ ، الضبى/ ١١٤٣ .

(١٠٥) الخشنى/ **قضاة قرطبة** ص ٤٠ ، النباهى : **في المرقبة العليا** ص ٥٣ ، وابن الفرضى/ ١٠٣٠ ، الحميدى/ ٧٦٢ ، الضبى/ ١٢٩١ .

(١٠٦) ابن الفرضى : ١٠٤٠ ، الحميدى/ ٧٥٨ ، الضبى/ ١٢٨٥ .

(١٠٧) ابن الفرضى/ ١١٠١ ، الحميدى/ ٤٣ ، الضبى/ ١٠٢ .

(١٠٨) ابن الفرضى : ١٥٤٢ ، الحميدى/ ٨٦٥ ، الضبى/ ١٤٢٩ .

(١٠٩) ابن الفرضى : ٨٢٥ ، الحميدى/ ٦٢٧ ، الضبى/ ١٦٢٠ .

(١١٠) ابن الفرضى/ ٣٥١ ، الحميدى/ ٣٧٤ ، الضبى/ ٦٤٩ .

(١١١) الخشنى : **قضاة قرطبة** ، ص ٤٥ .

(١١٢) ابن الفرضى/ ٤٢٥ ، الحميدى/ ٤٢٠ .

(١١٣) ابن الفرضى/ ١٤٥٨ ، الحميدى/ ٧٩٢ ، الضبى/ ١٣٣٩ .

(١١٤) ابن الفرضى/ ٤٧٢ ، الحميدى/ ٤٦٨ ، الضبى/ ٧٩٦ ، ابن حيان : **المقتبس** ، ص ٨٦ .

(١١٥) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ .

(١١٦) ابن الفرضى/ ٨١٦ ، الحميدى/ ٦٢٨ ، الضبى/ ١٠٦٣ ، المقرى : النفح جـ ٦ ، ص ٧ - ١١ .

(١١٧) ابن الفرضى/ ٦٣٠ .

(١١٨) الخشنى ، **قضاة قرطبة** ، ص ٩٠ .

(١١٩) ابن الفرضى/ ٦٣٥ .

(١٢٠) ابن الفرضى/ ٨٣٧ ، الحميدى/ ٦٥٤ ، الضبى/ ١١٠٦ .

(١٢١) ابن الفرضى/ ١٠٩٣ .

(١٢٢) ابن الفرضى/ ٢٤٧ ، ابن فرحون ، **الديباج** ، ٩٧ .

(١٢٣) ابن الفرضى/ ٢١٠ .

(١٢٤) ابن الفرضى/ ٣٦٦ .

(١٢٥) نفسه/ ٩٤٥ .

(١٢٦) ابن الفرضى/ ٢٨٣ ، الحميد/ ٣٣١ ، الضبى/ ٥٨٤ ، **المقتبس** ، ص ص ٢٦٢ - ٢٦٥ .

(١٢٧) ابن الفرضى/ ١٠٤٩ ، الحميدى/ ٧٦٤ ، الضبى/ ١٢٩٣ ، السبكى ، جـ ٢ ، ص ٣٤٤ . والمقرى ، جـ ٦ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(١٢٨) بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٤٣١ .

(١٢٩) ابن الفرضى : ٢٨٠ ، الحميدى/ ٣٢٢ ، والضبى/ ٥٧١ ، ابن فرحون **الديباج** ، ص ٩٩ .

(١٣٠) ابن الفرضى/ ١٤٢٠ ، الحميدى ٨٢٢ .

(١٣١) ابن الفرضى/ ١٥٣١ ، بالنثيا : المرجع السابق ص ٤٣٣ .

(١٣٢) محمود على مكى : المرجع السابق ، ص ٤٩٨ .

(١٣٣) نفس المرجع السابق : ص ٤٩٩ .

(١٣٤) ابن الفرضى/ ١٢٠٤ .

(١٣٥) الحميدى/ ٨٣ ، الضبى/ ١٦٣ .

مصر ومشروع عبد الرحمن الداخل في بعث الخلافة الأموية بالمشرق

د . عبادة عبد الرحمن كحيلة

مدرس التاريخ الإسلامي بآداب القاهرة

فى سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م اقتحم أبو مسلم الخراسانى مدينة الكوفة ، وسلم على أبى العباس الذى دعى بالسفاح بالخلافة .

وفى سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م ، اقتحم عبد الرحمن الداخل شبه الجزيرة الأندلسية وأقام الإمارة الأمويّة بها .

وفى سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م ، أعلن عبد الرحمن الثالث الخلافة الأموية بالأندلس وتسمى بالناصر لدين الله .

السؤال الآن .. هل كان عبد الرحمن الداخل يطمع فى بعث الخلافة الأموية بالمشرق ؟ يلوح لنا إن هذا الطموح صحيح ، ولا يمنع منه إن لم يوفق صاحبه فى تحقيقه ، ولدينا عليه شواهد .

— ١ —

كان التصور العام فى الفقه السياسى الإسلامى ، أن دار الإسلام ، وإن تعدّدت سياسياً ، إلا أنها فى النهاية دار واحدة ، لا يجوز أن يتولاها إلاّ خليفة واحد فى وقت واحد .

صحيح أنه ظهر فى مرحلة متأخرة مبدأ آخر يجيز إقامة إمامين (أو خليفتين) فى وقت واحد ، لكن هذا المبدأ لم يلق قبولاً عند جمهور المسلمين[1] ، ثم أنه لا يتعاصر مع عبد الرحمن الداخل ، وربما كان ظهور هذا المبدأ ، تبريراً لأوضاع ناشئة ، ليس ثم مجال لنقضها .

وإذا كان الخوارج من الصفرية ، قد أنشئوا لأنفسهم دولة فى سجلماسة هى دولة بنى مدرار ، إلاّ أن هذه الدولة قامت فى سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م[٢] ، أى بعد أن قامت دولة الداخل ، ولم يتلقّب أمراؤها بالخلافة ، وإن تلقّبوا بالإمامة ، ودعا بعضهم للعباسيين ، وعلى[٣] النهج نفسه سائر الأدارسة الذين أقاموا دولتهم فى سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م ، وتسمّوا بالإمامة[٤] ، ودعا بعض أمرائهم للأمويين[٥] .

على أن تسمّى الفاطميين بالخلافة ، لم ينسخ مبدأ واحدية هذه الخلافة ، وادعاءهم أنفسهم لها إنما كان نفياً – من وجهة نظر التيار الذى يمثلونه – لا دعاء غيرهم ، ومن هنا ناهضوا الأمويين بالمغرب ، قبل إعلان الناصر خلافته وبعده ، وناهضوا أيضاً العباسيين بالمشرق ، الأمر الذى أسفر فى مرحلة متأخرة عن الخطبة للمستنصر الفاطمى على منابر بغداد نفسها[٦] .

وكان إدراك عبد الرحمن الداخل لمبدأ واحدية الخلافة ، يحتم عليه أحد أمرين ، إمّا أن ينزوى فى أقصى المغرب ، ويدعو لنفسه بالإمارة وحدها ، أو أن يتجاوز ذلك فيدعو لنفسه بالخلافة ، نافياً لحق العباسيين فيها .

استطاع عبد الرحمن أن يحقق الاختيار الأول ، وهو أن يستولى على بلاد الأندلس ويصبح أميراً لها ، لكن هذا الاستيلاء ، كان لابد له من غطاء شرعى يبرره ، أى اعتراف من الخليفة به ، وهو ما فعله بعد سنوات إبراهيم بن الأغلب الذى استولى على الإمارة فى أفريقية سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م ، ثم أتاه تفويض الخليفة الرشيد يقرّه على أمره[٧] .

عندما نقلب فى مصادرنا ، لا نجد فيها ما يوضح أن عبد الرحمن سعى من أجل أن يحصل على تقليد من الخليفة أبى جعفر المنصور ، وكان حرياً به أن لا يفعل ، فلم يكن المنصور ليستجيب ولم يكن عبد الرحمن أصلاً ليسأل .

إذن كيف يبرر عبد الرحمن وضعه السياسى الفريد هذا . وهو وضع غير مسبوق ؟؟

يقفز إلى الذهن نموذج الأدارسة ، فهؤلاء انفردوا بالمغرب الأقصى منذ سنة ١٧٢ هـ ولم يحصل أحد منهم على تقليد من الخليفة العباسى ، ولم يدع له ابتداءً .

لم يكن نموذج الأدارسة حاضراً فى ذهن عبد الرحمن ، حين شرع فى بناء دولته لأن إدريس الأول ، تطرّق إلى بلاد المغرب فى عام وفاة الداخل نفسه .

توصل عبد الرحمن إلى حل جزئى لهذه المشكلة ، وهو أن يدعو للخليفة المعاصر

له[٨] ، دون أن يصحب هذه الدعوة ، إعتراف من الخليفة نفسه به .

أقدم عبد الرحمن على هذه الخطوة ، على الرغم مما فعله العباسون ببنى أمية ، من إزالة ملكهم ، وتتبّعهم قاصيهم ودانيهم والبطش بهم .

كان منطلق عبد الرحمن هو أن يرضى جمهور المسلمين ، خصوصاً ، وأن البلاد كانت قد ضجّت على مدى سنتين قبيل دخوله ، بثورة نهض بها اثنان من القرشيين سوّدا ، وأعلنا الطاعة لبنى العباس ، وكادا يخرجا الأمر من يدى يوسف الفهرى آخر ولاة الأندلس[٩] .

على أن سعى عبد الرحمن لإضاء جمهور المسلمين ، لم يكن ليتطابق فى الوقت نفسه مع سعيه لإرضاء جمهور بنى أمية ومواليهم ، وهؤلاء نهضوا بدولته حال دخوله ، ثم توافدوا على البلاد بأعداد كبيرة بعد ذلك ، وبخاصة فى سنة ١٤٠ هـ[١٠] وشكّلوا – وقد صاروا عدة آلاف – جماعة ضغط جعلته يقطع الخطبة للمنصور فى هذا العام المؤرخ .

كان هناك تناقض ، وكان على الداخل أن يحسم هذا التناقض .

تحدّثنا المصادر أن الداخل دعا للمنصور عدة شهور تقلّ عن العام ، ونذهب من ناحيتنا فنمتد بهذه الدعوة إلى نحو سنتين ، لأن هذه المصادر نفسها ، تقرر أن عبد الرحمن قطع الدعوة للعباسيين ، بعد الحاح من أحد أقربائه ، وهو عبد الملك بن عمر بن مروان[١١] .

دعى عبد الملك هذا بقُعْدُد[١٢] بنى أمية وشهاب آل مروان ، وقد دخل الأندلس مع آخرين من أهل بيته فى سنة ١٤٠ هـ ، واستعان به عبد الرحمن فى القضاء على فتنة يوسف الفهرى الذى انتقض فى العام التالى . وقد بلغ حماسة عبد الملك لأمويته ان قتل – فيما يروى – ولده الذى تقاعس فى التصدى لهذه الفتنة[١٣] .

أضحى عبد الرحمن الداخل بعد سنة ١٤٠ فى وضع عجيب خرج به عن مفهوم الخلافة الإسلامية الواحدة ، وكان قميناً به مصير كمصير سميه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بأفريقية[١٤] . وأسفر ما أقدم عليه عبد الرحمن الداخل من قطع الخطبة للمنصور عن ثورة ، أو إذا شئنا غزوة قام بها العلاء بن مغيث الجذامى (أو اليحصبى) وهو من إشراف باجة (Beja) خرج منها إلى أفريقية ، ثم عاد فى سنة ١٤٦ وقد سوّد ، وسجّله

المنصور على الأندلس والتقى بعبد الرحمن فى قرمونة (Carmona) وانتهى أمره إلى أن هزم وقتل ، وبعث برأسه ولواء المنصور فى سفط ، ووقع عليه بصر الخليفة العباسى وهو يحج بيت الله ، فارتاع وقال : عرضناه المسكين للقتل ... الحمد لله الذى جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحراً[15] .

كان لنجاح عبد الرحمن فى قمع هذا التدخل العباسى أثره الواضح فى تكريس مبدأ الإمارة دون تفويض ، ونجاح له فى الوقت نفسه .

— ٢ —

تمضى السنوات فيجبهنا هذا النص الهام[16] .

« وأشاع سنة ١٦٣ الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بنى العباس ، وكاتب جماعةً من أهل بيته ومواليه وشيعته ، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس فى طائفة ، ويذهب بعامة من أطاعه ، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسين الأنصارى[17] الذى انتزى عليه بسرقطة (Zaragoza) فبطل ذلك العزم » .

يفهم من النص أن عبد الرحمن الداخل فكر فى بعث الخلافة الأموية فى المشرق ، بل سعى إلى أن يخرج مشروعه هذا إلى حيز التنفيذ ، لولا اختلاف الأمر عليه فى الأندلس ، وإلا فماذا يعنى رحيله إلى الشام وانتزاعها ، وتكبده عناء ومشقة ، إذا كان لا يعنى ذلك .

تؤيدنا فى هذا الفهم رواية اثنين من المشارقة للخبر نفسه .

يقول النويرى[18] : وفى سنة ثلاث وستين ومائة أظهر الأمير عبد الرحمن التجهز إلى الخروج لقصد الشام ، لطلب الثأر من بنى العباس ، فعصى عليه سليمان بن يقظان والحسين ابن يحيى بن سعد بن عبادة الأنصارى بسرقطة ، واشتد أمرهما ، فرجع عن ذلك ، وترك ما كان أظهره منه .

ويقول ابن الأثير[19] : وفيها (١٦٣) أظهر عبد الرحمن الأموى التجهز إلى الشام بزعمه لمحو الدولة العباسية ، وأخذ ثأره منهم ، فعصى عليه سليمان بن يقظان والحسين ابن يحيى بن سعيد بن سعد بن عثمان الأنصارى بسرقسطة واشتد أمرهما ، فترك ما كان عزم عليه .

كان على عبد الرحمن أن يبقى على هذا الوضع العجيب ، وهو كونه أميراً مسلماً مستقلًا لا يعترف بالخلافة القائمة ، وفى الوقت نفسه لا يتسمّى بها ، أو ، أن يسعى إلى إزالة الخلافة العباسية ذاتها .

يلوح لنا أن عبد الرحمن بعد أن نجح فى تحقيق الهدف الأول ، نهض من أجل تحقيق الهدف الآخر ، وكون النص مؤرخاً بنسبة ١٦٣ هـ أمر له دلالته ، ويرتبط بمجموعة من الأحداث الهامة ، وقعت حول هذا التاريخ قُبَيْله ويُعَيْده فى المشرق والمغرب معاً ، ولنعرض لهذا الأحداث على نحو الاختصار ، ونحاول أن نربط بينها وبين هذا النص .

المجموعة الأولى من الأحداث تختص بثورة بعض المسلمين على عبد الرحمن الداخل ، واتصال واحد منهم على الأقل – وهو سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى بشارلمان Charlemagne[20] ملك الفرنجة ، واتصال واحد منهم على الأقل أيضاً – وهو عبد الرحمن بن حبيب السقلابى الفهرى[21] – بالمهدى خليفة بنى العباس .

تحدّد الرواية الفرنجية لقاء سليمان فى ربيع سنة ٧٧٧ م/ ١٦٠ هـ بمدينة بادربورن Paderborn من أعمال ولاية فستفاليا بألمانيا ، وعلى ذلك فقد عبر شارلمان بجيشه إلى أسبانيا فى العام التالى ، وذلك فى حملته التى انتهت بمأساة رونسسفال Roncesvalles (بوابة الشزرى) وخلدتها أغنية رولان Chanson de Roland المشهورة[22] . أما سليمان وغيره من الثوار ، فقد تمادوا فى ثورتهم بعد ذلك سنوات .

فى الوقت نفسه كان هناك ثائر آخر هو عبد الرحمن بن حبيب الفهرى (أو السِقْلابى) الذى جدّد فعل العلاء بن مغيث فعبر الأندلس إلى أفريقية ، ثم عاد بجيش من البربر ، فنزل ساحل تدمير Tudmir فى سنة ١٦٢ ودعا لبنى العباس ، وسار إليه عبد الرحمن الداخل وحرق سفنه ، وتعقبه فى جبال بلنسية ، إلى أن اغتاله بعض أصحابه ، وبعثوا برأسه إلى الأمير فى آخر سنة ١٦٢ هـ/ ٧٧٨ م[23] .

أعقبت ثورة السقلابى ثورة أخرى قام بها الرُماحِس بن عبد العزيز الكنانى والى الجزيرة الخضراء Algeciras فثار سنة ١٦٣ ، وسار إليه عبد الرحمن وأجبره على أن يعبر إلى المشرق فى العام التالى ، ويفد على الخليفة العباس ببغداد[24] .

نتساءل .. هل يوجد خيط يربط بين ثوار يدعون للخليفة العباس ، وبين ثوار يدعون ملك الفرنجة ، والهدف فى النهاية واحد .

بعبارة أخرى ، هل يوجد اتفاق مشترك بين خليفة المسلمين وبين ملك الفرنجة ، شارك فيه هؤلاء الثوار .

المصلحة ترجّح وجود هذا الاتفاق ، فمصلحة العباسيين والفرنجة واحدة ، ومصلحة الأمويين والبيزنطيين أيضاً واحدة . ولا يخفى ما كان يجرى من صوائف ، وجهها المنصور ومن تلاه من عقبه إلى البيزنطيين ، ولا يخفى أيضاً النزاع الذى كان ناشباً بين الفرنجة وبين البيزنطيين ، هذا النزاع الذى اتخذت فيه البابوية جانب الفرنجة ، وانتهى بتتويج شارلمان امبراطوراً فى سنة ٨٠٠ م .

ليس لدينا فى مصادرنا العربية ما يؤكد هذا الاتفاق ، والمصادر الفرنجية وحدها ، تشير إلى سفارات متبادلة بين آخن[٢٥] Aachen وبين بغداد ، وتشير أيضاً إلى هدايا متبادلة ثم وضع بيت المقدس تحت حماية ملك الفرنجة[٢٦] .

صمت الرواية العربية تماماً ، ووقوف الرواية الفرنجية عند حد ، يجعلنا نشك فى وجود اتفاق ، لكننا فى الوقت نفسه لا ننفيه .

مهما يكن من أمر ، فواضح أن العلاقة وثيقة بين ثورتى السقلابى والكنانى وبين خليفة بغداد ، والثورتان معاً تقعان فى رحم الفترة التى اعتزم خلالها عبد الرحمن الداخل الرحيل إلى بلاد الشام .

نقف عند هذا الحد ، ونرتحل مسافة طويلة إلى مصر .

— ٣ —

يذكر الكندى فى كتابه **الولاة والقضاة** أنه فى سنة ١٦٧ ، وإبان ولاية إبراهيم بن صالح العباس لمصر ثار بها أمير أموى يدعى دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مراون ، ودامت ثورته سنتين .

ينتمى دحية إلى أسرة من بنى أمية اتخذت مصر وطناً لها منذ نيف ومائة عام ، وجد أبيه عبد العزيز بن مروان ولى هذه البلاد صلاةً وخراجاً طيلة عهد أخيه عبد الملك ، وامتدت ولايته أيضاً إلى بلاد المغرب ، وأعانه ولده الأصبغ فى حكم مصر واستخلفه عليها حين خرج إلى الشام فى سنة ٧٥ هـ . وإذا كان الأصبغ قد مات قبيل موت أبيه فى سنة ٨٦ هـ[٢٧] ، فإن أخاه زبّان شارك فى الأحداث السياسية التى صاحبت الدولة الأموية فى عهدها الأخير ، وأعان بدوره مروان بن محمد فى قمع بعض الثورات التى نشبت ضده فى الصعيد[٢٨] .

أعقب قتل مروان فى بوصير سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م على يدى صالح بن على العباسى مقتل عديد من بنى أميّة المصريين ، معظمهم من أبناء عبد العزيز بن مروان وحفدته[٢٩] .

وأتيحت الفرصة للأمويين المصريين أن يعودوا إلى الساحة مع ثورة محمد النفس الزكية[٣٠] – الثائر الحسنى بالحجاز – الذى أرسل ولده علياً إلى مصر سنة ١٤٤ هـ ، فوافقه فى دعوته دحية بن مصعب هذا وعم له يدعى زيد بن الأصبغ بن عبد العزيز . وقد توانى والى مصر حُمَيْد بن قُحْطُبة فى قمع الثورة ، مما أسفر عن عزله ، وولى مكانه يزيد بن حاتم المُهلّبى الذى نجح فيما لم ينجح فيه سلفه[٣١] .

فى سنة ١٦٧ هـ/ ٧٨٤ م أعلن دحية بن مصعب أول ثورة أموية بمصر ، وآخرها فى الوقت نفسه ، وتراخى واليها ابراهيم بن صالح العباسى فى قمعها ، وملك دحية عامة بلاد الصعيد ، مما أسخط الخليفة المهدى على واليه فعزله فى ذى الحجة وولى موسى بن مصعب الخثعمى[٣٢] .

أعانت سياسة الوالى الجديد على تمادى دحية فى ثورته ، فقد تعسّف هذا الوالى فى استخراج الأموال وسلك سبيل الرشوة فى الأحكام ، فكرهه الجند ، وثار أهل الحوف عليه ، واتحد القيسية واليمانية ضده ، وانتهى أمره بأن قتل فى شوال سنة ١٦٨ هـ ، ليلى مصر على نحو مؤقت صاحب الشرطة عسامة بن عمرو المعافرى[٣٣] .

جرت عدة اشتباكات بين عسامة وبين دحية ، هدد خلالها هذا الأخير الفسطاط ، إلى أن قدم الفضل بن صالح العباسى فى جيش كبير ، والياً على مصر من قبل الخليفة المهدى فى المحرم سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م[٣٤] .

كان دحية على وشك أن يدخل الفسطاط ، لأن الناس دعوه إليها ، فعقد الفضل لسفيان القائد على الجند ، فالتقى بفتح بن الصلت الأزدى قائد دحية ببُوَيْط ، وتمكن من قتله ، وتقهقر الثوار إلى الواحات ، وتولّى أمر مطاردتهم عبد الله بن على[٣٥] .

كان أهل الواحات من المسالمة[٣٦] والبربر الذين يذهبون مذهب الخوارج ، فأعانوا دحية فى ثورته ، وأوقعوا الهزيمة بعبد الله بن على ، لكنهم لم يلبثوا أن انفصلوا عن صاحبهم لإيثارة العرب عليهم ، وقالوا له : هذا ظلم والإسلام واحد ، ولسنا نقاتل معك حتى نمتحنك بالبراءة من عثمان . فامتنع دحية وقال : والله ما أرجوا الجنة إلا بالرحم بينى وبين عثمان . فانصرفوا عنه[٣٧] .

عندما ترامت هذه الأخبار إلى عبد الله بن على عاد إلى قتال دحية ، حتى هزم وأسره وقدم به إلى الفسطاط ، فضرب الفضل عنقه ، وصلبت جثته ، وبعث برأسه إلى الخليفة الهادى[٣٨] .

— ٤ —

السؤال الآن ... هل يوجد رابط بين ثورة دحية وبين عبد الرحمن الداخل ؟ نقلب فى مصادرنا ، فلا نجد فيها – مشرقيةً وأندلسيةً – خبراً عن أن دحية كان يدعو لعبد الرحمن الداخل ، بل إن مصدراً مصرياً مثل الكندى ، يقرر صراحةً أن دحية كان يدعو لنفسه .

على أننا لا نستبعد وجود صلة بين دحية وبين قريبه الأندلسى ، لأن ثورته نشبت فى عام ١٦٧ هـ وقبيل ذلك بسنوات قليلة تعرضت الأندلس لتدخّلات عباسية وفرنجية ، نجح الداخل فى صدها جميعاً . ويرجح أن ثورة دحية رد فعل على نحو أو آخر لهذه التدخلات ونتيجة لها ، وربما كان يدعو لعبد الرحمن الداخل ، وأخطأ الكندى فنسب هذه الدعوة إلى دحية نفسه ، أو أنه دعا إلى نفسه عندما شاهد الأمير الأندلسى يعدل عن مشروعه فى غزو الشام .

وسواء كان دحية يدعو لنفسه ، أو كان يدعو لعبد الرحمن الداخل ، فإن هذه الدعوة ترجّح أن هذا الأخير راودته فى فترة متأخرة من حكمه فكرة أن يبعث خلافة أجداده فى المشرق ، وشرع فى تحقيقها بالفعل .

يؤيد ذلك أيضاً ما ذكره الطبرى[٣٩] من أن الداخل أرسل إلى المهدى كتاباً عدّد فيه مثالب بنى العباس ، فرد عليه المهدى بكتاب عدد فيه مثالب بنى أمية . فلم يكن الداخل ليرسل بكتاب مثل ذلك ، إلا إذا كان الصراع بين العباسيين وبين الأمويين قد استحر لدرجة ، تشابه ما جرى من صراع بين الفاطميين وبين الأمويين بعد ذلك بفترة طويلة .

— ٥ —

نخرج فى النهاية إلى فرض ، هو أن عبد الرحمن الداخل بعد أن استولى على أزمّة

الأمور فى الأندلس ، صار يحكم دون مسوغ شرعى ، فلم يصدر تقليد له من خليفة المسلمين وحاول من جانبه أن يجرى توفيقاً بين واقع الحال وبين واقع الشرع ، فدعا للخليفة المعاصر له أولاً وهو أبو جعفر المنصور ، لكنه عدل عن دعوته تلك حوالى سنة ١٤٠ هـ ، مما أسفر عن ثورة قام بها أحد عملاء العباسيين بالأندلس وهو العلاء بن مغيث فى سنة ١٤٦ هـ[٤٠] .

انتهت ثورة العلاء إلى الفشل ، فانصرف العباسيون إلى وجهة أخرى ، وهى أن يتّحدوا مع الفرنجة ، ومع بعض الثوار الأندلسيين ، مما أسفر عن قلاقل عمّت الأندلس جميعها فى وقت واحد ، خلال الفترة من ١٦٠ إلى ١٦٤ هـ ، عبر خلالها شارلمان إلى أسبانيا .

وكان رد عبد الرحمن على هذه المؤامرات أن فكّر فى العبور إلى الشام فى سنة ١٦٣ هـ وبعث الخلافة الأموية فى المشرق . وعندما عدل عن ذلك لظروف خاصة به ، أوعز إلى بعض أقربائه الأمويين بمصر أن يثور بها ، فدعا هذا الأموى لنفسه أو دعا للداخل وكادت ثورته أن تنجح ، وكان قميناً بها فى حال نجاحها ، عود للخلافة الأموية وبعث لها قبل مائة وخمسين عاماً من تسمى الناصر بها ، وما ندعيه هنا لا يعدو كونه فرضاً يحتاج إلى قرائن أخرى لإثباته .

هوامش

(١) الماوردى : **أحكام السلطانية** ، تحقيق محمد فهمى السرجانى . القاهرة ، المكتبة التوفيقية ١٩٧٨ ص ٩ .

(٢) ابن عذارى : **البيان المغرب** ، تحقيق ليفى بروفنسال . بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٧ . جـ ١ ، ص ١٥٦ .

(٣) ابن خلدون : **كتاب العبر** . بولاق ١٢٨٤ هـ جـ ٦ ص ١٣ .

(٤) ابن خلدون : **المقدمة** . تحقيق واف . القاهرة ، لجنة البيان العربى ١٩٧٩ . جـ ٢ ص ٦٣٩ .

(٥) ابن عذارى : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٦) فى سنة ٤٥٠ هـ إبان الحركة المعروفة بحركة البساسيرى . راجع تفاصيل هذه الحركة فى ، محمد جمال الدين سرور : **سياسة الفاطميين الخارجية** . القاهرة ، دار الفكر العربى .

(٧) ابن عذارى : المصدر نفسه جـ ١ ، ص ٩٢ ، النويرى : **نهاية الأرب** جـ ٢٤ تحقيق حسين نصار القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣ . ص ١٠٠ - ١٠٢ .

(٨) ابن الأبار : **الحلة السيراء** : تحقيق حسين مؤنس . القاهرة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٣ جـ ١ ص ٣٥ ، تر ٨ ، المقرى : **نفح الطيب** . تحقيق إحسان عباس . بيروت ، دار صادر م ٣ ص ٥٩ .

(٩) راجع بخصوص هذه الثورة : **أخبار مجموعة فى فتح الأندلس** . نشر لافوينتى الكنترا . مدريد ١٨٦٧ ص ٦٣ وما بعدها ، ابن القوطية : **تاريخ افتتاح الأندلس** . تحقيق إبراهيم الأبيارى . القاهرة ، دار الكتب الإسلامية ، ١٩٨٢ . ص ٤٦ وما بعدها .

(١٠) المقرى : المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٢٩ .

(١١) ابن الأثير : **الكامل فى التاريخ** . بولاق جـ ٦ ص ٤ .

(١٢) أى أقرب الفروع إلى الأصل .

(١٣) المقرى : المصدر نفسه جـ ٣ ص ٥٩ تر ٤٠ .

(١٤) مغامر عربى انتهز فرصة اضطراب أحوال أفريقية فى أواخر عهد بنى أمية ، فاستقل بها سنة ١٢٧ ، واضطر مروان بن محمد إلى إقراره على ولايته ، فلما قامت دولة بنى العباس ، جددوا الاعتراف به ، ثم انقلب هو عليهم ، فلما قتله أخواه إلياس وعبد الوارث أعادا الدعوة للمنصور العباسى ولم يلبث أن دبت حروب بين أبناء هذا البيت انتهت إلى زواله فى سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م . راجع النويرى : المصدر نفسه ج ٤ ، ص ٦٤ ، ٧٢ ، ابن عذارى : المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٠ - ٧٠ .

(١٥) ابن القوطية : المصدر نفسه ص ٥٤ - ٥٥ ، وانظر أيضاً : **أخبار مجموعة** ص ١٠١ - ١٠٣ ، ابن عذارى : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥١ - ٥٢ .

(١٦) المقرى : المصدر نفسه م ٣ ص ٥٤ .

(١٧) الحسين بن يحيى الأنصارى الخزرجى ، وقد شارك سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى فى المؤامرة على عبد الرحمن الداخل . أنظر ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ٦ ص ٥ ، ٢٠ ، ٢٣ .

(١٨) المصدر نفسه جـ٢٣ تحقيق أحمد كمال زكى . القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ ص ٣٤٨ .

(١٩) المصدر نفسه جـ ٦ ص ٢٢ .

(٢٠) أى شارل أو كارل الكبير Carolus Magnus ودعى فى المصادرة العربية بقارلة وحكم مملكة الفرنجة من سنة ٧٦٨ إلى سنة ٨١٤ م ونادى به البابا امبراطوراً ليلة عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م .

(٢١) أو الصقلبى دعى بذلك لطوله وشقرته ، وهو غير سميه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى صاحب أفريقية الذى أغتيل قبل سنوات .

(٢٢) راجع تفصيل ذلك فى ديفز : **شارلمان** . ترجمة السيد الباز العرينى . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ ص ١٠١ - ١٠٣ ، وأيضاً محمد عبد الله عنان : **دولة الإسلام فى الأندلس** . القاهرة ، الخانجى ، ١٩٦٩ م . ١ ق ١ . الفصل الرابع ١٦٨ - ١٩١ .

(٢٣) **أخبار مجموعة** ص ١١٠ - ١١١ ، ابن عذارى : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥٥ - ٥٦ ، ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ٦ ص ٢٠ .

(٢٤) **أخبار مجموعة** ص ١١٢ ، ابن حزم : **جمهرة انساب العرب** ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ ص ١٨٩ ، ابن عذارى : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥٦ والرماحس هذا شخصية غامضة متقلّبة فى حاجة إلى تحقيق فقد كان والياً لمروان بن محمد على فلسطين وأعانه فى قمع الثورات بها وعندما هرب مروان هذا إلى مصر بعد هزيمة الزاب صحبه إليها . الطبرى : **تاريخ الرسل والملوك** . القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٩ جـ ٧ ص ٣١٤ ، ٤٣٨ . على أنه ما لبث أن خالف على مروان بمصر وأيده فى خلافة بعض الأموية إلى جانب القيسية ، وعندما لحقت به الهزيمة فارق البلاد . الكندى : كتاب **الولاة والقضاة** . تحقيق رفن كَست بيروت ١٩٠٨ . ص ٩٤ .

(٢٥) أوايكس لاشابل Aix La Chapelle وهى عاصمة دولة الفرنجة .

(٢٦) (2) Einhard and Notker the stammerer: Two lives of Charlemagne. Trans by Lewis Thorpe. Penguin books, 1969. pp. 70 145-149.

(٢٧) الكندى : المصدر نفسه ص ٤٦ - ٥٥ .

(٢٨) المصدر نفسه ص ٨٧ - ٩٦ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٩٧ - ١٠٠ .

(٣٠) دعا إلى نفسه بالخلافة وأرسل المنصور إليه بعيسى بن موسى العباسى الذى تمكن من قتله . تفصيل ثورته فى الطبرى : المصدر نفسه جـ ٧ ص ٥١٧ - ٦٤٩ .

(٣١) الكندى : المصدر نفسه ص ١١١ - ١١٥ .

(٣٢) المصدر نفسه ص ١٢٤ ، وانظر أيضاً : أبو المحاسن بن تغرى بردى : **النجوم الزاهرة** . القاهرة دار الكتب ١٩٣٠ جـ ٢ ص ٤٩ .

(٣٣) الكندى : المصدر نفسه ص ١٢٥ ، ١٢٧ ، أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥٤ .

(٣٤) الكندى : المصدر نفسه ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥٧ .

(٣٥) بالضم ثم الفتح قرية بصعيد مصر قرب بوصير . ياقوت : **معجم البلدان** . القاهرة الخانجى ، ١٩٠٦ جـ ٢ ص ٣١١ .

(٣٦) أى من حديثى العهد بالإسلام .

(٣٧) المصدر نفسه ص ١٣٠ .

(٣٨) المصدر نفسه ص ١٣٠ ، أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٦٠ .

(٣٩) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٤٠) أرسل العزيز بالله الفاطمى إلى الحكم المستنصر الأموى كتاباً يشتمه فيه ويسبه ، فكتب إليه الحكم : أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك والسلام ، النويرى : المصدر نفسه جـ ٢٣ ص ٤٠٢ .

الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة

فى مياه البحر المتوسط

د. عبد العزيز محمود عبد الدايم

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بكلية الآثار

من المعروف تاريخياً أن دولة المماليك البحرية (الأولى) نجحت فى تصفية الإمارات الصليبية وطرد الصليبيين نهائياً من الشام بعد أن سقطت عكا - آخر المعاقل الصليبية الكبرى فى بلاد الشام - سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م[١] فى يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م[٢].

غير أن ليس من التاريخ أن نعتبر تلك الحوادث خاتمة لقصة الحروب الصليبية التى كانت قد بدأت قبل ذلك بنحو قرنين من الزمان ، ذلك أن حوادث التاريخ الكبرى لا تتم عادة فى صورة محددة مبتورة وإنما تكون لها فى الغالب مقدمات وذيول تجعلها تتجاوز نطاق الفترة الزمنية التى يتخذها المؤرخون إطاراً لتلك الحوادث .

وبالنسبة لحركة كبرى مثل الحركة الصليبية نجد جذورها ترجع إلى ما قبل أواخر القرن الحادى عشر للميلاد - عندما خرجت الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق - بكثير كما أن ذيولها استمرت بعد طرد الصليبيين من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر بكثير أيضاً .

ويعنينا بالنسبة لذيول تلك الحركة ، أن الكيان المسيحى فى غرب أوربا لم يرض بالنتيجة التى انتهت إليها الحملات الصليبية على بلاد المسلمين فى الشرق فى أواخر القرن الثالث عشر ، فأصرت الكنيسة الغربية وعلى رأسها البابوية على مواصلة ضرب المسلمين فى شتى أنحاء البحر المتوسط - مشرقه ومغربه - ونشطت جماعة من المفكرين والمتحمسين فى وضع المشاريع للخطوات الفعالة التى يمكن بها تنفيذ ضربات قاصمة ضد بلاد المسلمين وبخاصة موانيهم وسفنهم فى حوض البحر المتوسط[٣] . وساعد على تنفيذ ذلك أن الحروب الصليبية أفرزت فيما بين أواخر القرن الحادى عشر وأواخر القرن

الثالث عشر عدة كيانات مسيحية فى شرق حوض البحر المتوسط تسيطر عليها قوى مسيحية كاثوليكية تدين بالولاء الروحى للبابوية وتحرص على أن يكون لها ثواب ضرب المسلمين وفق مفاهيم الكنيسة الغربية . وكانت أهم هذه القوى : الاسبتارية فى رودس ودولة آل لوزجنان فى قبرص .

ومهما تعددت القوى الإسلامية فى البحر المتوسط التى بدت فى صورة الخصم للكنيسة الغربية وأتباعها ، سواء فى البليار والأندلس أو فى شمال أفريقية والمغرب ، أو فى مصر والشام ، أو على الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى ، فإن دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام بدت دون شك الخصم الأول اللدود المسئول عن تلك الخاتمة التى انتهت إليها الحروب الصليبية فى بلاد الشام فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد .

وكان أن أدرك الغرب الأوربى – وبخاصة أصحاب المشاريع الصليبية – أن النشاط التجارى يمثل المصدر الأول لغنى دولة سلاطين المماليك وقوتها . ذلك أن سلاطين المماليك انتهزوا فرصة القلاقل والاضطرابات التى حلت بوسط آسيا وغربها نتيجة لغزوات التتار ، واحتكروا التجارة بين الشرق والغرب عبر الطريق الوحيد الذى ظل بعيداً عن سيطرة التتار آمناً من عبثهم وهو طريق البحر الأحمر وموانىء مصر على البحر المتوسط .

ولا شك أن دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام جنت فعلاً ثمار احتكار التجارة بين الشرق والغرب ، وجمعت من وراء ذلك ثروات ضخمة أتاحت لها فرصة بناء حضارة شامخة وقوة حربية ضاربة مكنتها من إحراز ما أحرزته من انتصارات على الصليبيين وغير الصليبيين فى حوض البحر المتوسط .

وهكذا استهدف أصحاب النوايا والمشاريع الصليبية – منذ بداية القرن الرابع عشر – ضرب مصالح دولة سلاطين المماليك التجارية فى البحر المتوسط سواء بفرض حصار اقتصادى على شواطىء مصر والشام[٤] ، أو بشن هجمات – هى أقرب إلى أعمال القرصنة على السفن والموانىء التابعة لتلك الدولة .

من ذلك أن البابا نيقولا الرابع ١٢٨٨ – ١٢٩٢ م دعى إلى تحريم الإتجار مع دولة المماليك مما سيؤدى إلى حرمانها من مورد ثرائها وقوتها فيسهل القضاء عليها عسكرياً[٥] .

وقد هددت البابوية بتوقيع قرارات الحرمان ، على كل من يخالف أوامرها ولم تكتف

البابوية بإصدار أوامر التحريم وتوقيع قرارات الحرمان ، بل سعت إلى تنفيذ مخططها بقوة السلاح فأعدت بعض السفن وسلحتها لتتصدى فى عرض البحر لكل من يخالف قراراتها[٦] .

ولكن خطة البابوية لم يقدر لها النجاح لأن مصالح المدن الإيطالية التجارية تعارضت مع خطة البابوية التى من شأنها أن تحرمها من المكاسب التى تجنيها من وراء المتاجرة مع دولة المماليك[٧] .

هذا بالإضافة إلى الجهود المضادة التى بذلتها السلطات المملوكية من جانبها لإفشال مخططات البابوية ، وذلك بالمبالغة فى الترحيب بتجار الفرنج وحسن معاملتهم ومنحهم الكثير من الامتيازات التجارية[٨] .

ونتيجة لذلك عاد الغرب الكاثوليكى إلى التفكير فى مهاجمة مصر عسكرياً ، وكانت خطتهم تستهدف الاستيلاء على الاسكندرية والزحف منها على القاهرة ، وكانت جزيرة قبرص فى شرق البحر المتوسط تمثل أصلح مكان لتنفيذ ذلك المشروع الصليبى ، وتنفيذاً لذلك قام بطرس الأول لوزنيان بحملته الشهيرة على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م التى انتهى أمرها بالفشل بمجرد اقتراب القوات المملوكية منها[٩] ، وقد وصف النويرى السكندرى بطرس الأول فى هذه الحملة بأنه « دخلها لصاً وخرج منها لصاً[١٠] » .

ولم يقنع بطرس بما فعله بالاسكندرية بل أغار على طرابلس فى سنة ٧٦٩ هـ/ ١٣٦٧ م غارة فاشلة[١١] قام بعدها بعدة غارات على جبله واللازقية وبانياس[١٢] .

وسرعان ما غدت قبرص ، تحت حكم آل لوزجنان ، وكراً لقراصنة الصليبيين يستغلون اخوارها وخلجانها قواعد . يخرجون للإغارة على البلدان والسفن الإسلامية .

من ذلك أن أحد القبارصة المغامرين واسمه حنا الصورى أغار على صرفنده على ساحل الشام[١٣] سنة ٧٦٩ هـ/ ١٣٦٧ م فقتل من أهلها ثلاثين وأسر ثلاثة عشر ، وقد اختار تلك البلدة بالذات لكثرة تردده عليها أيام أن كان تاجراً ولإحاطته بموارد ثروتها ، وفى سنة ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٨ م خرج اخوان جنويان من قبرص فأغارا على صيدا ثم قصدا الاسكندرية حيث وجدا سفينة إسلامية محملة بالبضائع ومستعدة للسفر إلى طرابلس الغرب ، فأسراها وعادا بها إلى فاماجوستا أول إبريل سنة ١٣٦٨ م .

وعلى الرغم من فشل دعوة مقاطعة المماليك اقتصادياً ومهاجمة مصر عسكرياً إلا أن

البابوية لم تفتر فرأت اللجوء إلى وسيلة أخرى لمحاربة مصر فى أهم موارد ثروتها وقوتها ، وهى تحويل الحرب الاقتصادية ضد تجار المماليك فى البحر المتوسط إلى سلسلة من أعمال القرصنة والنهب والتخريب للموانىء المملوكية فى مصر والشام لتجعلها غير آمنة لنزول التجار[١٤] ، لهذا نشطت أعمال القرصنة فى حوض البحر المتوسط تسلب وتنهب وتأمر كل من يتجه إلى الموانىء المملوكية ، والمصادر التاريخية المعاصرة مليئة بأخبار غارات القراصنة القطلان[١٥] والقبارصة وفرسان الاسبتارية برودس على السواحل والموانىء المصرية والشامية ومهاجمة سفن التجار المسلمين فى روحاتها وغدواتها فى عرض البحر . والملاحظ أن هذه الهجمات المسيحية اشتدت فى عهد دولة سلاطين المماليك الجراكسة بالذات أى منذ أواخر القرن الرابع عشر للميلاد ، وذلك نتيجة لما عم الغرب الأورنى المسيحى من إفاقة شاملة هى فى الواقع بداية لحركة النهضة التى ازدهرت فى القرون التالية .

ففى عهد السلطان الظاهر أبى سعيد برقوق ٧٨٤ هـ - ٨٠١ هـ/ ١٣٨٢ - ١٣٩٩ م[١٦] ، أغار الفرنج على رشيد فى تاسع ربيع الآخر سنة ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤ م فخرج لصدهم الأمير يونس الدوادار والأمير الطنيغا المعلم فلم يدركوهم[١٧] .

وفى ربيع الآخر سنة ٧٨٩ هـ/ ١٣٨٧ م أغار الفرنج على طرابلس فتصدى لهم المسلمون وتمكنوا من قتل جماعة منهم وأسر ثلاثة مراكب[١٨] .

وحدث أثناء عودة جماعة من تجار المسلمين من بلاد الشام فى سفن لهم ، وبصحبتهم أخت السلطان برقوق وابنه وابن عمه إلى مصر ، أن هاجمتهم جماعة من الفرنج فى البحر ، واستولوا على مراكبهم وأسروا من كان بها من التجار والركاب . فلما علم السلطان بذلك شق عليه ، وأمر جميع نواب السلطنة بالبلاد الساحلية بالقبض على جميع من لديهم من تجار الفرنج وغيرهم[١٩] . ويبدو أن هذه الاجراءات دفعت الفرنج إلى إطلاق الأسرى الذين عندهم من المسلمين ومن بينهم أخت السلطان ففى السادس والعشرون من ذى الحجة سنة ٧٩٠ هـ/ ١٣٨٨ م « قدم البريد من الاسكندرية بوصول خواجا على أخى الخواجا عثمان ومعه جميع من أسرهم الفرنج من أقارب السلطان[٢٠] » وحالت الظروف الجوية فى رمضان سنة ٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩ م دون إغارة القراصنة الفرنج على طرابلس[٢١] .

وفى رمضان سنة ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٢ م هجمت أربعة سفن لقراصنة الفرنج على ناحية نستراوه غربى البرلس وأقاموا فيها ثلاثة أيام يسبون وينهبون[٢٢] .

وفى رجب سنة ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣ م استولى القراصنة الأوربيون على عدة مراكب تحمل الغلال إلى بلاد الشام[٢٣] وفى رمضان سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م استولى القراصنة على ستة مراكب مملوءة بالقمح وهى مبحرة من دمياط إلى بلاد الشام لتعذر وجود القمح بها بسبب غارة تيمور لنك[٢٤] .

وفى سنة ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٣ م قام حاكم جنوة الفرنسى المارشال بوسيكو Boucicaut بالاشتراك مع جانوس ملك قبرص وفرسان الاسبتارية بجزيرة رودس بالإغارة على الموانىء الشامية ، طرابلس ، بيروت ، وصيدا فتصدى لهم الأمير شيخ المحمودى نائب الشام[٢٥] ، كما تكاثرت مراكب الفرنج على الاسكندرية فندب برهان الدين إبراهيم المحلى كبير التجار بمصر للمسير إلى الاسكندرية وتبعه عدة من الأمراء[٢٦] وعندما علم القراصنة بقدومهم فروا إلى عرض البحر .

وتكرر الاعتداء فى العام التالى سنة ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م مما دفع السلطات المملوكية إلى معاقبة القبارصة من الرهبان الفرنسيسكان[٢٧] .

واستمرت غارات القبارصة والقطلان على الشواطىء المملوكية ، مما دفع المماليك إلى الإغارة على قبرص فى عامى ٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م ، ٨١٤ هـ/ ١٤١١ م[٢٨] .

وبالرغم من ذلك قام القبارصة والقطلان بعد ذلك بثلاث سنوات بالإغارة على الساحل الشامى جنوبى بيروت وكان ذلك إبان عهد السلطان المؤيد شيخ بن عبد الله المحمودى ٨١٥ - ٨٢٤ هـ/ ١٤١٢ - ١٤٢١ م[٢٩] . الذى عزم على غزو الجزيرة ، ولكن جانوس دى لوزنيان Janus Lusignan ملك قبرص بادر بعقد الصلح معه بمجرد علمه بالاستعدادات الحربية لذلك الغزو ، وتم ذلك فى ١٤ نوفمبر سنة ١٤١٤ م/ ٨١٧ هـ ، وكان من أهم شروط ذلك الصلح أن يتعهد بألا يأوى القراصنة فى موانىء مملكته ، وألا يسمح بالقيام بأى عمل من أعمال القرصنة ضد السواحل الشامية ، أما إذا لجأ القراصنة إلى الموانى القبرصية فيتعهد جانوس بألا يقدم إليهم الزاد أو المأوى وأن يمنع رعاياه من شراء البضائع التى يستولون عليها ويجلبونها إلى الجزيرة ، واتفق أيضاً على فداء الأسرى المسلمين بقبرص الذين بلغ عددهم ثلاثمائة وخمسة وعشرون أسيراً[٣٠] .

ولكن القبارصة والقطلان عادوا إلى استئناف عبثهم فى العام التالى رغم عقد هذه الاتفاقية ، فأغاروا على الاسكندرية وقتلوا « عشرين رجلاً وأسروا جماعة تزيد على السبعين[٣١] » ، فاضطر المؤيد شيخ إلى تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية ضد جميع تجار الفرنج وقناصلهم بالاسكندرية ودمشق ، وخاصة تجار القطلان وقنصلهم بالاسكندرية

فقبض عليهم وسجنهم بأحد أبراج القلعة[٣٢] ، كما تعرض الحجاج الفرنج بالقدس لانتقام السلطات المملوكية ، وعلى الرغم من هذه الاجراءات الانتقامية العنيفة فلم تتوقف غارات القراصنة القطلان وأخذت تشتد منذ عام ٨١٩ هـ/ ١٤١٦ م[٣٣] وهو العام الذى اعتلى فيه ألفونسو الخامس عرش مملكة أرغونة ١٤١٦ - ١٤٥٨[٣٤] فانتهز المؤيد شيخ هذه الفرصة وقام ببعض الاجراءات العنيفة تجاه تجار القطلان فى الاسكندرية ودمشق فأمر بجلد قنصل القطلان بالاسكندرية ثم سجنه ، وعم الخوف تجار القطلان فأسرعوا بمغادرة الاسكندرية ودمشق[٣٥] وكان لهذا التصرف رد فعل قوى فى أرغونة فأمر الفونسو الخامس القراصنة القطلان الذين كان يستخدمهم لتحقيق أغراضه ومآربه السياسية بمهاجمة السواحل المصرية والشامية فأغاروا على ثغر نستراوه[٣٦] فى عشرين ربيع الأول سنة ٨١٩ هـ/ ١٤١٦ م ، وفى ربيع الآخر من نفس العام هاجموا يافا وأسروا خمسين أسيراً من المسلمين ، ولم يطلقوا سراحهم إلا بعد أن افتدى كل منهم نفسه بخمسة عشر ديناراً[٣٧] .

ثم هاجموا فى نفس الشهر ميناء الاسكندرية واستولوا على إحدى سفن المغاربة ، ولم ينج من ركابها سوى نفر قليل وصلوا إلى الشاطىء سباحة .

وبلغت الجرأة بالقراصنة إلى أبعد من هذا ففى ١٦ جمادى الثانى من نفس العام رست ثلاثة سفن لهم بميناء الاسكندرية وأعلنت قدوم وفد من ثلاثة رسل للتفاوض فى عقد الصلح ، فقوبلوا بالترحيب ، وسمح لهم بنزول التجار إلى البر وإنزال سلعهم . فانتهز القطلان هذه الفرصة وقاموا على حين غفلة من سلطات المدينة بتخليص قنصلهم من سجن الاسكندرية ، ثم أغاروا على الميناء وأشعلوا النيران فى جميع السفن الراسية ، واشتبكو فى قتال عنيف مع عساكر المماليك بالميناء ومن كان هناك من التجار ، فقتلوا عشرين رجلاً ، وأسروا نحو سبعين مسلماً من الرجال والنساء ، ثم استولوا على سفينتين للجنوية وسفينة للبنادقة ورابعة للمسلمين ، وأبحروا بها إلى رودس[٣٨] .

وتتابعت غارات القراصنة القطلان فأغار فى العام التالى سنة ٨٢٠ هـ/ ١٤١٧ م على الموانىء الشامية بدرو سانتون Pedro Santon وهو من القراصنة الذين اشتهروا بالشجاعة والجسارة وكانت له سفينة عليها خمسمائة شخص يمارس بها أعمال القرصنة[٣٩] .

وأشيع بين سكان الاسكندرية فى ربيع الأول سنة ٨٢٠ هـ/ ١٤١٧ م أن القطلان يستعدون لمهاجمة الثغر مرة ثانية ، فاستعد أهالى الاسكندرية بحفر خندق حولها[٤٠] تحسباً

لهذا الهجوم المرتقب .

وتتابعت أعمال القرصنة من القطلان والقبارصة على الموانى المصرية والشامية وعلى سفن المسلمين التى تجوب المياه الشرقية للبحر الأبيض المتوسط طوال السنوات التالية ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ هـ/ ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ م .

ودعت هذه الأعمال العدوانية بعض الدول التجارية التى حرصت على سلامة مصالحها التجارية مع دولة المماليك مثل البندقية ، إلى التوسط من جانبها لدى فرسان الاسبتارية والقبارصة لاطلاق سراح أسرى المسلمين حرصاً على سلامة الملاحة ، وخوفاً من أن ينزل بالبنادقة غضب السلطات المملوكية فتطبق مبدأ المسئولية الجماعية إزاءهم[٤١] .

وفى عهد السلطان ططر الظاهرى برقوق الجركسى القصير ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١ م[٤٢] أصدر - أثناء وجوده بدمشق فى فترة وصايته على السلطان الطفل محمد بن شيخ - مرسوماً حدد بمقتضاه مدة إقامة جميع طوائف الفرنج فى أرضى الدولة المملوكية بأربعة أشهر على أكثر تقدير وهى المدة التى رآها كافية لإنهاء عملياتهم التجارية بعد أن ثبت تآمرهم مع القراصنة ، فقد كانوا يمدونهم بالمعلومات عن التحصينات بالسواحل والموانى ، وعن أخبار وصول سفن التجار المسلمين ومغادرتها للموانى وعن استعداد السلطات لمواجهة غاراتهم وتجرمهم فى البحر المتوسط .

غير أن البندقية نجحت فى إلغاء ذلك المرسوم فى عهد الأشرف برسباى[٤٣] ٨٢٥ - ٨٤١ هـ/ ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م الذى كان يهدف إلى إنعاش الحركة التجارية مع الدول الغربية .

ولكن غارات القراصنة حالت دون تنفيذ ذلك ، فلم تكد تمضى على إلغاء المرسوم ثلاثة أشهر حتى أغار القبارصة والقطلان على موانىء الاسكندرية وبيروت وبرقة فى شعبان سنة ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢ م[٤٤] حيث قاموا بسلب الأموال وأسر عدد كبير من التجار والأهالى المسلمين .

وكان من الطبيعى أن تلهب هذه الأعمال روح الانتقام بين المماليك وضرورة الرد على العدوان بالعدوان وحتمية الاستيلاء على جزيرتى قبرص ورودس التى اتخذ القراصنة منها أوكاراً لهم .

وفعلاً قام المماليك بالانتقام السريع من قبرص وملوكها فى عهد السلطان الأشرف

برسباى الذى تولى عرش دولة المماليك الجراكسة سنة ٨٢٥ – ٨٤١ هـ/ ١٤٢٢ – ١٤٣٨ م وصمم على القيام بهذه الخطوة ، لاسيما بعد أن وردت الأخبار سنة ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٣ م بأن الفرنج أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب ثغر دمياط فيها بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجل[٤٥] ، وبأن ملك قبرص جانوس استولى على سفينة محملة بالهدايا مرسلة من برسباى إلى السلطان مراد العثمانى[٤٦] وكان ان أرسل برسباى ثلاث حملات لغزو جزيرة قبرص الأولى سنة ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٤ م وكانت مجرد حملة استكشافية[٤٧] ، والثانية سنة ٨٢٨ هـ/ ١٤٢٥ م وكانت أكبر من الأولى وعادت بعد أن حققت بعض النجاح ، ولسماعها بأخبار النجدة التى أرسلها البنادقة إلى قبرص ، أما الحملة الثالثة التى أرسلت سنة ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦ م كانت استعداداتها كبيرة وانتهت بالاستيلاء على قبرص وأسر ملكها جانوس وثلاثة آلاف أسير وأصبحت قبرص من « جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباى[٤٨] » .

ومع ذلك لم تنقطع أعمال القرصنة على شواطىء مصر عقب استيلاء المماليك على قبرص سنة ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦ م مما لم يترك مجالاً للشك فى أن أولئك القراصنة اتخذوا جزيرة رودس قاعدة لهم بعد أن سقطت أرمينية الصغرى سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٤ م[٤٩] وقبرص سنة ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦ م .

ومن هذه الأعمال قيام أربع شوان للفرنج بغارة على فرع رشيد فى ربيع الأول سنة ٨٤٣ هـ/ ١٤٣٩ م « وأخذت منها أبقاراً وغيرها »[٥٠] مما أثار السلطان جقمق[٥١] ٨٤٢ – ٨٥٧ هـ/ ١٤٣٨ – ١٤٥٣ م فأرسل ثلاث حملات لغزو رودس فى أعوام ٨٤٤ هـ/ ١٤٤٠ م ، ٨٤٧ هـ/ ١٤٤٣ ، ٨٤٨ هـ/ ١٤٤٤ م انتهى أمرها بالفشل بسبب الامدادات الأوربية إلى رودس وتسرب أخبار الحملات عن طريق الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم[٥٢] .

ومما لاشك فيه أن فشل جقمق فى غزو رودس كان من شأنه أن يزيد من روح الكراهية للفرنج ، هذه الروح التى أخذت تذكو وتتأجج بسبب تجرم القراصنة المتزايد منذ أوائل عهده حتى وصل إلى ذروته فى السنوات الأخيرة منه .

وشجع توتر العلاقات بين الحبشة وسلطنة المماليك ، البابوية وملوك الفرنج على العمل على ضم الحبشة إلى المعسكر الصليبى وإلى الكنيسة الكاثوليكية ، فالحبشة هى التى قامت من جانبها فى عهد ملكها إسحاق بن داود ٨١٥ – ٨٣٠ هـ/ ١٤١٢ – ١٤٢٧ م[٥٣] بعرض فكرة التحالف مع ألفونسو الخامس ملك أرغونة ١٤١٦ –

١٤٥٨ م الذى تعهد بإعداد حملة بحرية تدهم مصر من ناحية الشمال فى الوقت الذى يزحف عليها ملك الحبشة على رأس جيوشه من ناحية الجنوب ويقطع مجرى النيل عن مصر[٥٤] .

وكان ألفونسو الخامس قد أرسل قبيل وصول هذه الغارة بعض وحدات أسطوله بقيادة أمير البحر Bernat de Vilamari للقيام ببعض الغارات الاستكشافية لمعرفة مدى مناعة التحصينات بالسواحل والموانىء بمصر والشام ثم استمرت هذه القوة البحرية ، بعد هذا العرض من جانب ملك الحبشة ، تمارس أعمال القرصنة حتى سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م .

ومما سجلته المراجع العربية المعاصرة من أنباء هذه الغارات أن عدة مراكب للفرنج تزيد على خمسة عشرة مركباً أخذت تمارس أعمال القرصنة أمام السواحل والثغور الإسلامية منذ شهر ربيع الآخر سنة ٨٥٤ هـ/ ١٤٥٠ م ، مما دفع السلطات المصرية إلى الاهتمام بتعزيز حماية السواحل والثغور ، وعلى الرغم من ذلك فقد ورد الخبر إلى القاهرة فى ٨ شوال سنة ٨٥٤ هـ/ ١٤٥٠ م بأن الفرنج هاجموا ثغر رشيد واستولوا من المسلمين على أربعة مراكب محملة بالغلال بما قيمته مائة ألف دينار[٥٥] .

وفى ١١ جمادى الآخرة سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م هاجمت عدة مراكب تزيد على العشرين ، ميناء صور ، وبعد ذلك بثلاثة أيام هاجمت مجموعة أخرى ميناء الطينة[٥٦] .

وأخيراً انصرف زرء يعقوب ملك الحبشة ١٤٣٤ – ١٤٦٨ م/ ٨٣٨ – ٨٧٣ هـ عن تنفيذ مشروع سلفه وآثر المسالمة مع مصر وإعادة علاقات حسن الجوار والمودة بين الدولتين[٥٧] .

أما ألفونسو الخامس ملك أرغونة ونابلى فقد واصل سياسته العدوانية تجاه الدولة المملوكية حتى أدركته الوفاة عام ٨٦٣ هـ/ ١٤٥٨ م .

وتشير المصادر التاريخية المعاصرة إلى قلة أعمال القرصنة فى عهد الملك الأشرف إينال العلائى الظاهرى ٨٥٧ – ٨٦٥ هـ/ ١٤٥٣ – ١٤٦١ م[٥٨] .

ويبدو أن سبب ذلك هو انصراف القطلان إلى استئناف علاقاتهم التجارية مع الأسواق المصرية والشامية بعد أن كانت قد توقفت ، وخاصة بعد وفاة ألفونسو الخامس ملك أرغونه سنة ٨٦٣ هـ/ ١٤٥٨ م الذى اشتهر بعدائه الشديد للمسلمين وبالتجائه إلى القرصنة لتحقيق أهدافه السياسية .

ومن أعمال القرصنة التى تمت فى عهد إينال ، قيام الفرنج بالإغارة على السواحل المصرية فى شعبان سنة ٨٦٣ هـ/ ١٤٥٩ م ، وخروج حملة بحرية لتعقبهم ثم العودة ببعض أسراهم الذين بلغ عددهم « نحوا من مائة وخمسين نفرا ، وكان فيهم قنصل الفرنج » فى المحرم سنة ٨٦٤ هـ/ ١٤٥٩م[٥٩] .

وقد أعقب ذلك قيام السلطات المملوكية بالانتقام من الجنوية الذين حامت حولهم الشبهات فقبضت على تجارهم وعلى قنصلهم بالاسكندرية[٦٠] .

وكان من نتائج هذه الغارة اهتمام سلطنة المماليك بتحصين السواحل المصرية ، فعهد إلى بعض أمراء المماليك وهم الأمير بردبك صهر السلطان[٦١] ، والناصرى محمد نقيب[٦٢] الجيش ، بارتياد شواطىء البحر المتوسط للبحث عن مكان يصلح لإقامة برج حربى « لأجل طروق الفرنج السواحل[٦٣] » وذلك فى جمادى الأولى سنة ٨٦٥ هـ/ ١٤٦١ م وفى عهد السلطان الملك الظاهر ابن سعيد سيف الدين خشقدم بن عبد الله الناصرى المؤيدى ٨٦٥ - ٨٧٢ هـ/ ١٤٦١ - ١٤٦٧ م[٦٤] قام فرسان الاسبتارية برودس فى صيف سنة ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٤ م بالاستيلاء على ثلاثة سفن تابعة لجمهورية البندقية ، كانت محملة بالمتاجر لبعض التجار المراكشيين أثناء إبحارها قرب جزيرة رودس وهى فى طريقها من الاسكندرية إلى المغرب الأقصى وكانت قيمة هذه الحمولة تبلغ أربعة وعشرين ألف قطعة ذهبية ، عدا البهار والسلع الأخرى والأسرى[٦٥] .

وكان سبب قيام الاسبتارية بهذا العمل هو الرغبة فى الانتقام من المماليك لما قاموا به من تخريب لأملاكهم ببلدة كولوس بجزيرة قبرص بسبب مناصرتهم للملكة الشرعية شارلوت فى حرب الوراثة التى قامت فى هذه الجزيرة بينها وبين أخيها جيمس[٦٦] ، وهى الحرب التى انتهت باستقرار جيمس على عرش قبرص ، وعندما علم السلطان بهذا النبأ ، أمر بالقبض على جميع تجار البنادقة المقيمين بسائر أرجاء المملكة مع مصادرة أموالهم وبضائعهم ، لأن المراكشيين كانوا قد اشترطوا ألا تذهب السفن إلى رودس[٦٧] .

واضطر دوق البندقية إلى التدخل لدى رئيس الاسبتارية بطرس ريموند زاكوستا ١٤٦١ - ١٤٦٧ م بل إلى استخدام القوة الحربية ضدهم حتى وافقوا على إرجاع المتاجر والأسرى ، فوصلوا إلى الاسكندرية فى ربيع الآخر سنة ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٤ م .

وفى عهد السلطان أبو النصر سيف الدين قايتباى المحمودى الأشرفى الظاهرى ٨٧٢ - ٩٠١ هـ/ ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م[٦٨] تعددت حوادث القرصنة ضد السواحل والموانىء فى مصر والشام .

ففى صفر سنة ٨٧٧ هـ/ ١٤٧٣ م قبض الأمير قجماس الإسحاقى[٦٩] نائب الاسكندرية على جماعة من الفرنج « يتعبثون بسواحل البحر المالح » فأمر السلطان بسجنهم فى المقشرة[٧٠] بمصر[٧١] .

وفى ربيع الآخر من نفس العام خرجت حملة عسكرية مملوكية إلى جهة الطينة برئاسة القاضى شرف الدين الأنصارى ، حيث وجد هناك مراكب فيها فرنج يتعبثون بالمسافرين بين مصر وسورية « فقبض على مركب منهم وأسر من فيها من الفرنج وأحضرهم صحبته لما عاد »[٧٢] .

وفى شهر المحرم من العام التالى ٨٧٨ هـ/ ١٤٧٣ م جاءت من الاسكندرية بتعبث الفرنج ببعض سواحلها وأنهم أسروا من المسلمين تسعة أشخاص وفعلوا مثل ذلك بثغر دمياط ، فأمر السلطان على الفور بتجهيز حملة بحرية بقيادة الأمير قجماس الاسحاقى نائب الثغر ، وأمره « بأن يتبع الفرنج حيث ساروا[٧٣] » .

وفى رمضان سنة ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م احتال بعض القراصنة البروفنساليين على تجار الاسكندرية وأسروهم بعد أن تخفوا فى زى التجار ، وكان من بين الأسرى تجار السلطان ابن علبية ، وابن يعقوب ، وعلى الكيزانى ، وعلى التمراوى ، ثم توجهوا إلى بلاد الفرنج .

وإزاء هذا العمل الإجرامى أمر السلطان نائبه بثغر الاسكندرية بالقبض على جميع تجار الفرنج المقيمين بالاسكندرية ومصادرة أموالهم ومتاجرهم وإلزامهم بمكاتبة ملوك الفرنج لإطلاق سراح التجار المسلمين .

وعمل السلطان على زيادة الضغط على ملوك الفرنج فأمر فى أول المحرم سنة ٨٨١ هـ/ ١٤٧٦ م بالقبض على جميع الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة وإرسالهم إلى القاهرة ، وأحدث هذا التصرف رد فعل سريع إذ لم يلبث الفرنج البروفنساليون أن أفرجوا فى نفس الشهر عن التجار المسلمين[٧٤] وأفرج قايتباى من جانبه عن الرهبان وأعادهم ليباشروا شئون دينهم ودنياهم[٧٥] .

وفى عهد السلطان الملك الأشرف قانصوه بن عبد الله الظاهرى الأشرف الغورى ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ/ ١٥٠١ - ١٥١٦ م[٧٦] ، جد من الأحداث ما ساعد على ازدياد التوتر بين المماليك والصليبيين فى البحر المتوسط ، فقد تطلع البرتغاليون لتنفيذ الأهداف الصليبية عن طريق توجيه ضربة إلى المماليك من الخلف ، أى عن طريق الالتفاف حول

أفريقية وكشف طريق جديد يحرم دولة المماليك من المورد الأول لثروتها وقوتها وهو قيامها بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب .

واستغرقت حركة كشوفهم الجغرافية حول أفريقية نحوا من ثمانين عاما افتتحها الأمير هنرى الملاح Henry The Navigator سنة ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م بإرسال أولى حملاته البحرية لاكتشاف الساحل الغربى لأفريقية ، واستمرت إلى أن تمكن الملاح البرتغالى بارتلميو دياز Bertholomew Dias من الوصول إلى أقصى الطرف الجنوبى لها سنة ٨٩١ هـ/ ١٤٨٦ م واكتشاف رأس الرجاء الصالح(٧٧) مما سهل مهمة فاسكودى جاما Vasco de Gama فى استكمال الالتفاف حول أفريقية والوصول سنة ٩٠٤ هـ/ ١٤٩٨ م إلى ميناء قاليقوط الهندى(٧٨) .

وبعد هذا النجاح الذى حققه البرتغاليون فى حرمان دولة سلاطين المماليك من مصدر ثرائها وقوتها ، اتجه الصليبيون بعد ذلك إلى توجيه الضربات القاصمة ضدها فى البحر المتوسط وفى المحيط الهندى فى تعاون تام وحسب خطة موضوعة منظمة ، ففى الوقت الذى يقوم فيه البرتغاليون بمهاجمة السفن الهندية والمصرية المتجهة نحو جدة ، والقيام بأعمال القرصنة فى البحر الأحمر ، كان قراصنة الفرنج وعلى رأسهم فرسان الاسبتارية يقومون بنفس هذه المهمة فى البحر المتوسط ، بهدف منع التعامل التجارى مع الموانئ المصرية والشامية وإعاقة الغورى عن بناء القوة البحرية اللازمة لمحاربة البرتغاليين ، وبذلك يسهل استعادة الأراضى المقدسة بالشام .

وتجمع المصادر على عدم استعداد السلطان الغورى بحرياً للقيام بعمل فورى ضد البرتغاليين ، وأنه كان مقتنعاً بأن الحرب هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على التهديد البرتغالى فى المياه الشرقية .

وحتى يتمكن من هذا العمل العسكرى البحرى ، كان لابد له من إنشاء أسطول قوى ولهذا طلب من السفير البندق فرنسسكو تاليدى Fransisco Taldi إبلاغ حكومته للإسراع فى إمداده بالأخشاب والأسلحة اللازمة لإنشاء وإعداد القطع البحرية المطلوبة(٧٩) .

وفى الوقت الذى ازدادت فيه أعمال القرصنة من جانب البرتغاليين فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، ازدادت أعمال القرصنة من جانب الفرسان الاسبتارية فى المياه الشرقية للبحر المتوسط ، وقاموا بشن سلسلة من الغارات على السفن المصرية وهى محملة

بالبضائع وبالأخشاب والعتاد اللازم لبناء السفن بهدف عرقلة المجهود الحربى الذى تقوم به الدولة لمواجهة خطر البرتغاليين ، ومن المؤكد وجود اتفاق بين ملك البرتغال عمانويل السعيد ١٤٩٥ - ١٥٢١ م وقادة الاسبتارية فى رودس بطرس أوبوسون ١٤٧٦ - ١٥٠٣ م وإيمرى امبواز ١٥٠٣ - ١٥١٢ م وجاى بلانشفورت ١٥١٢ - ١٥١٣ م وفابريك جاريتو ١٥١٣ - ١٥٢١ م يحدد خطة العمل بينهم ضد الدولة المملوكة .

ففى عام ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م هاجم الفرسان الاسبتارية إحدى السفن التابعة للسلطان فى ميناء قبرص واستولوا عليها واقتادوها إلى جزيرة رودس ، وكانت هذه السفينة بها عدد كبير من التجار المغاربة افتداهم الأمير تغرى بردى الترجمان مع غيرهم من التجار المسلمين أثناء ذهابه لمفاوضة البندقية فى موضوع إمداد الدولة المملوكية بالأخشاب ، إذ مر تغرى بردى بجزيرة رودس للمفاوضة فى أمر إطلاق السفينة المصرية وما كان عليها من متاجر ولكنه لم ينجح فى هذه المهمة وإنما تمكن من افتداء عدد كبير من الأسرى بمبلغ خمسين ألف دينار ولما كان أغلب الأسرى من المغاربة فرض السلطان على طائفة المغاربة التى بمصر والاسكندرية إثنين وثلاثين ألف دينار « فى نظير ما عزمه(٨٠) » وتتابعت حوادث القرصنة .

وفى شهر ذى القعدة سنة ٩١٤ هـ/ ١٥٠٩ م أرسل السلطان الأمير تمرباى الهندى لعمارة الأبراج بميناء الطينة شرق دمياط ، وأثناء وجوده هناك هاجمت إحدى سفن القراصنة الميناء فجمع الأمير تمرباى جماعة من الخفراء هناك ، ومن كان معه من المماليك ، وتمكن من الانتصار عليهم والاستيلاء على مركبهم وأسر من كان به من القراصنة وعدتهم سبعة وعشرين نفراً وأرسلهم إلى القاهرة(٨١) .

وفى العام التالى سنة ٩١٥ هـ/ ١٥١٠ م حدث أثناء توجه الأمير محمد بك إلى البندقية لإحضار الأخشاب اللازمة لبناء الأسطول أن صادف بعض مراكب الفرنج القراصنة « يعبثون فى البحر على التجار(٨٢) » فاشتبك معهم فى معركة بحرية انتهت بانتصاره عليهم « وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر الذى بقى منهم وغنم ما كان معهم فى المراكب وهى أشياء كثيرة بنحو من مائة ألف دينار « فسر السلطان لهذا الخبر(٨٣) » .

وفى نفس العام ٩١٥ هـ/ ١٥١٠ م هاجم فرسان الاسبتارية خمس سفن فرنسية قادمة من الاسكندرية وعليها بعض التجار المغاربة وعائلاتهم فى طريقهم إلى بلادهم أثناء مرورها بالقرب من رودس فأسر الروادسة المغاربة واستولوا على متاجرهم التى بلغت قيمتها قرابة أربعين ألف دينار .

وذاع أن ربابنة السفن الفرنسية كانوا على اتفاق مسبق مع قراصنة رودس على مهاجمة سفنهم واقتسام الغنائم معهم .

وإزاء هذه الأخبار اضطر الغورى إلى اتخاذ بعض الاجراءات الانتقامية التى تضمن عودة المغاربة واسترجاع بضائعهم وأموالهم ، فأمر بالقبض على قنصل الفرنسيين بالاسكندرية فيليب دى بيرتز Philippe De Peretz ومصادرة أموال جميع تجارهم بالثغر[84] .

وفى جمادى الآخرة سنة ٩١٦ هـ/ ١٥١٠ م جاءت الأنباء بأن سفن الفرسان الاسبتارية بقيادة أمير البحر البرتغالى أندريه دامارال Andre d'Amaral هاجمت ثمانى عشرة سفينة مصرية كان على رئاستها الأمير محمد بك الذى كان قد توجه إلى البندقية لإحضار الأخشاب . وبالقرب من ساحل قلعة إياس[85] دارت المعركة التى انتهت بقتله « وقتل من كان معه من الجند وأخذوا ما كان معه من المراكب المشحونة بالسلاح وآلة الحرب » .

وأدت هذه الكارثة إلى القضاء على المجهود الحربى الذى تقوم به مصر وقتذاك لبناء أسطول آخر بعد فقد الأسطول المصرى فى معركة ديو البحرية فى شهر صفر سنة ٩١٥ هـ/ ٣ فبراير ١٥٠٩ م[86] . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد إلى الغاية وامتنع عن الأكل يومين ، وقد تزايد شر الفرنج فى هذه السنة وكثر تعبثهم بالناس فى البحر الرومى والبحر الهندى والأمر إلى الله تعالى[87] » .

ومما زاد الأمر سوءاً فشل تجربة مكاحل البارود النحاس التى أمر السلطان بصنعها « فلم تصح منهم واحدة ، وكانوا نحوا من خمس عشرة مكحلة[88] » .

وكرد فعل لهذه الأحداث أمر السلطان بالقبض على الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبكنيسة القيامة وكانوا نحوا من عشرين راهباً وكذلك على سائر تجار الفرنج المقيمين بالاسكندرية ودمياط ومصادرة أموالهم وكانوا نحوا من خمسين تاجراً[89] .

وطلب الغورى منهم على لسان تغرى بردى الترجمان أن يكاتبوا ملوك الفرنج ليردوا ما أخذوه من المراكب والسلاح وهددهم بهدم كنيسة القيامة وبشنقهم إذا لم يتم ذلك[90] ، كما أمر السلطان الأمير أقباى الطويل بالتوجه إلى القدس والتحفظ على ما بكنيسة القيامة من أموال الفرنج[91] .

وعلى الرغم من هذه الاجراءات والتهديدات التى قام بها السلطان الغورى ضد الفرنج فإن أعمال القرصنة لم تتوقف .

ففى يوم الاثنين ٢٧ ربيع الأول سنة ٩١٧ هـ/ ١٥١١ م حضر الرئيس حامد المغربى إلى القاهرة ومعه مائتين من قراصنة الفرنج كانوا يغيرون على سواحل البرلس فقبض عليهم وقيدهم فى زناجير[92] فأمر السلطان بسجنهم[93] .

وهكذا وقفت أعمال القرصنة ضد المماليك الجراكسة فى السواحل والثغور الإسلامية فى البحر المتوسط حائلاً دون التمكن من بناء الأسطول فى الوقت المناسب ومواجهة البرتغاليين فى المحيط الهندى والبحر الأحمر .

وفى هذه الأثناء دخلت دولة المماليك الجراكسة مرحلتها النهائية فقد تحرك العثمانيون ضدهم مما اضطر الغورى إلى الخروج على رأس جيش كبير لمواجهة الغزو العثمانى حيث دارت عند مرج دابق – بشمال الشام – فى ٢ رمضان سنة ٩٢٢ هـ/ أغسطس ١٥١٦ م الموقعة الشهيرة الفاصلة بين المماليك والعثمانيين والتى قتل فيها السلطان الغورى .

وسرعان ما أثبت الأتراك العثمانيون أنهم ليسوا مجرد رعاة لا يجيدون إلا الكر والفر والحروب البرية ، وإنما غدوا أيضاً قوة بحرية ضاربة فى حوض البحر المتوسط مشرقه ومغربه .

وبسقوط دولة سلاطين المماليك فى أوائل القرن السادس عشر للميلاد دخل الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى مياه البحر المتوسط دوراً جديداً .

والله أسأله التوفيق وبه وحده تكون الاستعانة .

هوامش

(١) أبو المحاسن : **النجوم الزاهرة** جـ ٨ ص ٥ ، المقريزى : **السلوك** جـ ١ ق ٣ ص ٧٦٣ – ٧٦٥ ، ابن حبيب : **تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه** جـ ١ ص ١٣٧ ، أبو الفدا : **المختصر فى أخبار البشر** جـ ٤ ص ٢٤ ، سعيد عاشور : **الحركة الصليبية** جـ ٢ ص ١١٨٣ ، عبد المنعم ماجد : **العلاقات بين الشرق والغرب** ص ٢٠٣ .

(٢) انظر ترجمته : ابن شاكر الكتبى : **فوات الوفيات** جـ ١ ص ٤٠٦ – ٤١٥ ترجمة رقم ١٤٨ ، ابن العماد الحنبلى : **شذرات الذهب** جـ ٥ ص ٤٢٢ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : مصر والحروب الصليبية : **رسائل الثقافة الحربية العدد ٣٩** ، محاضرة ألقيت بنادى الاتحاد الإنجليزى المصرى فى مارس ١٩٤٢ م باللغة الإنجليزية وترجمها إلى العربية : **محمد سعيد السيد منصور** : ص ١١ .

(٤) سعيد عاشور : الحصار الاقتصادى على مصر زمن الحروب الصليبية : **فى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى** ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٥) أحمد دراج : **المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى – الخامس عشر الميلادى** ص ٧ .

(٦) وهو المشروع الذى تقدم به هنرى الثانى لوزجنان ملك قبرص (١٢٨٥ – ١٣٢٤ م) إلى البابا كلمنت الخامس ١٣٠٥ – ١٣١٤ م بأن تكون القوة البحرية المكلفة بالحصار مستقلة عن المدن الإيطالية . انظر : سعيد عاشور : **قبرص والحروب الصليبية** ص ٥٤ ، الحصار الاقتصادى على مصر ص ١٥٦ .

(٧) محمد مصطفى زيادة : **مصر والحروب الصليبية** ص ١١ .

(٨) Wiet (G) L'Egypte Arabe. T.IV de L'Histoire de la Nation Egyptienne, Paris 1937, pp. 493-497.
دراج : **المماليك والفرنج** ص ٨ ، سعيد عاشور : مركز مصر فى التجارة العالمية أواخر العصور . فى **بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى** ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٩) Hill(G): A History of Cyprus (3 Vols) Cambridge 1940-1948 II p 331-334.
ابن حبيب : **درة الأسلاك فى دولة الأتراك** جـ ٣ ، ق ١٣ ، سعيد عاشور : **قبرص** ص ٥٧ – ٦٩ .

(١٠) النويرى الاسكندرى : **الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام ، والأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية** ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٤٢ تاريخ جـ ١ ق ١٩ب .

(١١) المقريزى : **السلوك** جـ ٣ ق ١ ص ١٤٩ ، أبو المحاسن : **النجوم الزاهرة** جـ ١١ ص ٥٢ ، ٥٣ .

(١٢) النويرى : **الإلمام** جـ ٢ ق ٢٧ ب .

(١٣) النويرى السكندرى : **الإلمام** جـ ٢ ص ١٩٨ – ٩٩ ب . **سعيد عاشور** : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٢٨ ، **قبرص والحروب الصليبية** ص ٧٨ .

(١٤) محمد مصطفى زيادة : **مصر والحروب الصليبية** ص ١٣ .

(١٥) وهم أهل قطلونية بأسبانيا : عبد العزيز عبد الدائم : الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر : رسالة دكتوراة مخطوطة ص ٤ حاشية ٣ .

(١٦) انظر ترجمته فى السخاوى : **الضوء اللامع** ج ٣ ص ١٠ ترجمة رقم ٤٨ ، ابن العماد : **شذرات الذهب** جـ ٧ ص ٦ .

(١٧) المقريزى : **السلوك** جـ ٣ ص ٥١٥ ، الصيرفى : **نزهة النفوس والأبدان** جـ ١ ص ٩٥ .

(١٨) المقريزى : **السلوك** جـ ٣ ص ٥٦٢ .

(١٩) ابن الفرات جـ ٩ ص ٣٣ .

(٢٠) المقريزى : **السلوك** جـ ٣ ص ٥٨٥ ، ابن الفرات جـ ٩ ص ٣٨ ، الصيرفى : **نزهة النفوس** جـ ١ ص ١٧٨ .

(٢١) المقريزى : **السلوك** جـ ٣ ص ٧٢٣ ، الصيرفى : **نزهة النفوس والأبدان** جـ ١ ص ٣١٢ .

(٢٢) المقريزى : **السلوك** جـ ٣ ص ٧٨٧ ، الصيرفى : **نزهة النفوس** جـ ١ ص ٣٦٢ . ابن حجر : **أنباء الغمر بأنباء العمر** جـ ١ ص ٤٥٤ .

(٢٣) المقريزى : **السلوك** جـ ٣ ص ٨١٣ .

(٢٤) المقريزى : **السلوك** جـ ٣ ص ١٠٥٩ .

(٢٥) أحمد دراج : **المماليك والفرنج** ص ٢٢ ، المقريزى : **السلوك** جـ ٣ ص ١١١٤ – ١١١٥ .

(٢٦) المقريزى : **السلوك** جـ ٣ ص ١١١٦ .

(٢٧) أحمد دراج : **المماليك والفرنج** ص ٢٢ .

(٢٨) أحمد دراج : المرجع السابق ص ٢٢ ، المقريزى : **السلوك** جـ ٤ ص ١٩٤ .
Ziada. M.M. The Mamluk conquest of Cyprus P. 91.

(٢٩) انظر ترجمته فى السخاوى : **الضوء اللامع** جـ ٣ ص ٣٠٨ ترجمة رقم ١١٩٠ ، ابن العماد الحنبلى : **شذرات الذهب** ج ٧ ص ١٦٤ .

(٣٠) أحمد دراج : **المماليك والفرنج** ص ٢٣ ، Ziada: The Mamluk **Conquest of Cyprus,** Part I p. 91. بينما ذكر ابن حجر فى **أنباء الغمر بأنباء العمر** جـ ٣ ص ٥٣ أن عدد أسرى المسلمين كان خمسمائة أسير .

(٣١) ابن حجر : **أنباء الغمر** جـ ٣ ص ٩٤ .

(٣٢) أحمد دراج : **المماليك والفرنج** ص ٢٣ .

(٣٣) انظر أمثلة هذه الغارات على يافا والاسكندرية ، المقريزى : **السلوك** جـ ٤ ص ٣٥٧ ، ابن حجر : **أنباء الغمر** جـ ٣ ص ٩٤ .

(٣٤) سعيد عاشور : **أوربا العصور الوسطى** جـ ١ ص ٥٥١ .

(٣٥) Heyd. W: Histoire du commerce de levant au Moyen-Age 2 Vols Leipzig 1923-T II p. 472.

(٣٦) جزيرة بين دمياط والاسكندرية : انظر ياقوت : **معجم البلدان** جـ ٥ ص ٢٨٤ .

(٣٧) المقريزى : **السلوك** جـ ٤ ص ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ابن حجر : **أنباء الغمر** جـ ٣ ص ٩٠ .

(٣٨) المقريزى : **السلوك** جـ ٤ ص ٣٦١ ، ابن حجر : **أنباء الغمر** جـ ٣ ص ٩٣ ، ٩٤ . أحمد دراج : **المماليك والفرنج** ص ٢٥ . Heyd: Op. Cit. T II p 472.

(٣٩) أحمد دراج : **المماليك والفرنج** ص ٢٦ .

(٤٠) المقريزى : **المملوك** جـ ٤ ص ٣٨٦ ، ابن حجر : **أنباء الغمر** جـ ٣ ص ١٣٨ .

(٤١) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٢٦ .

(٤٢) انظر ترجمته فى السخاوى : الضوء اللامع جـ ٤ ص ٧ ترجمة رقم ٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٠٨ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٧ ص ١٦٥ .

(٤٣) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٢٨ ، ٣١ . Heyd: Histoire du Commerce T. 11 P. 473.
انظر ترجمته فى السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٨ ترجمة رقم ٣٨ ، ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب جـ ٧ ص ٢٣٨ .

(٤٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٦١ ، المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٦١٧ .

(٤٥) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٦٦٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ق ٤ ص ٥٧٨ (بير) .

(٤٦) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٣٨ .

(٤٧) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٦٦٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٨٠ ،
Ziada, M.M. :The Mamluk Conquest of Cyprus in the Fifteenth Century (Bulletin of The Faculty of art, Cairo)

(٤٨) العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان جـ ٢٥ ق ٣ ص ٥٨٣ ، ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأنباء العمر جـ ٣ ص ٣٤٦ ، ٣٦٦ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان جـ ٣ ص ٧٩ السيوطى : غزوات قبرص ورودس ص ٦ ، عبد العزيز عبد الدايم : الأحكام المملوكية جـ ١ ص ٧٠ .

(٤٩) انظر : سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، بحث ضمن بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٢٢٥ - ٢٧٨ .

(٥٠) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ١٦٦٥ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ١٠٦ .

(٥١) جقمق العلائى الظاهرى ، سيف الدين أبو سعيد : انظر : السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٧١ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٧ ص ٢٩١ .

(٥٢) انظر : محمد مصطفى زيادة : الأساطيل المصرية ومحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس فى عهد السلطان المملوكى جقمق : ترجمة جمال الدين الشيال فى دراسات فى التاريخ الإسلامى ص ١٠٦ - ١٢٥ ، عبد العزيز عبد الدايم : الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر : رسالة دكتوراة مخطوطة جـ ١ ص ٧٤ .

(٥٣) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ، بحث فى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٢٧٩ - ٣٢١ .

(٥٤) Atiya (Aziz Suryal): The Crusade in the later Middle Ages: London 1938. p. 192-196.

(٥٥) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٦٨ .

(٥٦) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٥١ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٦٨ .

(٥٧) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ص ٣١٧

(٥٨) انظر ترجمته فى : السخاوى : الضوء اللامع جـ ٢ ص ٣٢٨ ترجمة رقم ١٠٨٠ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ ٧ ص ٣٠٤ .

(٥٩) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٢ ص ٣٥٣ ، ٣٥٦ .

(٦٠) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٩٠ .

(٦١) هو الأمير بردبك الأشرف إينال ت ٨٦٨ هـ انظر ترجمته فى السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٤ ترجمة رقم ٢٠ .

(٦٢) هو الناصرى محمد بن أبى الفرج نقيب الجيش ، انظر ترجمته : السخاوى الضوء اللامع جـ ٨ ص ٢٧٩ .

(٦٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٦٦ .

(٦٤) انظر ترجمته فى السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ١٧٥ ترجمة رقم ٦٨١ وابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٧ ص ٣١٥ .

(٦٥) محمد مصطفى زيادة / الأساطيل المصرية ومحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس ص ١٢٣ ، ١٢٤

(٦٦) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٤ ، ٢٤ ، زيادة : المرجع السابق ص ١٢٣

(٦٧) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٦٨) انظر ترجمته فى السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢٠١ ترجمة رقم ٦٩٧ - ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ص ٦ جـ ٨ ، انظر أيضاً : نجم الدين الغزى : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة جـ ١ ص ٢٩٧ - ٣٠٠ .

(٦٩) هو الأمير قجماس الاسحاقى الظاهرى جقمق توفى سنة ٨٩٢ هـ انظر ترجمته فى السخاوى الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢١٣ ترجمة رقم ٧٠٦ .

(٧٠) سجن المقشرة : صار سجناً لأرباب الجرائم بعد هدم خزانة شمائل والجب بقلعة الجبل وكان سجناً للأمراء خاصة انظر : المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٧ .

(٧١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٧٥ .

(٧٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٧٩ .

(٧٣) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٧٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١١٤ ، ١١٩ ، مجير الدين : الأنس الجليل جـ ٢ ص ٦٤٩ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٠٦ ،
Heyd: Histoire du Commerce T. 11. P. 496.

(٧٥) مجير الدين : الأنس الجليل جـ ٢ ص ٦٤٩ ، دراج : المرجع السابق ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٧٦) انظر ترجمته فى الغزى : الكواكب السائرة جـ ١ ص ٢٩٤ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٨ ص ١١٣ .

(٧٧) سعيد عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى جـ ١ ص ٥٩٠ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام جـ ١ ص ٢٦٦ ، ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٤٥ ، سونياهاو : فى طلب التوابل ص ٩٤ - ١٣٢ .

(٧٨) جوزيف نسيم يوسف : علاقات مصر بالمماليك التجارية الإيطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى (مقالة فى كتاب : أبو العباس القلقشندى وكتابة صبح الأعشى من ص ١٤٥ - ٢٠٠) ص ٢٠٠ .

(٧٩) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) : ص ٨١ .

(٨٠) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٦٤ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٨١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٤٦

(٨٢) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٦٣ .

(٨٣) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

(٨٤) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٤١ و ١٤٢ شمس الدين محمد بن طولون : مفاكهة الخلاف فى حوادث الزمان : ق ١ ص ٣٤٥ .

(٨٥) ثغر بأرمينية الصغرى على شاطىء البحر المتوسط - محمد مصطفى زيادة : السلوك ص ٦١٨ حاشية ٣ .

(٨٦) الشيخ زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤١ .

(٨٧) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٨٨) المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٨٩) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٤٢ ، ص ١٤٣ .

(٩٠) ابن إياس : المرجع السابق جـ ٤ ص ١٩٥ .

(٩١) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٩٦ .

(٩٢) زناجير جمع زنجير : كلمة فارسية الأصل معناها السلسلة من حلقات الحديد الغليظة (محيط المحيط) طوبيا العيسى : **تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية** ص ٣٣ .

(٩٣) ابن إياس : المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٢ .

مصر معبراً للثقافة الإسلامية فى حوض البحر المتوسط

فى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى

د . سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب القاهرة

لا شك أن الكاتب الرومانى سولينوس Caius Julius Solinus قد أصاب عندما أطلق لأول مرة فى التاريخ اسم البحر المتوسط على تلك الرقعة المائية التى يطل عليها غرب آسيا وجنوب أوربا وشمال أفريقية ، وهى القارات الثلاث التى يتألف منها العالم القديم . ذلك أن القدماء أدركوا أن هذا البحر لا يتوسط قارات آسيا وأوربا وأفريقية فحسب ، بل أيضاً يربط بينها ويشكل طريقاً مائياً سهلاً للاتصال الحضارى بين أكثر أجزائها نشاطاً فى ميدان الحضارة البشرية .

والواقع أنه لم يكن من باب المصادفة أن تزدهر على شواطىء هذا البحر مجموعة من أعظم الحضارات البشرية على مر عصور التاريخ . فبالإضافة إلى الموقع الوسط الممتاز الذى ينعم به ذلك الإقليم ، حبته الطبيعة بمناخ معتدل يساعد على النشاط البشرى ، حتى أن الجغرافيين اتخذوا مصطلح البحر المتوسط لإطلاقه على نوع معين من المناخ المعتدل يسود أقاليم متباعدة فى شتى أنحاء العالم . هذا فضلاً عن أن البحر المتوسط نفسه ، بمياهه الهادئة ، وشواطئه السهلية ، شكّل وسيلة سهلة لانتشار الحضارات الغنية التى ظهرت فى البلاد المطلة عليه . وهذا الانتشار أدى إلى اتصال تلك الحضارات بعضها ببعض ، وتفاعلها مع بعضها البعض ، بل إلى ذوبانها فى بعضها البعض . وقد أدى ذلك ببعض الجغرافيين إلى وصف البحر المتوسط بأنه « قام بدور الوعاء الذى ذابت فيه مختلف الحضارات والشعوب التى قدر لها أن تظهر على شواطئه على مر العصور[1] » . ومما ساعد البحر المتوسط على القيام بذلك الدور أنه بحر شبه مغلق ، حتى لقد عرفه ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى – العاشر للميلاد – بأنه « خليج من البحر المحيط » أى أنه أشبه بالخليج المنبثق من بحر الظلمات أو المحيط الأطلسى . ولا شك

أن هذه الظاهرة جعلت الشعوب المتباينة التى تعيش على شواطىء ذلك البحر تشعر وكأنها أسرة واحدة تعيش فى بيت واحد .

وهكذا بفضل البحر المتوسط تأثرت حضارة اليونان القدماء بحضارة كل من الفينيقيين وقدماء المصريين ، وتأثرت حضارة الرومان بحضارة اليونان ، وأمكن للفينيقيين واليونان جميعاً أن يقيموا عديداً من المستوطنات على سواحل البحر المتوسط وفى جزره . كذلك استطاعت روما بفضل البحر المتوسط أن تقيم امبراطورية واسعة ضخمة ، شملت كل البلاد المطلة على ذلك البحر ، وأن تحكم سيطرتها على هذه الامبراطورية عن طريق أسطول قوى ربط روما بشواطىء أسبانيا وشمال أفريقية وغرب آسيا ، فضلاً عن الجزر العديدة التى شكلت قواعد ومحطات بحرية لذلك الأسطول . وعندما ظهرت المسيحية كان البحر المتوسط عاملاً قوياً ساعد على انتشارها ، بحيث ما كاد ينتهى القرن الأول للميلاد إلا وكان كل بلد يطل على ذلك البحر أو يقع فيه ، به جالية مسيحية ، كبرت أو صغرت . وبعد ذلك ، بظهور الإسلام وانتشاره منذ القرن السابع للميلاد ، قام البحر المتوسط بدور المعبر الداخلى الذى ربط حضارياً بين أجزاء الدولة الإسلامية المطلة على ذلك البحر ، فضلاً عن المعبر الخارجى الذى عبرت عليه الحضارة الإسلامية - فى مرحلة لاحقة - إلى عالم الغرب الأوربى .

ويتهم المؤرخ بيرين Pirenne[٢] الإسلام والمسلمين بأنهم حطموا الوحدة الحضارية لحوض البحر المتوسط ؛ فبعد أن كانت البلاد المرتبطة بذلك البحر تشكل وحدة حضارية واحدة عند مطلع القرن السابع للميلاد ، تدين كلها بالمسيحية ، وتستخدم فى حياتها الفكرية اللغة اليونانية فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط ، واللغة اللاتينية فى جزئه الغربى ... إذا بحركة الفتوح الإسلامية تمزق تلك الوحدة الحضارية نتيجة لتحول بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية وأسبانيا فضلاً عن بعض الجزر - إلى دائرة الإسلام ، واتخاذها اللغة العربية أداة للتعبير عن نشاطها الفكرى والحضارى .

ولكن بيرين نسى - أو تناسى - أن انتشار الإسلام تم فى ظل حضارة جديدة نمت تحت مظلة هذه الديانة السماوية التى وجدت سبيلها تلقائياً إلى قلوب أهالى البلاد التى وصلتها رسالة الإسلام . وبعبارة أخرى فإن حركة التوسع الإسلامى لم تكن مجرد حركة توسعية حربية كتلك التى قامت بها روما فى العصور القديمة ، ولم تكن حركة هدامة كتلك التى قام بها الوندال فى الشطر الغربى من حوض البحر المتوسط فى فجر العصور الوسطى .. وإنما كانت حركة التوسع الإسلامى حركة بناء وإنشاء وتعمير فبينما خرب

الغزاة السابقون المدن ، إذا بالمسلمين يقيمون مدناً جديدة فى البلاد التى فتحوها - مثل البصرة والكوفة فى العراق والفسطاط فى مصر ، والقيروان فى أفريقية ، وكانديا أو الخندق فى كريت ، ومرسية والمرية فى الأندلس ، وميورقة فى البليار . وقد حرص المسلمون على أن يجعلوا من هذه المدن مراكز إشعاع حضارى ، بدد الظلمة السائدة فى تلك البلاد ، وأحال الخوف فيها إلى أمن ، والقلق إلى استقرار والخراب إلى عمار ، والجهل إلى علم .

هذا بالإضافة إلى حقيقة هامة غابت عن بيرين ومدرسته ، وهى أن الحضارة الأوربية القديمة كان قد انفرط عقدها فعلاً وخبا نورها وقت انتشار الإسلام فى حوض البحر المتوسط فى القرن السابع للميلاد . وإذا كانت الحضارة الأوربية قد أقامت بناءها على أساس ركيزتين كبيرتين من معارف اليونان ومعارف الرومان ، فإن هناك اجماعاً من الباحثين على أن علوم اليونان ولغتهم كادت تندثر من الغرب الأوربى قبيل بداية القرن السادس على أكثر تقدير ، وعلى أن غرب أوربا ظل طوال الشطر الأول من العصور الوسطى - أى حتى القرن الحادى عشر للميلاد - يجهل جهلاً تاماً لغة اليونان وعلومهم ، إلا فى مراكز محدودة فى صقلية وجنوب إيطاليا . وعندما أخذ الغرب الأوربى يفيق من ظلمة العصور الوسطى ، فإنه لم يتعرف على علوم اليونان إلا من خلال التراجم العربية ، وعن هذا الطريق وحده عرف الغرب فلسفة أرسطو ، ومعارف اليونان فى الطب وغير الطب من العلوم العقلية . ومعنى هذا أن الفضل يرجع إلى المسلمين وعلمائهم فى وصل ما انقطع من أسباب الحضارة الأوربية ، وفى تعريف غرب أوربا فى أواخر العصور الوسطى بما انقطع من تراث اليونان . وبذلك لا يكون المسلمون مسئولين عن فرط عقد الحضارة الأوربية ، وإنما الصحيح هو أن يقال أن المسلمين هم الذين نظموا حبات ذلك العقد ووصلوا ما انقطع منه .

ومع اتساع دولة الإسلام ، نهض البحر المتوسط برسالته التقليدية فى خدمة الحضارة الإنسانية ، فقام بدور الحوض الكبير الذى صبت فيه شتى روافد حضارة المسلمين من المشرق والمغرب جميعاً . فعلى سطح مياه ذلك البحر ، أخذت السفن والأساطيل الإسلامية تنتقل منذ وقت مبكر من المشرق إلى المغرب وبالعكس ، ومن الجنوب إلى الشمال وبالعكس ، تحمل المتاجر والبضائع ، والمسافرين من الحجاج ورجال العلم والتجار . وعندما نقول البحر المتوسط فإننا لا نعنى ذلك المسطح المائى بأمواجه فحسب ، بل أيضاً بشواطئه وسواحله التى شكلت طرقاً برية آمنة تحيط بمياه البحر ،

ويسلكها من يخشون خطراً أياً ، أو من ينشدون المرور بأكبر عدد ممكن من المدن والمراكز الحضارية ، طلباً لمزيد من الأخذ والعطاء . وقد لاحظ الجغرافيون المسلمون أن البحر المتوسط يختلف عن غيره من البحار فى أن العمار ممتد على شواطئه ، لأن معظم هذه الشواطىء سهلية سالكة مما جعل منها طرقاً ممهدة يسلكها المسافرون . وفى ذلك يقول ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى « وليس فى البحار أعمر حاشية من هذا البحر (يعنى بحر الروم أو المتوسط) لأن العمارات من جنبتيه ممتدة غير منقطعة ولا ممتنعة ، وسائر البحار تعترض فى شطوطها المفاوز والمقاطع .. » .

وهناك نسبة لا يستهان بها من المشتغلين بالأسفار فى تلك العصور جمعوا بين حياة العلم وحياة التجارة ، بمعنى أن رحلتهم كانت فى طلب العلم والتجارة جميعاً . ولم يكن هناك ما يمنع أن يكون التاجر فقيهاً أو محدثاً أو مقرئاً أو مفسراً ، والعكس صحيح ، بمعنى أنه لم يكن هناك ما يمنع أن يكون الفقيه أو المحدث أو المقرىء ، أو المفسر تاجراً . وفى عصور لم تعرف ما نعرفه اليوم من وسائل الإعلام – من طباعة وإذاعة وغيرهما – ، كانت الأخبار والمعارف والكتب تنتقل جميعاً بصحبة التجار ، فى قوافلهم أو فى سفنهم . وفى ظل حضارة غلب عليها طابع الإيمان ، وارتبط العلم فيها أساساً بالعلوم الدينية ، حرص كثير من التجار – وبخاصة ذلك الفريق الذى يعرف باسم التجار الركاضين ، أى غير المقيمين والمتنقلين من مكان إلى آخر – على انتهاز فرصة تجوالهم ومرورهم بعدد كبير من المدن ومراكز العلم والمعرفة ، للتزود بقدر من العلوم يحقق لهم صلاح الدنيا والآخرة

وقد وصل بعض هؤلاء التجار إلى مصاف كبار العلماء المعاصرين ، بحيث لا يكاد أحدهم يصل إلى بلد من بلاد الإسلام ، إلا ويلتف حوله تجار ذلك البلد من ناحية ، وعلماؤه من ناحية أخرى : الفريق الأول يشترون منه ويبيعون له ، والفريق الثانى يسمعون منه ويتحدثون إليه . ولدينا العديد من الأمثلة عن هؤلاء التجار المشتغلين بالعلم ، أو العلماء المشتغلين بالتجارة فى الفترة التى نحن بصددها ، أعنى القرن الرابع الهجرى ، العاشر للميلاد . ولنقتصر فى هذه الأمثلة على أولئك الذين ارتبطوا بخوض البحر المتوسط فى تلك الفترة .

فمن هؤلاء أبو عمر أحمد بن خالد بن عبدالله الجذامى التاجر ، المتوفى سنة ٣٧٨ هـ ، وهو من أهل قرطبة « رحل إلى المشرق ، ودخل العراق تاجراً ، فسمع من ... وسمع بمكة من ... وسمع بمصر من ... ، وأدخل الأندلس كتباً غريبة تفرد

برواياتها ، فسمعها الناس عنه . سمعت منه أكثر ما كان يرويه . وأجاز لى جميع رواياته وكتبه[٣] » . ومنهم أبو القاسم إسحاق بن غالب العصفرى ، المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ، من أهل قرطبة « رحل إلى المشرق تاجراً ، وسمع من ... بمصر ، ودخل عدن وكتب بها ، وأخذ عن ... بالقيروان .....[٤] » . ومنهم أبو جعفر زكريا بن بكر الغسانى المعروف بابن الأشج والمتوفى سنة ٣٩٣ هـ ، كان من أهل تاهرت ورحل إلى الأندلس ثم المشرق حيث سمع بمصر ، وأخذ عن علمائها ، وأخيراً عاد إلى قرطبة ليحدث بكتاب البخارى ، « وكان الغالب عليه التجارة[٥] » . كذلك ذكر ابن الفرضى – المتوفى سنة ٤٠٣ هـ – فى ترجمة أبى بكر محمد بن معاوية المعروف بابن الأحمر – وهو من أهل قرطبة – أنه رحل إلى المشرق سنة ٢٩٥ هـ ، فسمع بمصر من عديد من علمائها ، كما سمع بمكة والكوفة « ودخل الهند تاجراً » ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ٣٢٥ هـ حيث توفى سنة ٣٥٨ هـ[٦] أما أبو القاسم مسعود بن على بن مروان – من أهل الأندلس – فقد قيل فيه أنه رحل إلى المشرق « حاجاً وتاجراً ، فسمع بمصر من ...[٧] » . وربما غلبت صفة التجارة على بعضهم ، مثل أبى القاسم مسعود بن خيران المتوفى سنة ٣٧١ ، فقد غادر قرطبة « ورحل إلى المشرق تاجراً وسمع هناك سماعاً كثيراً من ... ولم يكن من أهل العلم ، وإنما كان تاجراً[٨] » .

فإذا كان الفقيه أو طالب العلم رقيق الحال ، لا يجد فى رحلته ما يعينه على مواصلة مسيرته ، فإنه كان يعمل فى البلد الذى يحل فيه ، إما بنسخ الكتب أو بغير ذلك من الأعمال . من ذلك أن الفقيه العالم أبا عبد الله محمد بن طاهر التدميرى القيسى غادر الأندلس حاجاً ، ومر بمصر ، وأقام بالحرمين ثمانية أعوام ثم سار إلى العراق ، وأخيراً عاد إلى بلده تدمير بالأندلس سنة ٣٧٦ هـ . وكان طوال رحلته فى طلب العلم « يتعيش من عمل يده بالنسخ ... فإذا سئم من النسخ الذى جعل قوته منه ، آجر نفسه فى الخدمة رياضة لها[٩] » .

والواقع أن القرن الرابع الهجرى – العاشر للميلاد – شهد تمزقاً سياسياً خطيراً فى جسم الدولة الإسلامية . ففى ذلك القرن تداعت سلطة الدولة المركزية ممثلة فى الخلافة العباسية ، ووقع الخليفة العباسى تحت وصاية الأوصياء ، سواء كانوا من الأمراء الأتراك أو من بنى بويه . وجاء ذلك مصحوباً بتفتت الدولة إلى دويلات مستقلة ، وقيام وحدات سياسية جديدة – فى المشرق والمغرب جميعاً – على حساب السلطة المركزية . حقيقة أن بعض هذه الوحدات الجديدة ترجع أصولها إلى ما قبل القرن الرابع الهجرى –

العاشر للميلاد ، كما هو الحال بالنسبة لدولة بنى أمية فى الأندلس وبعض الدول المستقلة فى شمال أفريقية . ولكن هذه الوحدات اتخذت فى القرن الرابع الهجرى طابعاً جديداً ، جعل من بعضها قوى كبرى تنافس الخلافة العباسية المتداعية فى المشرق . ويكفى أن نشير إلى أن هناك خلافتين إسلاميتين جديدتين قامتا فى القرن الرابع فى حوض البحر المتوسط ، هما الخلافة الأموية فى الأندلس ، والخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية .

ومع ذلك ، وعلى الرغم مما حدث فى القرن الرابع الهجرى من تمزق سياسى أصاب مشرق الدولة الإسلامية ومغربها ، إلا أن الملاحظ هو أن هذه الفرقة السياسية لم تؤثر فى مسيرة الحضارة الإسلامية . فالبلاد ظلت جميعاً بلاد الإسلام ، وتحت مظلة الإسلام عاش الكل جسداً واحداً ، وإن اختلف الحكام . بل لعله من الغريب أن نلاحظ أن التمزق السياسى واكبته زمنياً نهضة حضارية قفزت بالحضارة الإسلامية إلى أوج مجدها فى القرن الرابع الهجرى . وسواء كان هذا الازدهار الحضارى من آثار دفعة الإسلام – عقيدة وأسلوباً للحياة وفكراً – ، أو كان هذا الازدهار نتيجة للتنافس بين الحكام فى قرطبة والقاهرة وبغداد وبخارى وغزنة وحلب وغيرها ، فإن الذى يعنينا من واقع الحقيقة التاريخية هو أن القرن الرابع الهجرى شهد نشاطاً واسعاً فى شتى ميادين الحضارة الإسلامية ، وبخاصة ميدان الثقافة والعلوم . وهذا النشاط جاء تتويجاً لما حققته هذه الحضارة من انجازات فى القرون الثلاثة السابقة .

ثم أن عامة شعوب المسلمين – فى مشارق الأرض ومغاربها – لم يعترفوا بما حدث فى الدولة الإسلامية من انقسام وفرقة سياسية ، وإنما ظلت بلاد الإسلام كلها فى نظرهم تمثل وحدة واحدة ، أطلقوا عليها اسم « ديار الإسلام » . وبهذا الاحساس استمر الحجاج وطلاب العلم والتجار ينتقلون من المغرب إلى المشرق ، ومن المشرق إلى المغرب فى حرية تامة ودون قيود ، وهم إينما حلوا أهلاً ونزلوا سهلاً .

وفى ذلك الجو من الازدهار الحضارى والنشاط الثقافى الذى تميز به القرن الرابع الهجرى العاشر للميلاد – برز حوض البحر المتوسط ليمثل محيطاً له ثقله فى تلك الحركة الحضارية الواسعة . ذلك أن الظروف شاءت أن تكتمل سيادة المسلمين على مياه البحر المتوسط فى ذلك القرن ، وأن تبرز فى البلاد المطلة على شواطئه قوى سياسية إسلامية جديدة ، هى فى حقيقة أمرها قوى حضارية بأدق معانى الكلمة .

ففى أوائل القرن الرابع الهجرى (٣١٦ هـ = ٩٢٩ م) قامت الخلافة الأموية فى الأندلس لتستعيد أمجاد بنى أمية فى المشرق ، وتثبت للمسلمين جميعاً فى مشارق الأرض

ومغاربها أن الأمويين لا يقلون عظمة عن العباسيين فى المشرق ، وأنهم أكثر رعاية لحضارة المسلمين وعلوم الإسلام . لذلك لم يكتف خلفاء بنى أمية فى الأندلس بإقامة المنشآت الدينية ، وبخاصة الجوامع حيث تعقد حلقات العلم ، وإنما رحبوا بالوافدين عليهم من العلماء من شتى بلاد الإسلام . وقد وصف بعض هؤلاء الوافدين مثل الإمام أبى الحسن على بن محمد بن بشر الأنطاكى « نزيل الأندلس ومقريها » ، والذى توفى بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ بأنه « أدخل الأندلس علماً جماً[١٠] » . ولذلك رحب حكام الأندلس بالعلماء الوافدين عليهم ، وأجزلوا لهم العطاء . ومن أمثلة ذلك ما يذكره المقرى من أنه « لما وفد أبو على القالى على الأندلس فى عهد الخليفة الناصر عبد الرحمن ، أمر ابنه الحكم – وكان يتصرف عن أمر أبيه كالوزير – عاملهم ابن رماحس أن يجىء مع أبى على إلى قرطبة ، ويتلقاه فى وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة ، تكرمة لأبى على . ففعل ، وسار معه نحو قرطبة فى موكب نبيل ، فكانوا يتذاكرون الأدب فى طريقهم ...[١١] » ومثل هذا يقال عن الفقيه المصرى يزيد بن أحمد بن أبى عبد الرحمن القرشى الزهرى ، إذ وفد على الناصر بقرطبة سنة ٣٤٣ هـ « فأكرم الناصر مثواه ، وكان فقيه أهل مصر[١٢] » أما الأديب المصرى أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن حامد – المعروف بابن الأزرق – فقد خرج من مصر سنة ٣٤٣ هـ متجهاً إلى القيروان ، ولكن السلطات الفاطمية فى أفريقية قبضت عليه لأسباب مذهبية ، فظل محبوساً فى المهدية ثلاثة أعوام وسبعة أشهر . وعندما أفرج عنه اتجه إلى الأندلس فوصلها سنة ٣٤٩ هـ . وهناك رحب به الخليفة المستنصر بالله ، وأمر بإنزاله وتوسع له فى العطاء . ويروى ابن الفرضى أنه عندما أتم رحلته فى المشرق وعاد إلى بلاده بالأندلس ، أتاه ابن الأزرق هذا مهنئاً بسلامة العودة « وجعل يذاكرنى مصر ويسألنى عن أخبارها ، وجعل يقدر الرجوع إليها ، ويتمنه ، فحالت أمنيته دون منيته وتوفى بقرطبة سنة ٣٨٥ هـ[١٣] » .

على أن دور البحر المتوسط كمعبر للثقافة الإسلامية لم يقتصر على انتقال العلماء ومن فى حكمهم ، من بلد إسلامى إلى آخر عبر ذلك البحر ، وإنما أيضاً انتقال الكتب وبخاصة ما تم تأليفه أو نقله إلى العربية فى المشرق الإسلامى منذ وقت مبكر . من ذلك أن حكام بنى أمية فى الأندلس – أمراء وخلفاء – حرصوا على جمع الكتب فى كل علم وفن بحيث لم تكن هناك قطيعة فكرية بين المشرق والمغرب الإسلاميين . ومن هؤلاء الخلفاء الخليفة الحكم الذى وجه إلى أبى الفرج الأصبهانى ألف دينار – وهو مبلغ ضخم وفق مستويات تلك العصور – مقابل أن يرسل له نسخة من كتاب الأغانى[١٤] .

كذلك دأب الخليفة الحكم على أن يبعث رجالاً إلى كافة بلاد المشرق ليشتروا له الكتب ، حتى أن فهرس مكتبته صار يتألف من أربع وأربعين كراسة بكل منها عشرون ورقة .

كذلك قام حكام الأندلس بتشجيع العلماء النازحين إلى بلادهم ، أو العلماء الأندلسيين العائدين من رحلتهم فى المشرق إلى ديارهم ، على جلب ما تيسر من الكتب صحبتهم . من ذلك ما يقال من أن أحمد بن خالد الجذامى – من أهل قرطبة أدخل معه الأندلس ، عند عودته من رحلته فى المشرق ، « كتباً غريبة تفرد بروايتها ، فسمعها الناس منه[15] » وأن جعفر أحمد بن هارون البغدادى « أدخل الأندلس بعض كتب أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ[16] » . كذلك قيل عن أبى عمر يوسف بن محمد الهمدانى – من أهل قرطبة – أنه رحل إلى المشرق حيث قضى عشرة أعوام فى طلب العلم ، فسمع عن مشاهير علماء مصر وغيرها « وعنى بكتب محمد بن جرير الطبرى ، فكتب تفسير القرآن وتاريخ الملوك ، والذيل وهو كتاب العلماء ، والمحاضر والسجلات ، وبعض تهذيب الآثار ، وكتاب اختلاف العلماء » . ثم عاد يحمل تلك الثروة إلى الأندلس حيث توفى سنة ٣٨٣ هـ[17] . ويذكر ابن بشكوال أن أبا القاسم سلمة بن سعيد الأنصارى – المحدث القرطبى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ – رحل إلى المشرق حيث أقام ثلاثاً وعشرين سنة « واتخذ من مصر موئلا » أى مركزاً لتحركاته « واضطرب فى المشرق سنين كثيرة جداً يجمع فى الأفاق كتب العلم ، فكلما اجتمع من ذلك مقدار صالح نهض به إلى مصر . ثم انزعج بالجميع إلى الأندلس » . وكانت جملة ما حمله إلى الأندلس ثمانية عشر حملا من الكتب ، كلفته مالاً طائلاً معه إلى المشرق[18] . أما أبو الوليد الفرضى – صاحب كتاب **تاريخ علماء الأندلس** الذى اعتمدنا عليه فى هذا البحث ، والذى وصفه ابن بشكوال بأنه « صاحبى ونظيرى » – فقد « كان جماعا للكتب ، فجمع منها أكثر مما جمعه أحد عظماء البلد[19] » .

يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الكتب كانت تنتقل عبر حوض البحر المتوسط عن طريق السماع والرواية . من ذلك ما جاء فى ترجمة أبى أيوب سليمان بن محمد الأندلسى المتوفى سنة ٣٧١ هـ – من أنه فى رحلته إلى المشرق « سمع بمصر من أبى محمد الفريانى كتب محمد بن جرير الطبرى ، وانصرف إلى الأندلس » . كذلك قيل فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن مفرج المعافرى المتوفى سنة ٣٧١ هـ – وهو من أهل قرطبة – أنه رحل إلى المشرق ، فلقى بمصر « أبا جعفر أحمد بن محمد بن النحاس ، فروى عنه تأليفه

فى إعراب القرآن ، وفى المعانى ، والناسخ والمنسوخ ، وغير ذلك . وهو أول من أدخل هذه الكتب الأندلس رواية[20] » .

ولم يقتصر دور البحر المتوسط على تسهيل جلب كتب العلوم الإسلامية والفكر الإسلامى من المشرق إلى المغرب ، وإنما تعدى ذلك إلى جلب كتب علوم اليونان فى الطب والفلك والصنعة (علم الكيمياء) والفلسفة والموسيقى ، وغيرها . من ذلك أن امبراطور القسطنطينية قسطنطين السابع أرسل سنة ٣٣٧ هـ (٩٤٨ – ٩٤٩ م) سفارة إلى عبد الرحمن الناصرى فى قرطبة . وكان من بين ما حمله الرسل من هدايا نسخة مكتوبة باليونانية من كتاب ديوسقوريدس فى الطب . « ولا شك فى أن معرفة هذا الكتاب فى الأندلس كانت من الأمور الهامة فى تطور الدراسات الطبية هناك[21] » .

وكانت الرحلة من المغرب إلى المشرق وبالعكس عبر البحر المتوسط تتم برا أو بحرا ولم تحدد المصادر المعاصرة غالباً طبيعية الرحلة فى كل حالة ، وعما إذا كان هذا العالم أو التاجر قد سلك فى رحلته طريق البر أو البحر . ولكن الغالب أن العلماء والتجار سلكوا الطريقين معاً . هذا وإن كان يبدو أن طريق البر صار أكثر شيوعاً نظراً لأن البعض يخشون ركوب البحر ، فى حين أن طريق البر يتيح لسالكه المرور بعدد كبير من المدن والمراكز الحضارية الإسلامية ، مما يشبع رغبة طالب العلم فى التزويد بقسط أكبر كماً ، وأكثر تنوعاً من المعارف ، والالتقاء بعدد أوفر من رجال العلم وشيوخه .

والغالب أن المصادر المعاصرة كانت لا تعنى كثيراً بذكر الطريق الذى سلكه الحاج أو العالم أو التاجر من المغرب إلى المشرق أو العكس ، عبر البحر المتوسط ، إلا فى حالة واحدة ، هى إذا صادف وغرقت السفينة التى تحمل الشخص المترجم له . جاء فى ترجمة أبى سليمان ربيع بن محمد التميمى – من أهل قرطبة – أنه « كان معتنياً بالعلم ، مجتهدا فى طلبه . خرج إلى المشرق ، فمات فى البحر[22] » أما أبو نصر سهل بن على النيسابورى الذى وفد على الأندلس فى فترة لاحقة ، فقد « توفى غريقاً فى البحر ، منصرفاً من المرية إلى بلده[23] » ويروى الأديب الأندلسى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد – فى فترة لاحقة أيضاً – كيف أنه عبر إلى المغرب الأقصى ، حيث أخذ يتنقل ، « ثم نازعتنى النفس التواقة إلى الديار المصرية ، فكابدت فى البحر ما لا يفى بوصفه إلا لمشاهدة ، إلى أن بصرت منار الاسكندرية ...[24] » . فإذا استأنفنا المسيرة فى الفترة اللاحقة لتلك التى حددناها لدراستنا ، فإننا نجد مثلاً بارزاً لطريق البحر – ذهاباً وإياباً – فى رحلة ابن جبير فى القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر للميلاد[25] .

وهكذا شهد حوض البحر المتوسط توافد عدد كبير من علماء المشرق – فى شتى ألوان العلم والمعرفة – على الأندلس فى القرن الرابع الهجرى . وفى ذلك يقول المقرى التلمسانى « اعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون ، لا تحصر الأعيان منهم ، فضلاً عن غيرهم . ومنهم من اتخذها وطناً وصيرها سكناً إلى أن وافته منيته ، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت بالأندلس أمنيته[26] » .

ومن أمثلة هؤلاء عبيد الله بن عمر القيسى الشافعى – من أهل بغداد – ، قدم الأندلس سنة ٣٤٧ هـ بعد أن تفقه على مذهب الشافعى فى بغداد ودمشق والرملة ومصر ، حتى صار « إماماً فى القراءات » واستقر فى قرطبة إلى أن توفى سنة ٣٦٠ هـ[27] . أما أبو على القالى صاحب « الأمالى والنوادر » فقد وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن ، واستوطن قرطبة إلى أن توفى بها سنة ٣٥٦ هـ . وممن أخذ عنه بالأندلس محمد بن القوطية ، وأبو بكر محمد الزبيدى صاحب كتاب « مختصر العين[28] » .

فإذا كان الوافد غير ذائع الصيت ، أو غير معروف عند أهل الأندلس ، فلا مانع من امتحانه فى جمع العلماء ، لسبر غوره ، والوقوف على درجته فى العلم . من ذلك أنه عندما وفد على الأندلس أبو العلاء صاعد بن الحسين بن عيسى البغدادى اللغوى وأصله من الموصل – وكان ذلك على أيام المنصور بن أبى عامر ، أعرض عنه أهل الأندلس وقدحوا فى علمه ، فقال لهم المنصور – وكان جالساً فى جمع من أعيان أهل العلم « هذا الرجل الوافد علينا يزعم أنه متقدم فى هذه العلوم ، وأحب أن يمتحن ...[29] » .

وكما ذكرنا فإن كثيرين ممن عبروا البحر المتوسط من الأندلس والمغرب إلى المشرق جمعوا بين حياة العلم والتجارة ، وكذلك نجد كثيرين من العلماء الذين اتجهوا من المشرق إلى المغرب والأندلس زاولوا التجارة . ومن أمثلة هؤلاء على بن بندار البغدادى البرمكى ، وهو من أهل بغداد « قدم الأندلس تاجراً سنة ٣٣٧ هـ ، وكان قد أخذ عن ...[30] » . وفى فترة لاحقة « أبو النصر سهل بن على ، التاجر ، النيسابورى سمع جماعة من الخرسانيين وغيرهم[31] » . ومثله محمد بن موسى الكتانى الرازى الذى « كان يفد على ملوك بنى مروان (الأمويين) تاجراً ، وكان مع ذلك متفنناً فى العلوم[32] » . كذلك ورد فى المصادر ذكر أبى الطاهر اسماعيل بن الاسكندرانى ، الذى « قدم الأندلس ، ودخل مرسية تاجراً ، وكان فقيهاً على مذهب الشافعى[33] » . أما عبد العزيز بن جعفر الفاسى البغدادى ، فقد دخل الأندلس تاجراً سنة ٣٥٠ هـ ، وسكن بإندة من

أهل الأندلس حتى توفى سنة ٤١٣ هـ . وقد روى عنه أبو الوليد الفرضى عندما لقيه بالأندلس سنة ٤٠٠ هـ ، وكان أبو الوليد عندئذ قاضياً ببلنسية[34] .

ولكن إذا كانت الرحلة عبر البحر المتوسط من المشرق إلى المغرب قد قابلتها رحلة فى الاتجاه العكسى من المغرب إلى المشرق ، فإن علينا أن نلاحظ أن الرحلة الأولى كانت إلى حد كبير اختيارية ، لطلب الرزق أو العلم . أما الرحلة الثانية فكانت شبه إلزامية لرجل الدين والعلم ، لأنها تستهدف فى المقام الأول الوفاء بركن من أركان الدين ، هو حج البيت . ومهما يقال عن ازدهار العلوم بالأندلس ، فعلينا أن نقر بأن العلوم فى المشرق كانت أعمق أساساً وأوسع أفقاً وأكثر أصالة ، لأن المشرق بالنسبة للإسلام وثقافته هو الجذع . لذلك كانت الرحلة إلى المشرق بالنسبة لعلماء الأندلس والمغرب أمراً أساسياً جوهرياً يستكملون به دينهم وعلمهم ، أما الرحلة إلى المغرب والأندلس بالنسبة لعلماء المشرق فكانت أمراً كمالياً ثانوياً ، لا حاجة ماسة إليه .

لذلك نسمع عن عدد كبير من علماء الأندلس عبروا حوض البحر المتوسط براً وبحراً فى القرن الرابع الهجرى . فإذا سلكوا طريق البر ، فإنهم كانوا يتوقفون فى محطات معينة للاستزادة فى العلم والأخذ عن علمائها ، ومن هذه المحطات فى القرن الرابع : القيروان والمهدية وطرابلس الغرب ، وربما أيضاً سبتة وفاس وتلمسان وتاهرت ، وغيرها من مدن أفريقية . وإن اختاروا طريق البحر ، فإنهم غالباً ما كانوا يمرون بميورقة وصقلية وغيرهما من موانىء الساحل الشمالى لأفريقية ، حيث يجدون أيضاً من شيوخ العلم من يأخذون عنهم أو يحدثونهم .

وسواء سلك الحجاج طريق البر أو طريق البحر ، فإن الطريقين كانا يصبان فى مصر ، وفيها يقضى عالم المغرب فترة من الوقت قد تمتد بضع سنوات ، فى طريق ذهابه إلى الحج أو عودته إلى بلده ، وقد يؤدى خلال هذه الفترة فريضة الحج أكثر من مرة . وكثيراً ما كان بعضهم لا يكتفى بمن يصادفه من علماء يأخذ عنهم فى الاسكندرية ومصر ثم فى القاهرة بعد تأسيسها – وإنما يحرص على أن يطوف ببعض المدن المصرية الأخرى سعياً وراء محدث مشهور أو فقيه ذائع الصيت . وهكذا تردد كثير من الأندلسيين على دمياط وتنيس والفرما والقلزم ، بل لقد ذهب بعضهم إلى الرملة شمالاً وقوص جنوباً[35] .

يضاف إلى الرحلة ونقل الكتب ما كان هناك من مكاتبات بين علماء المسلمين عبر البحر المتوسط . وكانت هذه المكاتبات تشكل رباطاً ثقافياً وفكرياً بين هؤلاء العلماء[36] .

هذا إلى أن كثيراً من حجاج الأندلس والمغرب انتهزوا فرصة ترددهم على المشرق للحج ، واتجهوا إلى بعض الأقطار الإسلامية الأخرى طلباً للعلم ورغبة فى الاستزادة من الشيوخ المتواجدين فى هذه البلاد ، مثل اليمن وبغداد والشام ، بل لقد وصل بعضهم إلى فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر . من ذلك أن أبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون المتوفى بقرطبة سنة ٣٠٥ هـ انتهز فرصة خروجه للحج ، وقضى بالمشرق نحو خمس عشرة سنة سمع فيها عديداً من العلماء بمكة وصنعاء وبغداد ، فضلاً عن مصر[٣٧] . أما محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى بن مفرج – من أهل قرطبة – فقد رحل إلى المشرق سنة ٣٣٧ هـ ، فسمع بمكة والمدينة واليمن وصنعاء وزبيد وعدن وبيت المقدس وغزة ، وطبرية ، ودمشق ، وطرابلس الشام ، وبيروت ، وصيدا ، وصور ، وقيسارية ، والرملة ، والاسكندرية ، والقلزم . وأخيراً عاد إلى الأندلس من رحلته سنة ٣٤٥ هـ ومعه حصيلة ضخمة من العلم ، استفاد منها الأندلسيون ، وسمعوا منه حتى وفاته سنة ٣٨٠ هـ[٣٨] .

ولا أدل على دور البحر المتوسط فى تحقيق وحدة ثقافية بين شتى بلاد العالم الإسلامى المطلة عليه أو الواقعة فيه من تلك الاستجابة التى لقيتها معظم المذاهب الدينية الإسلامية فى تلك البلاد . وعلى رأس هذه المذاهب يأتى المذهب المالكى الذى ما زالت مسألة انتشاره فى بلاد حوض البحر المتوسط موضع نقاش بين الباحثين فالمقرى يذهب إلى أن الأندلسيين كانوا على مذهب الأوزاعى كأهل الشام – حتى أقبل على الأندلس أثناء خلافة المستنصر (١٧٩ – ٢٠٥ هـ = ٧٩٦ – ٨٢١ م) نفر من الفقهاء أمثال عبد الملك بن حبيب ، ويحيى بن يحيى الليثى ، وأبى عبد الرحمن زياد بن عبد الرحمن اللخمى – الملقب بشطبون ، وهؤلاء جميعاً عملوا على نشر مذهب مالك . ويحتل عبد الملك بن حبيب مكانة خاصة بين هؤلاء (١٧٩ – ٢٣٨ هـ = ٧٩٦ – ٨٥٤ هـ) لأنه من أبناء الأندلس ومواليدها ، رحل إلى المشرق ، وتردد على حلقات الدرس فى المدينة المنورة حيث درس فقه مالك ، ثم عاد إلى بلده ليعمل فى جد ومثابرة على تحويل أهله إلى المذهب المالكى . وقد لقى فى ذلك استجابة كبيرة ، عندما جلس للتدريس فى جامع قرطبة ، نظراً لسعة علمه ، وامتلاء شخصيته ، وتنوع مواهبه فى الشعر والانساب والتاريخ والفقه والطب ، حتى لقبه الناس بعالم الأندلس[٣٩] .

ومهما تكن العوامل التى أحاطت بانتشار المذهب المالكى ، وأدت بأهل المغرب إلى تقبله ، فلا شك فى أن البحر المتوسط – كشريان للفكر – أسهم فى انتشاره . وليس من باب المصادفة أن يمثل المسلمون فى البلاد الإسلامية المطلة على ذلك البحر ،

أو المحيطة به الكتلة الرئيسية فى العالم الإسلامى التى أخذت بهذا المذهب فضلاً عن الحجاز أو المدينة المنورة ، مركز الإمام مالك ومنطلق مذهبه . حقيقة أنه وجد فى حوض البحر المتوسط مكان للمذاهب الأخرى ، وبخاصة المذهبين الشافعى والحنفى فضلاً عن بعض الفرق والمذاهب الأخرى – كالخوارج والشيعة – ولكن انتشار هذه المذاهب الأخرى كان محدود الأفق ، ضيق الدائرة ، وفى بعض الحالات قصير العمر .

وترتبط بالكيان الإسلامى فى الأندلس جزر البليار التى غزتها الأساطيل الإسلامية لأول مرة سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) بقيادة عبد الله بن موسى بن نصير . هذا وإن كانت هذه الجزر لم تسلم تماماً للمسلمين إلا بعد أن فتحها القائد البحرى عصام الخولانى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، أوائل العاشر للميلاد . وكان أن أنشأ صام الخولانى مدينة جديدة هى مدينة ميورقة – على غرار المدن التى دأب المسلمون على انشائها فى البلاد المفتوحة – لتكون منبراً للحضارة الإسلامية فى جزر البليار .

وفى وسط مياه الجزء الغربى من البحر المتوسط ، نهضت جزر البليار – وبخاصة منذ بداية القرن الرابع الهجرى ، العاشر للميلاد – لتقوم بدور كبير فى ازدهار الحضارة الإسلامية ، فنشطت علاقاتها بمصر ، وصار هناك خط ملاحة منتظم بين ميورقة والاسكندرية فضلاً عما كان هناك من صلات قوية بين البليار والأندلس ، وبين البليار وصقلية ، وبين البليار وبلاد المغرب[٤٠] .

وفى القرن الرابع ، وفد على جزر البليار بعض علماء الأندلس واستوطنوها ، مثل الفقيه الأندلسى عريف مولى ليث بن فضل ، الذى توفى فى ميورقة سنة ٣٢٨ هـ (٩٦٣ م)[٤١] وعبد الله العطيطر المحدث الأندلسى الذى توفى فى ميورقة قبل عام ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م)[٤٢] .

ولم يلبث أن ظهر جيل من علماء البليار وأهلها وأبنائها ، حذوا حذو علماء الأندلس فى التردد على بلاد المشرق للحج وطلب العلم ، ومن هؤلاء فى القرن الرابع أبو عبدالملك أمية بن عبد الله الهمذانى الميورقى الذى رحل إلى المشرق للحج سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) ، فلقى بمكة الأسيوطى ، ولقى بمصر أبا إسحاق بن شعبان ، وابن رشيق ، وكتب عنهم . ثم عاد إلى ميورقة حيث قام بتدريس الحديث إلى أن توفى سنة ٤١٣ هـ[٤٣] .

وعند نشوب الفتنة فى بلاد الأندلس فى نهاية القرن الرابع الهجرى (٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م) هرب كثير من علماء قرطبة إلى البليار ، حيث رحب بهم مجاهد العامرى

الذى استقل بجزر البليار سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٥ م) . وقد أدى ذلك إلى ازدهار الحياة الثقافية فى تلك الجزر ، وهو أمر جاء مقروناً بنشاط الرحلة إلى المشرق[٤٤] .

أما المغرب ، فقد قسمه المسلمون إلى ثلاثة أقسام : أفريقية أو المغرب الأدنى ، وقاعدتها القيروان ، وسمى الأدنى لأنه أقرب إلى قلب العالم الإسلامى فى المشرق ، والمغرب الأوسط ، ويشمل الجزائر ، وقاعدته تلمسان ، ثم المغرب الأقصى ، وقاعدته فاس .

وعلى الرغم من تعرض المغرب الإسلامى بأقسامه الثلاثة – عقب فتح المسلمين له – لأحداث وتقلبات سياسية ، بسبب طبيعة البربر من ناحية ، وطبيعة بلاد المغرب الجغرافية من ناحية أخرى ، وبعد هذه البلاد نسبياً عن حواضر الخلافة ومراكز السلطة العليا فى المشرق الإسلامى من ناحية ثالثة ، مما أدى إلى اتخاذ بلاد المغرب مأوى لكثير من الفرق الدينية وملجأ للخارجين على الخلافتين الأموية فالعباسية .. على الرغم من كل ذلك ، فإن القرون الثلاثة الأولى للهجرة شهدت انتشار الثقافة الإسلامية فى المغرب انتشاراً واسعاً ، حتى بلغت هذه الثقافة ذروتها فى القرن الرابع الهجرى . ففى ذلك القرن اكتظ كثير من مدن المغرب – مثل القيروان ، والمهدية ، وتاهرت ، وتلمسان ، وفاس ، وسبتة – بالعلماء ، وغدت منارات يشع منها نور الثقافة الإسلامية شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً . وتحت مظلة الإسلام كانت الصلات قوية بين هذه المدن بعضها وبعض من ناحية ، وبينها وبين بقية أجزاء العالم الإسلامى فى حوض البحر المتوسط – وبخاصة الأندلس والبليار وصقلية ومصر – من ناحية أخرى .

ومن بين مدن المغرب ، تحتل مدينة القيروان مكانة خاصة فى الحياة الثقافية الإسلامية ، بوصفها محطة كبرى من محطات الحجاج والعلماء بين الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط وصقلية ، من ناحية ، ومصر وما يليها من بلاد المشرق من ناحية أخرى . وقد وصف الأديب الأندلسى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بلاد أفريقية – يعنى القيروان والمغرب الأدنى – بأنها « درب بلاد الشرق » أى الطريق أو الدهليز الموصل من المغرب إلى بلاد الشرق[٤٥] . ومنذ أن أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ، أخذت هذه المدينة تنمو بسرعة ، حتى وصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى – العاشر للميلاد – بأنها « معجزة المغرب » ووصف جامعها بأنه « أكبر من جامع ابن طولون[٤٦] » .

ولا شك فى أن مدرسة القيروان بدأت فصلة من مدرسة الفسطاط فى مصر ، وأنها

استمدت منها ذلك القبس الأول من الفكر الإسلامى الذى ظل ينمو إلى أن بلغ تلك الدرجة من السمو التى نجده عليها فى القرن الرابع الهجرى . ومن علماء القيروان فى ذلك القرن ، أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد البكرى ، المعروف بابن الصقلى ، وأبو بكر عزرة ، وأبو محمد بن زيد الفقيه ، والشاعر أبو إسحاق إبراهيم على بن تميم المعروف بالحصرى القيروانى صاحب كتاب « زهر الآداب وثمر الألباب[٤٧] » ، وأبو عبد الله محمد بن مناس القروى ، ومحمد بن سفيان المقرىء ، وأبو الحسن بن القابس الفقيه ، وأبو جعفر أحمد بن محمد بن مسمار ، وأبو عمران الفاسى الفقيه ، وأبو بكر عبد الرحمن الفقيه ، وأبو عبد الملك مروان بن على البونى[٤٨] .

أما طرابلس الغرب – من مدن المغرب الأدنى أيضاً – فكان من علمائها فى القرن الرابع الهجرى إبراهيم بن أحمد الأزدى الأطرابلسى الغربى ، وإبراهيم بن قاسم الأطرابلسى ، وكلاهما دخل الأندلس وروى عنه[٤٩] .

ومع أن المذهب المالكى هو الغالب على أهل المغرب ، إلا أن المذهب الحنفى وجد له أنصاراً بين نسبة لا بأس بها من الأهالى . واجتمع المذهبان وعاشا جنباً إلى جنب فى القيروان ، حتى أن المقدسى وصف أهل القيروان فى القرن الرابع بأنهم « ليس بينهم غير حنفى ومالكى ، مع ألفة عجيبة ، لا شغب بينهم ولا عصبية[٥٠] » . هذا بالاضافة إلى بعض مذاهب الشيعة والخوارج التى وجدت لنفسها متنفساً – ولو ضيقاً – فى بلاد المغرب .

ولم تصادف الفلسفة هوى فى نفوس المغاربة ، وإنما كان جل اهتمامهم بعلوم الحديث والفقه والقراءات والتفسير . وفى ذلك يقول المقرى « أما ملكة العلوم النظرية – يعنى الفلسفة – فهى قاصرة على البلاد المشرقية ، ولا عناية لحذاق القرويين والأفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط[٥١] » .

ومع ذلك فقد ظهر الاهتمام بالطب فى مدينة القيروان منذ وقت مبكر . ويقال أن إسحاق بن عمران – وهو مسلم النحلة بغدادى الأصل – دخل أفريقية فى دولة زيادة الله بن الأغلب (٢٠١ – ٢٢٣ هـ = ٨١٧ – ٨٣٨ م) « وكان طبيباً حاذقاً ، استوطن القيروان ، وبه ظهر الطب بالمغرب[٥٢] » . على أن تلك الحركة لم تلبث أن تأثرت بمصر فى القرن الرابع الهجرى – مثلما حدث فى بقية العلوم ، بحكم ما بين مصر والقيروان من روابط جغرافية وتاريخية . وقد نبغ فى ذلك القرن إسحاق بن سليمان الاسرائيلى المتوفى سنة ٣٢٠ هـ – وهو من أهل مصر – سكن القيروان ، حيث لازم

إسحاق بن عمران وتتلمذ له ، وخدم أبا محمد عبيد الله المهدى الفاطمى بصناعة الطب ، وكان مع فضله فى صناعة الطب بصيراً بالمنطق ، متصرفاً فى ضروب المعارف[٥٣] » .

أما جزيرة صقلية ، فكانت تمثل مركزاً هاماً خطيراً من مراكز الثقافة الإسلامية وحركتها بين شرق البحر المتوسط وغربه . ذلك أن موقع صقلية وسط ذلك البحر ترك أثراً فى تاريخ الجزيرة على مر العصور ، لأنها تكاد تقسم البحر إلى قسمين شرقى وغربى . وفى ظل الإسلام غدت صقلية ركيزة للحضارة الإسلامية ، فى قلب البحر المتوسط موقعها الفريد من جهة ، وصلاتها القوية مع أفريقية ، أعنى المغرب الأدنى والقيروان من جهة أخرى .

وقد برز دور صقلية واضحاً كمعبر للثقافة الإسلامية فى حوض البحر المتوسط فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر للميلاد ، ففى ذلك القرن أرسى الوجود الإسلامى أوتاده فى صقلية ، واطمأن المسلمون إلى أن الجزيرة صارت لهم بعد أن قضوا على آخر جيوب المقاومة المسيحية فيها . حقيقة أن المسلمين شرعوا فى فتح الجزيرة فتحاً منظماً وفق تخطيط ثابت فى أوائل القرن الثالث الهجرى - التاسع للميلاد - (٢١٢ هـ = ٨٢٧ م) ، ولكن علينا أن نذكر أن فتح الجزيرة كان عملية شاقة طويلة ، استغرقت نحوا من سبع وسبعين سنة ، واستنفدت جهداً ضخماً بسبب المقاومة العنيدة التى أبدتها القوى المسيحية ، وبخاصة البابوية من جهة وأباطرة الروم فى القسطنطينية من جهة أخرى ادراكاً منها لأهمية موقع الجزيرة وخطورة وقوعها فى أيدى المسلمين على الكيان الأوربى فى حوض البحر المتوسط[٥٤] . وهكذا لم يسقط حصن طبرمين - آخر المعاقل المسيحية بالجزيرة - فى أيدى المسلمين إلا سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢ م) ، أى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وأوائل العاشر للميلاد[٥٥] . وعندئذ أدرك المسلمون أن الجزيرة قد صارت لهم ، وأن فى وسعهم أن يباشروا نشاطهم الحضارى على أوسع نطاق بما يتفق وطبيعة الجزيرة وموقعها من جهة ، وأوضاع المجتمع الإسلامى فيها من جهة أخرى .

ومع أن صقلية ظلت معظم تاريخها فى عصرها الإسلامى تابعة سياسياً - فى صورة أو أخرى - لقوى خارجية ، كالأغالبة حيناً والفاطميين أحياناً ، إلا أن هذه التبعية السياسية لم تتعارض مطلقاً مع تمتع صقلية بشخصية ثقافية إسلامية ذات طابع مستقل . وإذا كانت صقلية عقب الفتح الإسلامى لها فى القرن الثالث الهجرى قد ظلت حتى نهاية ذلك القرن تابعة ثقافياً لمدرسة القيروان ، فإن الوضع اختلف فى القرن الرابع الهجرى ، عندما تبلورت شخصية صقلية الاسلامية ، وظهرت فيها مدرسة ذات طابع مميز ، وبرز

من العلماء والفقهاء من ولدوا على أرض الجزيرة ، وشبوا بين أحضانها وصار الواحد منهم يفخر بلقب « الصقلى » . ولا شك فى أن الحياة الثقافية فى صقلية جمعت بين مناهل الثقافة الاسلامية الواردة على الجزيرة من الأندلس والبليار ، والمغرب ومصر والمشرق ، فضلا عن أفريقية والقيروان .

ومع اعترافنا بأن العلاقات الثقافية بين صقلية من جهة وبقية بلاد الاسلام فى حوض البحر المتوسط وعلى رأسها أفريقية والقيروان ، وبلاد المغرب ، فضلا عن الأندلس وجزر البليار - من جهة أخرى ، كانت قوية[٥٦] إلا أننا نحب أن نؤكد أن مصر بالذات احتلت مكاناً بارزاً فى تلك العلاقات بوصفها الممر الموصل إلى بلاد الحجاز وبقية بلاد المشرق .

وهناك من الشواهد التاريخية ما يثبت أن العلاقات الثقافية ، بين مسلمى صقلية وإخوانهم فى مصر بدأت منذ مرحلة مبكرة ، سواء عن طريق مباشر - أعنى طريق البحر - أو غير مباشر ، أعنى برا مرورا بالقيروان . حقيقة أن هذه العلاقات انتعشت فى وقت متأخر نسبيا ، وذلك تحت مظلة الخلافة الفاطمية التى ربطت لفترة بين بلرم (بالرمو) والقيروان والقاهرة . ولكننا نجد جذورا لهذه العلاقات منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، كما نجد صورا واضحة لها فى القرن الرابع .

من ذلك ما تردده المصادر المعاصرة عن النحوى الصقلى محمد بن خرسان الذى وفد من صقلية على مصر ليدرس على مجموعة من علمائها الفقه والقراءات والنحو واللغة وغيرها من العلوم . وبعد أن أخذ كفايته ، عاد إلى صقلية ليدرس ويلقن تلاميذه خلاصة ما جمعه من علوم ، حتى توفى سنة ٣٨٦ هـ . ومن الفقهاء الذين درس على أيديهم فى مصر أحمد بن مروان المالكى (ت ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ م) ، كما أخذ القراءات على المظفر بن أحمد بن حمدان (ت ٣٢٣ هـ = ٩٤٤ م) ، فى حين درس النحو على النحوى المصرى الشهير أحمد بن محمد النحاس (٣٣٨ هـ = ٩٤٩ م) الذى يعتبر من أعلام النحويين فى عصره[٥٧] .

ومن أشهر المقرئين - أو علماء القراءات - فى مصر فى القرن الرابع الهجرى عبد المنعم بن عبد الله بن علبون صاحب كتاب « الإرشاد فى القراءات » ، والمتوفى سنة ٣٨٩ هـ = ٩٩٨ م . وقد أخذ عنه وقرأ عليه كل من الحسن بن عبد الله الصقلى ، والحسن بن قتيبة الصقلى[٥٨] . ومن المعروف أن قراءة القرآن ترتبط بعلم النحو ارتباطاً جذرياً ، مما جعل كثيرين من المقرئين مبرزين فى علم النحو . وقد اشتهر من علماء مصر

فى تلك الفترة على بن إبراهيم الحوفى – المقرىء النحوى – والتقى به فى مصر إسماعيل بن خلف النحوى المقرىء الصقلى ، وصاحبه وأخذ عنه(٥٩) . وكان لاسماعيل بن خلف الصقلى هذا ابن إسمه جعفر ، درس على ابن النفيس المصرى(٦٠) .

أما فى مجال الأدب ، فقد قويت العلاقات الثقافية بين صقلية ومصر فى القرن الرابع الهجرى – العاشر للميلاد ، فانتقل بعض شعراء صقلية إلى مصر ، وبخاصة فى العصر الفاطمى . وعلى رأس هؤلاء كان الشاعر الصقلى مقداد بن حسن الكلبى ، الذى امتدح الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، وسمى نفسه « شاعر الملك(٦١) » .

أما جزيرة اقريطش أو كريت ، فقد فتحها المسلمون الأندلسيون سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، ويرتبط ذلك ببعض الأحداث الداخلية فى الأندلس . ذلك أنه ما كاد الأمير الحكم يتولى الحكم سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) حتى دب الخلاف بينه وبين الفقهاء الذين اعتبروه طاغية ، وشحنوا قلوب الناس ضده ، واستثاروا عليه الطبقات الشعبية الساكنة فى الربض – وهو الحى السكنى المستجد فى قرطبة بعد إنشاء الجسر (القنطرة) والذى يمتد وراء الضفة الجنوبية لنهر الوادى الكبير . وكان أن اشتعلت الثورة فى حى الربض ضد الأمير الحكم ، ولكنه أخمدها بعنف ، وأحدث مذبحة بين الربضيين وأحرق بيوتهم ، ومحا حى الربض نهائياً من الوجود . ثم أعطى الحكم مهلة عام واحد للربضيين لمغادرة الأندلس ، ومن بقى منهم بعد ذلك استبيح دمه .

وكان ان هام الربضيون عقب طردهم من الأندلس فى حوض البحر المتوسط ، فاستقر بعضهم فى فاس عاصمة دولة الادارسة الناشئة ، فى حين شقت الغالبية العظمى منهم عباب البحر المتوسط فى سفنهم قاصدين مدينة الاسكندرية ، حيث نزلوا محاولين إقامة دولة لأنفسهم فيها . ولكن الخليفة المأمون لم يسمح لهم بذلك ، وأرسل إليهم قائده عبد الله بن طاهر الذى أرغمهم على الجلاء عن الاسكندرية سنة ٢١٠ هـ . وكان أن ركب الأندلسيون سفنهم مرة أخرى ، واتجهوا إلى جزيرة إقريطش واستولوا عليها « واستوطنوها ، وأقاموا بها ، فأعقبوا وتناسلوا(٦٢) » ويبدو أن دولة الروم – أو الدولة البيزنطية – كانت عندئذ فى القرن التاسع للميلاد ، تمر بمرحلة من التبلد ، فلم تدرك خطورة الوجود الاسلامى فى تلك البقعة من البحر المتوسط على مقربة من أراضيها وشواطئها ، مما يهدد تجارتها وأمنها وخطوط مواصلاتها فى البحر المتوسط تهديدا مباشرا(٦٣) .

ومهما يكن من أمر ، فالذى يعنينا هو أن الربضيين أقاموا دولة إسلامية ، فى

إقريطش بزعامة قائدهم عمر بن عيسى المعروف بأبى حفص البلوطى . وقد ظل المسلمون يحكمون الجزيرة نحوا من مائة وخمسة وثلاثين عاما ، حتى استردها منهم البيزنطيون على يد نقفور فوقاس فى منتصف القرن الرابع الهجرى (٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) .

ومع تطرف موقع جزيرة كريت نسبيا وسط مياه البحر المتوسط ، بعيدا عن شواطىء الاسلام ، إلا أن المسلمين فيها لم يكونوا فى عزلة عن بقية العالم الاسلامى فى حوض البحر المتوسط ، وعما يجرى فى تلك البلاد من تيارات سياسية وثقافية . وثمة إشارات فى المصادر المعاصرة إلى أن هناك اتصالات جرت بين المسلمين فى كريت وبنى حمدان فى شمال الشام للتنسيق ضد العدو المشترك ممثلا فى دولة الروم أو الدولة البيزنطية .

وكان لابد أن تظل العلاقة بين مسلمى كريت والوطن الأم فى الأندلس قائمة . من ذلك أن أبا عبد الملك بن الفخار مروان بن عبد الملك – من أهل قرطبة – اتجه إلى المشرق « فجال بالأمصار » ، وأخذ عن كثيرين « ثم صار إلى إقريطش فاستوطنها وجمع تاريخا على الأمصار . لقيه أحمد بن خالد بها ، وسمع منه التاريخ » . وتشير العبارة الأخيرة إلى أن هناك من يسمى أحمد بن خالد وأنه تردد هو الآخر على كريت وسمع بها علما(٦٤) . ويؤيد ذلك ما جاء فى ترجمة أبى القاسم مسلمة بن القاسم – من أهل قرطبة فى القرن الرابع الهجرى – فقد رحل إلى المشرق سنة ٣٢٠ هـ ، فسمع بالقيروان وباطرابلس « وبإقريطش من أحمد بن محمد خلف ، ومن يحيى بن عثمان الأندلسى ساكن إقريطش(٦٥) » .

ونخرج من هذه النصوص ببعض الحقائق التاريخية ، **أولها** : أن العلاقة بين المسلمين فى إقريطش ، والوطن الأم فى الأندلس لم تنقطع ، وأن هناك من أهل الأندلس وعلمائه من ركب البحر لزيارة قطعة من الأندلس استقرت وسط مياه الجزء الشرقى من البحر المتوسط ، بل أن هناك من هؤلاء الزوار من آثر استيطان إقريطش والبقاء فيها .

وثانيها : أنه رغم الظروف الصعبة التى اكتنفت حياة المسلمين فى إقريطش ، فإنهم لم يتخلوا عن حياة العلم ، بحيث كان للثقافة الإسلامية نصيب فى الجزيرة ، الأمر الذى تطلب قدراً من الارتباط ببقية المجتمعات الاسلامية فى حوض البحر المتوسط .

والمسلم هو المسلم فى كل زمان ومكان ، يحرص ضمن ما يحرص عليه من شؤون دينه على أن يزور الحرمين فى الحجاز لتأدية فريضة من فرائض الاسلام ، واستذكار

ذكرى الرسول عليه الصلاة والسلام وأسوته الحسنة . وما كاد الأندلسيون يستقرون فى كريت ويطمأنون على أوضاعهم حتى شرع بعضهم فى الحج ، سالكين الطريق الطبيعى بحرا إلى الاسكندرية ، ومن مصر إلى الحجاز . وعن هذا الطريق تمت اتصالات عديدة فى الجانب الثقافى بين مسلمى كريت والمشارقة . وهكذا ظل المسلمون فى إقريطش ـ حتى دالت دولتهم فى منتصف القرن الرابع الهجرى العاشر للميلاد – على اتصال ثقافى عبر مياه البحر المتوسط بالمركزين الكبيرين للحضارة الاسلامية على جانبى ذلك البحر ، مصر فى طرفه الشرق ، والأندلس فى طرفه الغربى .

أما مصر ، فكانت باجماع الباحثين درة ذلك العقد الذى انتظم من الدول والكيانات الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ، والذى تكامل فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر للميلاد . وإذا كانت خطوط المواصلات بين الكيانات الاسلامية بعضها وبعض ، قد تعددت فى حوض البحر المتوسط ، بين الاندلس والبليار والمغرب بأقسامه وصقلية وكريت ... فإن مصر ظلت تمثل المحطة الرئيسية التى تجمعت فيها خطوط برية وبحرية تربطها بكل هذه البلاد ، وبالتالى تربط بعضها ببعض ثقافيا بطريق مباشر أو غير مباشر .

ومن الثابت أن عمرو بن العاص ما كاد يقيم مدينة الفسطاط ويشيد فيها سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) الجامع الكبير الذى نسب إليه ، حتى غدت هذه المدينة بجامعها مركزاً لحركة ثقافية ضخمة ارتبطت أساسا بالفكر الاسلامى والعلوم الدينية . وكان أساس هذه الحركة ومحورها عدداً كبير من الصحابة نزحوا إلى مصر ، واختاروا الاقامة فيها . وقد بلغ من كثرة هؤلاء الصحابة أن محمد بن ربيع الجيزى ألف كتابا فيمن دخل مصر من الصحابة ، عدد فيه مائة ونيفا وأربعين صحابياً ، وأورد فيه أحاديثهم عن الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد استدرك بعضهم ما فات الجيزى ، وأضاف عدد آخر من الصحابة الذين هبطوا مصراً ولم يذكرهم(٦٦) . وكان من بين هؤلاء الصحابة – عليهم جميعاً رضوان الله – مجموعة ممن يعتبرون من أكابر رؤوس صحابة النبى عليه الصلاة والسلام ، وأوسعهم علما وأقربهم إليه وأشدهم تأثراً به وبسنته وأسوته الحسنة ، أمثال أبى ذر الغفارى ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص . وتتلمذ على أيدى هؤلاء فى مصر جماعة من التابعين ، صاروا نواة المدرسة المصرية فى الفكر الاسلامى ، مثل سليم بن عتر التجيبى (ت ٧٥ هـ) وعبد الرحمن بن حجيرة الخولانى (ت ٨٣ هـ) وغيرهم .

وبازدهار الاجتهاد وظهور المذاهب ، اعتنق بعض علماء مصر ومسلميها مذهب أبى

حنيفة ، ثم انتشر مذهب مالك فى مصر على يد تلميذه عبد الله بن وهب ، حتى جاء الشافعى وأقام فى مصر نحوا من خمس سنوات ، يملى مذهبه على مجموعة من تلاميذه المصريين . وبذلك تعايشت فى مصر المذاهب الكبرى فى الاسلام ، لكل مذهب مدرسته وفقهاؤه ، مما أثار حركة فكرية واسعة فى البلاد ، شملت شتى العلوم الدينية من حديث وفقه وتفسير وقراءات ، فضلا عن العلوم الأخرى غير الدينية كالتاريخ . ولم يكن كافة أعلام هذه الحركة من الوافدين على مصر ، بل كان بعضهم من أصل مصرى صميم ، مثل عثمان بن سعيد المصرى – المعروف بورش والمتوفى سنة ١٩٧ هـ (٨١٣ م) – وهو من أصل قبطى « انتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية فى زمانه ، وكان ماهرا فى العربية(٦٧) » .

وبلغت هذه الحركة الفكرية فى مصر شأوا بعيدا فى القرن الرابع الهجرى – العاشر للميلاد ، وبخاصة عندما استقلت مصر عن الخلافة العباسية ، وقامت فيها دول مستقلة حرص حكامها على استغلال مقومات مصر الحضارية ، وتشجيع النشاط الفكرى والثقافى ورعاية أهل العلم من العلماء والأدباء والشعراء ونحوهم . وفى مجالس الأمراء والحكام ، كان يلتقى الفقهاء والعلماء والأدباء ، فيسامرونهم وينادمونهم ، ويشجعونهم ماديا وأدبيا . ويقال أن الإخشيد (٣٢١ – ٣٣٤ هـ = ٩٣٣ – ٩٤٥ م) أعجب بأحد الفقهاء وسعة علمه ، فولاه على سواحل مصر ، وأن أونوجور – ابن الإخشيد وخليفته فى الإمارة – كان يجالس سيبويه المصرى وينادمه ، وأن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى أرسل من الأندلس عشرة آلاف دينار لتفرق على فقهاء المالكية ، فأمر كافور بعشرين ألف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية(٦٨) . وحسب كافور الإخشيدى أن أتاه الشاعر المتنبى إلى مصر مادحا . وبصرف النظر عن خاتمة هذه الزيارة فإن رحلة المتنبى تدل على ما حققته مصر وحكامها من صيت ذائع طبق الآفاق .

أما فى العصر الفاطمى ، فيقل أستاذنا المرحوم أحمد أمين ، أن الدولة الفاطمية « أتت بحركة علمية عظيمة نشيطة ، وقدمت العلم والأدب والفن خطوات ، حتى لا يعد شيئا بجانبها ما كان فى العهد الطولونى والإخشيدى ، ويصح أن تقارن وتساوى بما كان فى العراق ...(٦٩) » . ويذكر ابن خلكان كيف كان العلماء والأدباء فى القاهرة « يجتمعون فى دار العلم وتجرى بينهم مذاكرات ومفاوضات فى الآداب(٧٠) » .

وقد قرأ المسلمون القرآن الكريم ، فوجدوا فيه قوله تعالى « اهبطوا مصرا ، فإن لكم ما سألتم » ، الأمر الذى دفع كثيرين إلى النزوح إلى مصر من شتى أنحاء العالم

الاسلامى ، ليتعموا فيها بطيب العيش وحياة الاستقرار ، فضلا عن غناها بالعلم والعلماء .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن عاملا أساسيا وراء اهتمام مسلمى المغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط بالرحلة ، كان يكمن وراء فكرة الحج والرغبة فى طلب العلم فبالإضافة إلى العدد الكبير من علماء الاسلام المفروض تواجدهم فى الحرمين فى موسم الحج ، فإن حجاج حوض البحر المتوسط اغتنموا فرصة رحلتهم – ذهابا وإيابا – للاستفادة من علماء المشرق ، سواء فى البلاد والمدن التى تقع على طريق سفرهم ، أو فى البلاد الأخرى المجاورة التى يتعمدون زيارتها للأخذ عن علمائها . من ذلك ما قيل فى ترجمة أبى المطرف عبد الرحمن بن عبيد الله المعروف بابن الزامر – من أهل قرطبة والمتوفى سنة ٣٦٩ هـ – من أنه قام برحلة إلى المشرق سمع فيها من علماء مكة والمدينة ومصر ، وأخذ وكتب عن أكثر من أربعمائة عالم ومحدث ، « وقل ما كتبت بالأندلس عن أحد إلا وقد كتب عنه[٧١] » .

وكان كل واحد من هؤلاء العلماء يعود إلى بلده فى حوض البحر المتوسط ليقيم مدرسة قوامها مئات من المستمعين منه والآخذين عنه . جاء فى ترجمة أبى محمد عبد الله الثغرى أنه غادر الأندلس إلى المشرق سنة ٣٥٠ هـ ، فسمع بمكة والبصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر ، ثم عاد إلى الأندلس ليقدم لطلاب العلم خلاصة ما جمعه فى المشرق ، وكان ممن أخذ عنه ابن الفرضى ، فقال « قرأت عنه علما كثيرا ، وأجاز لنا جميع روايته ، وسمع عنه غير واحد من شيوخنا ... وكانت الرحلة إليه من جميع نواحى الثغر[٧٢] » أما أبو زكريا يحيى بن مالك بن عائذ بن كسيان الأندلسى – المتوفى سنة ٣٧٥ هـ – فقد رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ هـ ، وحج فى العام التالى ، وقضى بالمشرق نحو اثنتى وعشرين سنة ، سمع فيها من عدد وفير من علماء مصر وغيرها من بلاد المشرق ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ٣٦٩ هـ ، « فسمع منه ضروب الناس ، وطبقات طلاب العلم ، وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول[٧٣] » .

وفى هذه الرحلة التى دأب مسلمو الأندلس والمغرب وصقلية وكريت وغيرهم من مسلمى حوض البحر المتوسط – على القيام بها إلى المشرق ، كانت تستوقفهم محطتان رئيسيتان ، إحداهما مكة ، والأخرى مصر . أما مكة فهى الهدف الأساسى من الرحلة ، وفيها كان يجتمع جمع حاشد من علماء المسلمين فى موسم الحج . يقول ابن الفرضى فى ترجمته لأبى القاسم خلف بن قاسم بن سهل القرطبى – المعروف بابن الدباغ والمتوفى

سنة ٣٩٣ هـ – أنه رحل إلى المشرق سنة ٣٤٥ هـ ، فسمع بمصر والرملة وعسقلان وبيت المقدس ، « وسمع بمكة من ... وغيرهم من الغرباء القادمين عليهم فى الموسم » . وفى هذه العبارة ما يشير إلى أنه وجد فى مكة صنفان من العلماء ، فريق مقيم ، وفريق وافد عليها فى موسم الحج ، مما جعل من هذا الموسم مؤتمرا علميا كبيرا يلتقى فيه علماء المشرق بعلماء المغرب ، ويأخذ فيه المتعلمون عن المعلمين[٧٤] .

أما المحطة الثانية فكانت المحطة الرئيسية لحجاج حوض البحر المتوسط فى طريق ذهابهم إلى مكة أو فى طريق عودتهم إلى بلادهم . وكانت مصر فى القرن الرابع الهجرى غنية بعلمائها – كما أوضحنا – حتى أن ابن الفرضى وصفها عندئذ بأنها « متوافرة من رجالها[٧٥] » وقد أحصينا عدد علماء مصر فى القرن الرابع الهجرى ممن تردد ذكرهم فى كتب التراجم والطبقات والمعاجم التى رجعنا إليها فى هذا البحث – وهى محدودة – فجمعنا منهم أكثر من مائة اسم فى شتى أنواع العلوم . ومن هؤلاء من يحمل نسبة صريحة إلى بعض المدن المصرية ، مثل المصرى ، والاسكندرانى ، والطحاوى والقوصى ، والأسيوطى ، والأدفوى ، والدمياطى ، والأسوانى والتنيسى ومنهم من يحمل نسبة إلى بعض بلاد الإسلام فى المشرق والمغرب مما يشير إلى أصله وإلى أنه أو آباءه وأجداده – قد نزحوا إلى مصر واستوطنوها ، مثل البغدادى ، والرازى والنسائى ، والمرى ، والقرطبى ، والجوزجانى ... وغير ذلك . وكثير من علماء الأندلس والمغرب وصقلية وغيرها من بلاد حوض البحر المتوسط ، اختاروا بعد أداء فريضة الحج البقاء فى مصر ، فاستوطنوها حتى توفوا على أرضها[٧٦] . بل ربما صادف أن الأندلسى كان لا يلتقى بأحد علماء بلده إلا على أرض مصر . من ذلك أن أبا عمر صخر بن سعيد الأندلسى رحل إلى المشرق « وسمع بمصر من ابن شعبان القرطبى وغيره[٧٧] » .

كذلك ذكر ابن بشكوال أن الصاحبين أبا إسحاق بن شنظير وأبا جعفر بن ميمون من علماء الأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، التقيا فى أيلة سنة ٣٨٠ هـ أثناء رحلتهما فى المشرق ، بأحمد بن عبد الله العامرى الأندلسى ، وسمعا منه فى أيلة[٧٨] .

على أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا أن دور مصر فى الحياة الثقافية للاسلام فى القرن الرابع الهجرى ، اقتصر فى حوض البحر المتوسط على استقبال العلماء الوافدين عليها ، وتزويدهم بما تطلعوا إليه من ألوان المعرفة . ذلك أنه وجد من علماء مصر من رحل إلى شتى بلاد حوض ذلك البحر ، واستقر فى تلك البلاد يحدث ويعلم . ومن هؤلاء على سبيل المثال أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن القرشى المصرى ، « قدم الأندلس من مصر

سنة ٣٩٤ هـ ، وحدث عنه كثيرون ، إلى أن وقعت الفتنة سنة ٣٩٩ هـ ، فخرج من الأندلس ، وعاد إلى مصر حيث توفى سنة ٤١٠ هـ[٨٠] . أما موسى بن حامد بن الخليل الفارسى المصرى ، فقد قدم قرطبة فى القرن الرابع ، واستوطنها مع زميله أبى القاسم بن أبى يزيد النسابة المصرى أيضاً . ذكر ابن بشكوال أن موسى بن حامد أجاز له روايته بقرطبة سنة ٣٩٧ هـ[٨١] .

ومرة أخرى نشير إلى أن دور البحر المتوسط كمعبر ثقافى فى القرن الرابع الهجرى لم يقتصر على نقل العلوم والتيارات الدينية ، وإنما تخطى ذلك إلى العلوم العقلية والأدبية . حقيقة أن فقهاء المالكية بالأندلس عارضوا كل اتجاه يستهدف التجديد والخروج على سنة السلف الصالح ، وفى ظل هذا الاتجاه لم تتقدم العلوم العقلية بالأندلس – كالفلسفة والطب والرياضيات – إلا تقدما بطيئا طوال القرون الثلاثة الأولى . ولكن حدث مع ازدياد اتصال الأندلسيين بالمشارقة عبر حوض البحر المتوسط أن اتسعت دائرة معارفهم تدريجياً ، وأخذت الفلسفة تنتقل مستترة صحبة العلوم التجريبية كالطب والفلك وغيرهما . ويقال أن آراء الأفلاطونية الحديثة أخذت تتسرب إلى الأندلس منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع للهجرة ، وأن من رواد هذه الحركة كان محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبى (٢٦٩ – ٣١٨ = ٨٨٣ – ٩٣١ م) ، الذى ترك مجموعة من تلاميذه أخذوا بمذهب الاعتزال[٨٢] .

وكان من أثر سياسة التسامح وتشجيع الحركة العلمية التى اتبعها الحكم المستنصر أن ازداد الاشتغال بالعلوم التجريبية ، وتأثر المغرب والأندلس فى ذلك تأثراً واضحاً بما حققه المشرق من انجازات فى مجال تلك العلوم . وكان أن ظهر فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى الرياضى والفلكى المشهور مسلمة المجريطى المتوفى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) وتلميذه أبو القاسم أصبغ بن السمح (٣٦٩ – ٤٢٥ هـ = ٩٨٠ – ١٠٣٤ م) وكلاهما كان إماما فى الرياضيات والحساب والفلك[٨٣] .

أما الطب فكانت له مكانة خاصة ، عند المسلمين ، إيمانا منهم بأن العقل السليم فى الجسم السليم ، وبأن المسلم لا يستطيع أن ينهض بواجباته كاملة تجاه الله وتجاه المجتمع وتجاه نفسه إلا إذا كان سليما معافى البدن . وفى هذا العلم لعب البحر المتوسط دوراً بارزاً كمعبر ثقافى بين المشرق والمغرب الاسلاميين . من ذلك فى القرن الرابع الهجرى أن عبد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبى ، الذى وصف بأنه « تمهر فى الطب ، ونبل فيه ، وأحكم كثيرا من أصوله » غادر الأندلس سنة ٣٣٧ هـ « فدخل مصر

والبصرة ، وعنى بعلم الطب ، ودبّر مارستان مصر ، ثم رجع إلى الأندلس سنة ٣٦٠ هـ[٨٤] » . وفى القرن الرابع الهجرى ، تميز بالأندلس أحمد وعمر – ابنا يونس بن أحمد الحرانى – فى صناعة الطب ، أولهما فى تحضير الأدوية والثانى فى الكحالة . وقد رحل هذان الأخوان إلى المشرق ، وأقاما هناك نحوا من عشرة أعوام ، عادا بعدها إلى الأندلس سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) فى عهد المستنصر فألحقهما فى خدمته[٨٥] . ويظن أن الأخير – وهو عمر – هو الذى علم الطبيب الأندلسى أبا القاسم الزاهر أوى طريقة استخراج ماء العين (الكتاراكت) بواسطة إبرة .

ومثل هذا يقال عن الاتصالات الثقافية فى علوم النحو والأدب عبر البحر المتوسط فى القرن الرابع الهجرى . ففى عهد الخليفة الناصر الأموى (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ = ٩١٢ – ٩٦١ م) عرف الأندلس دواوين المتنبى وغيرها[٨٦] . ولا أدل على الوحدة الثقافية بين بلاد الاسلام فى حوض البحر المتوسط فى القرن الرابع الهجرى من تلك القصة التى يرويها ابن خلكان[٨٧] ، وخلاصتها أن ابن عبد ربه القرطبى صاحب العقد الفريد كانت له قصيدة طويلة امتدح فيها المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الأموى – أحد ملوك الأندلس ، مطلعها :

بالمنذر بن محمد   شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن   والوحش فيها قد أنس

وعندما ذاعت هذه القصيدة وانتشرت على الألسن ، شق ذلك على الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى مصر ، فعارضها شاعره الأيادى التونسى ، بقصيدة مطلعها :

ربع لزينب قددرس   واعتاض من نطق خرس

وفى القرن الرابع الهجرى ، أخذ الأندلسيون فى الاستفادة من معاجم اللغة التى وضعت فى المشرق ووضع مختصرات لها . ومن هذه المختصرات كتاب « نوادر اللغة » لأبى على القالى ، فهو أشبه بشرح لما ورد فى « الكامل » لأبى العباس المبرد من الغريب . كذلك وضع الزبيدى (٣٠٦ – ٣٧٩ هـ = ٩١٨ – ٩٨٩ م) مختصرا لكتاب العين للخليل بن أحمد .

وأخيرا ، فإنه فى هذا النشاط الثقافى الذى شهده القرن الرابع الهجرى بين أجزاء حوض البحر المتوسط ، كان للمرأة نصيب لا يجوز إهماله . والمعروف أن المرأة تحت مظلة الاسلام أسهمت إسهاما واضحا فى كثير من ضروب النشاط الحضارى ، وبخاصة فى الجوانب الدينية والعلمية والثقافية . وإذا كانت المصادر المعاصرة وكتب التراجم

تضرب فى كثير من الحالات عن التعرض للمرأة بذكر ، تمشيا مع روح المجتمع وقيمه ، إلا أننا لا نعدم وجود بعض أمثلة تشير إلى ما كان لها من دور فى تلك العلاقات الثقافية بين المشرق والمغرب فى حوض البحر المتوسط . من ذلك أن راضية مولاة الإمام عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله – وتدعى بنجم – حجت مع زوجها سنة ٣٥٣ هـ وأخذا عن علماء المشرق ، فدخلا الشام ، ولقيا ابن شعبان القرطبى بمصر ونظراءه . وقد روى عنها بالأندلس محمد بن خزرج وقال « عندى بعض كتبها[٨٨] » هذا ، وقد اختتم ابن بشكوال كتابه « الصلة » بذكر عدد من النساء اللاتى اشتهرن بالعلم ومارسن حياة الدين والأدب .

وبعد ، فإنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل فى دراسة تاريخية اتخاذ سنة بعينها أو حدثا بذاته ليكون بداية أو نهاية واقعية لحركة حضارية . ذلك أن مثل هذه الحركات لا تولد فى يوم وليلة ولا تموت فى عام أو بضع عام ، وإنما لها جذورها ولها ذيولها ، وهذه أو تلك تحتاج إلى عقود لكى تنعقد فيها ثمارها أو تنفرط فيها حباتها .

ونحن عندما اخترنا القرن الرابع الهجرى – العاشر للميلاد – لنقرر أن التفاعل الحضارى بين أجزاء المجتمع الاسلامى فى حوض البحر المتوسط بلغ فيه ذروته ، وأن مصر قامت خلال هذا القرن بدور المركز العصبى المنظم للعلاقات الثقافية بين أجزاء ذلك المجتمع بعضها وبعض ... عندما فعلنا ذلك لم نعن مطلقا أن نربط هذه الحقائق ربطا دقيقا محددا بالفترة الواقعة بين سنتى ٣٠٠ ، ٤٠٠ للهجرة أو ما يقابلها من التقويم الميلادى . لقد بدأت ثمار هذه الظواهر الحضارية تنعقد فى حوض البحر المتوسط قبل بداية القرن الرابع الهجرى بسنين ، واستمرت أشجارها تؤتى أكلها بعد نهاية القرن الرابع بسنين أيضاً . كل ما فى الأمر هو أن القرن الرابع بالذات شهد نضج هذه الثمار فى ظل قيام الخلافة الأموية بالأندلس ، والخلافة الفاطمية فى أفريقية ومصر ، واستقرار الأمور للمسلمين فى صقلية والبليار واقريطش .

ومنذ أواخر القرن الرابع الهجرى – العاشر للميلاد – أخذت الأمور تتبدل تدريجياً وفى بطء شديد ، وفق سنة التاريخ وتطوره . فقبل أن يختتم ذلك القرن كان الروم أو البيزنطيون قد عصفوا بسيادة المسلمين على اقريطش ، وكان المسيحيون فى غرب حوض البحر المتوسط قد استجمعوا قواهم ، وأخذوا يفيقون من وحشة العصور المظلمة فتحولوا من الدفاع إلى الهجوم ، وفاجئوا المسلمين على شواطىء الأندلس وجزر البليار بهجمات أنذرت بتحول ميزان القوى فى غرب حوض البحر المتوسط لغير صالح

المسلمين . وفى ختام القرن الرابع – أو على وجه التحديد سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) دهمت الأندلس فتنة خرقاء مزقت الدولة وشردت العلماء ومهدت لسقوط الخلافة الأموية فى القرن التالى .

ثم إن القرن الخامس الهجرى – الحادى عشر للميلاد – لم يشهد سقوط خلافة قرطبة فحسب ، بل شهد أيضا سقوط دولة المسلمين فى صقلية . أما مصر التى قامت بدور حلقة الوصل بين جناحى العالم الاسلامى مشرقه ومغربه ، ويسرت الاتصال بين شتى المجتمعات الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ، فقد ابتليت فى القرن الخامس الهجرى – الحادى عشر للميلاد – (٤٥٧ هـ = ١٠٦٥ م) بالشدة العظمى فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ، مما أصابها بحالة من العجز التام ، جعلها فى أواخر ذلك القرن غير قادرة على القيام برسالتها الكبرى التى حددها القدر لها .

وكان أن اختتم القرن الخامس الهجرى – الحادى عشر للميلاد – باشتعال نار الحروب الصليبية فى شرق حوض البحر المتوسط ، مما أدى إلى ضرب العلاقات الثقافية بين المجتمعات الاسلامية فى حوض ذلك البحر ، وإصابة تلك العلاقات بحالة من التمزق والركود .

وإذا كان حوض البحر المتوسط قد شهد نشاطا حضاريا منذ القرن السادس الهجرى – الثانى عشر للميلاد – بوصفه معبرا ثقافيا رئيسيا ، فإن هذا النشاط الحضارى والثقافى لم يكن محوره العلاقات بين أجزاء المجتمع الاسلامى بعضها وبعض ، بقدر ما كان بين الحضارة الإسلامية ككل من ناحية والغرب الأوربى من ناحية أخرى . وفى هذا الدور الجديد قامت الأندلس وصقلية فضلا عن الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية – وكلها من بلاد البحر المتوسط – بدور المعابر الرئيسية التى انتقلت عليها حضارة الاسلام إلى غرب أوربا .

هوامش

(1) Semple (Ellen Churchill):

The Geography of the Med. Region (New York, 1931).

(2) Pirenne (H.):

Mohammed and Charlemagne (London, 1924).

(٣) ابن الفرضى : **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس** (١٩٥٤) جـ ١ ص ٦٨ ، ترجمة ١٨٦ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٨٨ ، ترجمة ٢٣٧ .

(٥) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٧٩ ، ترجمة ٤٥٥ .

(٦) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٧٠ ، ترجمة ١٢٨٩ .

(٧) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٣١ ، ترجمة ١٤٢٦ .

(٨) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٣١ ، ترجمة ١٤٢٧ .

(٩) المقرى التلمسانى : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** . (تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد) جـ ٣ ص ٤ .

(١٠) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٠ .

(١١) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٧٠ .

(١٢) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٣٩ .

(١٣) ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** ، جـ ٢ ص ١١٧ ، ترجمة ١٤٠٥ ، وكذلك المقرى : **نفح الطيب** ، جـ ٤ ص ١١٧ .

(١٤) المقرى : **نفح الطيب** ، جـ ٤ ص ٩٢ .

(١٥) ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** ، جـ ١ ص ٦٨ ترجمة ١٨٦ .

(١٦) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٧٤ ، ترجمة ٢٠١ .

(١٧) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٦ ، ترجمة ١٦٣٦ .

(١٨) ابن بشكوال : **كتاب الصلة** ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ترجمة ٥١٣ (القاهرة ١٩٦٦) .

(١٩) المصدر السابق ، ص ٢٥١ ، ترجمة ٢٧٣ .

(٢٠) ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** ، جـ ٢ ص ٨٤ ، ترجمة ١٣٣١ .

(٢١) بالنثيا (آنخل جنثالث) : **تاريخ الفكر الأندلسى** ص٤٦٢ - ٤٦٣ . (ترجمة د . حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥) .

(٢٢) ابن الفرضى ، **تاريخ العلماء** ، جـ ١ ص ١٧٤ ، ترجمة ٤٣٨ .

(٢٣) المقرى : **نفح الطيب** ، جـ ٤ ص ٦٧ .

(٢٤) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣٢ .

(٢٥) ابن جبير : **الرحلة** .

(٢٦) المقرى : **نفح الطيب** ، جـ ٤ ، ص ٤ .

(٢٧) ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ ، ترجمة ٧٧١ .

(٢٨) المقرى : **نفح الطيب** ، جـ ٤ ، ص ٧٠ - ٧٤ .

(٢٩) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٧٧ .

(٣٠) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص٦٦ .

(٣١) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٦٧ .

(٣٢) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ .

(٣٣) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٣٩ .

(٣٤) ابن بشكوال : **كتاب الصلة** ، ص ٣٧٥ ، ترجمة ٨٠٤ .

(٣٥) المقرى : **نفح الطيب**، جـ٣ ص٩ . ترجمة الحافظ أبى الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خيرة القرطبى . وقد ذكر المقرى أنه تنقل بين الاسكندرية ومصر ، وحدث فى قوص بالموطأ ، .

(٣٦) ابن بشكوال : **كتاب الصلة** ، ص ٦٤٣ ، ترجمة ١٤٠٩ .

(٣٧) ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** ، جـ ٢ ص ٢٨ ، ترجمة ١١٦٦ .

(٣٨) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ، ترجمة ١٣٦٠ .

(٣٩) بالنثيا : **تاريخ الفكر الأندلسى** ، ص ١٩٣ ، ٤١٦ ، ٤١٧ .

(40) Urvoy Dominique: **La Vie Intellectulle et Spirituelle dans Les Beleares Muslmans Al-Andalus.** (1972) p.p. 90-93.

تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) - تحقيق أكرم ضياء العمرى (دار القلم ١٩٧٧) ص ٣٠٢ .
ابن خلدون : **العبر وديوان المبتدأ والخبر** (بيروت ١٩٦٦) ، جـ ٤ ص ٣٥٣ .

(٤١) ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** ، ص ٣٤٢ ، ترجمة ١٠٠٥ .

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٩ ، ترجمة ٦٩٤ .

(٤٣) ابن بشكوال : **كتاب الصلة** ، جـ ١ ص ١١٠ ، ترجمة ٢٥٩ .

(٤٤) عصام سالم : **جزر الأندلس المنسية** ص ٤٦٧ - ٥٧٧ (بيروت ١٩٨٤) .

(٤٥) المقرى : **نفح الطيب** ، جـ ٣ ، ص ١٣٢ .

(٤٦) المقدسى : **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** ، ص ٢٢٦ وما بعدها (طبعة ليدن) .

(٤٧) ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ، جـ ١ ، ص ٣٧ ، ترجمة ١٥ .

(٤٨) ابن بشكوال : **كتاب الصلة** ، ص ٢٠ ، ترجمة ٣٧ . وكذلك ص ١٥٧ ، ترجمة ٣٥٤ .

(٤٩) المصدر السابق ، ص ١٠٠ ترجمة ٢٢٨ ، وترجمة ٢٢٩ .

(٥٠) المقدسى : **أحسن التقاسيم** ، ص ٢٢٧ .

(٥١) المقرى : **أزهار الرياض** ، جـ ٣ ص ٢٦ ، أحمد أمين : **ظهر الاسلام** ، جـ ٣ ص ٢٩٧ .

(٥٢) ابن أبى أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، ص ٤٧٨ . (تحقيق نزار رضا بيروت ، ١٩٦٥) .

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٤٧٩ .

(54) Amari (M.): **Storia dei Musulmani di Sicilia**, Vol. I, p. 396 f. & Bury (J.B.): **A History of the Eastern Roman Empire**, p. 296 f. & Cam. Med. **Hist.** vol. 4; p.p. 138-141

(٥٥) ابن الأثير : **الكامل** ، جـ ٧ ص ٢٨٤ – ٢٨٥ ، أبو الفدا : **المختصر** ، جـ ٢ ص ٥٠ .

(٥٦) دأب كثير من علماء صقلية على التردد على القيروان بالذات ، بحكم الروابط التاريخية والجغرافية والسياسية التى ربطت مسلمى صقلية بأفريقية . انظر على سبيل المثال ترجمة أبى الفضل عباس بن عمرو الوراق ، الذى خرج من صقلية إلى القيروان سنة ٣١٥ هـ ، ومكث بالقيروان حتى ٣٣٦ هـ . (ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** ، جـ ١ ص ٣٤٣ – ترجمة ٨٨٦) .

(٥٧) السيوطى : **بغية الوعاة** ، جـ ١ ص ٩٩ ، الذهبى : **معرفة القراء** ، جـ ١ ص ٢٣٠ ، المقريزى : المقفى جـ ١ ، ورقة ٢٣٨ (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢) . تقى الدين عارف الدورى : **صقلية** ، ص ٢٣٠ (بغداد ، ١٩٨٠) .

(٥٨) الذهبى : **معرفة القراء** ، جـ ١ ص ٢٨٥ .

(٥٩) السيوطى : **بغية الوعاة** ، جـ ١ ص ٤٨٨ ، ياقوت : **معجم الأدباء** ، جـ ٢ ص ٢٧٣ (مرجليوث) .

(٦٠) الذهبى : **معرفة القراء** ، جـ ١ ص ٣٣٥ . الدورى : **صقلية** ، ص ٢٣١ .

(٦١) ابن سعيد : **النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة** ، ص ٥٦ ، ابن أيبك الدوادارى : **الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية** ، ص ٢٥٥ .

(٦٢) ابن الأثير : **الكامل** ، حوادث سنة ٢١٠ هـ .

(٦٣) كانت الدولة البيزنطية عندئذ تتعرض لأحداث وثورات داخلية خطيرة فى عهد الامبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ – ٨٢٩ م) الذى وصف بعدم المقدرة .

(٦٤) ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ ترجمة ١٤١٥ .

(٦٥) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٢٨ ، ترجمة ١٤٢٣ .

(٦٦) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ص ٧٨ ، أحمد أمين : **ضحى الاسلام** ، جـ ٢ ص ٨٥ ، وكذلك **طبقات ابن سعد** .

(٦٧) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ص ٢٢٤ .

(٦٨) سيدة إسماعيل كاشف : **مصر فى عصر الإخشيديين** ، ص ٣٠٣ .

(٦٩) أحمد أمين : **ظهر الاسلام** ، جـ ١ ، ص ١٨٨ .

(٧٠) ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ، جـ ١ ص ٣٢٢ – ترجمة ١٣٩ .

(٧١) ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** ، جـ ١ ص ٣٠٧ ، ترجمة ٨٠١ .

(٧٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٨٥ ، ترجمة ٧٥٣

(٧٣) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٩١ ، ترجمة ١٥٩٩ .

(٧٤) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٦٣ ، ترجمة ٤١٧ .

(٧٥) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٤٣ ، ترجمة ٣٧٧ .

(٧٦) انظر على سبيل المثال ترجمة أبى محمد عبد الله بن محمد الأندلسى المعروف بابن ملول ، والمتوفى بمصر سنة ٣٥٠ هـ (ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ ترجمة ٧٠٣) . وترجمة أبى العباس أحمد بن محمد بن الحاج بن يحيى من أهل أشبيلية ، الذى سكن الفسطاط إلى أن توفى بها سنة ٤١٥ هـ (ابن بشكوال : **كتاب الصلة** ، جـ ١ ص ٣٥ ترجمة ٦٨) .

(٧٧) ابن الفرضى : **تاريخ العلماء** جـ ١ ص ٢٣٩ ، ترجمة ٦٠٨ .

(٧٨) ابن بشكوال : **كتاب الصلة** ، ص ١٠ ، ترجمة ١١ .

(٧٩) ابن بشكوال : **كتاب الصلة** ، ص ١٠٥ ، ترجمة ٢٤٦ .

(٨٠) المصدر السابق ، ص ٣٥٣ – ٣٥٤ – ترجمة ٧٥٨ .

(٨١) المصدر السابق ، ص ٦١٣ – ترجمة ١٣٣٩ .

(٨٢) بالنثيا : **تاريخ الفكر الأندلسى** ، ص ٣٢٤ – ٣٣١ .

(٨٣) المرجع السابق ، ص ٤٤٨ – ٤٤٩ .

(٨٤) المقرى : **نفح الطيب** ، جـ ٣ ص ١٣ .
ابن أبى أصيبعة : **عيون الأنباء** ، ص ٤٩٢ . وقد ذكر الأخير أنه غادر الأندلس إلى المشرق سنة ٣٤٧ هـ .

(٨٥) ابن أبى أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، ص ٤٨٧ .

(٨٦) بالنثيا : **تاريخ الفكر الأندلسى** ، ص ٥٩ – ٦٠ .

(٨٧) ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ، جـ ١ ص ٩٢ ، ترجمة ٤٥ .

(٨٨) ابن بشكوال : **كتاب الصلة** ص ٦٩٣ – ترجمة ١٥٣٤ .

الإسكندرية منارة للعلم في البحر المتوسط

عصر المماليك

د. حامد زيان غانم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد بآداب القاهرة

بلغت شهرة الاسكندرية العلمية درجة متقدمة طيلة العصر البطلمى ، وجمعت مكتبتها مصنفات شتى ، ووصلت شهرة علمائها إلى سائر الآفاق ، وكانت موطناً لفحول الشعراء والفلاسفة ، فضلا عن ازدهار العلوم الطبيعية بها . وبعد أن ضمها الرومان إلى حوزتهم لم ينتقص قدرها العلمى ، فأصبحت ثانى مدن الامبراطورية الرومانية ، وأعظم موانى البحر المتوسط قاطبة . وبظهور المسيحية وانتشارها ، أسست بها المدرسة المسيحية الكبرى على يد بنتاينوس Pentaenus فى القرن الثانى الميلادى ، تلك المدرسة التى قامت بالتوفيق بين الدين الجديد وبين الثقافة اليونانية[1] .

وبعد الفتح الإسلامى لمصر ، استمرت الاسكندرية تؤدى دورها العلمى عل الرغم من انتقال العاصمة المصرية إلى سواها ، فالمعروف أن المسلمين بعد فتحهم لمصر اتخذوا الفسطاط عاصمة لهم ، لكنهم لم يعمدوا إلى ايقاف النشاط العلمى بالاسكندرية وغيرها من المدن المفتوحة ذات الماضى الحضارى المتقدم ، وإنما عملوا على المحافظة عليه والعمل على ازدهاره وذلك بتشجيعهم المستمر للعلماء ، والمحافظة على المكتبات الضخمة بالإضافة إلى قيامهم بترجمة ما بها من علوم ومعارف إلى اللغة العربية للاستفادة منها وللتعرف على ما بها من ثقافة وعلوم ، ثم العمل على تطوير وإضافة الكثير إلى تلك المعلومات وصبغها بالصبغة الإسلامية . كل ذلك ساعد على ظهور الحضارة الإسلامية التى وصلت إلى درجة متقدمة من الازدهار والرقى . وكانت الاسكندرية أحد مراكز هذه الحضارة طيلة العصور الوسطى .

وإذا كانت مصر قد تعاقب على حكمها منذ الفتح الإسلامى عدد كبير من الحكومات ، فإنها خلال عصر المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

وصلت إلى مرحلة متقدمة من الازدهار العلمى جعلها بمثابة منارة للعلم فى البحر المتوسط .

وقد اجتمعت عدة عوامل أدت إلى ازدهار الحركة العلمية بالاسكندرية خلال عصر المماليك ، ويأتى فى مقدمة هذه العوامل موقعها الجغرافى المتميز ، حيث تعتبر الاسكندرية أهم ميناء فى البحر المتوسط . بالاضافة إلى أنها تعتبر أهم طريق للحجاج المغاربة ، كل ذلك جعلها ملتقى العلماء والتجار ، ولا شك فى أن هذا العامل من أهم عوامل انتعاش الحركة العلمية .

بالاضافة إلى ذلك فإن تشجيع حكام مصر للحركة العلمية كان من بين العوامل التى ساعدت على ازدهارها[٢] ، فالمعروف أن معظم حكام مصر انصرفت همتهم ناحية إنشاء المدارس وأوقفوا للإنفاق عليها الأوقاف الكثيرة[٣] ، كذلك رحبوا بالعلماء وقدموا لهم كل احترام وتقدير[٤] ، ولم يبخلوا عليهم بالنفقات ، وعملوا على استقدامهم من شتى البلدان[٥] مما أدى إلى إثراء الحياة العلمية بالاسكندرية . ومن المفيد أن نذكر أن مجموعة كبيرة من سلاطين الأيوبيين ومن بعدهم المماليك وولاتهم اهتموا اهتماما شخصيا بالعلم والعلماء ، وقصدوا بعض مدارس الاسكندرية ذات الشهرة العلمية الفائقة لطلب العلم[٦] . كما أوقفوا الأراضى والاقطاعات للانفاق منها على دور العلم وشراء الكتب[٧] .

ومن الجدير بالذكر أن الأمير قجماس الإسحاقى الظاهرى وهو أحد أمراء المماليك الذى تولى نيابة الاسكندرية زمن الأشرف قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١ هـ/ ١٤٦٧ - ١٤٩٥ م) نال قسطا من العلم وكان حسن الخط واهتم بالعلم والعلماء وأمور الدين . وأثناء نيابته الاسكندرية بين عامى (٨٧٥ - ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٠ - ١٤٧٥ م) « عمر لنفسه جامعا ظاهر باب الاسكندرية المسمى بباب رشيد » ، وعرف عنه اهتمامه بالعلم والمدارس[٨] .

والواقع أن تشجيع الحكام والأمراء كان العامل الرئيسى فى نشأة المدارس وازدهار الحركة العلمية بالاسكندرية على وجه الخصوص ، فالمعروف أن أول مدرسة أنشأت بالاسكندرية فى العصر الإسلامى[٩] كانت مدرسة أبى بكر الطرطوشى[١٠] عام ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م ، ذلك أن أبا عبد الله محمد بن الطائحى وزير الخليفة الفاطمى الآمر لدين الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ/ ١١٠١ - ١١٣٠ م) احتضن أبا بكر الطرطوشى وشجعه على الاستمرار فى نشاطه العلمى بعد أن تعرض للاضطهاد من قبل الوزير السابق الأفضل بن بدر الجمالى ، وأنشأ له بالاسكندرية - التى اتخذها الطرطوشى موطنا له - مدرسة عرفت باسمه[١١] .

ومن نافلة القول أن أبا بكر الطرطوشى بعد أن استقر به المقام بالاسكندرية تزوج من خالة أحد تلاميذه النابهين وهو أبو طاهر بن عوف[١٢] ، الذى أنشأ له الوزير رضوان بن ولخشى بإيعاز من الخليفة الحافظ الفاطمى (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ/ ١١٣٠ - ١١٤٩ م) مدرسة بالاسكندرية عام ٥٣٢ هـ/ ١١٣٧ م عرفت باسمه[١٣] . كذلك أقام أبو الحسن على بن السلار والى الاسكندرية زمن الخليفة الظافر لدين الله الفاطمى (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ/ ١١٤٩ - ١١٥٤ م) مدرسة بالاسكندرية للحافظ السلفى عام ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م[١٤] . والمعروف أن هذه المدرسة الأخيرة ذاع صيتها إلى درجة كبيرة فى كل أنحاء العالم الإسلامى .

وعلى هذا النحو نجد أن نشأة المدارس بالاسكندرية فى العصر الفاطمى ترجع أساساً إلى تشجيع الولاة والوزراء .

بالإضافة إلى ما تقدم نجد أن انتعاش التجارة بالأسكندرية وكثرة وفود التجارة إليها أدى إلى تنشيط الحركة العلمية بها ، خاصة عندما يظهر من التجار من يكون مهتما بالعلم وأهله ، ومن أمثلة هؤلاء تاجر يقال له الكويك عمرَّ بالاسكندرية مدرسة قال عنها خليل الظاهرى أنها ظلت مشهورة حتى عصره ، أنفق عليها أموالاً طائلة[١٥] كما أن ازدياد الوفرة الاقتصادية بالاسكندرية الناتج عن انتعاش التجارة ساعد كثيراً فى إنشاء المدارس وتزويدها بكل ما تحتاج إليه والإنفاق عليها بسخاء .

ومن العوامل التى ساعدت على انتعاش الحركة العلمية بالاسكندرية هجرة كثير من علماء صقلية والأندلس إليها ، خاصة بعد سقوط الأولى فى يد النورمان عام ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م[١٦] ، وسقوط الثانية فى يد الأسبان[١٧] ، مما أدى إلى انتعاش الحركة العلمية بها[١٨] .

بالإضافة إلى العوامل السابقة فإن وجود علاقات ودية بين مصر وسائر بلدان البحر المتوسط خاصة الجانب الأوربى أدى بلا شك إلى توثيق العلاقات الثقافية بينهم ، وقد استفادت الاسكندرية بوصفها أهم ميناء مصرى مطل على البحر المتوسط من وراء هذه العلاقات الدبلوماسية الطيبة ، فوردت إليها مختلف الوفود والسفارات متخذين طريقهم إلى القاهرة ، ومن المعروف أن هذه الوفود كانت تضم مجموعات كبيرة من العلماء الذين كان لهم نصيب فى تنشيط الحركة العلمية بالاسكندرية[١٩] .

وليس هناك شك فى أن اتخاذ مصر مقراً للخلافة العباسية عصر المماليك أدى إلى وفود كثير من العلماء إليها ، مما ساعد على تنشيط الحركة العلمية بها بصفة عامة[٢٠] .

ومن الجدير بالذكر أن تعرض الاسكندرية دوما لإغارات الفرنج لم يؤثر كثيرا على مسيرة الحركة العلمية ، خاصة وأن سلاطين الأيوبيين ومن بعدهم المماليك قاموا بحماية الثغر ورد أى عدوان يتعرض له(٢٠) ، وبذلوا جهدهم فى سبيل صد الهجمات المتتالية التى شنها الصليبيون على الاسكندرية(٢١) ، كذلك قبض المماليك بيد من حديد على مختلف شئون الاسكندرية ، وقضوا على مختلف الفتن التى ثارت بها(٢٢) . بالإضافة إلى ذلك فإن الاسكندرية لم تتأثر كثيراً بما حدث من منافسة وصراع بين المدينتين التجاريتين البندقية وجنوا(٢٣) ، والمعروف أنه كان للبندقية جالية كبيرة بالاسكندرية وكان الحى البندق بها يحتوى على فندقين وحمام ومخبز وكنيسة(٢٤) .

وقد انتشرت المدارس ودور العلم بالاسكندرية انتشارا كبيرا عصر المماليك ، فبالإضافة إلى مجموعة المدارس التى أسست قبل قيام دولة المماليك وجد بالاسكندرية عدد كبير من دور العلم . ومن الجدير بالذكر أن أماكن تلقى العلم لم تقتصر على المدارس والمساجد وما شابهها من زوايا وإنما تعدى ذلك إلى المنازل والدكاكين ، فقد لمعت فى تلك الفترة بمدينة الاسكندرية مجموعة من بيوت العلماء التى كانت بمثابة مراكز علمية زاهرة قصدها كثير من طالبى العلم والمعرفة . وقد زار هذه البيوت معظم الرحالة وطالبى العلم المغاربة وتحدثوا عنها فى كتاباتهم(٢٦) ، وكانت مثل ما يطلق عليه اليوم اسم الصالونات الأدبية ، هذا بالإضافة إلى مجموعة المساجد التى ظلت تؤدى دورا هاما فى الحركة العلمية مثل جامع الجيوش (مسجد العطارين(٢٧)) ، ومسجد ياقوت الحبشى(٢٨) ، والمسجد السكندرى الذى يسمى الآن خطأ « جامع النبى دانيال » . والحقيقة أنه لا صلة بين النبى دانيال ومؤسس هذا المسجد ، فتشير المصادر التاريخية إلى أنه وفد على الاسكندرية فى القرن الثامن الهجرى أحد العلماء المشهورين وهو محمد دانيال الموصلى واتخذ من مسجد الاسكندرية مكانا يلقى به علومه ، واستمر كذلك إلى حين وفاته عام ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧ م ، ودفن فى نفس المسجد ، ثم أصبح ضريحه مزارا للناس(٢٩) .

كذلك لعبت كل من دار الحديث النبيهية ودار الحديث التكريتية دورا كبيرا فى الحركة العلمية بالاسكندرية(٣٠) . أما مدارس الاسكندرية عصر المماليك فقد اشتهر منها : مدرسة ابن حباسة(٣١) ، ومدرسة ابن الابزارى والمدرسة النبيبية(٣٢) ، والمدرسة الخضراء(٣٣) ، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من المدارس التى أنشئت أواخر عصر المماليك مثل تلك التى أنشأها السلطان قايتباى . كذلك شاركت الزوايا والربط(٣٤) بالاسكندرية

فى الحركة العلمية ، ومن الزوايا ذات الشهرة العلمية بالاسكندرية عصر المماليك كانت زاوية جابر بن إسحاق بن إبراهيم الأنصارى الأندلسى المولد والنشأة والذى نزح إلى مصر واتخذ الاسكندرية مستقرا له ومقاما ، وأصبحت زاويته بها من أشهر مراكز العلم والمعرفة بالاسكندرية ، وهناك الآراء التى تقول أن جابرا هذا هو سيدى جابر صاحب الضريح المعروف المقام عنده سيدى جابر برمل الاسكندرية . أما زاوية البوصيرى التى تنسب إلى الشاعر الأديب والإمام الصوفى شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن الملقب بالبوصيرى فكانت هى الأخرى بمثابة مركز علمى نشط ، واتخذها البوصيرى مكانا لإلقاء قصائده الشعرية فى مدح النبى(٣٥) . كذلك قامت الربط بالإسهام بنصيب وافر من النشاط العلمى بالاسكندرية فعلى الرغم من كونها بيتا للصوفية ، إلا أن هؤلاء الزهاد اتخذوها مكانا لالقاء دروسهم ، ومن أشهر هذه الربط رباط سوار الذى أقام به العالم الزاهد الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى(٣٦) ، وكان يلقى به دروسه ومواعظه ، ومن الجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس كان يحرص أثناء زيارته للاسكندرية على الذهاب إلى رباط سوار للاستماع إلى دروس أبى عبد الله الشاطبى .

وقبل أن ننهى حديثنا عن دور العلم بالاسكندرية نود أن نشير إلى أنه بلغ حب أهل الاسكندرية للعلم أنهم تعقبوا العلماء إينما كانوا حتى ولو داخل السجون مثلما حدث عندما توافدوا على سجن الاسكندرية للاستماع إلى العالم الفقيه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن القاسم بن تيمية الحرانى ، الذى حبسه السلطان بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ - ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٨ - ١٣٠٩ م) فى سجن الاسكندرية عام ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م !!(٣٧) .

أما أهم مظاهر ذلك النشاط العلمى الضخم بالاسكندرية خلال عصر المماليك فيتمثل فى اجتماع عدد كبير من العلماء بها ؛ هؤلاء العلماء الذين لم تقتصر شهرتهم العلمية على الاسكندرية وحدها وإنما تعدتها إلى سائر الأقطار الإسلامية شرقية كانت أم غربية . ومن هؤلاء العلماء : ابن العمارية الإمام الحافظ أبو المظفر منصور بن سليم بن منصور بن فتوح الهمذانى الاسكندرانى الشافعى (توفى عام ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م) الذى كانت له عناية فائقة بعلم الحديث وفنونه ورجاله ، وتولى وظيفة الحسبة بالاسكندرية(٣٨) . أما عبد النصير المريوطى أبو محمد فكان من كبار القراء بالاسكندرية (توفى عام ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م)(٣٩) . وكان محمد بن الحسين بن عتيق بن رشيق الربعى المصرى هو شيخ المالكية بالاسكندرية جمع بين العلم والعمل والورع ، وتولى

القضاء بها ، (توفى عام ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م)[٤٠] . أما العلامة ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور الجذامى الاسكندرانى المعروف بابن منير فكان أحد الأئمة المتبحرين فى التفسير والفقه واللغة العربية والأنساب ، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول أن الديار المصرية تفخر برجلين فى طرفيها : ابن دقيق العيد بقوص ، وابن المنير بالاسكندرية ، وكانت له مؤلفات عديدة (توفى بالاسكندرية عام ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م)[٤١] . أما أبو محمد النكراوى فكان من مشاهير الاسكندرية فى القراءات ، صنف فيها عدة مصنفات ، وقصده جماعة كبيرة من طالبى العلم درسوا على يديه (توفى عام ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م)[٤٢] . ومن علماء الاسكندرية البارزين أحمد بن محمد عبد الكريم بن عطاء الله تاج الدين أبو الفضل الاسكندرانى ، الذى تتلمذ على يد عدد كبير من علماء الاسكندرية ثم اتصل بأبى العباس المرسى وأخذ عنه طريق الصوفية ، ووصل إلى مرحلة متقدمة فى العلم أهلته لأن يخلف أستاذه ، ثم رحل إلى القاهرة حيث تولى التدريس بالجامع الأزهر ، وعنه أخذ عدد كبير من العلماء (توفى عام ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م)[٤٣] . ويعتبر أحمد بن أبى بكر بن عوام بهاء الدين أبو العباس الأسوانى الاسكندرى من العلماء المشهورين بالاسكندرية ، صنف العديد من المؤلفات فى الفقه والعربية وتولى نظر الأحباس بها[٤٤] ، ومن الجدير بالذكر أن والدته هى ابنة الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، (توفى عام ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠ م)[٤٥] .

ولم تخل الاسكندرية من نساء عالمات أمثال وجيهة بنت على بن يحيى بن سلطان الأنصارى الصعدية الاسكندرانية ، التى تلقت علومها عن ابن النحاس وأحمد بن عبد المحسن الفرانى ، كما أجاز لها جماعة كبيرة من علماء الاسكندرية ، ووصلت إلى درجة متقدمة من العلم أهلتها لرواية الحديث ، واستمرت تؤدى دورها بالاسكندرية إلى حين وفاتها عام ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م[٤٦] .

ومن علماء الاسكندرية البارزين الشيخ الإمام فخر الدين أبو محمد عبد الواحد بن منصور بن محمد بن المنير ، له تفسير فى ست مجلدات ، وتولى القضاء بالاسكندرية (توفى عام ٧٣٣ هـ/ ١٣٢٢ م)[٤٧] . أما داود بن عمر بن إبراهيم الشاذلى فكان من الأئمة المالكيين ، له تصانيف عديدة (توفى عام ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م)[٤٨] . كذلك كان تاج الدين الفاكهانى عمر بن سالم اللخمى الاسكندرى من العلماء المشهورين ، له عدة تصانيف من أبرزها شرح الأربعين النورية (توفى عام ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٣ م)[٤٩] . أما أبو الحسن بن أبى بكر الكندى فكان كما يذكر السيوطى : « شيخ العلماء ، وحيد عصره وفريد زمانه » ، تولى القضاء بالاسكندرية ، وله تصانيف عديدة (توفى عام

٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م)[٥٠] . كذلك كان عماد الدين محمد بن إسحاق بن محمد بن المرتضى البلبيسى من علماء الاسكندرية كما تولى القضاء بها (توفى عام ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م)[٥١] .

ومن علماء الاسكندرية المشهورين أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله الاسكندرى المالكى فخر الدين بن الخلط ، الذى قال عنه ابن حجر « أنه اشتغل ومهر فى الفقه والعربية » ومن الجدير بالذكر أن هذا العالم لم يقتصر فى تحصيل علمه على مدارس الاسكندرية فقط وإنما غادرها متجهاً إلى دمشق حيث أخذ عن الذهبى ، ثم رجع إلى مصر ليتولى تدريس الحديث بالمدرسة الصرغتمشية ، ثم قصد الاسكندرية حيث شارك فى الحركة العلمية بها ، كما تولى القضاء بها ، (توفى عام ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٧ م[٥٢]) . أما الأديب المؤرخ محمد بن قاسم بن محمد النويرى المالقى الاسكندرانى ، فكان من العلماء المشهورين بالاسكندرية ، قال عنه ابن حجر[٥٣] « صنف تصنيفاً فى ثلاث مجلدات عمل فيه صفة الكائنة العظمى التى وقعت للفرنج فى أول عام ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٦ م حيث ملكو الاسكندرية ... » (توفى عام ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣ م) . وبلغت شهرة قاضى القضاة شرف الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بكر الشهير بابن الدمامينى المالكى درجة كبيرة فى المحيط العلمى ، فكان رجلا جيدا ذكيا عالما ، تولى عدة وظائف حكومية ، ثم استقر به الحال بالاسكندرية حيث تولى وظيفة قاضى القضاة المالكية وشارك فى الحركة العلمية بها مشاركة فعالة ، وظل بها حتى وفاته عام ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م[٥٤] . كذلك يعتبر تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الخراط من أبرز علماء الحديث بالاسكندرية (توفى عام ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م)[٥٥] أما أبو العباس أحمد بن كمال الدين محمد بن محمد بن حسن التميمى الدارى المعروف بالشمن فكان من أشهر علماء المالكية بالاسكندرية[٥٦] ، قال عنه تلميذه السيوطى : « أوحد عصره فى العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها » ، وتولى التدريس بمدارس الاسكندرية ، واستفاد من علمه خلق كثير (توفى عام ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م)[٥٧] .

ومن الجدير بالذكر أن علماء الاسكندرية لم يقتصر نشاطهم العلمى على الاسكندرية وحدها ، وإنما تعدى نشاطهم كافة أنحاء العالم الإسلامى مشرقه ومغربه خاصة البلدان المطلة على البحر المتوسط ، حيث طافوا بكل أنحاء البلاد الإسلامية يؤدون واجبهم فى نشر العلم . من ذلك أن عبد الله بن عبد الرحمن ابن عمر الشارمساحى الذى نشأ بالاسكندرية وتفقه بها إلى أن صار من أئمة علماء المالكية بها وله تصانيف عديدة فى الفقه ، عزم على التجول فى البلدان الإسلامية فدخل بغداد وهناك أكرمه الخليفة العباسى

المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ/ ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م) وولاه التدريس بالمدرسة المستنصرية بعد أن وقف على ما وصل إليه الشارمساحى من كفاءة علمية[*] . كذلك كان العالم المشهور برهان الدين إبراهيم بن فلاح بن محمد بن حاتم السكندرى الشافعى المولود بالاسكندرية عام ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م والذى تلقى العلم فى مدارس الاسكندرية ثم رحل عنها متوجهاً إلى دمشق ، وهناك ازدادت شهرته العلمية ، وناب فى الخطابة بجامع بنى أمية كما تولى القضاء بها ، والتدريس بمدارسها واستمر حتى وفاته بدمشق عام ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢[*] .

أما العالم أبو العباس أحمد بن تاج الدين ابن الخير سلامة ابن زين الدين فكان من العلماء المبرزين بالاسكندرية ، وتولى نيابة الحكم بها ، ثم غادرها ورحل إلى الشام حيث تولى قضاء المالكية بها ، واستمر كذلك إلى أن وافته المنية عام ٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م[*] . وبالنسبة للعلامة تاج الدين عمر بن اللخمى بن الفاكهانى فقد رحل هو الآخر عن الاسكندرية بقصد الحج إلى بيت الله الحرام عام ٧٣١ هـ/ ١٣٣٠ م ثم طاف بعدد من البلدان من بينها دمشق التى أقام بها مدة تولى أثناءها التدريس بمدارسها[*] .

ومن أبرز علماء الاسكندرية الذين طافوا ببلدان العالم الاسلامى ابن الدمامينى الذى ملأت شهرته كتب التاريخ ، وهو محمد بن أبى بكر بن عمر بن أبى بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر القرشى المخزومى الاسكندرانى بدر الدين المعروف بابن الدمامينى ، ولد بالاسكندرية عام ٧٦٣ هـ/ ١٣٦١ م وتفقه بها ، وبرع فى النحو والنظم والنثر ، واشتهر ذكره ، وتولى التدريس بمدارسها المختلفة كما ناب فى الحكم بها ، ثم قصد الأزهر حيث تولى التدريس به[*] ، أو على حد تعبير الشوكانى[*] : « تصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو » ، ثم عاد إلى الاسكندرية ليشارك مشاركة فعالة فى تنشيط الحركة العلمية بها ، ثم غادرها مرة ثانية لأداء فريضة الحج ، فذهب إلى دمشق عام ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٧ م ومنها اتجه إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج ، ثم عاد إلى الاسكندرية بعد أن شارك مشاركة فعالة فى الحركة العلمية بالبلاد التى زارها أثناء رحلته السابقة . وبعودة ابن الدمامينى الثانية إلى الاسكندرية تقلبت الأحوال به وترك نيابة الحكم واشتغل فى صناعة الثياب الحرير ، غير أن داره احترقت بما فيها من حرير مما أنزل به أشد الضرر وركبته الديون ، فاضطر إلى مغادرة الاسكندرية متوجهاً إلى الصعيد ، ثم حضر إلى القاهرة بعد أن اشتكاه دائنوه ، واستمر بها مدة حتى صلحت حاله ، ثم عزم على الرحيل عن الديار المصرية ، ففى عام ٨١٩ هـ/ ١٤١٦ م توجه إلى الحجاز لأداء

فريضة الحج ومنها توجه إلى اليمن عام ٨٢٠ هـ/ ١٤١٧ م حيث تولى التدريس بجامع زبيد حوالى عام لكنه ما لبث أن غادرها نتيجة ضآلة دخله المالى ، وتوجه بعد ذلك إلى الهند ، وهناك استقبل استقبالاً حافلا من مسلمى الهند الذين عظموه واحترموه . واستمر ابن الدمامينى بالهند يؤدى دوره فى نشر العلم والدين حتى وفاته عام ٨٣٧ هـ/ ١٤٣٣ م[*] .

وعلى هذا النحو أصبحت الاسكندرية عصر المماليك بمثابة خلية نشطة مليئة بالعلماء الأفذاذ ، وتكتظ مكتباتها بأنفس المؤلفات ، مما جعلها بمثابة منارة للعلم يشع نورها على بلدان البحر المتوسط . ونتيجة لذلك قصدها طالبى العلم والمعرفة من هذه البلدان . ومن بين هؤلاء العلماء الذين وفدوا على الاسكندرية - خلال عصر المماليك - لطلب العلم والمعرفة ، ابن وثيق شيخ القراء أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الأموى الأشبيلى ، وهو كما يتضح من اسمه من أشبيلية بالأندلس ولد عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م وأخذ يتنقل فى البلدان لطلب العلم والمعرفة فطاف بمصر والشام والموصل واستقر به المقام بالاسكندرية حيث أخذ يتعلم ويعلم بمدارسها ، واستمر بها إلى حين وفاته عام ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م[*] . أما أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصارى القرطبى فهو أيضا كما يتضح من اسمه من قرطبة ، وفد على الاسكندرية لطلب العلم ، وشارك مشاركة فعالة فى الحركة العلمية بها ، وتوفى عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م[*] .

ومن العلماء البارزين الذين قصدوا الاسكندرية العالم الشريف شهاب الدين أحمد بن محمد الحسينى الواسطى العراقى[*] ، فقد رحل من العراق إلى الاسكندرية واتخذها موطناً له ، واستمر يشارك مشاركة فعالة فى الحركة العلمية بها إلى حين وفاته بها عام ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م[*] . وقد ظل ابناه تاج الدين أبو الحسن على وعز الدين أبو إسحاق إبراهيم بالاسكندرية وورثا عن أبيهما حب العلم وتبوءا مكانة والدهما بالاسكندرية ، ووصلت شهرتهما العلمية إلى درجة عالية[*] .

كذلك قدم إلى الاسكندرية أبو الحسن الشاذلى عام ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م وبصحبته الشيخ أبو العباس المرسى وأخوه أبو عبد الله وخادمه أبو العزائم ماضى ، واتخذ من جامع العطارين (مسجد الجيوشى) مكانا لعقد حلقات الدرس والوعظ والتفسير ، حيث التف حوله عدد كبير من المريدين وطالبى العلم والمعرفة . ومن الجدير بالذكر أن الشاذلى عهد إلى أبى العباس المرسى بخلافته فى القيام بأمر الطريقة وفى عقد حلقات الوعظ والارشاد . ومن نافلة القول أن أبا العباس المرسى تزوج من ابنة الشيخ الشاذلى

وأنجب منها ولديه جمال الدين محمد وأبى العباس أحمد وابنته بهجة التى تزوجت هى الأخرى من تلميذه الشيخ ياقوت الحبشى[71] ، واستمر أبو العباس المرسى يمارس نشاطه العلمى والدينى بالاسكندرية إلى حين وفاته عام ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م[72] .

ومن بين العلماء الذين وفدوا على الاسكندرية العالم الأديب ضياء الدين أبو الحسن على بن محمد بن عفيف الخزرجى الساعدى ، وهو من أهل غرناطة ، رحل عن الأندلس واستقر بالاسكندرية ، وذاع صيته بها ، واستمر يمارس نشاطه العلمى إلى أن جاوز التسعين من عمره ، وقد ذكره ابن رشيد من بين العلماء الذين أخذ عنهم بالاسكندرية[73] .

أما إمام العربية محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن محيى الدين المعروف بخافى رأسه ، فمولده بتاهرت بظاهر تلمسان عام ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م ، ثم غادرها إلى الاسكندرية حيث نال تعليمه وبرع فى النحو ، وقال عنه أبو حيان : « كان شيخ أهل الاسكندرية فى النحو » واستمر يشارك فى النشاط العلمى بالاسكندرية إلى حين وفاته عام ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م[74] .

ومن الجدير بالذكر أن صاحب تونس زكريا بن أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الواحد بن عمر اللحيانى الهنتاتى ، بعد أن خرجت تونس عن يده لم يجد أمامه أفضل من الاسكندرية ليتخذها مستقرا ومقاما ، ووجد بها المكان الملائم له والمرتع الخصب لميوله فقد عرف عنه أنه كان عالما « حيث أتقن العربية ، واطلع على غوامض المعانى الأدبية ، ونظم الشعر » . واستمر اللحيانى مقيما بها حتى وفاته عام ٨٢٧ هـ/ ١٣٢٦ م[75] .

ويعتبر الفقيه العالم عيسى بن مسعود بن منصور بن يحيى بن يونس الزواوى من أشهر العلماء الذين قصدوا الاسكندرية طلبا للعلم فقد تردد عليها أكثر من مرة ودرس على يد علمائها ووصل إلى درجة متقدمة فى العلم تشهد له بها مؤلفاته العديدة ، (توفى عام ٧٤٣ هـ/ ١٣٤٢ م[76]) . كذلك قصد الاسكندرية لطلب العلم العالم الشهير محمد بن يوسف بن على بن يوسف أثير الدين أبو حيان الأندلسى الغرناطى الذى وصلت شهرته العلمية إلى درجة كبيرة ، ووصفه السيوطى بقوله : « نحوى عصره ، ولغويه ، ومفسره ، ومحدثه ، ومؤرخه ، وأديبه » ، (توفى عام ٧٤٥ هـ/ ١٣٤٤ م)[77] . أما إبراهيم بن محمد بن خليل البرهان الطرابلسى الأصل ، فقد قصد الاسكندرية هو الآخر لطلب العلم ، (توفى عام ٨٤١ هـ/ ١٤٣٧ م)[78] . كذلك قصدها محمد بن أحمد بن

محمد بن أحمد التلمسانى المعروف بابن مرزوق لطلب العلم على يد عالمها المشهور البهاء الدمامينى[79] .

وعلى هذا النحو أصبحت الاسكندرية عصر المماليك من أهم المراكز العلمية فى حوض البحر المتوسط يقصدها العلماء من كل حدب . ولزيادة توضيح دور الاسكندرية العلمى وأثرها فى ثقافة البحر المتوسط ، نلقى الضوء على كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين الذين زاروها فى تلك الفترة طلبا للعلم والمعرفة . وجدير بالذكر أنه إذا كانت الاسكندرية قد ساعدت فى تنشيط الحركة العلمية فى معظم بلدان البحر المتوسط شرقا وغربا ، فإن بلاد المغرب الاسلامى حظيت بنصيب الأسد فى هذا الجانب وذلك بحكم موقعها القريب من جهة ، ومن جهة أخرى تعتبر الاسكندرية من أهم الطرق المؤدية إلى الأراضى الحجازية والتى كانت تسلكها قوافل حجاج المغاربة والأندلسيين ، والمعروف أن هذه القوافل ضمت أعدادا كبيرة من طالبى العلم والمعرفة . وسنركز الحديث على كتابات خمسة من هؤلاء الرحالة هم : ابن رشيد الذى زار الاسكندرية عام ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م ، والعبدرى الذى زار الاسكندرية عام ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م ، والتجيبى الذى زار الاسكندرية عام ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦ م ، وابن بطوطة الذى زار الاسكندرية مرتين كانت أهمهما الزيارة الأولى ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م ، والبلوى الذى زار الاسكندرية ثلاث مرات كانت أهمهم الزيارة الأولى أيضا عام ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٦ م ، وجميعهم من العلماء المبرزين فيما عدا ابن بطوطة الذى تغلب عليه سمة الصوفية بالاضافة إلى حبه للعلم والمعرفة والتجوال والترحال .

ابن رشيد

هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن عبد الله بن سعيد بن سعود بن حسن بن محمد الفهرى من أهل سبتة ، يكنى بأبى عبد الله ويعرف بابن رشيد الخطيب المحدث[80] . تلقى العلم بسبتة حيث قرأ القرآن الكريم وتفقه فى العربية ، ثم رحل إلى بجاية لطلب العلم ، ثم عزم بعد ذلك على قصد بيت الله الحرام عام ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م[81] لأداء فريضة الحج من جهة ، ولطلب العلم فى سائر البلدان التى يمر بها أثناء رحلته من جهة أخرى . ولم يترك ابن رشيد عالما من علماء البلاد التى مر بها إلا واتصل به وأخذ عنه ، وقد اشتمل كتابه الثمين المعروف باسم : « ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة فى الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة[82] » على أسماء أولئك العلماء الذين تتلمذ على أيديهم[83] .

والمتتبع لرحلة ابن رشيد يجدها رحلة علمية من الدرجة الأولى ويتضح ذلك من برنامج زياراته أثناء تواجده بالاسكندرية وغيرها من البلدان التى زارها ، وبالنسبة للاسكندرية كان يتردد أثناء إقامته بها على مجالس العلماء للوقوف على ما عندهم من علم ، فكان يتنقل بين دور العلم التى بها سواء أكانت مساجد أو مدارس أو منازل أو دكاكين ، ولم يترك عالما بها إلا وأخذ عنه وأجاز له ، حتى أولئك الذين لم يسترح لهم ابن رشيد مثل ابن ساطر البونى الشرابى المتطبب الذى وصفه ابن رشيد بقوله : « وهو شيخ فى أخلاقه شكاسة وكبر وعدم فهم » ، ولكنه رغم هذا سعى إليه حيث أجاز له ولإبنيه(٨٤) .

ومن الأمور الهامة أن نذكر أن الحياة العلمية والثقافية بالاسكندرية نشطت نشاطا ملحوظا لدرجة أن كثيرا من أهل الاسكندرية على مختلف طبقاتهم نالوا قدرا من الثقافة والعلم ، وقد أشار إلى هذه الظاهرة عندما تحدث عن متقال الحبشى الذى كان بزازا وفى نفس الوقت حافظا للأحاديث راويا لها على الرغم من كونه أميا(٨٥) . كذلك كان ابن هلال التميمى قماحا وفى نفس الوقت كان أديبا شاعرا سعى إليه ابن رشيد وذهب إلى مقابلته فى دكانه(٨٦) .

وجدير بالذكر أن كثيراً من قراء القرآن بالاسكندرية اتخذوا لأنفسهم دكاكين بمنازلهم حيث يلتقى بهم مريدوهم ، وقد ذكر ابن رشيد أنه قصد دكان المكين الأسمر وهو المتصدر لإقراء القرآن بالاسكندرية حيث قرأ عليه القرآن الكريم « وممن لقيناه أيضا بثغر الاسكندرية الشيخ المقرىء المجود مكين الدين أبو محمد عبد الله بن منصور بن على ويلقب بالمكين الأسمر أحد الصلحاء الفضلاء وهو المتصدر لإقراء القرآن بالاسكندرية قرأت عليه بدكان منزله ضحى يوم السبت الحادى والعشرين لجمادى الأخرى من عام أربعة المذكور » ٦٨٤ هـ (٢٥ أغسطس عام ١٢٨٥م)(٨٧) .

كذلك أوضح ابن رشيد ما وصلت إليه الحركة العلمية بالاسكندرية من ازدهار عندما تحدث عن مقابلاته مع العلامة الشهير تاج الدين أبو الحسن على بن أبى العباس المعروف بالقرافى الذى قال عنه : « أردنا أن نجعله لمن لقيناه بالاسكندرية مسك الختام ودليل التمام ... وله خط حسن ، وتواضع وفضل ، وقبول على من يرد عليه ويقتبس مما لديه ، وله مشاركة فى الطلب ، وذكر لعيون الأدب ، ومشيخة عالية(٨٨) » وقد اتخذ القرافى كلا من المدرسة النبيهة ودار الحديث النبيهة مقراً له ، حيث تولى تدريس الحديث بهما(٨٩) . بالإضافة إلى مشاركته فى التدريس بمدرسة ابن الأبزارى وقد زار ابن

رشيد هذه المدارس وسمع بهم عن القرافى(٩٠) .

وعلى هذا النحو يوضح لنا ابن رشيد ما وصلت إليه الاسكندرية من ازدهار علمى ، وكيف كانت قبلة لمختلف العلماء ، قصدوها من كل صوب لطلب العلم والمعرفة ، وكيف كانت منارة للعلم ، نهل من علمها علماء المغرب والأندلس وغيرهم ، حتى وصلوا إلى مرحلة متقدمة من العلم(٩١) .

العبدرى

أما العبدرى الذى زار الاسكندرية عام ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م فهو أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الحيحى ، ومثله مثل ابن رشيد اهتم أثناء رحلته بالالتقاء بالعلماء ، واهتم بوصف الحالة العلمية للبلاد التى مر بها(٩٢) .

ومن الجدير بالذكر أن العبدرى قد غضب كثيرا بمجرد وصوله إلى الاسكندرية وذلك بسبب المعاملة التى عامله بها القائمون على أمور الدولة بالاسكندرية وقيامهم بتفتيشه بطريقة غير لائقة دون التفرقة بين الحجاج وطالبى العلم وغيرهم من التجار بقصد البحث عن بضائع تفرض عليها المكوس ، ونتيجة غضبه هذا أصدر حكما قاسيا على أولى الأمر بالاسكندرية حيث قال : « والحال الذى أفصح عن قلة دينهم وأعرب أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج ... ويبحثون عما بأيديهم من مال يأمرون بتفتيش النساء والرجال(٩٣) » . غير أن العبدرى ما لبث أن انشرح صدره بعد أن انتهت تلك الاجراءات ولمس عن قرب ما يسود الاسكندرية من نشاط علمى وما بها من علماء ، فأفصح عن انشراحه وارتياحه هذا بقوله : « وقد رأيت بها أفرادا من أهل الفضل علما ودينا وددت لو منحت فى ذكر فضلهم قلبا حافظا ولسانا مبينا(٩٤) » .

وقد التقى العبدرى بالاسكندرية بمجموعة كبيرة من العلماء المشهورين ، وأخذ عنهم واستفاد بعلمهم ، ذكر بعضهم فى رحلته ولم يشر إلى البعض الآخر وقد أشار العبدرى إلى السر فى عدم ذكر أسماء هذا الفريق بقوله : « فمنهم من استكتمنى اسمه ، وعاقدنى على أن لا أذكر رسمه ، عملا على منهج زهده ومحجة تقواه(٩٥) » . وفى هذا إشارة إلى أن كثيرا من علماء الاسكندرية فضلوا عدم ذكر أسمائهم فى كتب التاريخ وظلوا يؤدون واجبهم فى نشر العلم دون أن تسلط عليهم أبواق الدعاية . فإذا أضفنا

هؤلاء إلى من ورد ذكر أسمائهم فى كتب التاريخ لتأكد لنا أن الاسكندرية عصر المماليك اجتمع بها حشد هائل من العلماء وأهل الفضل مما جعلها بحق منارة للعلم فى البحر المتوسط .

ومن بين العلماء الذين التقى بهم العبدرى بالاسكندرية العالم ابن منير الذى وصفه بقوله : « واسطة قلادة المدرسين صدر البلغاء ورأس الكتاب والناظمين وحيد العلماء وبحر المصنفين ، ذو المآثر السنية والمفاخر العلية » . ولم يبخل ابن منير على العبدرى بعلمه حيث غمره به ، ولم يترك العبدرى هذه الفرصة فأخذ ينهل من هذا المنهل العذب ، واعترف العبدرى بفضل ابن منير عليه بقوله : « لقيت منه بحر علم تفيض أمواجه ، وغيث سماح لا يغيض نجاحه ، له تصرف فى صنوف العلم وفنونه ، وتحقق بتمييز أبكاره وعونه ، وتسلط بثاقب ذهنه على استنباط عيونه ، وما رأيت أحدا اجتمع له من حسن الحفظ وجودة اللفظ وذكاء الفهم ما اجتمع له[٩٦] » .

كذلك التقى العبدرى بالاسكندرية بالعالم الشهير تاج الدين أبى الحسن على بن أبى العباس أحمد الفرانى ، الذى ذاعت شهرته العلمية فى مختلف الآفاق والذى سبق وأن التقى به ابن رشيد ، وقد أعجب العبدرى إعجاباً شديداً بالفرانى الذى غمره بفيض علمه ، وترجم العبدرى إعجابه واعترافه بفضل الفرانى عليه بقوله : « فرأيت منه فضلا لو تجسد لملأ الفضاء ، .... وبشرا لو كان فى وجه الدهر لم يخش نوائبه واريحية نبوية لو حلت فى هرم لاهتزت من الشباب ذوائبه ...[٩٧] » ولازم العبدرى العالم تاج الدين الفرانى يقرأ عليه الأحاديث والشعر والأدب ويلقنه أصول النحو والبلاغة ، وأجاز له فى كل ذلك ، كما تطرق الحديث بينهما إلى أمور شخصية ، ويبدو أن العلاقة بين الرجلين توطدت لدرجة أن الشيخ تاج الدين بات مهموما ليلة سفر العبدرى بسبب فراقه[٩٨] .

كما زار العبدرى بالاسكندرية مدرسة ابن حباسة حيث تقابل مع مدرسها الشيخ نور الدين أبى عبد الله أبى زين الدين أبى الحسن يحيى حفيد مؤسسها الشيخ وجيه الدين أبى على منصور بن عبد العزيز ، ووقف منه على بعض المعارف والمعلومات عن الرحالة ابن جبير وانطباعه أثناء زيارته للاسكندرية عام ٦١١ هـ/ ١٢١٤ م[٩٩] .

وعلى هذا النحو استفاد العبدرى استفادة علمية كبيرة من وراء زيارته للاسكندرية .

التجيبى

هو القاسم بن يوسف بن محمد بن على التجيبى السبتى ، ولد حوالى عام ٦٧٠ هـ/

١٢٧١ م ، حفظ القرآن الكريم ودرس كتب التفسير والقراءات والحديث والفقه وعلوم العربية .

وقد زار التجيبى الاسكندرية أثناء رحلة الحج التى قام بها عام ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦ م ، ودون مشاهداته وانطباعه خلال هذه الرحلة فى مؤلفه الثمين : « مستفاد الرحلة والاغتراب[١٠٠] » ، غير أنه لسوء الطالع فإن القسم الخاص ببداية الرحلة والذى يتضمن زيارته للاسكندرية مفقود مما حجب عنا انطباعات التجيبى عما ساد الاسكندرية من نشاط علمى ، غير أننا عن طريق القسم الذى يتحدث فيه عن لقاءاته مع علماء القاهرة وتطرقه أثناء حديثه عن شيوخه إلى الاسكندرية وعلمائها ومدارسها يمكننا الوقوف على مدى استفادة التجيبى من الحركة العلمية بالاسكندرية ، خاصة إذا عرفنا أن التجيبى مثله مثل معاصريه ابن رشيد والعبدرى طالب علم أخذ يتعقب العلماء فى كل مكان أثناء تجواله[١٠١] .

ومن أشهر العلماء الذين التقى بهم التجيبى بالاسكندرية أبناء الشيخ أبى العباس الفرانى وهما تاج الدين أبو الحسن على وعز الدين أبو إسحاق إبراهيم حيث قرأ عليهما بالاسكندرية وأخذ عنهما[١٠٢] . كما اتصل بوالدهم الشيخ أبو العباس الفرانى وسمع عليه الحديث بدار الحديث النبيهية[١٠٣] . وبذلك يتضح لنا دور الاسكندرية العلمى فى البحر المتوسط .

ابن بطوطة

أما ابن بطوطة هذا فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، المولود بطنجة عام ٧٠٣ هـ ١٣٠٤ م ، ويعود أصله إلى قبيلة لواتة البربرية . وقد نال ابن بطوطة قدرا من التعليم لا بأس به أهله لأن يتولى فى بعض سنوات رحلته وظيفة القضاء[١٠٤] .

وما أن بلغ ابن بطوطة مرحلة الشباب حتى عزم على الخروج من طنجة عام ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥ م لأداء فريضة الحج[١٠٥] ، غير أن هذه الرحلة طالت به كثيراً إذ استمرت قرابة ربع قرن من الزمان واشتملت على زيارة عدد كبير من البلدان والأقطار ، ولم تقتصر على مجرد الزيارة وإنما تعدتها إلى الإقامة الطويلة بتلك البلدان[١٠٦] .

وقد زار ابن بطوطة مدينة الاسكندرية أكثر من مرة ، أهمها هى المرة الأولى عام

٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م وهى التى سنتحدث عنها . ولابد من الإشارة إلى أنه على الرغم من أن ابن بطوطة لم يكن مثل سابقيه طالب علم ، وإنما كان رحالة سائحا خرج بقصد التجوال ، لذلك فإنه لم يسع وراء العلماء ولم يتعقبهم ويأخذ عنهم ، وفى نفس الوقت كان ابن بطوطة ميالاً إلى التصوف فما أن يسمع بأحد المشايخ الصوفية إلا ويهرع إليه بقصد الزيارة والتبرك[١٠٧] . لكن كل ذلك لم يمنعه من التحدث عن بعض العلماء الذين تقابل معهم بطريق الصدفة ، وبطبيعة الحال لم يتتبع أحوالهم العلمية ولم يهتم بمصنفاتهم أو مشايخهم ، مثلما فعل عندما تقابل مع القاضى عماد الدين الكندى ووصفه بقوله : « إمام من أئمة علم اللسان » لكن ابن بطوطة بدلا من أن يصف أحوال الكندى العلمية ، يهتم بوصف هيئته ولباسه خاصة عمامته التى أعجب ابن بطوطة بطولها إعجابا شديدا حيث قال : « وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ، لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ، رأيته يوما قاعدا فى صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب[١٠٨] » ومما لا شك فيه أننا لا نستغنى عن مثل هذه الأوصاف عند دراسة ملابس علماء العصر المملوكى ، لكننا كنا فى حاجة أشد إلى أن يمدنا ابن بطوطة بمعلومات وفيرة عن النشاط العلمى لهؤلاء العلماء . لكن ذلك لا يقلل من قيمة ما أمدنا به ابن بطوطة من معلومات .

البلوى

هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبى خالد البلوى القتورى الملقب بأبى البقاء ، ينتمى إلى أسرة عريقة بقتورية[١٠٩] ، نشأ بها نشأة علمية صالحة[١١٠] ، حيث تلقى علوم القرآن ومبادىء العربية على يد والده ، ثم رحل إلى غرناطة ودرس بها على يد عدد كبير من شيوخها ، ثم اتجه إلى المغرب الأقصى حيث أخذ العلم بفاس عن جماعة كبيرة من علمائها ، ثم عاد بعد ذلك إلى قتورية حيث باشر مهنة التدريس بها وببعض البلاد الشرقية من الأندلس[١١١] ، ثم أخذ يعد عدته ويجهز نفسه للقيام برحلة الحج إلى الأراضى الحجازية عام ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥ م ، وأثناء رحلته هذه لم يترك عالماً من علماء البلاد التى مر بها إلا وأخذ عنه واستفاد منه .

ويأتى علماء الاسكندرية فى مقدمة العلماء الذين استفاد منهم البلوى استفادة كبيرة ، لتؤكد الحقيقة التى أوضحناها منذ بداية الحديث وهى أن الاسكندرية عصر المماليك أصبحت قبلة للعلم والعلماء فى البحر المتوسط ، ويؤكد الأستاذ الحسن السائح[١١٢] –

محقق رحلة البلوى – أن رحلة البلوى هذه تعتبر « ذات قيمة كبرى سواء من الوجهة التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية أو العلمية فقد كان يسجل مذكراته بضبط تام وبدقة ، ولا يعتمد على ذاكرته ، وقد أتيح له بفضل ما أوتيه من لباقة ودراسة أن يتصل بأعلام ورجال الفكر فى أهم حواضر الإسلام » .

ومن المفيد أن نذكر أنه إذا كانت رحلة البلوى قد أعقبت رحلة ابن بطوطة بعشر سنوات تقريباً إلا أن المقارنة بين الرجلين ليست فى محلها ، فالأول يختلف عن الثانى اختلافا بينا . فابن بطوطة يهتم بالعلماء والزهاد والمتصوفة لا ليؤرخ عن حياتهم العلمية وإنما ليتبرك بهم ويحكى لنا أوصافهم ، أما البلوى فهو عالم يهتم كثيرا بالسيرة العلمية للعلماء الذين التقى بهم فيذكر لنا شيوخهم وبعضا من علمهم ومصنفاتهم مؤرخا لنا بذلك عن الحياة العلمية فى عصرهم ، ومن هنا تظهر لنا أهمية رحلة البلوى وزيارته للاسكندرية عصر المماليك .

وقبل أن نصحب البلوى أثناء تجواله بالاسكندرية لنتعرف منه على ما قدمته له الاسكندرية وعلماؤها ، نشير إلى المتاعب التى صادفها عند حلوله بثغرها ، وهى نفس المتاعب والصعاب التى سبق وأن واجهت معظم الوافدين عليها وسبق أن تحدث عنها ابن جبير والعبدرى ، وإليها يشير البلوى بأسلوبه المعروف : « وأقبلنا الساحل – أى ساحل الاسكندرية – قاصدين تائبين من ركوب البحر أبد الآبدين ، فلما وطئنا الرمل وسلمنا على الإخوان احتضننا بالشرط والأهوان ، وحملنا بأجمعنا إلى الديوان ، هناك شاهدنا الحساب وأرينا العذاب ، وملئوا منا البيوت والرحاب ثم أمرت اليد على القليل الكثير .... فأخذ من كل عشرة دنانير ديناران ، ومن كل عشرة دراهم درهمان » .

ولا شك فى أن البلوى بذلك يكشف لنا عن غضب عارم تملكه نتيجة الأسلوب القاسى الذى عامله به القائمون على أمور الاسكندرية ، ولكن هذا الغضب ما لبث أن زال بمجرد أن انتهت هذه الاجراءات وسمح له بدخول المدينة ، وأحس بما تحتويه الاسكندرية من كنوز علمية ، وأفصح البلوى عن ذلك بقوله : « وبعد مدارة تلك المواقف المهينة ، أعقبت حلاوة تلك المدينة ، فنسينا ما لقينا ، وكأنا ما شقينا » .

وبعد أن انتهى البلوى من مشاهدة معالم الاسكندرية أخذ فى لقاء العلماء والأخذ عن الفضلاء . « ومن الجدير بالذكر أن البلوى لم يقصر تردده على العلماء فى مدارسهم فقط وإنما قصدهم فى منازلهم ودكاكينهم » .

ومن بين علماء الاسكندرية الذين استفاد بعلمهم البلوى ، العالم الشهير وجيه الدين

أبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن الأمان بن خليفة ، الذى وهب حياته للعلم « حيث شغل زمانه بالعلم فاستفاد وأفاد » وقد قصده البلوى فى منزله حيث سمع عليه وأجازه الإجازة التامة ، ويشير إلى ذلك البلوى بقوله : « سمعت عليه تأليف كثير بمنزله من الاسكندرية ، واجازنى الإجازة التامة المطلقة العامة وكتب لى بخطه » .

ومن الإشارة السابقة يتضح لنا أن علماء الاسكندرية اتخذوا منازلهم بمثابة صالونات أدبية يلتقون فيها بطالبى العلم ، ويجرون فيها المناقشات العلمية المفيدة ، ويشير البلوى إلى هذه المناقشات بقوله : « وجرت المحاضرة عنده – أى عند وجيه الدين – فأجرى خيله ، وجر الحديث عن المذكرة ذيله .. » .

ومن بين علماء الاسكندرية الذين اتخذوا منازلهم صالونات أدبية كذلك العالم شرف الدين أبو العباس أحمد بن أبى الحسن على بن عبد العزيز بن عبد الله الكتامى الشافعى الذى وصفه البلوى بقوله : « له المناقب الثواقب والمواهب السواكب ، والفوائد الفرائد ، والمناهج المباهج وله بالعلم عناية تكشف العماية » . وقد قصده البلوى فى منزله حيث قال : « لقيته بمنزله من الاسكندرية ، فسمعت عليه تصانيف جملة ، وتلقيت منه فوائد جمة » .

كذلك اتخذ العالم سديد الدين أبو عبد الله محمد بن عز الدين أبو القاسم عبد الرحمن التنوخى اللخمى الاسكندرى المشهور بابن عطية ، اتخذ منزله صالوناً أدبياً ، وقد وصفه البلوى بقوله : « بيته أحد البيوت الرفيعة بالاسكندرية » وقصده البلوى ودرس على يديه ونال إجازته[118] .

وقد حرص البلوى على زيارة معظم علماء الاسكندرية للاستفادة بعلمهم ، فتوجه إلى شرف الدين أبى البركات محمد بن الشيخ فخر الدين أبى بكر بن عطاء الله الجذامى الاسكندرى فزاره بدكانه وقال عنه : « لقيته بدكانه من الشهود بالاسكندرية وجالسته كثيرا مغتنما لفوائد مجالسته ، متنعما فى حدائق مؤانسته ، وسمعت عليه ، وأجازنى إجازة تامة مطلقة عامة ، وكتب لى بخطه[119] » .

كذلك التقى البلوى بالعالم الفقيه المحدث تقى الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن عوام الربعى الشافعى وهو سبط أبى الحسن الشاذلى ، وقد قال عنه البلوى : « إماماً مدرساً وعدلاً مبرزاً ، ذاكراً للعرب وأنسابها ، حافظاً لغاتها وآدابها ، جذب من العربية أوفر نصيب ، وضرب فى الحديث والفروع بسهم مصيب ، ومن الطريف أن

نذكر أن البلوى اندمج مع تقى الدين أو تآخيا سويا ، وأشار البلوى إلى ذلك بقوله : « وأخانى وصافانى فتجاذبنا المذاكرة ، وتعاهدنا المراوحة للشيوخ والمباكرة ، وأفاد كل واحد منا صاحبه[120] » .

وعلى هذا النحو استفاد البلوى استفادة كبيرة من زيارته للاسكندرية وأخذه عن علمائها ، وقد أهلته هذه الاستفادة فى أن يرتفع إلى مصاف العلماء المشاهير .

وجملة القول أن الاسكندرية عصر المماليك أصبحت بمثابة قبلة للعلماء ومنارة يشع منها نور العلم والثقافة على عالم البحر المتوسط .

هوامش

(١) إيدرس بل : **مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى** ، ص ١٣٢ - ١٣٦ .
(٢) سعيد عاشور : **العصر المماليكى** ، ص ٣٢٩ .
(٣) المقريزى : **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** ، جـ ٢ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ ، ابن تغرى بردى : **النجوم الزاهرة** ، جـ ٧ ص ١٨٢ ، راجع أيضا : محمد محمد أمين ، **فهرست وثائق القاهرة** .
(٤) المعروف أن الأيوبيين ومن بعدهم المماليك ورثوا هذه العادة عن بنى زنكى . وعن هذا الموضوع راجع : النعيمى : **الدارس فى تاريخ المدارس** ، جـ ١ ص ٦٠٧ - ٦٠٨ ، الشوكانى : **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** ، جـ ١ ص ١٨٤ - ١٨٦ ، ابن خلدون : **العبر وديوان المبتدأ والخبر** ، جـ ٥ ص ٢٥٣ ، حامد زيان : **العلماء بين الحرب والسياسة** ، ص ١٠ .
(٥) ابن واصل : **مفرج الكروب** ، جـ ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .
(٦) من بين السلاطين الذين قصدوا مدارس الاسكندرية لطلب العلم السلطان صلاح الدين الأيوبى ، الذى رحل بولديه الأفضل والعزيز إلى الاسكندرية لسماع الحديث من الحافظ السلفى (راجع أبو الفدا : **المختصر فى أخبار البشر** ، جـ ٤ ص ٣٢٩ - ٣٣٠) أما عن السلاطين الذين اهتموا اهتماما شخصيا بالعلم والعلماء فنذكر منهم على سبيل المثال : السلطان حسن (٧٤٨ - ٧٥٢ هـ/ ١٣٤٧ - ١٣٥١ م) الذى اشتغل بالعلم (راجع : ابن حجر : **الدرر الكامنة** ، جـ ٢ ص ٤٠) كذلك اهتم السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ/ ١٤١٣ - ١٤٢١ م) بالحركة العلمية اهتماما شخصيا (راجع : السخاوى : **الضوء اللامع** ، جـ ٣ ص ٣٠١) ، أما السلطان الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦ م) فكان يعقد مجالس مشهورة للعلماء (راجع : عبد الوهاب عزام : **مجالس السلطان الغورى**) .
(٧) راجع ابن داود الصيرفى : **نزهة النفوس والأبدان** ، جـ ٢ ص ٤٥٥ . ومن أمثلة ذلك مجموعات الكتب الضخمة التى وقفها الأمير جمال الدين محمود الطازى على دور العلم بالاسكندرية .
(٨) وعن فجماس الظاهرى راجع : السخاوى : **الضوء اللامع** ، جـ ٣ ص ٢١٣ .
(٩) كان التعليم يتم قبل ذلك داخل المساجد .
(١٠) هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشى الفهرى الأندلسى الطرطوشى ، توفى عام ٥٢٠ بثغر الاسكندرية . وعن الطرطوشى راجع : ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ، جـ ٤ ص ٢٦٢ - ٢٦٥ .
(١١) ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٦٣ .
(١٢) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ص ٢١٣ ، نقولا يوسف : **أعلام من الاسكندرية** ، ص ١٤٨ .

(١٣) القلقشندى : **صبح الأعشى** ، جـ ١٠ ص ٤٥٨ .
(١٤) ويشير ابن خلكان إلى أن ابن السلار هذا كان « شهما مقداما مائلا إلى أرباب الفضل والصلاح (**وفيات الأعيان** ، جـ ٣ ص ٤١٧) . وعن حافظ السلفى انظر أيضا ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٠٥ - ١٠٧ وعن الحياة العلمية بمصر فى العصر الفاطمى راجع : جمال سرور : **الدولة الفاطمية فى مصر** ، ص ١٧٤ - ١٨١ .
(١٥) كتاب **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك** ، ص ٤١ .
(١٦) أنظر : حامد زيان : **الحضارة الاسلامية بصقلية** ، ص ١٦ وما بعدها .
(١٧) المعروف أن الأسبان المسيحيين استولوا على كثير من البلاد الأندلسية وسيطروا على قرطبة ومرسية وطليطلة وبلنسية وغيرها من المراكز الاسلامية ، ولم يتبق فى يد المسلمين سوى مملكة غرناطة التى استمرت صامدة حتى سقطت هى الأخرى فى يد الأسبان عام ٨٩٧ هـ/ ١٤٩١ م . راجع : القلصاوى : **الرحلة** ، ص ٢٢ .
(١٨) النويرى : **نهاية الأرب** (المكتبة الصقلية ص ٤٤٧) ، حامد زيان : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .
(١٩) من أمثلة تلك السفارات التى وصلت إلى الاسكندرية زمن المماليك ، سفارة الامبراطور فردريك الثانى عام ١٢٤٢ م (راجع كتاب : **سير الأباء البطاركة** ، المكتبة الصقلية ص ٣٢٥ - ٣٢٦) كذلك تلك السفارة التى وصلت من صقلية زمن المنصور قلاوون (راجع كتاب **تشريف الأيام والعصور** ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٤١) .
(٢٠) انظر : السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٩٢ ، سعيد عاشور : **العصر المماليكى** ، ص ٣٢٩ ، حامد زيان : **صفحة من تاريخ الخلافة العباسية** ، ص ٥٨ .
(٢١) راجع : المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٧٥ .
(٢٢) عن المحاولات التى بذلها الصليبيون من أجل الاستيلاء على الاسكندرية راجع : المقريزى **الخطط** ، جـ ١ ص ١٧٥ ، ابن داود الصيرفى : **نزهة النفوس والأبدان** ، جـ ٢ ص ٣٧٠ - ٣٧١ ، النويرى السكندرى : **الالمام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية** ، جـ ١ ورقة ٣٣٣ - ٣٣٥ ، ابن كثير : **البداية والنهاية** ، جـ ١٤ ص ٣١٤ .
(٢٣) عما ثار بالاسكندرية من فتن وموقف المماليك منها راجع : ابن بطوطة : **تحفة الأنظار** ، ص ٢٣ ، ابن كثير : المصدر السابق ، جـ ١٤ ص ١٢٨ .
(٢٤) المقريزى : **السلوك** ، جـ ٢ ص ٨٦٢ ، النويرى السكندرى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ورقة ٢٨٣ ، سعيد عاشور : **الحركة الصليبية** ، جـ ٢ ص ١١١٤ - ١١١٦ .
(٢٥) حسنين ربيع : **دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية** ، ص ٢٥٢ .
(٢٦) راجع : ابن رشيد : **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة** جـ ٣ ص ١٩ ، ٥١ ، البلوى : **تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق** ، جـ ١ ص ٢٠٢ .
(٢٧) السيوطى : **بغية الوعاء** ، جـ ١ ص ٣٨٤ .
(٢٨) هو الشيخ ياقوت بن عبد الله الحبشى القرشى ، تلميذ أبى العباس المرسى . راجع : على مبارك : **خطط القاهرة** جـ ٧ ص ٦٩ .
(٢٩) راجع : نقولا يوسف : المرجع السابق ، ص ١١٨ - ١٩٠ .
(٣٠) ابن رشيد : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٧٨ ، التجيبى : **مستفاد الرحلة والاغتراب** ، ص ٢٧ ، السيد عبد العزيز سالم : **تاريخ الاسكندرية** ، ٣٢ .
(٣١) العبدرى : **الرحلة المغربية** ، ص ٩٣ .
(٣٢) ابن رشيد : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٧١ ، ٨٢ ، ٩١ . التجيبى : المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٣٣) عبد الغنى محمود : **التعليم فى مصر** ، ص ١٧٧ .
(٣٤) الزاوية مفرد والجمع زوايا وهو اسم أطلق قديما على كل مسجد صغير يتواجد فيه أحد الرجال المعروفين بالتقوى

والزهد ويقوم بوعظ وارشاد من يتردد على زاويته من الناس (راجع : سعيد عاشور : **العصر المماليكى** ، ص ٤٢٢) أما الربط فهى جمع والمفرد رباط ، ويقول عنها المقريزى هى دار يسكنها أهل طريق الله ، وهو بيت الصوفية ومنزلهم . راجع : **الخطط** جـ ٢ ص٤٢٧ .

(٣٥) انظر ابن شاكر الكتبى : **فوات الوفيات** ، جـ ٣ ص ٣٦٢ وما بعدها .

(٣٦) نسبة إلى مدينة شاطبة فى شرق الأندلس .

(٣٧) وعن هذا الموضوع راجع : الشوكانى : البدر الطالع ، جـ ١ ص ٦٣ - ٦٩ .

(٣٨) السيوطى : **طبقات الحفاظ** ، ص ٥٠٩ .

(٣٩) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ص ٥٠٤ .

(٤٠) السيوطى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٥٨ .

(٤١) السيوطى : **بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة** ، جـ ١ ص ٣٨٤ ، **حسن المحاضرة** جـ ١ ص ٣١٦ - ٣١٧ ، المقريزى : **السلوك لمعرفة دول الملوك** ، جـ ١ ص ٧٢٧ .

(٤٢) السيوطى : **بغية الوعاة** ، جـ ٢ ص ٢٥٨ **حسن المحاضرة** : جـ ١ ص ٥٠٢ .

(٤٣) الشوكانى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٠٧ ، السبكى : **طبقات الشافعية** ، جـ ٥ ص ١٧٦ ، ابن حجر : **الدرر الكامنة** ، جـ ١ ص ٢٧٤ .

(٤٤) الأحباس هى الأوقاف ، ويتولى صاحبها الاشراف على الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس والعقارات المحبوسة عليها وكذلك الاحسان على الفقراء والمساكين . وعن ديوان الأحباس انظر المقريزى : **الخطط** : جـ ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ، القلقشندى : **صبح الأعشى** ، جـ ٤ ص ٣٨ .

(٤٥) الإدفوى : **الطالع السعيد** ، ص ٣٤ ، السيوطى : **بغية الوعاة** ، جـ ١ ص ٢٩٩ .

(٤٦) الشوكانى : **البدر الطالع** ، جـ ٢ ص ٣٢٥ .

(٤٧) ابن كثير : **البداية والنهاية** ، جـ ١٤ ص ١٦٣ .

(٤٨) السيوطى : **بغية الوعاة** ، جـ ١ ص٥٦٢ .

(٤٩) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ص ٤٥٨ .

(٥٠) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٥٩ .

(٥١) المصدر الساق ، جـ ١ ص ٤٢٨ .

(٥٢) ابن حجر : **الدرر الكامنة** ، جـ ١ ص ٢٧٧ . السيوطى : **بغية الوعاة** ، جـ ١ ص ٣٧٠ .

(٥٣) **الدرر الكامنة** : جـ ٤ ص ٢٥٩ .

(٥٤) ابن داود الصيرفى : **نزهة النفوس والأبدان** ، جـ ٢ ص ١٢٩ .

(٥٥) المقريزى : **السلوك** ، جـ ٣ ق ٣ ص ١٧٤ .

(٥٦) الشوكانى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١١٩ .

(٥٧) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ص ٤٧٤ - ٤٧٥ ، **بغية الوعاة** جـ ١ ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٥٨) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ص ٤٥٧ .

(٥٩) المقريزى : **السلوك** ، جـ ١ ق ٢ ص ٩٤٥ .

(٦٠) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ ١٤ ص ٩٢ .

(٦١) أبو الفدا : **المختصر فى أخبار البشر** ، جـ ٤ ص ١٠٤ .

(٦٢) السيوطى : **بغية الوعاة** ، جـ ١ ص ٦٦ .

(٦٣) البدر الطالع ، جـ ٢ ص ١٥٠ .

(٦٤) الشوكانى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٥٠ ، المقريزى : **السلوك** جـ ٤ ق ٢ ص ٧٠٢ ، السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ص ٥٣٨ ، **بغية الوعاة** ، جـ ١ ص ٦٦ .

(٦٥) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ص ٥٠١ .

(٦٦) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٥٧ .

(٦٧) نسبة إلى الغراف وهو اسم مكان بالعراق ، وقد ذكر العبدرى أنه سأل الغرافى عن معنى نسبته الغراق فقال : « غراف موضع بالعراق ، كان موضعا فانتسبا إليه » راجع : **الرحلة المغربية** ، ص ١٠٩ ، ابن رشيد : **ملء العيبة** جـ ٣ ص ٥٣ .

(٦٨) المقريزى : **السلوك** ، جـ ١ ق ٢ ص ٦٤٨ .

(٦٩) التجيبى : **مستفاد الرحلة والاغتراب** ، ص ١٨ .

(٧٠) ولد أبو الحسن الشاذلى بقرية عمارة وهى إحدى قرى تونس قريبة من شاذلة وهى التى انتسب إليها . أما أبو العباس المرسى فينتسب إلى مدينة مرسية بالأندلس ، وقد انتقل أبو العباس المرسى إلى تونس بحثا عن الرزق وهناك التقى بأستاذه أبى الحسن الشاذلى .

(٧١) توفى ياقوت الحبشى عام ٧٣١ هـ بعد أن جاوز الثمانين من عمره (راجع أبو الفدا : **المختصر** جـ ٤ ص ١٠٥) .

(٧٢) المقريزى : **السلوك** ، جـ ١ ق ٣ ص ٧٣٨ ، السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ص ٥٢٣ .

(٧٣) ابن رشيد : **ملء العيبة** ، جـ ٣ ص ٤٣ ، المقريزى : **السلوك** جـ ١ ق ٣ ص ٧٣٨ .

(٧٤) السيوطى : **حسن المحاضرة** ، جـ ١ ص ٥٢٣ ، **بغية الوعاة** ، جـ ١ ص ١٣٨ .

(٧٥) السيوطى : **بغية الوعاة** ، جـ ١ ص ٥٦٩ .

(٧٦) الشوكانى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٥١٩ - ٥٢٠ .

(٧٧) انظر : بغية الوعاة ، جـ ١ ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، الشوكانى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٨٨ .

(٧٨) الشوكانى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٨ .

(٧٩) توفى عام ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨ م . راجع الشوكانى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١١٩ .

(٨٠) لسان الدين بن الخطيب : **الاحاطة فى أخبار غرناطة** ، جـ ٣ ص ١٣٥ .

(٨١) ذكر ابن الخطيب أنه حج عام ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م (الاحاطة جـ ٣ ص ١٣٦) .

(٨٢) قام بنشر هذا الكتاب سماحة الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة ، تونس عام ١٩٨١ م .

(٨٣) المقرى : **أزهار الرياض فى أخبار عياض** ، جـ ٢ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٨٤) ابن رشيد : **ملء العيبة** ، جـ ٣ ص ٧ ومن الجدير بالذكر أن هناك بعض العلماء الذين تقابل معهم ابن رشيد بالاسكندرية لكنه رفض أن يأخذ عنهم شيئاً لسوء سيرتهم مثل ابن التونسى الذى قال عنه ابن رشيد : « هذا الرجل أبو عبد الله بن التونسى يشهد فى المكوس فلم نر أن نخرج عنه حديث النبى (ص) » راجع ملء العيبة جـ ٣ ص ١٤ .

(٨٥) ابن رشيد : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ١٩ .

(٨٦) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٥١ .

(٨٧) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٢٧ .

(٨٨) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٥٣ .

(٨٩) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٧١ .

(٩٠) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٧٦ ، ٨٢ ، ٩١ .

(٩١) عما وصل إليه ابن رشيد من علم بفضل تجواله فى البلاد انظر : لسان الدين بن الخطيب **الاحاطة فى أخبار غرناطة** جـ ٣ ص ١٣٧ .

(٩٢) العبدرى : **الرحلة المغربية** ، ص ٤ .

(٩٣) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(٩٤) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٩٥) المصدر السابق نفس الصفحه .

(٩٦) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٩٧) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٩٨) المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

(٩٩) المصدر السابق ، ص ٩٣ ومابعدها.

(١٠٠) قام بنشر هذا الكتاب الأستاذ عبد الحفيظ منصور ، تونس ١٩٧٥ .

(١٠١) التجيبي : **مستفاد الرحلة والاغتراب** ، ص ١٥ .

(١٠٢) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(١٠٤) ابن حجر : **الدرر الكامنة** ، جـ ٤ ص ١٠٠ ، حامد زيان : **الحياة في الخليج في العصور الوسطى** ، ص ٥ .

(١٠٥) يقول ابن بطوطة في مقدمة رحلته : « كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام » .

(١٠٦) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١٠٠ ، كراتشكوفسكي : **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** جـ ١ ص ٤٢١ – ٤٢٢ .

(١٠٧) روى ابن بطوطة عدداً من كرامات أهل الطريق والصوفية بالاسكندرية مثل كرامات أبي الحسن الشاذلي وغيره . راجع : **تحفة النظار** ، ص ١٨ ، ٢١ – ٢٤ .

(١٠٨) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٠٩) قتورية بلدة صغيرة من أعمال المرية تقع على نهر المنصورة جنوب برشانة تسمى اليوم راجع : القلصادي : **الرحلة** ، ص ٦٢ .

(١١٠) لا يعرف بالضبط تاريخ مولده ، ومن المحتمل أن يكون عام ٧١٣ هـ . راجع البلوي : **تاج المفرق** ، مقدمة المحقق جـ ١ ص ٢٥ .

(١١١) القلصادي : الرحلة ، ص ٦٢ .

(١١٢) تاج المفرق ، جـ ١ ص ٤٦ .

(١١٣) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٩٦ – ١٩٧ .

(١١٤) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٠٠ .

(١١٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(١١٦) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٠١ .

(١١٧) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

(١١٨) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

(١١٩) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

(١٢٠) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢١٠ – ٢١١ .

الفندق

ظاهرة سياسية ، إقتصادية ، قانونية

د . صبحي لبيب

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة كيل بألمانيا الغربية

(١)

وضع الحكم العربي الإسلامى سياسة جديدة فى حوض البحر المتوسط . ولكنه لم يحرم المسيحيين من أهل شواطىء هذا البحر من النزول بالموانىء الإسلامية (الجديدة) والاتجار فيها ، بدليل ما ذكره أركولف (ARCULF) حوالى سنة ٦٧٠ (فى أقدم نص أجنبى عن الاسكندرية بعد الفتح) من أن الاسكندرية كانت تضم بين جدرانها شعوباً/ جماعات عديدة . ومن الراجح أن منها/ منهم من كان من البيزنطيين/ الإغريق الذين استقروا فى المدينة بعد الفتح العربى ، أو الوافدين على هذا الثغر الإسلامى للتجارة والزيارة . معنى هذا فى نهاية الأمر أن النشاط الأجنبى فى « المين والسواحل والبنادر » الإسلامية – حسب المصطلح الوارد فى المعاهدات المتأخرة – كان مرتبطاً بانفتاح البحر من ناحية واستقرار السلم (أى فترات السلم) مع بيزنطة من الناحية الأخرى . تلا ذلك ظهور الغرب التدريجى البطىء على مسرح السياسة والدبلوماسية فى حوض البحر المتوسط ، وذلك بعد فشل الأمويين فى الاستيلاء على القسطنطينية وبعد هزيمة الأساطيل الإسلامية ، أسطول الاسكندرية فى مياه قبرص ٧٤٦ ، وبعد أن استقر الحكم الأموى فى الأندلس ، وبعد أن تغلغل نفوذ الدولة الكارولنجية إلى أعماق إيطاليا وبعد أن بدأ شرلمان « حواره المشهور » مع هارون الرشيد لتيسير أسباب الاتصال والتعاون بين الطرفين ، فضلاً عن اتفاقهما على تقديم التسهيلات لإقامة حجاج الغرب فى الأراضى المقدسة بفلسطين ولرحيلهم وعودتهم إلى بلادهم .

وإذا كان التحديد التاريخى للعلاقات التجارية المصرية البيزنطية عسيراً قبل القرن التاسع – وذلك لندرة الوثائق التى تحدد معالم الطريق – فإن موقف المؤرخ يتحسن منذ

القرن التاسع ، لتوارد الوثائق التى يدعم بها المؤرخ وجهة نظره . فالامبراطور البيزنطى ليو الخامس (٨١٣ - ٨٢٠) حرم على رعاياه الاتجار مع مصر وسوريا لظروف سياسية معينة . ومجرد الالتجاء إلى التحريم يدل فى حد ذاته دلالة واضحة على أن مثل هذه المعاملات كانت قائمة قبل تحريمها .

وفى عام ٨٢٦ / ٨٢٧ استولى المجاهدون / المهاجرون الأندلسيون على جزيرة كريت وقضوا على السيادة البيزنطية البحرية فى وسط المتوسط بين صيف ٨٢٧ وربيع ٨٢٨ وبذلك مدوا غاراتهم على سواحل الامبراطورية البيزنطية وجزرها . بل لقد تغلغلوا فى بحر مرمرة حتى أصبحوا على مرمى البصر من القسطنطينية نفسها . وفى عام ٨٢٨ بدأ غزو الأغالبة لصقلية وجنوب إيطاليا . وفى السنة نفسها نزل البنادقة إلى الاسكندرية - دون مبالاة لقرار التحريم البيزنطى - بل وحاولوا نهب أو نهبوا وقتذاك رفات القديس مرقص وحملوه إلى مدينتهم التى اعتزت بتسميتها « جمهورية القديس مرقص » . وقبل الحروب الصليبية بوقت طويل ارتبطت سالرنو (SALERNO) وأمالفى (AMALFI) ونابولى (NAPOLI) وجايتا (GAETA) بالمواصلات التجارية مع سواحل المغرب / أفريقيا ، وخاصة تونس ، بل ومع السواحل السورية أيضاً . ولا يمكن أن ننسى فى هذا المجال مدى تغلغل تجار أمالفى فى مصر وتكوين جالية تجارية لهم بالقاهرة بعد الفتح الفاطمى مباشرة ٩٦٩ / ٩٧١ ، وذلك بفضل علاقاتهم الطيبة بالفواطم . وفى عام ٩٧١ يحتج الامبراطور البيزنطى (JOHANNES TZIMISKES) لدى الدوج على قيام البنادقة بتموين الفاطميين فى مصر (الأعداء) بالسلع الحربية والاستراتيجية ، بل لقد هدد الامبراطور بإحراق سفن البندقية التى تؤدى هذه الأعمال العدائية . وكان رد الدوج واضحاً - أنه لا يستطيع أن يغير فى هذا الأمر شيئاً .

وصحيح أن كل هذه الأسانيد تدل على أن التجارة بين الشرق والغرب فى البحر المتوسط لم تكن تجارة ساحلية فحسب ، وأن المدن الإيطالية - وأهمها أمالفى - قد نجحت فى تكوين جاليات تجارية فى « مين وسواحل وبنادر » البحر المتوسط الإسلامية ، إلا أنها لم تتمكن من الوصول إلى حق الحصول على فندق مستقل بها أو بكل مدينة من مدنها المتاجرة مع دار الإسلام فقد كان مقامهم محدوداً بعقد أمان إسلامى للفرد أو للجماعة دون توسع فى شروطه البسيطة للتبادل التجارى . وبالنسبة لمصر بالذات ، فلدينا وثيقة نادرة هامة تدل على محاولة تأصيل العلاقات بين بيزنطة ومصر وتدعيم جذورها ، ولكنها رغم ذلك خالية من أى شىء يشير إلى تحقيق هذا الهدف - حق الحصول على فندق .

ترجع هذه الوثيقة إلى عهد محمد بن طغج الأخشيد (٩٣٥ - ٩٤٦) وهى واردة من الامبراطور البيزنطى الذى يشير فيها إلى أن منصبه يقضى عليه بأن تكون مكاتباته مع الخليفة العباسى ، مشيراً بذلك إلى اهتمامه بدعم صلاته بمصر وبالإخشيديين بالذات . وقد رد الإخشيد على هذه الرسالة مصوباً ما كتبه الامبراطور - إذ أوضح له أن بيزنطة كاتبت الطولونيين (٨٦٨ - ٩٠٥) الذين تمتعت مصر فى عهدهم باستقلال داخلى ، وحققت توسعاً مرموقاً خارج حدودها ، كما بين له أن بيزنطة كانت تبعث بسفرائها إلى مصر منذ ذلك الوقت . بل إنها عقدت معاهدة مع مصر فى عهد الوالى تكين ، الذى تولى حكم مصر ثلاث مرات بين عصرى الطولونيين والإخشيديين . وفوق ذلك كله جذب الإخشيد انتباه الامبراطور إلى وجود ثلاثة مراكز بطريركية مسيحية تخضع للسيادة المصرية - هى بيت المقدس وأنطاكية والاسكندرية - مما يستوجب تدعيم الصلات بين بيزنطة ومصر . وبغض النظر عن الفروق الدينية بين مصر الإسلامية وبيزنطة المسيحية ، فقد أشاد الإخشيد فى هذه المعاهدة بأن الدولتين - البيزنطية والإخشيدية - شرقيتان . وبالتأكيد على هذه النقطة يبرز الإخشيد - كما ذكر ذلك صراحة فى كتابه للامبراطور - أن علاقات السلم والصداقة أجدى بالتحقيق للطرفين وأهم .

وهذا الخطاب نفسه يؤكد أيضاً على أهمية العلاقات التجارية بين البلدين ، لأن الله سبحانه وتعالى قد حبا كل بلد ومدينة وقرية بخيرات خاصة وسلع معينة ، والاتجار هو السبيل الطبيعى لتبادل هذه الخيرات . وبالتبادل يرتفع مستوى الشعوب بتوفير ما يحتاجون إليه من سلع الآخرين .

وكل هذا التحديد يدل أيضاً على وعى حكام مصر بأهمية توطيد العلاقات التجارية مع البلاد غير الإسلامية فى حوض البحر المتوسط .

وأخيراً يؤكد الإخشيد على أنه سمح لأعضاء سفارة الامبراطور البيزنطى ببيع كل ما حملوه معهم من سلع وشراء كل ما يرغبونه من انتاج بلده مصر وما جلب إليها ، بشرط ألا تضر هذه السلع المشتراة بمصالح مصر السياسية والعسكرية .

وغنى عن البيان أن هذه الشواهد كلها لا تدل بأى حال من الأحوال على وجود جماعات تجارية إسلامية مستقرة فى بيزنطة أو ما يعادلها من جاليات بيزنطية رومية أو أفرنجية على أرض مصر تمتعت كل منها بتلك الحقوق التى نعرفها عن مؤسسة الفندق

فى عصر الحركة الصليبية .

كانت بداية التحول الجديدة هى تغلغل سفن المدن والجمهوريات الإيطالية فى مياه البحر المتوسط على حساب انكماش سيادة الأساطيل الحربية البيزنطية من ناحية والعربية الأندلسية والفاطمية من الناحية الأخرى . وقد جاء ذلك كله قبل نهاية القرن العاشر . وبعد أن نجحت الخلافة الفاطمية فى فتح مصر ، ونقل عاصمتها إلى القاهرة انتهج الفواطم سياسة بحرية جديدة ، فلم يشاركوا مشاركة حاسمة فى استكمال فتح صقلية ، والتوسع فى جنوب إيطاليا . بل اهتموا – على العكس – بدعم الصلات التجارية السلمية مع الجزيرة وكانت أساطيل الفواطم التجارية فضلاً عن سفن بعض كبار موظفيهم تغادر موانيهم فى مصر وسوريا لتتنقل بين عدد من موانى البحر المتوسط ، بما فى ذلك موانى صقلية . فليس غريباً إذن أن نرى فى القاهرة نفسها – أى على عمق دلتا النيل – جماعة تجارية يتراوح عددها بين مائتين وثلاثمائة تاجر من أمالفى وغيرها ، يتعاملون على أساس استمرار العلاقات السلمية واستمرار التبادل التجارى . ورغم ذلك كله فلم تمنحهم الدولة الفاطمية تلك الحقوق التى ارتبطت بمؤسسة الفندق منذ ظهوره فى عصر الحركة الصليبية .

أما بالنسبة لبيزنطة ، فقد نجح الأسطول البيزنطى فى استعادة جزيرة كريت عام ٩٦١ . وبذلك أنهى هذا الفوز البحرى الهائل (فى التاريخ البيزنطى) حكم الأندلسيين المهاجرين فى الجزيرة ، واستعادت بيزنطة السيطرة على الطريق الملاحى بين القسطنطينية وبين موانى شرق المتوسط . ورغم ذلك فقد كانت بيزنطة تعانى من مشاكلها الداخلية . ومن الصراع مع صقالبة الجنوب ، على السيادة فى جنوب شرق أوربا والبلقان ، فضلاً عن المخاطر التى تعرضت لها من جراء التطورات السياسية فى جنوب روسيا . ومهما يكن من أمر فلم يقو اليونانيون فى نهاية الأمر على منافسة الإيطاليين فى مجال التجارة والسيادة البحرية واضطرت بيزنطة إلى منح الإيطاليين ، وعلى رأسهم البنادقة ، امتيازات تفوق تلك التى توصلوا إليها فى معاهداتهم مع الجانب الإسلامى – أى فى السواحل الإسلامية للبحر المتوسط . ويكفى هنا أن نذكر أن مصر الفاطمية سرعان ما تخلت عن فتح أبواب عاصمتها للتبادل التجارى مع الفرنج ، وسرعان ما عادت إلى السيادة الإسلامية التقليدية الوسيطة فى تحديد التجارة مع دول البحر المتوسط غير الإسلامية على « المين ، والسواحل ، والبنادر » المصرية فى الشمال ، بل لقد حددت هذا النشاط فى موانى معينة ، أهمها الاسكندرية ودمياط . تبلورت هذه السياسة الحاسمة عام ١١٥٤ ،

واستمرت عليها مصر إلى عام ١١٥٧ أو إلى ما بعد ذلك بقليل . وبالمعاهدة التى أبرمت مع بيزا عام ١١٧٣ ثم بالمعاهدة التى أبرمت مع البندقية فى السنة التالية لها (١١٧٤) ، قضى صلاح الدين الأيوبى على أمل الفرنج فى الحصول على فندق بالقاهرة ، كما وعدهم الخليفة الظافر الفاطمى عام ١١٥٤ . والجدير بالذكر بعد هذه الحقيقة التاريخية أن مؤسسة الفندق أخذت تستكمل عناصرها ، ومقوماتها ، ومميزاتها منذ ذلك القرن أيضاً ، حتى أصبحت هذه الفنادق « الأجنبية » إلى جانب الفنادق والوكالات المحلية الكبرى ذروة المؤسسات التجارية والمعاملات الدولية . ويقدم لنا بنيامين التطيلى ، من النصف الثانى للقرن الثانى عشر ، قائمة فريدة تبين أنه كان بالاسكندرية حوالى ثلاثين فندقاً للنشاط « الأجنبى » .

(٢)

« بانفتاح البحر » تصل مراكب المسلمين والروم والفرنج إلى الموانى المصرية على البحر المتوسط ، وأهمها ثغرا الاسكندرية ودمياط . وبذلك يبدأ نوع من **الموسم التجارى** يختلف فى كثير من خصائصه عن مواسم التجارة فى القاهرة . ففى مواسم مصر على ساحل البحر المتوسط تتكتل رؤوس الأموال الأجنبية والمصرية لتنفيذ أكبر العمليات المالية والصفقات التجارية . كانت محاور هذه الجهود الاقتصادية الرفيعة هى ديوان الخمس والفنادق وأسواق العطارين للتوابل والعطور والأعشاب الطبية فضلاً عن أسواق الأقمشة والجواهريين . وقد تميزت مواسم الثغور الشمالية لمصر بطول المدة ، فبينما تمتد دورة الموسم الداخلى إلى أسبوعين عامة وإلى أربعة أسابيع نادراً ، تصل مواسم الثغور الشمالية إلى شهرين أو ما يزيد حسب مدة انفتاح البحر أو تكرار هذه المدة . أما الخاصية الثالثة لمواسم ثغور مصر الشمالية فهى التصريح للتجار القادمين من دار الحرب بمزاولة أعمال التبادل على جميع مستوياتها باعتبار أنها لا تضر بالإسلام أو المسلمين . وحدود هذه الأعمال حكمتها القوانين الإسلامية والشروط التى طالبت بها دول هؤلاء التجار وجمهورياتهم ، ووافقت عليها مصر ، ثم صيغت بنوداً فى معاهدات أبرمت بين الطرفين . وبقراءة بنود هذه المعاهدات يتضح أن بعضها يشتمل على بدايات ما نسميه بالامتيازات الأجنبية الواردة فى معاهدات الباب العالى العثمانى مع البلاد « الصديقة » التى كانت تسمى فى العصور الوسطى حسب المصطلح الإسلامى « بلاد الحرب » ، ولا شك أن هذا المصطلح نفسه ، مصطلح البلاد الصديقة ، كانت بداياته بدايات وسيطة أيضاً . فقد امتحنت فكرة « الصداقة » الإسلامية الفرنجية بميزان استبعاد الخطر

الصليبى فى مقابل منح تجارية جديدة ذروتها الفندق أيضاً . فعندما نجحت البندقية فى توجيه الحملة الصليبية التى يطلق عليها الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية عام ١٢٠٤ بدل توجيهها إلى الاسكندرية ، كافأتها مصر بمنحها فندقاً ثانياً بالاسكندرية . وبذلك أصبحت البندقية أكبر شريك وأضخم عميل لمصر فى الغرب .

وأهم ما يسترعى النظر فى هذه المعاهدات بعد مبدأ المحافظة على أرواح التجار المستأمنين (الأجانب من دار الحرب) وأموالهم فوق الأرض المصرية هو الاعتراف بحق الحصول على الفندق من السلطات المصرية . والفندق مبنى مصرى فوق أرض مصرية . وكلاهما – المبنى والأرض المقام عليها – مصرى الهوية ومصرى الملكية ، تقدمها الحكومة المصرية لدولة أو جمهورية صديقة لنزول الوافدين من هذه الدولة أو الجمهورية لاقامتهم المحدودة فى الثغر ، ولتخزين بضائعهم وممتلكاتهم . هذه الفنادق كانت مبانى ضخمة ، تعتبر فى الواقع من أضخم مبانى الثغر ، وتبدو فيه كالحصون المنيعة . وجدير بالذكر أن بعض هذه الفنادق تمتعت بشهرة كبيرة ومكانة مرموقة حتى أن بعض تلك الجمهوريات الأجنبية كانت تبنى الفنادق الأجنبية فى بلادها على طراز فنادق دول الفرنج فى الاسكندرية مثلا . مثال واحد يكفى لتوضيح هذه الظاهرة – بنت البندقية فندق الألمان فى أواخر العصور الوسطى على طراز فندق البنادقة بالاسكندرية .

الدور الأرضى للفندق أو « البدروم » خصص للتخزين ، وردهاته مقببة ، متسعة ، سهلة المراقبة ، والقفل ، والتهوية ، أما أدوار الفندق الأخرى فقد خصصت لاستقبال نزلاء الوطن الواحد من تجار وغيرهم . وبالفندق « حوش » ، فناؤه أو ساحته الخاصة لحط البضائع ورفعها . وفى جزء معين من هذه الساحة زرعت حديقة الفندق بأنواع النبات والزهور التى تذكر النزلاء بأوطانهم .

كما جهزت الحكومة الإسلامية هذه الفنادق ، أو أهمها على أقل تقدير ، بالكنائس ودور العبادة والصلاة . وكان ذلك فى الواقع امتيازاً خاصاً للدول أو الجمهوريات الصديقة . فهناك كاتدرائية القديس نيقولا فى فندق البيازنة ، والعذراء مريم فى فندق الجنوية ، والقديس ميخائيل فى فندق البنادقة .

وقد وافقت الحكومة الإسلامية على أن تتمتع فنادق الأجانب بوجود مخبز فيها أو بوجود مخبز وحمام ، أيضاً . وكانت تلك امتيازات هامة تسعى الدول الأجنبية الصديقة للحصول عليها فى فنادقها توفيراً لراحة نزلائها وسلامتهم .

والفندق الأجنبى المعتبر كان يتمتع بحق استعمال موازينه ومكاييله الخاصة بداخله –

وهى عادة موازين ومكاييل دولة أو جمهورية نزلائه تيسيراً لعقد صفقاتهم التجارية داخل الفندق . ولسنا فى حاجة هنا إلى أن نذكر أن المكاييل والموازين المصرية كانت معروفة ، ومعتبرة أيضاً داخل هذه الفنادق والميزان الضخم المنصوب بداخل فندق ما – بساحته – عنوان هام لعظمة الفندق ، يرمز إلى مدى قدرات التعامل التجارى بداخله وضخامتها . وفوق هذا كله ، فقد صرحت الحكومة الإسلامية بشرب النبيذ والخمر عامة لأهل الفندق وبداخله فقط .

وفوق هذه الامتيازات ، أقرت الحكومة الإسلامية مبدأ استقبال ممثل دائم لحكومة الدولة أو الجمهورية المسيحية المتعاملة – أى الصديقة – وهو القنصل ، كما أعطته الحرية فى اختيار مساعديه والاشراف عليهم مثل الدندق الذى يشرف على كثير من الشئون الداخلية للفندق لتأكيد راحة النزلاء . وللقنصل نائبه الذى يحل محله فى بعض المهمات أو ينوب عنه للتخفيف من ضغط العمل واتساع المسئوليات . وبقدر نشاطه واتساع أعماله يصل عدد المساعدين للقنصل إلى سبعة أو ما يقرب من هذا الرقم .

ولقد نجحت دول البحر المتوسط الصديقة فى مد سلطات القنصل إلى رعاية مصالح القوافل التجارية البحرية أو السفينة الواردة التى ترسو فى الموانى المصرية . فالسفينة الواردة تتمتع كما يتمتع قبطانها أو صاحبها بحق تفريغ البضائع المصدرة إلى هذا الميناء المصرى أو ذاك ، دون أن يضطر إلى تفريغ حمولة السفينة كلها فى هذا الميناء أو ذاك . وعلى القنصل أن يراقب ذلك . وعليه أيضاً حماية السفينة وربانها من إكراه سلطات ديوان الخمس ربان السفينة على تفريغ حمولتها كلها أو تخزينها أو بيعها فى هذا الديوان أو خارجه رغم أنفه . ذلك الحق وارد فى المعاهدات المبرمة بين مصر وبين حكومات دول البحر المتوسط على الجانب الآخر منه ، وإن كانت الشواهد التاريخية تدل على صعوبة تنفيذه فى بعض الأحيان .

وعندما استقرت العلاقات بين مصر ودول الفرنج المتاجرة معها على أساس استمرارها فى عصر الأيوبيين (١١٧١ – ١٢٥٠) صرحت للقناصل حسب المعاهدات المبرمة بمقابلة السلطان نفسه بعاصمة ملكه بالقاهرة – لاستعراض شئون الفندق وعمل القائمين عليه ، وأحوال جاليته ومصالحها والتزاماتها . فضلاً عن عرض ما يلتمسه فى سبيل رفع الضر عنها أو تحسين مركزها وتدعيم حقوقها وإعادة النظر فى واجباتها . وفى عهد السلطان الملك العادل (الأول) سيف الدين (١٢٠٠ – ١٢١٨) بالذات سمح لقناصلة الدول الصديقة بمقابلة السلطان عشر مرات فى السنة .

وقد منحت المعاهدات المبرمة مع مصر القنصل حق التدخل للدفاع عن مصالح جاليته فرداً وجماعة لدى السلطان والجهات المعنية دون أن يناله ضر فى شخصه أو ماله . أما فى الفندق فقد أعطيت له سلطات القضاء ، فإليه يتحاكم أعضاء جاليته فى القضايا المدنية والجنائية وغير ذلك من خصومات . والأساس فى تحقيق العدالة للجاليات الأجنبية من اختصاص القناصل المعنية . أما إذا قامت خصومة بين فرنجى ومواطن مصرى ، وكان الأجنبى هو المعتدى ، والمصرى هو المعتدى عليه ، فالفصل فى مثل هذه الخصومة للقضاء الإسلامى فى الثغر . فإذا وجد الفرنجى أن فى حكم القاضى غبناً له ، فله أن يحتكم إلى السلطان نفسه بالقاهرة ، وقد أعطته المعاهدات حق التظلم أمامه ، وليس لأحد أن يعوقه عن ذلك أو يحرمه من هذا الحق . كما أقرت المعاهدات حق مغادرة الفرنجى الثغر عائداً إلى بلاده أو لمواصلة رحلته وللقنصل أن يراعى حق أفراد جاليته فى مغادرة الثغر بعد أن يعلن أنه خالى الطرف ، دون تأخير أو تعويق - سواء أكان ذلك من جانب تاجر سلطانى أو موظف حكومى ، وسواء كان ذلك من طرف حاكم المدينة أو رئيس ديوان الخمس أو القاضى - اللهم إلا إذا كان هناك أمر سلطانى محدد ومكتوب . وجدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية قضت فى ذلك الوقت باعتبار إقامة المستأمن فى الثغر أقل من سنة حداً أقصى فإن طالت إقامته عن عام كامل اعتبرته الحكومة ذمياً ، ووجب عليه أداء الجزية .

مركز القنصل هو فندق دولته فى الثغر المصرى المحدد وعمله مرتبط ارتباطاً وثيقاً بديوان الخمس ، ومراكز السلطة والادارة بالمدينة ، ولكنه إلى جانب ذلك على اتصال دائم بكوادر أو فئات الخدمات التجارية بالمدينة : مثل السمسار ، والمثمن ، والمترجم ، والجمال ، والمغربل ، والكيال ، والبريدى ، الذين يختارهم للعمل له ، وعليه مراقبتهم تأميناً لمصالح جاليته فى الفندق وديوان الخمس ومخازن التجار بالمدينة . وقد نصت المعاهدات على حق التاجر الفرنجى فى الاستفادة بخدمات هذه الفئات واختيار من يعمل له من بينهم ، وذلك دون أن تفرض عليه إتاوة من جانب آخر ، ودون أن يفرض عليه شخص معين من هذه الفئات للعمل له . وفضلاً عن حرية التاجر الفرنجى فى عرض سلعته للبيع فى فندقه ، فقد أكدت له المعاهدات هذا الحق فى التعامل فى فنادق المدينة ومحلاتها ومخازنها لغير الروم والفرنج ؛ أى له أيضاً حق زيارة التجار المصريين فى الفنادق والمخازن لفحص البضاعة المعروضة ولاختيار ما يشتريه والتعاقد عليه بحضور الشهود . كما كان للتاجر المسلم حق زيارة التاجر الفرنجى فى فندقه لفحص السلعة والتعاقد عليها بحضور الشهود أيضاً . ولا يجوز التراجع عن العقد إلا بموافقة الطرفين .

وجدير بالذكر أن المعاهدات المبرمة بين مصر ودول الفرنج قد نصت على هذا صراحة ، وذلك لمنع أى التباس أو مغالطة . أما فى حالة إنهاء الصفقة فى ديوان الخمس ، فلا يجوز التراجع عن الاتفاق العقد بعد مرور خمسة أيام من إبرامه . وقد كانت أهم الصفقات التى تتم على هذا الوجه فى ديوان الخمس بالاسكندرية ، صفقات التوابل ، وخاصة الفلفل . ولا غرابة فى ذلك فقد كانت الاسكندرية أهم ميناء لتصدير التوابل ، وبالأخص الفلفل ، بين الشرق والغرب ، ولم تتمكن عكا - ميناء الصليبيين - من انتزاع هذه المكانة الأولى للاسكندرية .

وغنى عن البيان أن المعاهدات المبرمة بين مصر ودول الفرنج قد نصت صراحة على احترام عقد البيع بالدفع المؤجل بين التاجر المواطن والتاجر الفرنجى . سواء كان الاتفاق قد تم فى فندق الفرنجى أو فى أسواق المدينة أو فى ديوان الخمس واشترطت لاعتباره شرطاً واحداً : أن يكون العقد مكتوباً ومشهوداً عليه . بل إن المعاهدات دعمت ذلك الشرط بتخصيص مسئولية السمسار التى تمت على يديه الصفقة ، إذ قيدته بواجب ذكر المكان الذى تمت فيه الصفقة - سواء فى سوريا أو الاسكندرية - وبضرورة ضمانه لتنفيذه ، خشية التواطؤ . معنى ذلك أن السمسار كان ملزماً بالدفع فى حالة عدم نفاذ العقد لانسحاب أحد الأطراف من تنفيذه ، وإن دلت الدلائل على أن هذا الالتزام هو التزام الوسيط فحسب .

والمغربلون والكيالون والحمالون فئات محلية كان لها دورها فى انتظام عمل الفندق وأداء مهمته بين التاجر المحلى والتاجر الأجنبى وقد ترددت أبعاد هذه المشكلة التى كانت لها وقعها فى تقدير ثمن السلعة فى نهاية الأمر ، فى المعاهدات المبرمة بين مصر والدول المسيحية ، فالفلفل المغربل له سعر آخر ، والتطفيف فى الكيل يحرم التاجر من ثمرة عمله ، والتعاقد مع الحمالين الثقاة يضمن نقل السلعة دون ضياع أو فساد .

ومن فئات الخدمات العامة التى تعرضت لها فى مناسبات عديدة فى هذا المقال - فئة السماسرة . وقد حددت المعاهدات المبرمة بين مصر والخارج جوانب عملهم ومشاكلها ، ووضعت الحدود لتجنب أخطار التلاعب فيها . والتقارب واضح بين هذه الفئة وفئة المترجمين التى كانت حلقة اتصال هامة بين الفندق وقنصله وتجاره من جانب ، والجهات المصرية المسئولة من الجانب الآخر . ولا حاجة بنا إلى تكرار الحقيقة الهامة ، ألا وهى أن المترجم كان معتمداً من الحكومة وثقة عند جميع الأطراف المتعاملة معه . وفى إحدى وثائق دار الوثائق بالبندقية عثرت على وثيقة من عام ٨٩٥ هـ/

١٤٩٠ م تدل على مدى أهمية هذه الفئة فى المعاملات المصرية الأجنبية . من هذه الوثيقة يتضح أن قنصل مجموعة البنادقة بالاسكندرية سلم المترجم السلطانى ستة آلاف دينار جيدة ، ليقوم هذا بدوره بتسليمها للسلطان بالقاهرة . وكان ذلك تنفيذاً لاتفاق سابق . وعن وثيقة أخرى محفوظة بدار الوثائق بالبندقية أيضاً نتعرف كذلك على بعد آخر لخطورة مركز المترجم فى معاملات الفندق . هذه الوثيقة مؤرخة فى ٢٩ من صفر ٨٢٦ / ١١ من فبراير ١٤٢٣ – أى أنها ترجع إلى بداية مرحلة تنفيذ سياسة سلاطين دولة المماليك الثانية الاحتكارية . فى هذه الوثيقة يقسم خمسة من المترجمين المسلمين المعتمدين وهم شمس الدين محمد بن العادل ، وتقى الدين محمد بن الأسيوطى ، وشمس الدين محمد بن عمر ، ومحمد بن حمزة ، ومحمد بن على ابن كندك (أو جندك) ، هذا فضلاً عن مترجم يهودى إسمه مردوخ بن شموال – يقسم هؤلاء جميعاً أمام والى ثغر الاسكندرية وأمام مستشاريه ، مجلسه من الفقهاء ، على القيام بتبليغ الوالى بشحنات البضائع التى تصل إلى ديوان الخمس فور وصولها وبدون تأخير ، وذلك قبل أن يبدأوا بأية عملية من عمليات الوساطة والترجمة .

والفئة الهامة التى لم تذكرها المعاهدات المصرية الغربية فى مجال الخدمات التى يحتاج إليها الفندق هى فئة البريديين . وقد عثرت فى دار الوثائق بالبندقية أيضاً على وثيقتين تدعمان الرأى بأهمية هذه الفئة فى مجال الخدمات بين الشرق والغرب عامة وبين الفندق ونزلائه خاصة ، وذلك فيما يختص باتصالهم بعواصم مصر والشام وموانيهما ومركز التجارة فيها . ففى الوثيقة الأولى يتم الاتفاق بين البريدى سليمان بن على بن سليم ، المعروف بالقصار من ناحية ، وبين قنصل البندقية فى الاسكندرية ومساعده التاجر الأرمنى ميزرا شنودة من الناحية الأخرى ، على أن يقوم الأول بتوصيل خطابات من الاسكندرية إلى عكا فى ١٠ أيام ، وعليه أن يحضر معه عند عودته الدليل على تسليم الخطابات بمستند ممن تسلمها فى عكا . وفى حالة ما إذا لم يجد هذا البريدى المستلم فى عكا فعليه مواصلة مهمته بالاتجاه فوراً إلى بيروت .

وجدير بالذكر أن العقد قد حدد مدة رحلة هذا البريدى بين عكا وبيروت بيومين . وفى بيروت كان عليه أن يسلم الخطابات ، وأن يحضر معه الدليل الكتابى من المستلم . أجر هذه العملية البريدية – ذهاباً وإياباً – إثنا عشر دوكاتا ، يأخذ منها مقدماً ستة ، والستة الباقية يتسلمها بعد عودته إلى الاسكندرية مباشرة . وجدير بالذكر أن عريف البريديين بالاسكندرية قد صدق على هذا العقد ، وأن اثنين من الشهود قد وقعا

كشاهدين على العقد ، وأن ذلك كله كان بحضور المترجم السلطانى إبراهيم البدرى ، وتاريخ العقد ٢ من صفر سنة ٨٢٠ (وربما ٨١٠) أى ٢١ من مارس ١٤١٧ (وربما ١٤٠٧) . أما عقد البريد الثانى الذى أمكننى العثور عليه فى دار الوثائق بالبندقية فكان بين البريدى الحاج أحمد ابن على بن مبارك وبين أحد أفراد جماعة البنادقة بالاسكندرية جوان بن نيقولا "GIOVANNI NICOLAS" ، على أن ينفذ البريدى طلب البندق – أى القيام بتوصيل خطابات له من الاسكندرية إلى دمشق والعودة فى خلال شهر واحد . وحدد العقد أجر البريدى بإثنى عشر دوكات ، أربعة منها تدفع مقدماً ، والثمان الباقية تدفع له بعد عودته إلى الاسكندرية . وقد صرح العقد للبريدى بالتوقف فى دمشق ثلاثة أيام . كما اشترط العقد احترام المدة المحددة لتسليم الخطابات فى دمشق ، كما قضى بضياع باقى المبلغ على البريدى إذا لم ينفذ طلب البندق فى المدة المحددة – وهى شهر واحد – وليس للبريدى الحق فى مطالبة البندق به . تاريخ العقد ٢ من رجب سنة ٨٢١/ ٥ من أغسطس ١٤١٨ .

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نتعرض لذكر بعض العقود التى دعمت مؤسسة الفندق وقنصله وجماعته وهى عقود اكسبت الاسكندرية صفة الدولية والتعامل على المستوى الدولى فى حوض البحر المتوسط . هذه العقود موجودة أيضاً فى دار وثائق البندقية . وأول هذه العقود عقد المضاربة – الذى اكتسب صفة العقد العام الدولى للمسلمين ولغير المسلمين – ففى بداية القرن الخامس عشر تعاقد تاجر سكندرى مع تاجر بندقى من فندق البنادقة بالاسكندرية . وعلى الرغم من أن تفاصيل هذه المضاربة لم ترد فى الوثيقة التى راجعتها فى البندقية ، إلا أن ما ورد فى نص الوثيقة يدل دلالة واضحة على تعقد العلاقات وعمقها وامتدادها بين التجار المواطنين وبين جماعة الفندق . ففى هذه الوثيقة يبلغ التاجر السكندرى قنصل البندقية أن مشاكل معينة قد طرأت فحالت دون تنفيذ العقد ، وأنه يجب أولاً حل هذه المشاكل والتخلص منها قبل تنفيذ العقد . وأهم من ذلك كله أن ينص خطابه على أنه كتب إلى قاضى القضاة بالاسكندرية طالباً إليه عدم التعرض للتاجر البندقى المتعاقد معه بشر ، وعدم مطالبته بشىء . وهذا الخطاب أو هذه الوثيقة الفريدة فى نوعها إلى اليوم تؤكد ما جاء فى المعاهدات المصرية الفرنجية عن دور الفندق ، ودور القنصل ، وحرية التعاقد بين المواطن والأجنبى ، وعن دور قاضى القضاة – أى دور القضاء الإسلامى – فى حالة تنفيذ عقد تم بين مواطن وأجنبى ، ويدل أولاً وأخيراً على احترام العقد وتنفيذ شروطه ، كما يشير فى الوقت نفسه إلى المشاكل التى اعترضت ذلك .

أما المثال الثانى فلا يقل أهمية عن المثال الأول : الفقيه شمس الدين محمد بن عساكر بن صابر الطرابلسى باع للكاهن أو نائب قنصل البندقية بالاسكندرية فى ١٥ من جمادى الثانية سنة ٨١٨/ ٢٢ من أغسطس ١٤١٥ أسيره **الإيطالى فرين بن انجلى البولى** FERINO ANGELI من أبوليا بكعب إيطاليا بمبلغ ٣٥ دوكات دفع منها المشترى أى نائب قنصل البندقية بالاسكندرية ٢٥ دوكات وأجل دفع العشرة الباقية لمدة عشرة أيام ، يدفعها عند تنفيذ العقد وتسليم الأسير ، كما نص عليه العقد المبرم بين الطرفين .

والمثال الثالث ، لا يقل عن الأول والثانى أهمية : قنصل البندقية بالاسكندرية يشترى من يوحنا الكاهن القبطى ، جاريته النوبية المسيحية مباركة المرة أو المرأة بمبلغ ٢٧ دوكات وزناً ، يحسب منها ١٣½ دوكات تكاليف السفر ومصاريف المعيشة . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فقد اشترط المشترى على البائع فى العقد نفسه أن يتكبد الأخير – أى البائع – دفع ضريبة الرقيق الرسمية المفروضة على النوبية المباعة . تحرر هذا العقد فى ٢٢ من صفر سنة ٨٢٢/ ٢٠ من مارس ١٤١٩ .

أما المثال الرابع والأخير ، فهو فى الواقع أهم هذه الأمثلة جميعاً ، لأنه الوثيقة الوحيدة التى أمكننى العثور عليها حتى اليوم لتدل دلالة واضحة على امتداد حقوق الفندق فيما لم تفصح عنه أية معاهدة أبرمت بين مصر وأية دولة أو جمهورية أوربية فى حوض البحر المتوسط . بل انها فى الوقت نفسه مؤشر واضح للامتداد الجديد المعروف فى عهد الدولة العثمانية والمعروف بمصطلح الامتيازات الأجنبية . هذه الوثيقة عقد بين على بن حمزة ، ناظر وقف بالاسكندرية أيضاً وبين قنصل البندقية . وبمقتضى هذا العقد تسلم ناظر الوقف من القنصل فى ٤ من ذى الحجة سنة ٨١٨/ ٤ من فبراير ١٤١٦ مبلغ ستمائة فلورين ، قيمة الإيجار السنوى لدكان كبير على الجانب الشرقى من سوق الديك والمجاور لبوابة فندق البنادقة . وهذه الوثيقة هى أول نص معروف عن حق القنصل ، وربما أيضاً حق التاجر الفرنجى عن طريق القنصل ، فى تأجير مكان خارج الفندق للاتجار وللمعاملات المستمرة .

(٣)

جمع القنصل إذن بين التمثيل الدبلوماسى والسياسى والتجارى والقانونى . ولكنه فى أول الأمر المسئول الأول أمام الحكومة الإسلامية عن شئون فندق دولته على أرض إسلامية ، فضلاً عن مسئوليته الكبرى فى إدارة الفندق والإشراف عليه ؛ فكل شاردة خلف حوائط الفندق – أى بداخل الفندق – تخضع لسلطته . هذه السلطة الداخلية فى

الفندق وبالنسبة لنزلائه كانت القاعدة القانونية التى لم تخدش ولم تجرح ، ولم تهبط إلى ساحة المساومات والمجادلات **فى وقت السلم** . **أما فى وقت الحرب** ، أى الحرب بين مصر ، وهى من دار الإسلام ، وبين دولة أو جمهورية مسيحية على شواطىء البحر المتوسط ، وهى بذلك من دار الحرب ، فتتعقد الأمور على القنصل ، وبها يتبلور اعتباره الآخر كرهينة فى دار السلم . والواقع أن القنصل كان ممثلاً لبلاده ورهينة فى البلد المضيفة فى الوقت نفسه . دعم المشرع الإسلامى هذا باعتبار القنصل فى نهاية الأمر موظفاً فى الحكومة الإسلامية بمركز خاص لأن الحكومة الاسلامية كانت تدفع للقنصل راتباً رمزياً ، وتمنحه تسهيلات تجارية خاصة ، تشجيعاً له على تنمية التبادل التجارى وخدمة المصالح المصرية وخاصة فى مجال توريد أو استيراد السلع الحربية ، وأهمها الرقيق والحديد والخشب – فضلاً عن المعادن الثمينة والاقتصادية كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير .

والواقع أن التباين فى المعاملة بين حالتى السلم والحرب لم يكن المشكلة القانونية الوحيدة التى شغلت بال القائمين على الفندق وأولهم القنصل – ونزلائه – من ناحية ، وبين الحكومة الإسلامية من ناحية أخرى . فقد اتصلت هذه المشكلة بفراغ قانونى أو تشريعى أساسه مسألة شائكة أخرى وهى المسئولية الجماعية وتحديدها ، والمسئولية الفردية وتقويمها ، وخاصة بعد أن اتسعت المعاملات وتعقدت منذ قيام سيادة جمهوريات الغرب ودوله البحرية على مياه البحر المتوسط . وتوضيحاً لذلك يجب أن نعلم أن الدولة المصرية كانت تغلق الفندق فى حالة الحرب بينها وبين الدولة أو الجمهورية الغربية التى حصلت على امتياز الفندق ، كما كانت تلقى بالقنصل والجالية التابعة له فى السجن أو تحبسهم جميعاً فى فندقهم وتضعهم تحت المراقبة . أما فى حالة عدم وفاء أحد تجار الفندق أو نزلائه بديونه للجانب الإسلامى ، فقد كانت الحكومة المصرية تأخذ بمبدأ المسئولية الجماعية ، فتقضى بأن تدفع الجالية الديون – أى ديون الفرد المدين منهم فى حالة عجزه . وهنا فى هذه النقطة بالذات ارتبطت مؤسسة الفندق باعتبارها ملكاً حكومياً بمؤسسة أخرى حكومية هى ديوان الخمس ارتباطاً دقيقاً . فديوان الخمس وقتذاك لم يكن مجرد منطقة جمارك يتم فيها تخليص البضاعة ومراقبة المسافرين ، بل كان هذا الديوان منطقة لعقد الصفقات الكبرى بين التجار الفرنج والروم والمسلمين ، بل بين الدولة أى السلطان وهؤلاء التجار أيضاً ، وقد يطلق البعض على هذه المنطقة أحياناً أو عفوا منطقة السوق الحرة فى الميناء . ومهما كان التفسير فالمهم أنه فى حالة تنفيذ المسئولية الجماعية ، عن طريق القنصل المختص طبعاً ، فى ديوان الخمس

أو الفندق ، تتعرض الجالية كلها لهزات مالية ، فضلاً عن فقدان الحرية الشخصية لأفرادها ، وقد نجحت دول دار الحرب فى إلغاء الأخذ بمبدأ المسئولية الجماعية ، على الأقل رسمياً ، فى بنود المعاهدات فى أواخر العصور الوسطى ، وخاصة فى حالتى الدين الفردى (لغرق السفينة وضياع البضاعة مثلاً) والقرصنة فى عرض البحر أو فى مياه الاسكندرية أو دمياط أو غيرها من الموانى المصرية على البحر المتوسط . وإن كان الواقع التاريخى يدل على عدم الوصول إلى حل حاسم لهاتين المشكلتين اللتين واجهتا القنصل والجالية ومؤسسة الفندق عامة فى أواخر العصور الوسطى ، وفى القرن الخامس عشر بالذات ، عندما زاد خطر القرصنة التركية والفرنجية ، وعندما لم تتمكن الجمهوريات البحرية لدار الحرب فى القضاء على شرها فتوترت العلاقات بين مصر ودول الفرنج المتاجرة ، وتدهورت مؤسسات الفندق فى الاسكندرية ، حتى انخفض عددها فى نهاية القرن الخامس عشر إلى ثلاثة فنادق فقط .

هذه المسببات جانب من المشكلة ، أما الجانب الآخر منها فقد طفا على السطح عندما استنزف ارتفاع أعباء الامبراطورية المصرية المالية فى القرن الخامس عشر بالذات ، مواردها من الضرائب ومن غير الضرائب من أبواب الصادرات والاحتكارات والطروح . والطرح هو فرض السلع التى يشتريها السلطان من التجار بسعر منخفض ليفرضها على الناس ، والتجار أيضاً ، بسعر مرتفع . بل لقد وصل الأمر إلى تحكم السلطان فى أسعار البيع لتجار الفنادق الأجانب حتى ضجوا من هذه المعاملة كما ضج تجار الكارمية من قبلهم .

وهنا — وفى هذه المرحلة بالذات — مرحلة النصف الثانى من القرن الخامس عشر تجسم خطر الفراغ ، أو حجم الفراغ الذى وقعت فيه مصر الإسلامية من جراء سياستها التقليدية فى البحر المتوسط . كان من نتائج هذه السياسة شيء يشبه فقر الدم الضريبى أو فقر الدم فى النظام المالى للدولة كلها . لقد سارت مصر فى طريق واحد ، وهو احتكار تجارة الترانسيت ، أى حركة مرور السلع والتجارة بين المحيط الهندى والبحر الأحمر وأفريقيا إلى البحر المتوسط ثم الدفاع عنها دفاع المستميت . ولقد جنت مصر بالفعل من وراء ذلك مكاسب عديدة — ليس آخرها نمو الدخل الضريبى — ولكن هذه السياسة افتقرت فى نهاية القرن الخامس عشر إلى النظرة البعيدة المدى ، الدقيقة فى تقدير أبعاد أحداث أواخر العصور الوسطى ، وهناك مدخلان أساسيان لفحص هذا الموقف :

أما المدخل الأول فهو التأمل فيما نتعلمه من قراءة المصادر والحوليات الإسلامية

المصرية التى تعرضت لأحداث القرن الخامس عشر .

والمدخل الثانى هو المعاهدات التى عقدت بين مصر ودول الفرنج التى تتاجر معها . ودعامة هذه المعاهدات والعامود الفقرى لها هو الفندق كمؤسسة لها كيانها السياسى ، الاقتصادى ، القانونى .

أما مصادر القرن الخامس عشر تعج بالمعلومات والبيانات والتفصيلات عن أمراض الجيش ، ونقصان عدد القرى المصرية إلى النصف لفرار الناس منها بعد عجزهم عن مواجهة نقصان ماء النيل ، وبعد إهمال رعاية الرى ، فانهار الانتاج الزراعى إلى الدرجة التى حملت سكان القرى على هجرتها بعد أن عجزوا عن مواجهة أعبائهم الضريبية ، بل وأعباء حياتهم ومعيشتهم . ثم أن هذه المصادر تضج بتفاصيل عجز الادارة كلها فى مواجهة المشاكل والمطالب المالية للامبراطورية . هذا فضلاً عن انهيار النقد الإسلامى ، وانهيار قوته الشرائية ، واستفحال التضخم المالى ، وفى الوقت نفسه استفحلت احتكارات السلطان على حساب نشاط الكارمية والانتاج اليدوى الحر الكبير . ثم أن هذه المصادر تضج أيضاً بالمعلومات الخاصة بسياسة الاستنزاف لموارد الامبراطورية .

وأما المعاهدات مع الدول الأجنبية ، دول دار الحرب ، دول المستأمنين ، وخاصة معاهدات القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فإنه رغم تكرار البنود الخاصة بالحقوق والواجبات التى تقوم عليها مؤسسة الفندق وتحيا بها — مثل المحافظة على حياة المستأمن والتمسك باحترام الدولة لملكية الأجنبى فوق الأرض المضيفة ، وباحترام حقوق العاملين بالفندق ، واحترام أصول التعامل فى ديوان الخمس والأسواق ، فضلاً عن احترام قوانين الضرائب المعمول بها ، واحترام الاعفاء منها فى حالات معينة ، واحترام حقوق القنصل وقضاة الإسلام فى المجال القضائى المشترك — رغم تكرار هذه البنود التى كانت دائماً موضع تمحيص وتعديل ونقاش للعمل على إصلاح ما يدخل عليها من فساد ، وتطويرها بحيث تلائم الاحتياجات الجديدة ، رغم ذلك كله ، فإن هناك فقرة تكررت أيضاً فى كثير من بنود هذه المعاهدات ، ومع ذلك فقد ظلت ضعيفة الأثر من الناحية التاريخية ؛ هذه الفقرة قالت دائماً بأن جميع الحقوق التى يتمتع بها المستأمن — أى التاجر الفرنجى — فى ميناء مصرى إسلامى على البحر المتوسط ، يتمتع بها التاجر المسلم أيضاً فى وطن المستأمن ، أى مينائه على الجانب الآخر من البحر المتوسط أيضاً . هذه الفقرة — التى تقرر مبدأ حق المثل ، ومعاملة الند للند على أساس المساواة بينهما — لم تستفد بها مصر ، هذا الحق لم تستفد منه مصر ، هذه المساواة بين المتعاملين فى الوطنين

أهملها تجار مصر الإسلامية . وفى كلمة واحدة ، أهملت الحكومة تقدير هذا البعد الجديد فى المعاملات الدولية ، وفى التبادل التجارى والعمل المشترك فانعدمت أهميتها التاريخية أو كادت . وفقدت مصر بذلك بعداً جديداً من أبعاد التجارة الدولية فى عصر ما قبل الاستكشافات الجغرافية الأوربية وبعد أن كانت النتيجة وخيمة ، مُرّة ، موجعة . على أى حال ، لقد تمسك المشرع الإسلامى بهذه الفقرة ، واحتفظ بها فى نصوص معاهدات أواخر العصور الوسطى ، المبرمة بين مصر والدول الصديقة – حسب مصطلح رجال القانون الدولى فى عصرنا .

ولتحديد أخطار هذا البعد المهمل يجب التعرض لمعاهدتين حاسمتين ، وبهما أختم هذا العرض عن الفندق كمؤسسة سياسية ، اقتصادية ، قانونية . هاتان المعاهدتان تأتيان من مملكتى السيادة الإسلامية فى حوض البحر المتوسط وغرب آسيا وجنوب شرق أوربا وساحل الأطلنطى لبلاد المغرب : أعنى الامبراطورية العثمانية ومراكش المستقلة عنها .
المعاهدة الأولى ترجع إلى عام ١٥٣٥ / ١٥٣٦ ، وهى فى الواقع مشروع معاهدة بين الباب العالى وفرنسا – دولة الغرب الصديقة . والمعاهدة الثانية هى معاهدة عام ١٨٥٦ بين بريطانيا ومراكش . هاتان المعاهدتان تدخلان فى صميم موضوعنا ، وتخترقان عناصر ودعائم مؤسسة الفندق إلى صميمها .

معاهدة عام ١٥٣٥ بنيت فى مجملها على أصول معاهدة السلطان سليم الأول والبندقية عام ١٥١٧ ، التى تعتبر امتداداً لتقاليد المعاهدات المصرية الفرنجية فى أواخر العصور الوسطى . وجدير بالذكر أن معاهدة ١٥٣٥ لم يعتمدها السلطان سليم القانونى ، فهى إذن مشروع معاهدة ورغم ذلك فقد أصبحت النموذج أو الأساس الذى نقلت عنه ، ونقحته وطورته فرنسا والدول الأوربية الأخرى فى معاهداتها مع الباب العالى ؛ تلك المعاهدات التى سميت فيما بعد بمعاهدات الامتيازات الأجنبية ، بينما أصل تسمية معاهدة ١٥٣٥ – أو مشروع هذه المعاهدة – يحمل اسم « معاهدة الصداقة والتجارة الفرنسية العثمانية » .

وأهم ما يستوقف النظر فى معاهدة ١٥٣٥ أنها لم تذكر الفندق فى أى بند من بنودها . ولم يظهر هذا المصطلح التاريخى الوسيط فيها لا بالتحديد ، ولا بالإشارة . وهنا نلمس الفارق الجوهرى بين معاهدة ١٥٣٥ وبين المعاهدات السابقة – أى معاهدات العصور الوسطى – وإطارها العام . لم تطالب فرنسا بفندق لها بالاسكندرية ، بل إنها لم تتعرض لهذه المؤسسة التى نظمت العلاقات التجارية الدائمة بين الطرفين

الإسلامى والفرنجى على جانبى البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، ولم تنتفع بها مصر فى توسيع علاقاتها بعالم الفرنج كما ذكرت من قبل . كان المبدأ الجديد المقابل فى معاهدة ١٥٣٥ هو أن يتمتع الفرنسيون بحرية الانتقال ؛ أى بحق حرية التجارة وبحق السكن الحر والإقامة الحرة والانتقال الحر بحثاً عن السلعة فى أنحاء القطر المصرى ، بل والامبراطورية العثمانية كلها ، مع التمتع بحق بقاء الرعاية القنصلية وتحصينها لتحقيق نوع من الحصانة الدبلوماسية . وبذلك كله خرجت هذه المعاهدة أو خرج مشروع معاهدة ١٥٣٥ عن إطار التعامل الوسيط ، مشيراً إلى مدى ما وصل إليه القانون الدولى وقتذاك . فلم يكن إذن من محض الصدف أن يظهر ديوان الخمس فى القاهرة أيضاً بعد أن كان الخمس مقصوراً على موانىء محددة على ساحل مصر المطل على البحر المتوسط ، عملاً بالسياسة الإسلامية التقليدية الوسيطة – ألا وهى قصر التعامل الإسلامى الفرنجى على « مين وسواحل وموانى » معينة على هذا البحر .

ولم يكن من محض الصدف أيضاً أن يرتبط ظهور الخمس فى القاهرة باسم سليمان باشا (١٥٣٦ – ١٥٣٨) ، وسنان باشا (١٥٦٧ / ١٥٦٨ – ١٥٧١ / ١٥٧٢) وهما من أهم ولاة الباب العالى فى القرن السادس عشر . إرتبط اسم سليمان باشا بمرحلة من مراحل الصراع العثمانى البرتغالى فى المحيط الهندى ، كما عاصر سنان باشا معركة ليبانتو المشهورة (LEPANTO) عام ١٥٧١ . وفوق ذلك كله فقد ارتبط اسمهما بإنشاء ديوان الخمس بالعاصمة : سليمان بنى مكاناً للخمس فى بولاق ، وسنان بنى ديوان الخمس فى وكالة الخرنوب . والخمس ، كما نعلم ، ضريبة للسلطان وخزانته وقد كانت تجمع وقتذاك من أماكن أخرى بالعاصمة . أما فى العصور الوسطى فكانت ضريبة الخمس مرتبطة بالثغور الإسلامية على البحر المتوسط ارتباطاً تاماً .

ننتقل الآن إلى البحث عن بدائل مؤسسة الفندق فى مراكش ، وهى الدولة العربية الوحيدة التى تمتعت بسواحل على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى واحتفظت باستقلالها بعد الاستكشافات الجغرافية الأوربية .

ففى نفس العام الذى أبرمت فيه معاهدة باريس (١٨٥٦) لتنهى حرب القرم التى تعتبر فى الواقع أول حرب عالمية قبل الحرب العالمية الأولى ، تمت أيضاً الموافقة على معاهدة الصداقة البريطانية المراكشية لتلقى الظلال الواضحة على مراحل تقدم السيادة الأوربية العالمية بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر . ولعل أهم الملاحظات التى لا يجب إغفالها فى مجال هذا البحث هى :

أولاً – ليس فى المعاهدة أى ذكر لمؤسسة الفندق ، ولا غرابة فى ذلك . فبعد أن مزقت الاستكشافات الجغرافية إطار العالم الوسيط ، وبعد أن تغلغل أصحاب هذه الاستكشافات فى العالمين القديم والجديد وما تبع ذلك من تغيرات سياسية واقتصادية ، كان متوقعاً أن يأتى التركيب القانونى الأسس القانونية الجديدة للتعامل التجارى لتوافق هذا التوسع العالمى .

ثانياً – تأمين الحياة والملكية للبريطانى ، أى التاجر الأجنبى المتعامل فى كل أنحاء مراكش . وقد ضمنت المعاهدة ذلك أيضاً للمراكشى فى بريطانيا ، أى أن المعاملة هنا قامت على مبدأ مساواة الند للند .

ثالثاً – منحت المعاهدة الجانب البريطانى حق شراء الأرض وتأسيس وكالات تجارية فى كل أنحاء مراكش ولم تمنح الشريك المراكشى أى شىء من هذه الحقوق وما يرتبط بها من ضمانات مماثلة .

رابعاً – طالبت المعاهدة سلطان مراكش باحترام الشريعة الإسلامية فيما يختص بالتجارة الخارجية ، والضرائب المفروضة عليها . ففى بند من بنود هذه المعاهدة طالبت بريطانيا السلطان المراكشى أو طالبت حكومته وإدارته المالية بأن تأخذ الضريبة على الوارد فقط ، وأن تلتزم بهذا الشرط الإسلامى .

ولما كانت الشريعة الإسلامية واجبة التطبيق فى دار الإسلام ، فقد كان من منطق الأشياء ألا يتمتع المراكشى بمثل هذا الامتياز فى بريطانيا .

حان الوقت لأن نربط انهيار مؤسسة الفندق بالتطور الأوربى والعلاقات الأوربية الإسلامية . فمنذ القرن السادس عشر أخذ البحر المتوسط يفقد تدريجياً مكانته كمحور التبادل للتجارى العالمى ، كما أخذت المعاملات التجارية الأوربية تتعقد ، وتتسع ، بل وتتشعب لتشمل العالم كله – قديمه وجديده . وارتبط هذا كله بمراحل بناء السيادة الأوربية العالمية ، ومرحلة استقلال الولايات المتحدة الأمريكية وتغلغل السيادة الروسية فى آسيا كما تحققت الثورة الصناعية فى أوربا وفى بريطانيا بالذات . وفى الوقت نفسه ختمت بريطانيا نجاحها فى الهند بإنهاء حكم المغول فيها عام ١٨٥٨ ، ونجاحها فى البحر المتوسط بشراء أسهم الخديوى فى شركة قناة السويس . وفى نهاية هذه المرحلة يبدأ صعود اليابان إلى مسرح السياسة الدولية . وفوق ذلك كله كان الكفاح المستمر لتحقيق حرية البحار . وقد صاحب هذا التحول التاريخى الهائل ظهور أنماط جديدة من المعاملات الضخمة – مثل تكوين المؤسسات التجارية والاقتصادية الدولية .

وقد ارتبط هذا النمو والتطور والتشابك فى المعاملات الدولية بنمو ما يسمى بالامتيازات الأجنبية فى الشرق الإسلامى منذ القرن السادس عشر إلى المرحلة الامبريالية المعروفة فى القرن التاسع عشر .

هذا ما لا يجب أن نغفله عندما نتأمل فى الأسباب التى أدت إلى ظهور الفندق ، وتطور تاريخه ، متفاعلاً مع السياسة والاقتصاد والقانون المعاصرين له . وهذا ما لا يجب أن نغفله أيضاً عندما نتأمل الأسباب السياسية والاقتصادية والقانونية التى أدت إلى انهياره وزواله فى القرن السادس عشر ، وما ترتب على ذلك من نتائج امتد خطرها وأثرها إلى القرن التاسع عشر .

معاهدة تجارية بين مصر والبندقية
من عصر السلطان المؤيد شيخ

دراسة في العلاقات الإقتصادية بين مصر والبندقية في أوائل القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي

د. محمد محمد أمين

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب القاهرة

يحتفظ أرشيف البندقية Archivio di Stato, Venezia بترجمة مجموعة كبيرة من نصوص المعاهدات التجارية والاتفاقيات وغيرها من الوثائق والمكاتبات التى تمت بين البندقية وسلطنة المماليك فى العصور الوسطى ، وترجع أقدم هذه الوثائق إلى بداية القرن الثالث عشر الميلادى حيث أن البندقية بدأت تهتم بأرشيفها الخاص منذ ذلك الوقت .

ومن بين هذه الوثائق المتنوعة معاهدات تجارية بين مصر والبندقية ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى وتمتد حتى نهاية عصر سلاطين المماليك .

ويلاحظ أن المعاهدات التى ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى غير مؤكدة التاريخ ، فهى لا تحمل إلا تاريخ الشهر العربى أو الميلادى ، ولا تحمل أية بيانات عن السنة التى كتبت فيها[١] .

أما معاهدات القرنين ١٤ ، ١٥ م فهى لا تمثل أية مشكلة بالنسبة لتاريخها ، وهى على وجه التحديد ست معاهدات ترجع إلى القرن ١٤ م وتحمل تواريخ ١٣٠٢ ، ١٣٤٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٦ ، ١٣٧٥ ، على التوالى ، وثلاث معاهدات ترجع إلى القرن ١٥ م وتحمل على التوالى تواريخ ١٤١٥ ، ١٤٢٢ ، ١٤٤٤ م ، وقد أكملت هذه المعاهدات برسائل من السلاطين موجهة إلى كبار الموظفين كى يطبقوها[٢] .

ويتضح من الدراسة أن هذه المعاهدات صدرت باللغة العربية فى القاهرة ، ويبدو أن أصول المعاهدات كانت تحفظ لدى القناصل بالاسكندرية[٣] لتقديمها كمستند رسمى وقت الحاجة ، واكتفت البندقية بالاحتفاظ بترجمة لهذه المعاهدات ولذلك لم يصل إلينا

أصل هذه المعاهدات بسبب ضياع معظم الوثائق العامة بمصر فى العصور الوسطى ، ومن هنا يصبح من الصعب على الباحث أن يقارن محتويات المعاهدات المحفوظ ترجمتها بأرشيف البندقية بما يقابلها من وثائق مصرية لعدم وجود أرشيف مقابل ، فضلاً عن إغفال كتب الحوليات والمصطلح الشرقية لهذه النصوص .

فمن أشهر كتب المصطلح التى ترجع إلى عصر سلاطين المماليك ، والتى تحوى العديد من نصوص الوثائق فى مختلف المجالات كتاب صبح الأعشى للقلقشندى ، ولا نجد فى هذا الكتاب الضخم إلا صورة مكاتبة واحدة ترجع إلى عصر سلاطين المماليك ، وهى عبارة عن رسالة موجهة من دوج البندقية ميخائيل إلى السلطان فرج بن برقوق فى ١٦ صفر ٨١٤ هـ/ ١٠ يونية ١٤١١ م[4] .

ويذكر القلقشندى أن كتب دوج البندقية الواردة كانت « العادة فيها أن تكتب باللسان الفرنجى » ، فإذا وردت إلى الأبواب السلطانية فكت أختامها وترجمت على يد التراجمة بالأبواب الشريفة ، ومن هؤلاء التراجمة شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون وهما اللذان ترجما الكتاب السابق للسلطان فرج[5] .

ولم يورد القلقشندى أى نص لمعاهدة أو رسالة من قبل سلاطين المماليك أنفسهم إلى حكام البندقية ، رغم استمرار المكاتبات بين البلدين ، وازدهار العلاقات التجارية بينهما .

واكتفى القلقشندى بأن أورد لنا ثلاث صيغ كان يكتب بها إلى دوج البندقية فى عصر سلاطين المماليك كما هو متعارف عليه بديوان الإنشاء بالقاهرة ، ولكن يلاحظ على هذه الصيغ أنها لا ترجع إلى عصر القلقشندى الذى نص صراحة على أنه نقلها من كتاب التثقيف للمحبى المتوفى سنة ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤ م[6] .

وبالرجوع إلى كتاب التثقيف[7] للمحبى يتضح أن هذه الصيغ الثلاث تمثل مراحل تطور رسم الكتابة إلى دوج البندقية فى القرن ٨ هـ/ ١٤ م ، فقد ذكر المحبى أن رسم المكاتبة إلى صاحب البندقية ، وهو ما استقر عليه الحال عندما كتب جوابه[8] فى رجب سنة ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦ م إلى الدوج مرقس كرنارو[9] :

« وردت مكاتبة الدوج الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل الموقر ، المفخم ، مرك كرنارو ، فخر الملة المسيحية جمال الطائفة الصليبية ، دوج البندقية واليابسة[10] ، دوج

كراك[11] ، زين بنى المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين[12] » .

أما الصيغتان الأخريان فقد نقلهما المحبى من القاضى ناصر الدين النشائى[13] ويذكر المحبى صراحة أن هاتين الصيغتين « لم يكتب بها لأحد ممن ذكره فى مدة مباشرتى ، وربما كان يكتب بها قديماً » ، وهى مكاتبة الدوك أفرنشسك[14] البنادقة بعد الألقاب الشريفة والبسملة على العادة :

« وردت مطالعة الدوك الجليل ، المكرم ، المبجل الموقر ، البطل ، الهمام ، الضرغام ، الغضنفر ، الخطير مجد الملة النصرانية ، فخر الأمة العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، ذخر بابا رومية ، صديق الملوك والسلاطين أفرنشسك داندلو دوق البنادقة ...[15] »

ثم ذكر المحبى ، نقلاً عن النشائى أيضاً : « ومكاتبة دوك البنادقة ، وما يبعد أنه غير الأول » :

« هذه المكاتبة إلى حضرة المحتشم الجليل ، المبجل ، الموقر ، المكرم ، المفخم ، الباسل ، الضرغام فلان عز الأمة المسيحية ، عماد الطائفة العيسوية ، ذخر الملة الصليبية ، صديق الملوك والسلاطين[16] » .

ويعلق القلقشندى على هذه الصيغ الثلاث بقوله : « على أن المكاتبة الأولى والثانية فى الجواب متقاربتان ، أما المكاتبة الثالثة فمنحطة عن الأولتين (الأولين)[17] » .

ويتضح لنا من دراسة هذه الصيغ ، ومن تعليق القلقشندى عليها أن رسم الكتابة إلى دوج البندقية قد تطور ، فالصيغة الثالثة هى أقدم الصيغ ، وتليها الثانية ثم الأولى ، وهو أمر طبيعى يتفق وتطور العلاقات التجارية بين مصر والبندقية التى أخذت فى الازدهار فى أواخر القرن ٨ هـ/ ١٤ م ، وأوائل القرن ٩ هـ/ ١٥ م .

ويظل السؤال قائماً عن سبب عدم إيراد القلقشندى فى كتابه نماذج للمكاتبات الصادرة عن ديوان الانشاء بمصر إلى صاحب البندقية سواء كانت رداً على رسائل بعث بها الدوج إلى سلطان مصر ، أو رسائل صادرة من مصر إلى الدوج ، وكذلك عن سبب عدم إيراده رسم المكاتبات إلى صاحب البندقية والتى كانت على عصر القلقشندى

وأثناء توليه ديوان الانشاء ، رغم ازدهار العلاقات بين البلدين واستمرار تبادل الرسائل بينهما[١٨] .

ومن هنا تأتى أهمية الرجوع إلى وثائق أرشيف البندقية المتعلقة بالعلاقات الاقتصادية بين مصر والبندقية ، فرغم أنها تمثل وجهة نظر من جانب واحد ، ورغم ما قد يعترض عليه البعض من أن هذه الوثائق ليست أصلية وإنما هى مجرد ترجمة لأصول ضائعة أو مفقودة ، فإنها تظل - بالنسبة للباحثين والدارسين - المصدر الأساسى للعلاقات الاقتصادية بين مصر والبندقية .

ومن أهم المجموعات الوثائقية المحفوظة بأرشيف البندقية ، والمتعلقة بالعلاقات الاقتصادية بين مصر والبندقية مجموعة سجلات الأحداث الهامة ، المعروفة باسم « Commemoriali » والتى تشتمل على وثائق خاصة بتجار البندقية وزياراتهم إلى مصر ، ووصول سفنهم إلى ميناء الاسكندرية ، كما تحوى أيضاً مذكرات القناصل والسفراء البنادقة ، ونصوص الخطابات الموجهة من سلاطين المماليك إلى دوج البندقية ، ومن الدوج إلى السلاطين ، وكل ما يتعلق بالعلاقات التجارية بين مصر والبندقية .

وهذه السجلات مكتوبة بلاتينية العصور الوسطى ، واللغة الإيطالية الدارجة بلهجة البندقية المسماه ، فولجارى Volgare ، ونلاحظ من النص أن هجاء الكلمات لم يكن قد استقر بعد ، فالكاتب يكتب الكلمة الواحدة بأكثر من هجاء فى نفس النص .

ومن هذه المجموعة المعاهدة التى نقدمها اليوم للدراسة والنشر ، وتوجد هذه المعاهدة فى الجزء العاشر من مجموعة الـ Commemoriali ورقة رقم ٢٠٧ ، (نسخة فيينا Commemoriali X, F² 207) كما يوجد ملخص لهذه المعاهدة فى أرشيف البندقية فى مجموعة : Regesti, III, p. 370, N.210 كما أشار إليها Heyd[١٩] .

وتشير مقدمة النص إلى أن الذى حصل على هذه المعاهدة أو الامتيازات من السلطان المؤيد شيخ هما السفيران لورنزو كابيللو Laurentium Capello وسانتو فينير Sanctum Venerio ، ولكن المصادر العربية القليلة التى تحدثت عن هذه السفارة لم تذكر سوى عبارة مختصرة يفهم منها وصول رسول البندقية ومعه هدية للسلطان المؤيد شيخ ، فذكر المقريزى فى حوادث شهر جمادى الآخرة سنة ٨١٨ هـ/ أغسطس ١٤١٥ م « وفيه قدم رسول دوج البنادقة من الفرنج ، بكتابه وهدية فيها هناب[٢٠] بلور محلى بفضة مجراة بالمينا ، وأربعة طشوت بأربعة أباريق وخمسة أطباق وهناب ، وشربتان ، كل ذلك فضة

مجراة بالمينا ، وملعقة فضة بساعد مرجان وجوخ ، وحرير مخمل ، وحلوى سكرية ، وزجاج ، فعرب كتابه[٢١] ، وقبلت هديته[٢٢] » .

وفى عبارة أكثر اختصاراً ذكر ابن حجر فى كتابه **إنباء الغمر** خبر وصول رسول سفير البندقية فى حوادث سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٥ م فقال : « وفيها قدم رسول صاحب البندقية من الفرنج إلى القاهرة بهدية وكتاب من صاحبه ، فعرب الكتابة وقرىء على السلطان ، فقبلت الهدية ، وأمر السلطان ببيعها وصرف ثمنها فى العمارة التى أحدثها[٢٣] ، وقرر كذلك كل هدية تصل إليه من كل جهة[٢٤] » .

ويتضح من هذا أن المصادر العربية وحدها لا تلقى الضوء على عدد السفراء أو أسمائهم ، أو ظروف وصولهم ، أو نتائج سفارتهم ، فلم تتكلم عن الاتفاق الذى عقد بين البلدين أو حتى تشير إليه ، كما أنها لم تهتم بموعد عودة السفير إلى بلده ، فيما عدا المقريزى الذى ذكر فى عبارة مختصرة فى حوادث شهر رمضان ٨١٩ هـ/ نوفمبر ١٤١٦ م « وفيه أعيد رسول ملك اليمن ، ورسول الفرنج البندقية ، ورسول قرا يوسف ، ومع كل منهم هدية[٢٥] » .

أما أسباب إرسال البندقية للسفيرين ومعهما هدية للسلطان المؤيد شيخ فيرجع ذلك إلى السياسة التى اتبعها السلطان المؤيد وهى تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية إزاء جميع تجار الفرنج وقناصلهم بالاسكندرية ودمشق ، وذلك على أثر هجوم القراصنة من القبارصة والكتلان على التجار المسلمين[٢٦] فأسرعت البندقية بإرسال سفيريها إلى السلطان المؤيد ليؤكدوا له براءة البنادقة من هذه الأعمال ، وليطلبا منه تجديد امتيازات البنادقة التى سبق أن حصلوا عليها من السلاطين السابقين ، وأن يصدر أوامره إلى نائبه بالقدس بعدم التعرض لحجاج البنادقة ، وأن يسمح بتعيين قنصل للبندقية بالقدس[٢٧] .

نجح السفيران البندقيان فى مهمتهما ، وعقدا مع السلطان المؤيد شيخ معاهدة فى ١٢ رجب ٨١٨ هـ/ ١٧ سبتمبر ١٤١٥ م[٢٨] تضمنت الموافقة على جميع مطالب البندقية مع تجديد الامتيازات التى سبق أن حصلت عليها ، كما يتضح ذلك من المعاهدة .

وجرت العادة فى كتابة مثل هذه المعاهدات أن تحتوى على فصول أو بنود ويبدأ كل فصل أو بند بذكر المطلب أو المشكلة ثم الإجراء الذى يأمر به السلطان لتحقيق هذا المطلب أو لحل هذه المشكلة ، ولذلك فإن دراسة مثل هذه المعاهدات يفيد (تفيد) فى معرفة المشاكل والمعوقات التى كانت تواجه تجار البنادقة ، وكيف حاولت مصر من

جانبها مواجهة هذه المشكلات ، والواقع أن النص واضح وصريح فى عرض هذه المشكلات ، وكيف عالجها السلطان المؤيد شيخ .

ومن الملاحظ أن تجار فلورنسا كانوا حريصين على الحصول على امتيازات مشابهة لما حصلت عليه البندقية ، حتى أننا نجد فى معاهدة تجارية صادرة من السلطان قايتباى فى ٧ جمادى الآخرة ٩٠١ / ٢٢ فبراير ١٤٩٦ م إلى تجار فلورنسا تنص صراحة « ورسمنا بكتابة شروط لهم على حكم شروط طائفة البنادقة القديمة الآتى ذكرها فيه[٢٩] » ، وحرص كاتب هذه الوثيقة فى عصر قايتباى أن ينقل معظم الامتيازات العامة التى منحها السلطان المؤيد شيخ للبنادقة .

نص المعاهدة[٣٠] :

امتيازات البنادقة التى منحها سلطان مصر شيخ محمود[٣١]
فى يوم ١٥ نوفمبر ١٤١٥ م[٣٢]

« الامتيازات التى تم الحصول عليها من السلطان الأعظم السيد أبو النصر شيخ ، العالى السامى ، سلطان المسلمين الخ على يد الرجال المبجلين النبلاء السيد لورنزو كابيللو Laurentium Capello ، والسيد سانتو فينيير Sanctum Venerio ، اللذين كانا فيما مضى سفراء لجناب الشهير السامى سيد البنادقة إلى حضرة السابق ذكره السيد السلطان الموجهين له » .

أمر شريف معلن وعام إلى السيد السيفى نائب السلطنة بالشام ، وحلب[٣٣] (Soriae d'Alepo) أعزهما الله ونصرهما ، المقر العالى ، الجديرين بفضل السلطان ، والى أمراء طرابلس ، وحماه (d'Aman هكذا) وصفد (Saffeto) ، والاسكندرية ، وسيس ، والجناب العالى قائد جيش الجزيرة ، وأمير الكرك ، وكل أمراء السلطنة حرسها الله وأبقاها وحفظها فى رعايته .

أمرنا العالى هو أن : يحصل على ، ويراعى ، كل ما هو موجود فى هذا الأمر الظاهر الشريف ، وأن يحصل دوج البندقية Thoma Mochingo بالكامل على كل ما طلبه ، حفظه الله فى رعايته . وقد وافقنا على كل ما هو موجود هنا فيما بعد الديباجة (المقدمة) ، فهكذا يجب أن يلاحظ كل ما جرت به العادة والعرف وما يوجد فى المعاهدات القديمة للسلاطين السابقين رحمهم الله ، وخاصة أن هذا الأمر سيوجه إلى الجميع .

بسم الله الرحمن الرحيم ، ان الله العلى يعز كل من يرعى هذه الأوامر المنصورة المعطاة من كرمه ، وحفظ الله فى رعايته أصحاب المقر العالى الأمراء العظام الحكماء ، العادلين ، أصحاب السلطة ، حفظهم الله ، الذين يـ ون العدالة ، ويراعون المساواة فى كل شىء ، فخر الأمراء والقواد ، وفخر السلطنة والمسلمين ، حامى المماليك ، عماد الأجيال ، المقدم للملك والسلطان ، سيف الخليفة والمؤمنين ، حامى مملكة الشام ، وأمير حلب ، وأمراء طرابلس ، وحماه ، وصفد ، والاسكندرية ، وسيس ، وأمير الجزيرة ، وأمير الكرك وكل أمراء السلطنة ، حفظها الله تعالى وأبقاها وأن يجعلها الله دائماً فى سلام وأمن طيلة حكمه .

نحن نكتب إليك ونقدم التحية مع كثير من الشكر ، ونبدأ بأن نعرف حكمتكم : إن رسالة حضرة الدوج الفخيم الأفخم الشجاع ، العريق فى الشرف والنبل المعتبر والمكرم والأكثر من مكرم من الكل ، السيد توما متشينيجو Thoma Mocenigo ، فخر الطائفة العيسوية ، جمال الطائفة الصليبية ، دوج البندقية .. الخ ، حقق الله أمانيه ، وندعو الله أن يرعى كل أحواله ، وكل رعاياه الأشراف .

وصل إلينا وإلى أبوابنا الشريفة خطابكم على يد السفيرين الشريفين لورنزو كابيللو Laurentium Capello وسانتو فينيير الفارس Sancetum Venerio رعاهم الله ، وفى خطابكم حب خاص وكثير من الصداقة وقدمتم الكثير[٣٤] ، وشكرتم دولتنا وأمرائنا ، وطلبتم من مراحمنا الشريفة :

أن يمنع بواسطة كل الرعايا ألا يعمل أى عنف تجاه كل قناصلنا وتجارنا وقادة السفن والملاحين ، فى سلعهم وبضائعهم وأموالهم ، والسفن الكبيرة والصغيرة بيد العنف ، وأن لا يجبروا على دفع المكوس والرسوم والجمارك المفروضة على متاجرهم إلا ما هو موجود فى تعريفة جمرك سلطان الوقت (الحالى) والسلاطين السابقين ، رحمهم الله ، أى لا يكون هناك عرف جديد مستحدث أو شىء جديد بالقوة :

ولهذا السبب نحن نوافق ونأمر أن يعمل هذا ، وأن يؤمر ويمنع أى إنسان من عمل أى شىء مخالف لأمرنا هذا ، وأمرنا بهذا .

فصل : طلبتم ، إذا اشترى أحد التجار أى نوع من التوابل من المسلمين إلى البنادقة فإن الاتفاق الذى يحدث بينهم يجب أن يدون على يد كتاب موثقين (العدول) ، لأنه يوجد بعض المسلمين يمتنعون عن إعطاء وتسليم العربون ، ولا سيما عندما ترتفع (أسعار) التوابل :

ولذلك نأمر أن يتم تسليم الصفقة طبقاً لما هو مكتوب بواسطة الموثقين (العدول) المذكورين سابقاً ، وأن هؤلاء المسلمين الذين يفعلون ذلك يقبض عليهم ويرغموا (ويرغمون) على تسليم التوابل إلى التاجر ، بدون أى استثناء ، حيث أن الاتفاق (المعاقدة) دونت بطريقة قانونية .

فصل : إن بعض التجار المسلمين إذا اشتروا سلع (سلعاً) وبضائع من التجار البنادقة مثل الجوخ ، والكامليات ، (الأثواب الصوفية) ، وأشياء أخرى مختلفة فإن هؤلاء التجار المسلمين يتسلمون البضائع والسلع الأخرى ، ويضعونها فى مخازنهم ، وفضلاً عن ذلك فإن بعضهم يحمل البضائع فى رحلاته شرقاً وغرباً ، ثم يدعى أنه لا يوجد أحد يرغب فى شرائها ، وأنه بعد ذلك يردها إلى من باعها له ، وهذا ضد العقل (غير مقبول) ، وإذا أعاد هذه الأشياء (البضائع) ، فإنه يجبر التجار المسيحيين أن يردوا له الثمن :

ولذلك نحن نأمر ، أنه بعد إتمام الصفقة بين الطرفين (الطائفتين) أى بين المسلمين والبنادقة ، وخاصة إذا وجدت شهادة من موثق عام (عدل) ، فإنه يمنع إعادة السلع مرة أخرى .

فصل : تذكر أن بعض التجار المسلمين إذا عقدوا مقايضة مع تجار بنادقة فى مختلف التوابل ، فمن العرف (العادة) الجارى أن تميز السلع فى حالة المقايضة[٣٥] أكثر من الدفع نقداً ، وعندما يتم الاتفاق بينهم ، فإن التاجر المسلم يتسلم البضائع من التاجر البندق ، ويتسلم البندق التوابل ، وبعد ذلك فإن التاجر المسلم يطلب إعادة السلع إلى التاجر البندق ، ويريد إجباره على دفع الثمن نقداً ، فى حين أنه كان قد باعها بالمقايضة[٣٦] ، وهذا ضد الاتفاقيات التى عقدت بينهم :

ولذلك فإنا أمرنا أن يمنع من يرغب فى إعادة السلع أو البضائع ، وأن يريد الثمن نقداً ، وخاصة إذا كانت هناك شهادة موثقة تبعاً للقواعد والعدل ، لأن المبدأ (الاتفاق) تم برضاء كل من الطرفين .

فصل : يوجد فى معاهدات البنادقة أنه إذا حدث أن وجب على البندق أن يمثل أمام أحد القضاة بسبب السلع أو بسبب خلافات أخرى ، أى فى المنازعات المدنية أو الجنائية بين مسلم وبندق ، أو بين بندق ومسلم ، فإن الذين يقضون ، أو يحسمون الموضوع – إذا وجدت الحالة – يجب أن يكونوا من أولئك الموفدين (مندوبين) باسم السلطان : وعند التواجد بالقاهرة يجب أن يكونوا فى حضرة السلطان ، أو نائب

المدينة ، أو أمام المحتسب (azebo) ، أو أمام الحاجب ، أو مبعوث رسم باسم السلطان فى أى مكان فى مملكته ، وأنه بأى طريقة ، أى شخص آخر ، يمكن أن يكون له سلطة تطبيق قاعدة أو أى شىء على البنادقة :

ولذلك أمرنا أن يعطى الحق مباشرة (فى الحال) وبالعدل ، وأنه لا يمكن بأى طريقة أن يكلف غير هؤلاء المندوبين عن السلطان بتطبيق القانون على البنادقة إلا بالطريقة المذكورة بعاليه ، وبواسطة المذكورين أعلاه ، أى بواسطة السلطان ، وبواسطة موظفيه المذكورين .

فصل : ومن المعلوم أن المكاريين الذين يكونون على الطرف فى كل سوريا وفى أماكن أخرى يغيرون السلع والتوابل التى يحملونها من مكان إلى مكان ، وهذه السلع التى تنقل وتسحب من البلد ، ويضيعوها ، ويبللونها (يغرقونها بالمياه) ويقوموا (ويقومون) بأعمال شريرة أخرى ، مما يسبب خسارة وضرر (وضرراً) كبيرين :

ولهذا نأمر بكشف هذه الأعمال الشريرة ، وأن من يفعل هذا يجب أن يلزم بأن يرضى من وقع عليه الضرر ، وفضلاً عن ذلك يجب أن يعاقب بسبب ما عمله حسب ما يستحقه ، كما يُطرد أيضاً هؤلاء المكارين المذكورين (المكاريون المذكورون) ، وأن يعين فى مكانهم (بدلاً منهم) رجال معروفون ومأمونون ، وأن يكونوا رجالاً لهم خبرة برعاية السلع ، وأن يكونوا عدول (عدولاً) ، وأن يعينوا بضمان صحيح[٣٧] .

فصل : من المعروف أن التجار البنادقة عندما يحضرون إلى داخل مملكة سوريا (بلاد الشام) ، وكذلك إلى الإسكندرية ، وموانى شواطىء كل بلاد السلطنة ، ويريدون سحب المتاجر الخاصة بهم خارج الديوان (الجمرك) ، فإنهم لا يمكنوا (يمكنون) من ذلك ، وتؤخذ بضائعهم بالقوة ولا يدفع لهم الثمن ، ويجبروا (ويجبرون) على دفع ضرائب مبالغ فيها ، وإذا حدث ودفع لهم ، فإنه يدفع لهم نصف الثمن ، وأيضاً عند تقدير السلع فى الديوان (الجمرك) ، تقدر بأكثر مما تساوى ، وإذا فرضت الضريبة والرسوم على أساس هذا السعر المغالى فيه ، يتبع هذا خسارة كبيرة .

وبناء على هذا نأمر أنه فى التقدير يعمل بما هو واجب ، وألا يكون هناك تقدير أكثر من الذى تساويه السلع ، وعندما تدفع الرسوم الخاصة بالديوان والعشور من كل طرف ، لا تؤخذ بضائعهم داخل الديوان (الجمرك) ، وألا يجبروا على بيعها قبل أن يخرجوها (من الديوان) ، ولكل واحد منهم أن يعطى بحريته ، وألا يعمل أى إكراه إلا ما تراعيه العادات أو العرف الطيب القديم .

فصل : اعلم أن فى المعاهدات القديمة من عهد السلاطين السابقين رحمهم الله ، أنه لا يجب أن تؤخذ رسوم على السلع إلا عند وصولها ، وفى الوقت الحالى لا يراعى ما هو وارد فى المعاهدات السابق ذكرها ، ويؤخذ (بالقوة) الرسم قبل أن تصل السلع ، وإذا كان لأحد التجار مال قبل الديوان ، لا يخصم مما يكون عليه :

ولذلك نحن نأمركم أن تعاملونهم (تعاملوهم) طبقا للعادة والعرف ، وتبعاً لما هو وارد فى المعاهدات القديمة ، ولا تؤخذ رسوم الديوان إلا حسب ما هو وارد فى المعاهدات القديمة المذكورة سابقاً ، وإذا كان لأحد تجار البنادقة ، مال طرف الديوان ، فإن موظفى الديوان يجب أن يخصموا ما هو له من رسوم الديوان .

فصل : وجرت العادة ، وبالمعاهدة ، أنه إذا تحطمت سفينة للبنادقة على شواطىء السلطنة ، فيجب ألا يضع أحد يده على السلع ، وأن تشترى الأشياء المنقذة على البر أو البحر ، ويجب أن تعان (تساعد) ، وأن التجار أصحاب السفن والملاحين يجب أن يتركوا ليرحلوا إلى أى مكان يروق لهم ، ويعودوا إلى بلادهم ، وأن تحمل السلع التى أنقذت من السفينة المحطمة :

لذلك نأمر أن لا يستولى أحد بأى طريقة كانت إلا أن يساعدها ويعينها فى كل الموانى والشواطىء من جبال برقة حتى طرسوس ، وكذلك يجب أن يعاملوا حسب العرف فى رحيلهم ، وحسب ما هو فى العرف والمعاهدات .[٣٨]

فصل : وجرت العادة ، وبالمعاهدات حتى عصر السلاطين السابقين أنه إذا توفى أحد البنادقة ، لا يجرؤ أحد من المسلمين أن يستولى على ممتلكاته ولا على متاجره ، ولكن يجب أن تسلم كل ممتلكاته إلى القنصل ، أو رفقائه التجار ، لأنه يوجد من يريد الاستيلاء على ممتلكات البنادقة المتوفين :

ولهذا السبب نفسه أمرنا أن يمنع أى شخص من الاستيلاء على ميراث أى بندق متوفى (متوفٍ) ، ولكن يجب أن يكون المسئول عن هذه الأشياء (الميراث) قنصل البنادقة ، أو رفاقه حسب مجرى العرف ، وكما هو وارد فى المعاهدات السابقة القديمة .

فصل : وقد ذكرت أن يوجد من يجبر التجار البنادقة عند مجىء (وصول) سفنهم إلى ميناء الاسكندرية أو سوريا ، على عدم الشراء أو البيع إلا بعد فتح طرود (زكايب) التوابل ، ويريد بيع التوابل لهم بالقوة ، ويتبع ذلك خسارة كبيرة ، ومضايقات فى مصالحهم وسفرهم ، ويتبع ذلك انعدام ربحهم :

ولذلك نحن نأمر أن لا يجبروا على فعل أى شىء فيه خسارة فى هذا أو فى غيره

حسب ما هو وارد فى العرف والمعاهدات القديمة .

فصل : ذكرتم أن التجار البنادقة يعقدون بعض العقود والصفقات مع تجار مسلمين ، وفى بعض الأحيان يحدث خلاف ، بينهم ، ويوجد من يشكو إلى الأبواب الشريفة السلطانية ، وعماله ، فيلزموا بالحضور أمامهم ، ويتبع ذلك خسارة ونفقات ، ولا يحضرو غرمائهم أى خصومهم :

ولهذا نأمر أنه إذا رفعت شكوى من أى مسلم ضد أى بندق ، فلا يجبر البندقى أن يمثل أمام القاضى إلا بعد أن يبرهن ويثبت بطريقة شرعية (قانونية) كل ما يدعيه المسلم على البندق .

فصل : ذكرتم أنه توجد بعض سفن للتركمان وغيرهم تقوم بالقرصنة ، وتقطع الطرق ، ويخرجون من الموانى ، ويسرقون البنادقة ، ويقطعون الطريق فى البحر ، ويسرقون سلعهم والبضائع وأشياء أخرى :

ولذلك نأمر أن يمنع فعل هذا ، وألا يضار التجار البنادقة من هؤلاء المذكورين سابقاً . وإذا وجد أحدهم يؤخذ بالقوة ويرسل إلى الأبواب الشريفة السلطانية ، والذى يجب أن يعاقب أمام عظمة السلطان بما تستحقه .

فصل : ذكرتم أنه جرت العادة أن قناصل دمشق لهم تموين أو جامكية (مرتب) من الديوان بنفس القدر الذى يحصل عليه قنصل الاسكندرية وتشهد بذلك تعريفة الديوان ، وفى الوقت الحالى لا تعطى إلى القنصل المذكور الجامكية الخاصة به :

ولذلك نأمركم يا حضرة أمير دمشق أن تأمروا باعطائه جامكيته ، كما اعتاد أن يكون له حسب العرف القديم[٣٩] .

فصل : ذكرتم أنه عندما تصل سلع البنادقة إلى ميناء بيروت فلا يجب أن تجبروا على دفع رسوم دمشق إلا بعد وصول السلع إلى دمشق :

ولهذا نأمركم أن يراعى هذا ، وأن يحصل عليه كما هو وارد آنفا[٤٠] .

فصل : وقد ذكرتم أنه يرد فى بعض بنود المعاهدات مع البنادقة فى عصر السلاطين السابقين ، أن لا يجبر أى تاجر بندق ولا يلزم بشىء بدلاً عن أى تاجر بندق آخر إلا إذا كان هو ضامناً أو ملتزماً ، ولكن يحدث أن يوجد بعضهم الذين يحاولون إلزام التاجر البندق بدلاً من غيره ، وهو ليس ضامناً ولا فاعلاً أصلياً :

ولذلك نأمر ألا يلزم تاجر بدلاً من تاجر آخر ، فى أى شىء ، إلا إذا كان ضامناً ،

أو صاحب الشأن ، وهذا حسب المعاهدات السابقة .

فصل : وقد ذكرتم أن تراجمة القدس الشريف يضايقون الحجاج الذين يأتون إلى الحج للقبر المقدس مع البنادقة ، وهؤلاء الحجاج من الأشراف والأعيان ، والتجار ، والرجال العظام ، ويوجد منهم (التراجمة) من يأخذ منهم ٢٠٠ من الدوكات من الذهب ، وأكثر من ذلك ، ويلحق الضرر بهم ، وأنت تريد إقامة قنصل فى القدس ، رجل شريف وأمين ، من البنادقة ، والذى يتحدث على البنادقة ، وعلى الحجاج الذين يأتون مع السفن والقطائع البندقية :

ولذلك نحن نأمر أن يكون لكم قنصل حسب العرف الخاص بكم ، وأن صاحب الفخامة الدوج ينتخب قنصلاً للقدس ، شريف وأمين (شريفاً وأميناً) ، من يروق له ، الذى يتحدث على (يشرف) البنادقة ، وأولئك الذين يأتون على السفن ، والقطائع البندقية ، دون ابتداع شيء جديد بالنسبة لديوان السلطان ، وأن يكتب خطاب (خطاباً) الآن إلى التراجمة بأنه لا يجب أن يتحدثوا على الترجمة (لا شأن لهم بالترجمة للحجاج) ، وألا يضايقوا الحجاج(٤١) .

فصل : وقد ذكرتم أنه فى مدينة راما (رام الله) يوجد وزان ، احتكر وزن كل السلع ، وأنه لا يدع غيره يقوم بالوزن لأى تاجر بندق ، وأنه يزن السلع أقل مما هى ، وهذا يؤدى إلى مضايقات للتجار بالقوة ، ويتبع هذا ، بوضوح خسارة كبيرة :

ولهذا نأمر أمير دمشق أن يأمر بانتخاب وإقامة وزانين آخرين ، مناسبين وأكفاء وأن يكونوا عادلين وأمناء على سلع المسلمين والبنادقة ، وأن يحرم هذا الوزان من الوزن لأى انسان فى العالم ، وأن يعاقب بما يستحقه .(٤٢)

فصل : وقد ذكرتم أن موظفى راما (رام الله) يقدرون السلع التى تصل بسعر أكثر من السعر الجارى ، ويفرضون ١٦٪ من المكوس ، قبل أن تصل السلع ، وعندما تصل السلع لا يريدون خصم ما سبق أن حصلوا عليه من قبل :

ولذلك نحن نأمر أن تقدر سلع البنادقة حسب سعر البر (الموجود) ، ولا يجب أن يؤخذ مكس أو رسوم إلا ٣٪ ، ولا أكثر من ذلك ، كما هو ثابت بالتعريفة ، ولا يجبر البنادقة على دفع الرسوم إلا بعد أن تصل السلع ، وبعد أن تباع ، وألا يعطى للتراجمة سمسرة إلا ما هو ثابت بالتعريفة والأوامر الشريفة ، أى ¼٪(٤٣) .

فصل : وقد ذكرتم أن فى راما (رام الله) واللد يوجد بعض الأشخاص يضايقون التجار البنادقة ، ويسببون لهم خسائر ، ويفرضون عليهم ضرائب تعسفية ، ويريدون

طردهم خارج بيوتهم ، حيث يسكنون ، بالقوة بدون أى سند قانونى :

ولذلك نأمر أن يمنع ، وأن المذكورين آنفا لا يضايقون بأى طريقة التجار البنادقة ، ولا يجب أن يطردوهم خارج مساكنهم بدون وجه حق شرعى .(٤٤)

فصل : وقد ذكرتم أنه يوجد بعض طوائف الفرنجة يقومون بالقرصنة فى البحر بالسفن ، ويقطعون الطريق فى البحر ، ويأسرون المسلمين ، ويقودونهم إلى شواطىء البحر فى راما وعكا ، وإلى أماكن أخرى ، ويتهيأون لبيعهم ، ولهذا السبب يضايق التجار البنادقة ، ويجبرون على شراء (فداء) هؤلاء الأسرى ، وهؤلاء القراصنة ليسوا من طائفة البنادقة :

ولهذا نأمر بأن يكون معلوماً أن القراصنة ليسوا بنادقة ، وأن البنادقة لا يجب أن يجبروا (على فداء الأسرى) إلا إذا كان القراصنة من البنادقة ، حسب ما هو وارد فى معاهدات العصر السابق .

فصل : وقد ذكرتم أن بعض التجار البنادقة إذا تواجدوا فى عكا من أجل شراء أقطان أخرى ، فإن موظفى عكا يلزمونهم ، ويأخذوا (ويأخذون) منهم (ضرائب حسب الواجب ، ولا يجب أن يأخذوا منهم (شيئا) ، وحتى أنه يوجد شخص يسمى شمس الدين بن المحتسب من عكا ، يأخذ من التجار ضرائب تعسفية ، وأنه يحاول بقدر ما يستطيع أن يعادى ، ويسبب خسارة للتجار ، وذلك أمام الأمراء والمديرين وأنه يسبب لهم أضرار (أضراراً) واضحة ، وهو ليس بأمير أو موظف :

ولهذا نأمر أن موظفينا لا يجب أن يحدثوا أى ضرر أو أى عنف ، وأن لا يأخذوا إلا ما هو واجب وبالعدل ، وإلا يأخذوا الرسوم إلا عند وصول السلع أو البضائع ، وأن يقبض على شمس الدين المذكور ، وأن يعاقب ، وأن يطرد ، وأن لا يحدث بعد ذلك أى أضرار إلى التجار ، وقبل كل هذا ، إذا كان بعض التجار لهم عنده شيء ، يجب أن يرد حسب ما يقضى به العدل والقانون(٤٥) .

فصل : وقد ذكرتم أن التجار البنادقة يسافرون من مكان إلى مكان ، ومن أرض إلى أرض ، ومن مملكة إلى مملكة ، وأنهم يحتاجون إلى تموين من مأكل ومشرب ، ويوجد بعض المسلمين يضايقونهم ، ويأخذون منهم أموال (أموالاً) بدون حق .

وبناء عليه نأمر أن هؤلاء التجار يستطيعون أن يحملوا معهم مأكلهم ومشربهم حسب الكمية الضرورية لهم ، ولا يجب أن يضايقهم أى انسان للسبب المذكور

سابقاً ، وألا يؤخذ (تؤخذ) منهم ضرائب حسب ما جرى به العرف ، وكما هو وارد وموجود فى المعاهدات القديمة من عصر السلاطين السابقين مثل المرحوم الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، وابنه الناصر (محمد) ، والناصر حسن وأخوته ، والأشرف شعبان ، والملك الظاهر برقوق عليهم رحمة الله .

وأن تعامل طائفة البنادقة هذه بكل رعاية وعدل وأن يعمل لهم كل شىء ملائم لهم ، وبالجملة أننا نوصيكم بهم ، وأن يعاملوا فى كل شىء برفق .

وبالجملة يمنع عنهم كل إجبار ، وعنف ، واضرار ، وخسائر ، وأن يكونوا سالمين وآمنين فى كل مملكة السلطان .

وهذه الوثيقة المدونة يجب أن تبقى فى ديوان البندقية إلى الأبد ، وأن يراعى كل ما يوجد فى هذه المعاهدة طالما استمرت الشهور والأيام ، وأن يكون هذا معلناً وواضحاً ، وأن يضعها الله فى حراسة الملائكة ، هبة من الله .

كتب بالقاهرة فى قلعة القاهرة فى اليوم الثانى عشر من شهر رجب (Razebo) فى سنة ٨١٨ .

هذا هو الأمر الشريف ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وجعلنا الله من عباده الصالحين إنه هو الغفور الرحيم .

هامش : وبجانب الشروط المذكورة ، حصلنا على أمر عال ، يوجد به شرطين (شرطان) :

الأول : أن أى بندق يمكن أن يبقى ، وأن يسكن فى أى أرض ، ومكان ، فى مملكة السلطان ، وحسب ما يروق له ، وكل الوقت الذى يريده ، وأن هذا لا يمنع .

الثانى : ألا يجبر أى بندق أن يشترى أى توابل من أى نوع كانت (كان) ضد رغبته . وهذا الأمر سلم إلى السيد قنصل الاسكندرية .

الأخطاء النحوية التى وردت فى متن النصوص المقتطفة وردت هكذا فى النص ، وقد صححناها فى الكلمة التالية لها . فكر

هوامش

---

(١) Iskandar, T.,: Les Relations Commercialls et Politiques de Venise avec L'Egypte, aux XIVe et XVe Siecles, Le Diplome D'Archiviste Paleographe, Ecole Nationale des Chartes, Paris 1953, Ch.I. p. 3, Ch. II. p.1.

(٢) Ibid. Ch. II. p.2.

(٣) أنظر السطر الأخير من الوثيقة موضوع الدراسة .

(٤) **صبح الأعشى** جـ ٨ ص ١٢٣ - ١٢٤ ، وعن دراسة هذه الوثيقة أنظر د . جوزيف نسيم يوسف : علاقات مصر بالمماليك التجارية الإيطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى ، مستخرج من دراسات أثرية وتاريخية رقم ٤ - من مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ، ١٩٧١ ص ٧٥ وما بعدها .

(٥) صبح الأعشى جـ ٨ ص ١٢٣ .

(٦) هو عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدايم التيمى ، القاضى تقى الدين ، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م ، وتوفى بالقاهرة فى سنة ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤ م ، ابن حبيب : **درة الأفلاك** ص ٤٩٩ ، ابن حجر : **إنباء الغمر** جـ ١ ص ٢٩٤ ، ابن العماد : **شذرات الذهب** جـ ٦ ص ٢٩١ .

(٧) هو كتاب « **تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف** » مخطوط بمكتبة كتابخانة أستان قدس (مشهد - إيران) رقم ١٩٣ ، حققها كرسالة لدرجة الماجستير عبد الرحمن أمين صادق - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر ١٩٧٩ .

(٨) تولى المحبى بنفسه كتابة هذه الرسالة ، فقد عمل بديوان الإنشاء نحو ٣٠ عاما ، انتهت سنة ٧٧٨ هـ/ ١٣٧٦ م عندما ولى وظيفة ناظر الجيوش ، وكان يتولى إنشاء الرسائل إلى خانات المغول ، وإنشاء نسخ إيمان يحلف عليها الفرنجة - التثقيف ص ١٢ - ١٣ ، ص ٢٧٤ .

(٩) مرقس كرنارو ، دوج البندقية فى الفترة ١٣٦٥ - ١٣٦٨ م ، شارل ديل : **البندقية جمهورية أرستقراطية** - الترجمة العربية ص ٢٤٣ : ونلاحظ أن اسمه ورد فى صبح الأعشى « موكريادو » جـ ٨ ص ٤٧ .

(١٠) وردت فى صبح الأعشى « المانسية » جـ ٨ ص ٤٧ ، واليابسة هى أرض البندقية ، شارل ديل : مرجع سابق ص ٨٤ .

(١١) لعلها تحريف لإسم مدينة جرادو Grado ، وهى إحدى المدن الهامة بالبندقية - شارل ديل : مرجع سابق ص ٩ وما بعدها .

(١٢) المحبى : مصدر سابق ص ٦٢ ، ونلاحظ أن القلقشندى نقل نفس الصيغة مع اختلاف فى قراءة بعض الكلمات مثل اسم الدوج - **صبح الأعشى** جـ ٨ ص ٤٧ .

(١٣) هو محمد بن عبد القاهر بن أبى بكر النشائى ، أحد كتاب الإنشاء ، بالقاهرة ، توفى سنة ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٨ م - ابن تغرى بردى : **المنهل الصافى** ، ابن حبيب : **درة الأفلاك** ص ٤٥٨ ، ابن حجر : **الدرر الكامنة** جـ ٤ ص ١٤٠ ترجمة ٣٩٢٥ .

(١٤) هو فرانشسك داندلو ، دوج البندقية فى الفترة ١٣٢٩ - ١٣٣٩ م - شارل ديل : مرجع سابق ص ٢٤٣ .

(١٥) المحبى : مصدر سابق ص ٦٩ ، ونلاحظ أن القلقشندى نقل نفس الصيغة مع تغيير فى قراءة بعض الكلمات مثل « معز بابا رومية » بدلا من « ذخر » ، كما أن القلقشندى لم يذكر اسم الدوج - صبح الأعشى جـ ٨ ص ٤٧ .

(١٦) المحبى : مصدر سابق ص ٦٩ ، وقد نقل عنه القلقشندى نفس الصيغة أيضاً جـ ٨ ص ٤٧ - ٤٨ .

(١٧) **صبح الأعشى** جـ ٨ ص ٤٨ .

(١٨) انظر د . جوزيف نسيم : مرجع سابق ، حاشية ٦٧ ص ٧٨ - ٧٩ ، ومن المعروف أن القلقشندى توفى سنة ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م .

(١٩) Heyd, W.: Histoire du Commerc du Levant au Moyen Age, Vol.2 p. 464,466, 472.

(٢٠) الهناب : قدح الشراب ، السلوك جـ ٤ ص ٣٢٥ هامش .

(٢١) انظر ما سبق عن ترجمة كتب دوج البندقية .

(٢٢) **السلوك** ، جـ ٤ ص ٣٢٥ .

(٢٣) بدأ العمل فى عمارة المدرسة المؤيدية ، فى ربيع الأول ٨١٨ هـ/ مايو ١٤١٥ م ابن حجر : **أنباء الغمر** جـ ٣ ص ٥٦ - ٥٧ ، ابن الصيرفى : **نزهة النفوس** جـ ٢ ، ص ٣٤٩ ، العينى : **السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد** ص ٢٧٢ .

(٢٤) ابن حجر : مصدر سابق جـ ٣ ص ٧٥ .

(٢٥) المقريزى : **السلوك** جـ ٤ ص ٣٦٧ .

(٢٦) أحمد دراج : **المماليك والفرنج** ص ٢٣ ، Heyd: Op. Cit., p. 472-473

(٢٧) أنظر نص المعاهدة .

(٢٨) ورد فى بداية النص اللاتينى أن التاريخ هو ١٥ نوفمبر ١٤١٥ م ، ويبدو أن هذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف التقاويم .

(٢٩) Amari, M.,: I Diplomi Arabi del R., Archivio Fiorentino, in Firenze, 1863, p. 185.
ويوجد نص معاهدة قايتباى فى نفس الكتاب .

(٣٠) يود الباحث أن يتقدم بالشكر إلى الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر الذى تفضل بوضع أساس هذه الترجمة العربية ، كما يتقدم بالشكر إلى الدكتور إبراهيم عبد المجيد الذى تفضل بتصوير وثائق المماليك من أرشيف البندقية .

(٣١) هكذا فى النص اللاتينى ، والصحيح المحمودى ، فالسلطان المؤيد شيخ ينسب إلى الخواجا محمود شاه اليزدى الذى جلبه إلى القاهرة فاشتراه الملك الظاهر برقوق ، ولذلك عرف بالمحمودى - ابن تغرى بردى : **المنهل الصافى** ترجمة شيخ بن عبد الله المحمودى الظاهرى .

(٣٢) التاريخ العربى المدون فى نهاية الوثيقة هو ١٢ رجب ١١٨ هـ ، وهو يوافق - طبقاً للتقويم الجريجورى ١٧ سبتمبر ١٤١٥ ، ويبدو أن هذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف التقاويم الأوربية التى كان معمولاً بها فى أوائل القرن ١٥ م ، عن التقويم الجريجورى .

(٣٣) كان نائب الشام فى ذلك الوقت هو الأمير قنباى المحمدى ، ونائب حلب هو الأمير اينال الصصلانى - المقريزى - **السلوك** جـ ٤ ص ٢٩٩ .

(٣٤) تشير الوثيقة إلى الهدايا التى أرسلها دوج البندقية إلى السلطان المؤيد شيخ - انظر تفصيل ذلك فيما سبق ، المقريزى : **السلوك** جـ ٤ ص ٣٢٥ .

(٣٥) المقصود رفع ثمن السلع فى حالة المقايضة .

(٣٦) المقصود أن التاجر المسلم يرغب فى الحصول على الثمن نقداً بالسعر المرتفع الذى اتفق عليه على أساس أن الصفقة بالمقايضة .

(٣٧) لم ترد مثل هذه المشكلة ، أو مثل هذا الفصل فى اتفاق السلطان قايتباى مع الفلورنسيين .

(٣٨) لم ترد مثل هذه المشكلة أو هذا القرار فى معاهدة السلطان قايتباى للفلورنسيين .

(٣٩) لا توجد مثل هذه الشكوى فى اتفاق السلطان قايتباى مع الفلورنسيين .

(٤٠) لا توجد مثل هذه الشكوى فى اتفاق السلطان قايتباى مع الفلورنسيين .

(٤١) لم يرد مثل هذا الطلب فى اتفاق الفلورنسيين مع السلطان قايتباى .

(٤٢) لم ترد مثل هذه المشكلة فى معاهدة السلطان قايتباى مع الفلورنسيين .

(٤٣) لا توجد مثل هذه المشكلة فى اتفاق السلطان قايتباى مع الفلورنسيين .

(٤٤) لا يوجد مثل هذا البند فى معاهدة قايتباى مع الفلورنسيين .

(٤٥) لا توجد مثل هذه المشكلة فى اتفاق السلطان قايتباى مع الفلورنسيين .

فهرست

مصر

وعالم البحر المتوسط

كان للبحر المتوسط دور كبير فى تشكيل تاريخ مصر ، حتى ذهب البعض إلى القول بأن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسط .

ولعل أهم دور لعبه البحر المتوسط فى تاريخ مصر هو دور « قناة الاتصال الحضارى بينها وبين شعوب الحوض الشرقى لهذا البحر . فعن طريق مصر تعرف الجانب الأوربى لهذا البحر على النتاج الحضارى للشرق الأدنى القديم ، فتعلم فنونا وأفكاراً ما كان ليتعلمها لولا ما تميزت به مصر من دور ريادى فى صنع الحضارة . ثم جاء الوقت الذى انتقلت فيه المؤثرات الحضارية عبر البحر المتوسط من أوربا إلى مصر .

هذا الكتاب ، يتقصى عبر مجموعة من البحوث المتخصصة لأساتذة متخصصين هذه العلاقة التاريخية المتفاعلة بين مصر وعالم البحر المتوسط

دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع
القاهرة - باريس
القاهرة ، ش هشام لبيب - رقم ٢٥ / ٤٢
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

الثمن ٥٠٠ قرش